مصـــــــــــــر
والعـــــــــــــرب
واسرائيـــــــــــل
انعكـاسات من العيـــــــــادة النفسيـــة

دكتور/ محمدمحمـد شعـــــــلان

استاذ ورئيس قسم الأمراض النفسية والعصبية

كلية الطـــب ـ جـــامعـة الأزهــــــــر

القاهرة ١٩٨١م

تمهيـــــــــــــد

ان مصر بلد عربى بل هى العمود الفقرى للامة العربية .فهـــى من حيث الحجم تشكل وحدها ما يقرب من ثلث سكان الامة العربيـــة وهى من حيث القدرة الانتاجية والمخزون الحضارى تمثل زاد الامـــة العربيـــة وثروتهــــا.

وهى امة اسلامية كانت على مر العصور بمثابة الحافظة للتراث الاسلامى حيث وجد التربة الخصبة التى ينمو ويزدهو فيها.ومع ذلـــك فاننا نجدها اليوم تدفع دفعا لتبدوكأنها الخارجة عن العروبـــة وعن الاســـــلام .

فالامة العربية والامة الاسلامية معها تتكتل بعيدا عن مصر وكأن مكانها ان تكون تابعا خاضعا لا قائدا متمكنا .

وهو تكتل يحدث بلا وعى ولاتعمدمن جانب الشعوب الشقيقة .اذهـــى تكن لمصر كل حب واحترام، ولكنة نتاج انظمة ولدت ونمت بفضل مـــا منيت به الامة العربية من نعمة الثروة النفطية التى تحمـــــــــل فى طياتها بذور النقمة .فهى نعمة نزلت عليهم ولكن من تحـــــت الارض فى صورة فيضان من النفط الاسود بينما هى تتعطش للماء الابيـض لتروى اراضيها وتغذى ابناءها .

فالنفط، مهما بدا عائده المالى وفيرا، انما يذهـــــب فى النهاية لتسيير عجلة الحياة فى العالم الغربى..والورق النقدى الاخضر الذى يقدمة الغرب لهذه الامة مقابل ذاك النفط انمـــــا يستعاد على هيئة استيراد لمنتجات الغرب التى كثيرا مالا تحتـاج اليها الامة العربية . بل كثيرا ما يعود مباشرة للغرب ليخزن فـى بنوكة حيث يستثمر لصالحة مرة اخرى.

بينما مصر التى تملك القوة البشرية تحرم من ذاك الاستثمار بل – فوق هذا – تحرم من قواها العاملة والعالمة التى تستنزف بالهجرة

الموقتة الى الامة العربية . واذا كانت هذه القوى المهاجرة تعود بجزء من دخلها ومدخراتها على مصر فان هذا الدخل المالى السائل لايخدم الا الميول الاستهلاكية التى طالما حرم منها هؤلاء المهاجرون وذويهم فى مصر . والنتيجة ان القدرة الانتاجية لمصر تنضب وتضعف فى تناسب عكسى مع زيادة احتياجاتها الاستهلاكية . الامر الذى يزيد من احتياجها للامة العربية بشكل اعتمادى . ولو كان العائد النهائى هو تقوية الامة لكان فى ذلك سلوان ، انه مهما كان فان الخسارة لمصر تعوض بالمكسب للامة العربية التى هى جزء منها . ولكن ما تبنية مصر فى هذه الامة غير ذلك : فهو لا يعدو أن يكون فيلا ابيض ، أى بناء فخما ونادرا لايؤدى وظيفة لصاحبة ويعجزعونه فماتبنية مصر هناك حضارة مستوردة ومصطنعة لاتعبر عن حاجة حقيقية لشعوب تلك الامم . علاوة على ذلك فان العامل المصرى الذى يبنى دون أن يشعر بالولاء والانتماء حيث يبنى ، لا يمكن أن يبنى باخلاص كاف . واذا فعل ذلك فترة بدافع من حسه القومى فانه سرعان ما ينزلق الى النمط الاستغلالى ، كما بين المالك والاجير .

فالعامل المصرى فى البلد العربى أجير ولايشعر بالانتماء حيث يعمل وهو غريب رغم عروبتة . وتبدأ حلقة مفرغة من الشك المتبادل والصراع الكامن كما فى العلاقة بين أى مالك ثرى واجير فقير . وتزداد الفجوة بينهما وينبت الصراع .

والفجوة تمتد لتشمل ابناء الوطن الواحد فكل بلد عربى به صاحب العشرات من الملايين الذى يتعالى على آخية الفقير نسبيا الذى لا يملك الا بضعة ملايين ، وهذا بدورة يتعالى على اخية الشديد الفقر الذى لا يملك حتى العشرات ، وفى هذا التنافس قد يتحالف المليونير الفقير مع الفقراء فى بلده ليطيح بزميلة المتعدد الملايين ، ولعل مثل هذا الصراع ، احد العوامل التى كانت وراء حصار الكعبة . وفى مواجهة ذلك فان متعدد الملايين بدورة يحتمى بمثلة الاعلى الغربى حتى يتحول انتمائة تدريجيا الية فهو يدخر اموالة ويستثمرها هناك بل يرسل بأسرتة لتنمو وتتعلم وتعيش فى هذا العالم الغربى الغريب"

ولعل الامة العربية بالفعل بمعارعتها فى تأكيد انتمائها للعالم الغربى الثرى في مقابل العالم الغربى الفقير نسبيا (أى السوفيتى) تركت لمصر التحالف مع الجبهة السوفيتية الفقيرة نسبيا كما حدث فعلا، الا ان مصر ربما بدافع انجازها لعروبتها واسلامها سئمت تحالفها مع الاتحاد السوفيتى وسعت لاحضان اخوانها العرب فى تحالفهم مع الغرب.ولكن الغرب الحليف متحالف مع اسرائيل فى المقام الاول بل يعتبرها امتدادا حيا لوجودة لا يعقل اذن ان تستمر مصر فى نزف طاقتها فى محاربة صديق صديقها الجديد اى اسرائيل صديقة الغرب الذى هو صديق العرب الذين هم اخوان مصر .

لماذا الصراع مادام الكل فى حضن واحد؟ ام هى منافسة الاشقاء على رضا الاباء ؟

وكان امل العرب ان تمر صداقة مصر للغرب من خلالهم فيكونوا فى هذه الحالة اصحاب الفضل والاحق بعمولة الوسيط .وتتحول مصر الى تابع من الدرجة الثالثة : اسرائيل اولا ثم العرب ثم مصر.ولكن ما الذى يجبر مصر مادامت تملك القدرة على التعامل المباشر بلا وساطة مع هذا الغرب . فهى التى تملك امكانية القوة العسكرية التى تستطيع ان تضرب الغرب الممثل فى اسرائيل او تحمى الغرب الممثل فى المصالح النفطية وبالتالى فهى التى تملك الامر بالقتال او بوقفة، وهاهى ذى عرضت الاختيار الأخير ان توقف القتال مع الغرب المجسد فى اسرائيل فى مقابل الا يكون بينها وبين الغرب وسيط حتى لو كان عربيا. وبذلك تأخذ مكانها كممثل وقائد للاشقاء الصغار للامة العربية، تتكلم باسمها وتتبنى قضاياها وترسم طريقها فى مواجهة الكبار .

ومن الطبيعى الا يعجب ذلك العرب فيتكتلوا مستخدمين سلاحهم النفطى للضغط على الغرب ليأيد علاقتة المباشرة معهم وليس مع مصر او من خلال مصر .

ولكن مصر لديها مصادر قواتها هى الاخرى القوة الانتاجية (بما فيها الحضارية) والقوة العسكرية .ولعلها اذا ما استطاعت ان تخفف من

استنزاف قواتها العسكرية مع اسرائيل فسوف تضرب عصفورين بحجر ان توفر طاقتها وان تكسب الغرب حليف اسرائيل وعندئذ تصبح قوة يعمل حسابها اشقاؤها العرب . وتستطيع مصر عندئذ ان تستخدم سلاحها الاخر وهو قوتها الانتاجية . اما مقاتلة مصر لاى من الدول العربية فهو امر مستبعد ولكن القوى الانتاجية تستنزف بواسطة العرب . فالعمالة المصرية تنزح الى الامة العربية لتفقد مصر مدخراتها من القوة الانتاجية علاوة على ذلك فهى لا تعود الا بالمال السائل الذى يقتصر توزيعة على فئة من الشعب المصرى دون غيرة . فيحول الشعب المصرى من اسرة واحدة يرعى فيها شريها فقيرها الى اسرة تشتتها المنافسة والصراع بين فئتيها من الفقراء الذين يزدادون فقرا والا ثرياء الذين يزدادون ثراء .

هكذا نجد التوازى يتم بين استقطاب الدول المالكة وهى دول النفط، والدول العاملة واهمها مصر (الدول العاملة الاخرى لاتملك ان تخرج عن طوع المالك فهى فى وضع اضعف من وضع مصر) وكذلك الملاك الجدد فى مصر من الحائزين على الدخل النفطى وبقية افراد الشعب المنتج الذى لا يتوفر له هذا الدخل . ولاتتردد تلك الدول العربية فى استخدام شعارات الاخوة العربية والاسلامية بل لا تخفى تمويلها لمثل هذه الاتجاهات سواء فى الانشطة المعلنة او المنظمات السرية فتتضمن بذلك ان تستقطب وتطوى المثاليين من الشباب الذين يؤمنون بعروبتهم واسلامهم باخلاص وبدون تعمد او نية معلنة لخدمة المصالح المالية النفطية ، ولكنهم مع ذلك لم يخدمون تلك المصالح بلا وعى .

ان الخلافات بين مصر والامة العربية خلافات لها اسس موضعية وليست مجرد خلافات أمزجة حكام . والخلافات الموضوعية لاتحل بالشعارات العاطفية مهما كان بريقها . والشعب المصرى شعب واقعى قد يفتتن بالشعارات فترة الى ان يكشف أي بادرة تناقض بينها وبين ما يمس مصالحة فيهجرها الشعب المصرى عربى ومسلم وقبطى ايضا . ولكنة فى المقام الاول شعب مصرى يعيش فى وادى نيل يغدق علية المياه والطمى الخصب ويحمى حضارة استمرت على مدى العصور رغم طمع الغزاه فى ابتلاعها .

فاذا آوت مصر يوما اليهودية فانها عند اللحظة الحرجة تؤكد مصريتها قبل يهوديتها وتطرد اليهو د عبر حصنها الصحراوى فى سيناء. واذا كانت مصر يوما قبطية فان قبطيتها كانت تعبيرا عن مصريتها ولم تتحول لحظة لتصير حصان طروادة لغزو الغرب لها .

واذا اعتنقت مصر الاسلام فقد صار الاسلام هو الذى يحفظ فى مصر وينبع منها ولايمثل معبرا لسيطرة اى غاز غريب عليها فارسيا كان أو تركيا . لقد حفظت مصر هويتها عبر العصور ،وتفاعلت مع الحضارات ومزجتها فيها اكثر مما امتزجت مصر فيها .

مصر اليوم عربية اسلامية ،ولكنها صاحبة الكلمة الاولى فى ان تحدد لنفسها معنى العروبة والاسلام وليست تابعا يملى عليه أى ممن تساوره نفسه لان يدعى الخلافة او الامامة خارجها .

وخلافاتها الموضوعية مع الامة العربية لاتعنى ان مصر تنخلع عن عروبتها او اسلامها اكثر مما تعنى ان الآخرين غالبا هم الذين ينحرفون عن تعريف مصر للعروبة والاسلام. الخلافات الموضوعية تحل بان تخرج الى الضوء لابان تخفى. فهى ليست خلافات منبعها ان احدا من الزعماء تشاتم مع آخر او ان هذا تآمر ضد ذلك . ولكنها خلافات موضوعية لها اسس ملموسة وتنعكس على حياة كل فرد من افرادها .

ان هذه الانعكاسات تظهر للطبيب المعالج النفسى فى عيادته لأنه يرى الفرد فى معاناته يعكس معاناة المجتمع الذى يعيش فيه . واذا كان الطب النفسى التقليدى يكتفى بدور تطبيب الفرد بواسطة التأثير على جسده او حتى

على عقله فى عزلة عن الظروف البيئية الاجتماعية التى أدت الى ماهو عليه ،فإن الطبيب النفسى الاجتماعى يفتح عينية ليرى تلك الابعاد الاجتماعية للمشكلة .

ان هذه السلسلة من المقالات تعبير عن رؤية طبيب نفسى وسع دائرة رؤيته لتشمل هذه الابعاد الاجتماعية ،فهى ليست مبينة على دراسات فى علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة ،بل هى مساهمة من موقع المشاهد الذى يتمكن من رؤية انعكاس كل هذه العوامل على نفسية الفرد . وهى لذلك قلما تعتمد على الارقام او البيانات الاقتصادية او التحليلات العلمية السياسية ،ولكنها تعتمد على المشاهدة الاكلينيكية الموسعة التى ترى الانعكاس الملموس لكل هذه الحقائق والارقام والبيانات ـ مشاهدة تتجاوز حوائط العيادة لتجعل من المجتمع الاوسع ميدان التشخيص والعلاج لجوهر المشكلة .

واذا كانت تبدو فى مجملها وكأنها نقد للاوضاع العربية فانما هو نقد منبعه الايمان العميق بوحدة هذه الامة. فالوحدة الحقيقة لاتقوم على اخفاء الحقائق ،والخلافات المصرية العربية ولاتقوم على انفعالات يمكن التغلب عليها بالتصالح او بالتعانق ،ولكن لابد من مواجهتها بكل صراحة وما يصاحب هذه الصراحة من الم حتى نتمكن من التعرف على الاسس الراسخة لاعادة بناء الصرح العربى .

واذا كنا نعرض فى ذات الوقت بعض جوانب الصراع والحوار المصرى الاسرائيلى فليس ذلك الا لانة فى جوهره يرتبط بالعلاقات المصرية العربية مؤثرا فيها ومتاثرا بها .

واذا كنا نرى ان من الآثار التكتيكية لمبادرة السلم المصرية ان المجتمع الاسرائيلى تتفجر صراعاته الداخلية فان النتيجة المشابهة على المستوى العربى ان الصراعات

العربية هى الاخرى تتفجر. ولكننا نستطيع ان نرى فى تفجير هذه الصراعات على الجانبين بوادر حلها. فالصراع الداخلى الاسرائيلى قد يقوى جبهة اليهود الشرقيين الذين قد يساهمون بالتالى فى تحويل اسرائيل من قلعة عسكرية غربية تهدد المنطقة الى دولة يهودية عبرية تنتمى الى المنطقة العربية دون تناقض مع يهوديتها او عبريتها. وعندئذ، فسوف تتقبل وجود الفلسطينين بجوارها كتمثيل ملموس وحى تربطهم بالامة العربية . والتطبيع القائم فعلا بين الفلسطينين داخل اسرائيل والاراضى المحتلة يجعل ذلك ممكنا ، وعندئذ سوف تتحول اسرائيل من شكلها العنصرى والاستيطانى والتوسعى الحالى وتذوب اسوار الجيتو التى تعزلها عما حولها ليندمج ابناؤها مع ابناء المنطقة ، واما الصراع المصرى العربى فاننا نستطيع ان نتصور تطور حله فى اتجاه استعادة مصر لمكانتها القيادية التى تستحقها، واذا كان فقرها النسبى فى موارد الثراء الطبيعى يجعلها تتقهقر لدور الاعتماد على الدول العربية الثرية فان امكانياتها الذاتية وتمسكها باستقلالها هو الذى يضعها فى موقع القوة فى التفاوض مع العرب ليكون مال العرب للعرب لا للغرب بما فيه اسرائيل، فهو يجب ان يوجه الى تدعيم مصر وتقويتها ، لان قوة العرب من قوة مصر . ولا العرب ولا الاسلام بدون مصر يملكان القوة التى تجعلهما يصمدان فى مواجهة الزحف الغربى . ان مصر القوية هى صانعة الحضارة العربية وحاميتها.

مفهوم العوائق النفسية ودور الطب النفسى:

يبدو لاول وهلة ان مفهوم العوائق النفسية فى الصراعات السياسية معناه ان هذه الاخيرة يمكن ارجاعها سببيا

الى صراعات نفسية ذاتية .وهو فهم خاطىء لعلم النفس السياسى ،وذلك الفرع الحديد من العلوم السلوكية الذى يهتم بربط المفاهيم النفسية بالمفاهيم السياسية .فالمقصود ان المنهج وان كان يبدأ بدراسة وحل مشاكل الوعى الانسانى ولكنه يتجه الى مصادر ذلك الوعى في الواقع الموضوعى ،فالوعى الانسانى لايوجد فى فراغ ،والانسان هو انسان فى عالم أى(بالانجليزية) Being-in-The World او(بالالمانية) Dasein وهذا هو منهج التيار الوجودى الانسانى فى علم النفس والطب النفسى . الانسان موجود فى عالم والتغييرات التى تحدث فى ذلك العالم تنعكس انعكاسا مباشرا على الانسان وتظهر له فى وعيه ،وكذلك فى وعيه بما يعيه الآخرين أى كما يعيه المعالج او المحلل النفسى ،فهذا العمل العلاج او التحليل النفسى - هو عمل يدرس وعى الانسان بواسطة وعى انسان آخر بهدف التعرف على الصراعات التى تعوقة عن اداء وظيفته ،ثم يصاحب الدراسة بمحاولة لحل الصراع مستخدما وعيه ايضا فى تأثيره على وعى الآخر .

الا أن الطبيب النفسى الاجتماعى يعلم جيدا ان الوعى ليس مطلق القوة . ولكنه تعبير عن ارادة التفاعل مع العالم المحيط بغية تغييره مع الاخذ فى الاعتبار حدود قدرة الوعى وحده على التغيير . ولذلك فهو يحث الفرد على تغيير وعيه مباشرة ومن خلال تفاعله مع وعيه (اى وعى المعالج) فى ذات الوقت الذى يحثه فيه على تغيير العالم حوله .واذا ماكان مخلصا فى دعوته هذه الاخيرة فهو لايتورع عن ممارسة دور العضو الفعال فى المجتمع .

واذا كان من حق المواطن ان يمارس دوره كعضو فعال فى المجتمع ،فلعله من الاجحاف ان نحجز على حقه

فى جذب تراثه المهنى معه . فالتحول الى عمل التوعيـــــة الاجتماعية وخاصة فى المجال السياسى ليس انتقالا من مهنـة الى مهنة اخرى او من مهنة العلاج النفسى الى مهنة العمل او الاعلامى او السياسى ، ولكنه تعبير عن الجوهر الحقيقــى لكون الانسان مواطنا ومهنى معا ، لا مواطن فى زومان او مكان ثم مهنى فى زمان او مكان آخر ، ان المعالج الذى يهـــــدف بعلاجه ان يحول الانسان المتصارع مع نفسه والمفتت الــى انسان متكامل لابد ان يكون هو كأداة علاجية لانسانـــــا متكاملا يجمع فى شخصه فى آن واحد المواطن والمهنى .

ولذا فان هذا ليس اعتذارا عن إقحام الطب النفســــى فى السياسة ، ولكنه مجرد تفسير لما هو عليه الطب النفســـى فى جوهره . فلكى يعالج الطبيب مستخدما وعيه كــــــأداة اساسية للعلاج فلابد ان يكون وعيه هذا سليما لا مفككـــــا او متصارعا ، ولابد له ان يوفق بين كونه عضوا فعالا فـــــى المجتمع وبين ان يجعل ذلك هدفا للعلاج وهو ان يمكن المريض من ان يتحول هو أيضا الى عضو فعال فى المجتمع وصاحب مهنة او يتكسب منه .

ولعل هذا العمل ـ التوعية بواسطة الكتابة والتعليم ـ هـــو عمل لا يمثل القيمة العليا بالمقياس المادى لما يتطلبه مـــن جهد مقابل ما يعود به من جزاء مادى ، ولكنه مع هـــــذا تذكرة الدخول التى بواسطتها يأخذ مكانه كمواطـــــــن وكعضو ملتزم فى المجتمع .

ومن هنا يمثل قيمة معنوية تعوض الانخفاض المقابل فى القيمة المادية .

وعليه فلابد من اعادة تأكيد ان المقصود بالعوائق النفسية فى الصراعات السياسية ليس بديلا للعمل السياسى المباشر بـل

هو تاكيد له وان كان يكمله بجانب الرؤية الدقيقة التـــــى تتوفر للمعالج النفسى من واقع مايتمكن من مشاهدته من خلال ممارسته المهنية .والصراعات السياسية لن تحل بمجرد الوعـى بها او تغيير الوعى بها ،ولابمجرد التغيير فى الظـــــروف الموضوعية دون مراعاة لانعكاسات تلك التغييرات فى الوعـــى فى مصاحبتها للتغييرات الموضوعية ،وكذلك بحل المشكلة بواسطة احداث التغييرات المطلوبة فى الوعى التى تؤدى الى التغييرات المطلوبة فى الواقع الموضوعى . فالمطروح ليس هو اما السياسة واما العلاج النفسى ،ولكن السياسة والعلاج النفسى معـــا . فالعمل فى النهاية ماهو الا علاج نفسى يهدف الى التأثير على المجتمع بكل فئاته المتصارعة منتهيا بالتأثير على الفرد ،والعلاج النفسى فى النهاية ماهــــو الا عمل سياسى على نطاق ضيق يبدأ بالفرد ثم محيطه الانسانى المباشر فى الاسرة ثم المجتمـــع وكلاهما يستهدف تشخيص وحل الصراعات من نقطتى بداية مختلفتين ولكنهما يلتقيان ويكملان بعضهما.فلا اعتذار عن مساهمة الطب النفسى فى السياسة أو مساهمة السياسة فى الصحة النفسيـــــة للفرد ،ولاعذر لتخلى الطبيب النفسى عن دور المواطنـــــــة او تخلى السياسى عن دور المطبب للنفس المتألمــــــة .

الباب الأول

مصـــــــــرودماة الأســــــــــلام

** يـأيـهـا الـسـائـل عـن ديـنـنــــــــا .
** موقف الطب النفسي من الجماعات الدينية المتطرفـة .
** التـترف والـتـطرف فى الـديـن والـسـيـاســـة .
** الأزهر ودوره فى تصحيح ظاهـرة التطرف الديـنى .
** الصحة والفصم والدين والدولـــة .

يأيها السائل عن ديننا

الوفود تتهافت من الدول الغربية على البلاد الاسلامية . والمنح المتخصصة للدراسات الاسلامية تدعم وتزداد والكتب والنشرات تصدر هنا وهناك .
فاين كان الاسلام قبل ذلك ،وقد اصبح اليوم محل الانظار والاهتمام ؟

واذا اخذنا ببحث تطور الوعى الانسانى عبر نموه النفسى منذ الطفولة ،فسوف نميز ثلاث مراحل :
الاولى تتطابق فيها الاشياء ،كما هوالحال فى الطفل الرضيع فى عامة الاول فى علاقته مع امه ،كلا هما يعتبرالآخر شيئا وليس شخصا . امتدادا وليس كيانا ،جزءا وليس كلا . فلا تمييز بين ذات وموضوع .
والثانية تتعارض فيها الاشياء ،كما هو الحال فى حياة الطفل فى عامية الثانى والثالث . وكأن الطفل فى نموه من مرحلة التطابق والابتلاع المتبادل ،يلزمه ان يمر بهذه المرحلة التى يكتشف فيها وجوده المستقل فى مقابل امه . فكلاهما اصبح يعترف بكيان الآخر . ولكنه مازال يتفاوض حول درجة الاستقلال . فكل منهما كيان مختلف ولكنه يؤكد ارتباطه واستقلاله على السواء فى مواجهة الآخر.
والثالثة تتلاقى فيها الاشياء . كما يحدث للطفل من عامه الثالث حتى السادس . تبدأ فى التعاون والاعتماد المتبادل فكل منهما وقد اكد وجوده المستقل ،اصبح قادرا على التنازل عن ذلك الاستقلال فى سبيل الآخر بالقدر الذى يؤدى ذلك

التنازل الى تنازل يقابله ويحقق له المنفعة بالتالـــــى.
واذا كان من الجائز ان نرى هذا التطور فى الوعى الانســانى يتكرر بصور مختلفة فى جميع مراحل نمو الانســانباعتباره النموذج الاساسى الذى يقوم عليه النمو بعد ذلك . واذاكــان ايضا من الممكن ان نراه فى تطور الجماعات والمجتمعـــــات عبر المكان والزمان ،فهذا لايعنى تصنيف مرحلة او فرد او جماعة بانها تمثل هذه او تلك المرحلة بالتحديد.
ولكن كل مايعننا الامر انه بدراسة التطور ،فســـوف نجد بالمقارنة ان هناك مرحلة تغلب فيها صفات بعينها على غيرها . وانه على اساس ذلك المقياس نستطيع ان نتتبـــع ونتنبأ بالمراحل التالية . واذا ماطبقنا ذلك على علاقة العـالم الغربى بالاسلام فقد نجد التطور التالى :
كان الغرب فى فترة ينظر الى الاسلام بمنظور الشىء او الجـزء فالاسلام فى نظرهم ليس الا ظاهرة ضمن الظواهر التى توجـد فى ذلك العالم الخارجى ،مثلما توجد الاراضى والغابات والمناجم قد يكون كالعقبـة تارة ،وكالظاهرة اللافتة التى تجذب الاهتمام تارة اخرى . ولاضرر من ان يتخصص فيه بعض المستشرقين اوحتى يعتنقـه بعض الافراد هنا وهناك . وبهذه مجرد اطار استثنائية لاتمثـل خطرا على المجتمع الغربى . وكان الغرب فى نظــــر العالم الاسلامى فى المقابـل ايضا شيئا : فهم مجرد قوم غــزاة مغتصبين لايعرفون ربا او حقا .
ثم اتت بعد ذلك مرحلة التعارض ،حيث لم يعد يجدى انيتجاهل كل منهما الآخر .
فهذا يبعث بالارساليات والبعثات التبشيرية املا فى ان يهدى الآخر الى الطريـق الصحيح ،وذاك يقاوم ويؤكد ان طريقه هــو الاصح ،بل يسعى بدوره الى ارسال البعثات المقابلة الــــى الدول المقابلة والمجاورة (الافريقية مثلا) .

واخيرا اتت مرحلة التلاقي والحوار ،حين اعترف كل منهما بوجود الآخر ،واصبح لزامًا عليهما ان يتعايشا ويتفاهما بدلامن الالغاء المتبادل أو التناطح .

ماذا يقول علماء ومفكرو الغرب حينما يحضرون اليوم للتباحث مع اخوانهم المسلمين ؟ وكيف يدور الحوار بين احدهم واحدنا ؟

– لقد مكثنا قرونا نتجاهلكم اوندرسكم عن بعد ،ولكننا اليوم نريد ان نتفاعل معكم تفاعل الند للند ،فان لديكم الكثير مما تقدمونه لنا ونرجو ان يكون لدينا بالتالى مانقدمه لكم .

– وما الذى نبههكم الآن بعد ماكنتم نيامًا لاتدرون، ولاتحلمون بنا ؟

– لقد كان الحلم فى الآونة الاخيرة مزعجا فايقظنا ،فاذا كنا ننزعج من قطع رقبة فتاة من عائلة ملكية اسلامية لمجرد انها احبت ورغبت فى الزواج من عربى من دولة مجاورة ، فانها فى النهاية امور داخلية وليس لنا ان ننشغل بها ،ولكن حينما يصل الامر الى ان يتحرك شعب باكمله بدون سلاح ويقاوم اقوى جيش واقوى جهاز بوليس فى المنطقة ،وضعنا فيهما افضل امكانياتنا ودعمنا ثم يتربع بعد ذلك على منابع البترول ،يمنعها عنا ويمنع ايضا عائدها عنه ،فان القلق ينتابنا . اننا نخشى ان تتوقف سياراتنا فى الطريق ،وتنخفض درجة التدفئة فى منازلنا علاوة على مايتبع ذلك من متاعب مادية عديدة . ويزيد قلقنا ان الذى نواجهه لايخشى توقف سيارة (حيث لايملك منها الكثير اصلا) او تنخفض حرارة منزله (حيث القليل منه مدفأ أصلا)انه لايفقد شيئا ويستعيض عما كنانعده به من

رفاهية ومتعة دنيوية أملاً فى حياة افضل بعد هذه الدنيا يعني على تحمل آلام هذه الدنيا . انها العقيدة التى يدين بها الاسلام. هذا فى الوقت الذى لم يعد لنا فيه عقيدة تعوضنا عن المتع الحسية التى ادمناها وتعلقنا بها.

– ولكنكم تذهبون الى الكنائس وتنشرون الكتب والقصص الدينية فى وسائل الاعلام والترفيه علاوة على مناهج التعليم ؛ فهناك صحوة دينية فى الآونة الاخيرة .

– نعم هناك طقوس آلية نمارسها كأن نذهب الى الكنيسة يوم الاحد كلما نذهب الى العمل يوم الاثنين فى بداية الاسبوع والبار فى نهاية الاسبوع . اما الصحوة الدينية فلعلها من مظاهر رفض الفئات المغبونة لما هو سائد .فالشباب الذى لايشعر بالانتماء لمجتمعه بعد ،والمرأة ايضا التى مهما ادعينا تحررها او الفقراء الذين مهما رفعنا من مستوى معيشتهم ،كل هؤلاء يشعرون بالغبن النسبى ،ويرفضون ماهو قائم بالفعل من قيم ،وقيمنا التى هى اساس مانحن علية من قوة وسيطرة تقوم اصلا على العلم المادى المحسوس ولذلك فهم يبحثون عن قيم ومبادىء بديلة .

– ولكن لماذا تبحثون فى الدين عن قيم وانتم قد اخترعتم ايديولوجيات هزت العالم ابتداءا من ثورتكم من اجل الحرية والعدالة سواء فى انجلترا فى عهد كرومويل او فى فرنسا فى ثورتها التاريخية او فى امريكا فى تحررها من الامبراطورية البريطانية .ثم بعد ذلك اتيتم بالثورة الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى والاشتراكية الوطنية فى المانيا النازية وايطاليا الفاشية .بل فى الصهيونية حين زرعتم كيانا بشريا باكمله مكان كيان آخر .

لقد الهبت كل هذه الايديولوجيات من المشاعر ماكاد يقترب مما ألهبه الانبياء ،وهزت العالم وقلبته رأسا على عقب ،بل كادت تؤدى به الى الدمار.كيف فقدتم الآن حماسكم لهـــــا وايمانكم بها الذى يجعلكم تعودون قرونا الى الوراء تبحثـــون عن حلول لمشاكل اليوم ،بل اكاد اتساءل :

كيف يمكن ان يتم ذلك ؟

هل انتم مستعدون مثلا ان تديروا لنا خدكم الايســـر اذا ماصفعناكم على الايمن ؟

وهل انتم مستعدون لأن تحبوا لنا ماتحبونه لانفسكم؟

ان اخشى ما اخشاه ان يكون اتجاهكم نحوالدين مجرد تسليـــة لوقت الفراغ ،بل الاخطرمن ذلك أن يكـــون مجرد العوبة تحاوروننا بها. فمازال صراعكم الداخلى يستقطب دولا تستطيع ان تدعى التدين مثل دول الغرب الرأسمالى ،وتتهم غيرها بالالحـــاد مثل دول الغرب الاشتراكى.وانكم ترغبون فى استقطابنـــــا لجانبكم فى هذا الصراع ،فتتقولون انه رغم اختلاف الاديـان بيننا فاننا على الاقل نؤ من بنفس الاله فى مواجهة ذلـــك المد الروسى الذى لايؤ من الا بالمادة فقط . ولدينا الدليـــل فى افغانستان ،ناهيك عما يدور خلف الستار فى المناطق المسلمة بالاتحاد السوفيتى .

– نعم انه خطر علينا ولكنه خطر عليكم ايضا ،ومانعرضـــه عليكم هو التقاء المصالح . نريد ان ننهى حالة الصراع بيننـــا بعد ما انهيتـنا قبل ذلك حالة السيطرة المحكمة وننتقـــل الى حالة تلاق وحوار .

ان الروس ليس لديهم الكثير مما يقدمونه لكم بالمقارنـــة بنا . لقد وعدوكم بالعدالة فى ظل الاشتراكية ،ولكنكـــم اكتشفتم انكم توزعون فقركم . وصحيح ان فى هذا التوزيـــع

تخفيفا : يرى فقر غيره يهون عليه فقره .
ولكن العالم مفتوح وبعد قليل لايمكنكم تجاهل ماحولكم في العالم من ثراء ،وتجدون ان لدينا من الثراء فائضا يسمح لنا باثراء غيرنا بدرجة اكبر من الروس . ولذلك فان العدالة وحدها لم تكف لاشباعكم ،واخذتم تبحثون عن الطعام اينما وجد .
على هذا فان بالمقارنة يمكن ان نقول اننا نقدم لكم شروطا افضل . وليكن في الاستغلال اذا اصررتم على هذا المفهوم ،من شروط الروس . نعم اننا نريد ان نستقطبكم ،ونريد ان نفعل ذلك باية وسيلة بما الرجوع الى المصادر المشتركة للقيم .

ولكنكم تتجاهلون بعدا هاما من ابعاد التدين لدينا فاذا كان التدين عندكم دافعه التكفير عما اقترفتموه من ذنوب ، او التعويض عما لم تجدوه من متع حسية ففي الحالتين رفاهية لاتوجد لدينا . فالتدين لدينا يرتبط بدوافع اخرى اكثر الحاحا . فنحن نرى قيمكم المادية تقتحمنا بسرعة لانملك استيعابها ،ونستورد حضارتكم المادية جاهزة في بيئة مازالت تعيش على وسائل تمتد الى عشرات القرون . والنتيجة ان هناك قلة تستمتع بمزايا ذلك التقدم المفاجىء مما يوجد الحسد والطمع والجشع كقيم ،ربما غير معلنة ولكنها معمول بها على اية حال . ويحدث ذلك في مجتمع تعود على مر القرون ان يعيش في نظام مستتب،يطيع صغيره كبيره ويحمى كبيره صغيره ،وهذه المشاعر الحديثة الميلاد الغريبة على المجتمع ،تتولد وتتفاقم وتهدد المجتمع بالصراع العنيف ،ويأخذ الصراع في بادىء الامر صورة الطفرات من الصراخ أو الرفض الهامس ،يقابله التشديد في القبضة والافراط في الكبت ،حتى ينفجر البركان . هذا ماحدث في ايران .وكان الدين عندئذ هو السلاح ذا الحدين

الذى يؤجل الانفجار من جانب بل يدعو ابناء الاسرة الواحدة الى التماسك والتعاون والمحبة والطاعة لاولى الامر، ومن جانب آخر يقوى مطلب المطالبين بالعدالة بتصعيد الصراع . اى ان الدين لدينا قوة سياسية سواء فى جانب المحافظة على الاوضاع كما هى او جانب تغييرها بتفجيرها .

وهذا ماتخشاه فعلا . فالدين الاسلامى بالذات مرتبط فى اذهاننا بالسيف وبالثورة ،فقد كنا فيما مضى ،وفى سعينا لمحاربتكم نصف الاسلام بانه مجرد ثورة اجتماعية سياسية .

وها نحن الآن نعتذر عن هذا الوصف ونسعى الآن لان نعترف بان الاسلام دين سماوى . ولاعلاقة له بالثورة الاجتماعية، اننا نخشى ان تشتعل باسم الاسلام ثورة اجتماعية تطيح بمن يتشبهون بنا وبالتالى تطيح بنا وهذا فى نهاية الامر يهدد بوقف سياراتنا وتبريد بيوتنا .. معذرة لهذه الصراحة ،فلانستطيع ان ننسى ان الذين يجلسون على آبار البترول مسلمون وانهم فى غمرة حماستهم قد يفجرون تلك الآبار عليهم وعلينا وعلى اعدائنا .

نعم لقد اخطأتم فى حق الشعب الايرانى . ولكن للانصاف فانكم تملكون من المرونة مايسمح لكم بالتراجع وتصحيح خطئكم . فقد اظهرتم قدرا لابأس به من الصبر ازاء مشكلة الرهائن .

نعم اننا نريد ان نطمئن الى ان لن يغلب جانب الثورة فى الاسلام جانب المحافظة ،ويقلقنا تاريخ الاسلام بدءا من لحظة الهجرة حينما قرر الرسول الايستسلم لطلب او رجم ،بل يحمل السيف ،فوضع الايقاع لانتشار الاسلام بعد ذلك : ان يستند الحق الى القوة ،وان يكون الكتاب فى يد والسيف فى الاخرى .

افلاتستطيعون أن تجدوا من الآيات مايمنع الثورة ؟

حذار من الوقوع فى الخطأ وانت لتوك معترف به . انت تريد ان تغير الواقع والتاريخ ليلائم احتياجاتك ،فالثورة هى النتيجة الحتمية لتجاهل مطالب المغبونين . وماتطلبه منا هو تزوير الواقع باسم الاسلام . فنرى بركانا يغلى فلا نفعل إلا أن نقول هذا حرام ،أى هذا الانفجار المنتظر، دون ان نشير الى الحرام المقابل الذى يؤدى الى ذلك الغليان إنك تريد منا أن نتحدث باسم جانب واحد من الصراع ونضع الاسلام فى كفة . هذا مافعله الشاه ومايفعله بقية رؤساء القبائل (واسمهم الحديث ملوك ورؤساء جمهوريات) واعوانهم ولم يغير ذلك شيئا . ونحن اكثر تنورا من ذلك . لاتنس ان تراثنا فى العلم لايقل عن تراثنا فى العقائد، وقدرتنا على الفحص العاقل للامور لاتقل عن حماستنا لتغييرها . نعم ان الاسلام ليس مجرد ثورة اجتماعية ولكنه فى المقابل ليس مجرد محافظة على الاوضاع القائمة . الاسلام فيه دنيا وآخرة ويعطى البشر حق التصرف فى امور دنياهم بما قد يخالف ظاهريا رأى نبيهم إذا ما اختلفوا حول مشورة . كما جاء فى حديث شريف فيه اختلف الرأى حول مسألة ما فلما سأل الرسول صحابته عما اذا كان رأيه نابعا منه أو بناء على وحى فأجاب أنه الأول ، فوافقهم على اساس انهم الاعلم بشئون دنياهم ،وعلى هذا الاساس تعالوا نفكر فى امور الدنيا بقوانين الدنيا حتى ولو كان ذلك يعنى ان نستعين بعلمائكم ومفكريكم فى الفروع المختلفة .وخاصة فى العلوم الانسانية ،حتى ولو كان بين العلماء ملحد ، او مشرك او عدو للاسلام . فالمسلمون هم الذين سبقوا الى ترجمة العلوم الغربية من اليونانية الى العربية وتطويعها لصالحهم والمحافظة عليها

لقد ارتبطتم فى ايران بالشاه ،ومع احترامنا لشخصـــــــه وتقديرنا لدوره النبيل ازاء مصر فى ازماتها ،فقد كان بدوره يرتبط بتلك الفئة الاجتماعية التى استوردت حضارتكم دو ن فهم او أصالة . فارتبطت من حيث لاتدرى امام جماهيرهـــــا بالتبذير والاستغلال والانحلال والفساد . ولما زادت الفجـــوة بين الجماهير المغبونة وبين تلك الفئات ، انصبت ثـــــورة الجماهير ضد شخص يجسد كل ذلك وهو الشاه ،مثلما التفـــت حول شخص يمثل النقيض وهو الخومينى . ولما انفجر البركان كان من الطبيعى ان يجرف التيار الشاه وكل من كان وثيـــق الصلة به سواء فى الداخل او فى الخارج ،واذا كانوا يحتفظون بالرهائن بما يكاد يشبه الاعتزاز بهم ،فلعل فى ذلك تعبيـرا عن رغبة فى الابقاء على صلة بكم فى ذات الوقت الـــــذى يحصلون فيه على ثأرهم . وكل ذلك مازال يعكس واقعــــا اليما : إنهم مازالوا فى مرحلة البحث عن كبش فداء يلقـــون عليه تبعة معاناتهم . وهنا عليكم ان تعاونوهم فى البحث عن الحلول الواقعية لمشاكلهم . فلم يكف تخويفهـــــم بالشيوعية اوتهديدهم بالصهيونية ،ولكن لابد من التعامـــل مع الواقع الملموس . ان التخويف بالعفاريت والغيلان قد يصلـح مع الطفل فترة مثلما قد يفلح معه الاغراء بالجوائز ،ولكـن حوار الراشد يتطلب قدرا من المجابهة للواقع الملموس .

وفى مجال الوقاية -وهو افضل وايسر من العلاج وان كــــان يتطلب قدرا من النضج وبعد النظر- عليكم ان ترتبطوا بهـــذا المنهج فى مجابهة الواقع لا الغيلان والشياطين . ولا الوعـــد بجوائز وجنات فتسخروا علمكم لاعانتنا . وليس لمجرد الابقاء على ضعفنا واعتمادنا عليكم .

– الآن استطيع ان اجد مكانا نلتقى فيه ،بل ربما يكـــون

مكانكم هذا افضل الاماكن .. بل ان يتحول ذلك الرمز الذى تنوون اقامته فى جبل موسى ببناء مكان عبادة يلتصق فيه الجامع بالكنيسة بالمعبد ،الى حقيقة ،بل يداعبنى حلم بان تنتفى الحوائط التى تفصل اماكن العبادة الثلاثة ويلتقى الناس جميعا امام رب واحد وفعل خير واحد ،ويدعون الخلافات النظرية او يحولونها الى مادة للاثراء المتبادل.لقد نادى الكثير بذلك الحلم ولم يتحق،ولكن ذلك لايمنع الحلم من أن يعود . ولعل ممن اتذكرهم الاديب الفيلسوف الدوس هكسلى فى دعوته الى الفلسفة المستديمة .The perennial philosophy فقد راى ان هناك حاجة ملحة الى ان تلتقى الانسانية حول قيم مشتركة .. ولكن المشكلة ان القيم الروحية مرتبطة بأديان منفصلة ظاهريا وان كانت تلتقى فى الجوهر وان اعتزاز كل مجموعة بتراثها الدينى يقف حائلا امام احتمال ان يترك احد دينه لينضم لدين آخر.ولذلك اقترح ان يبحث علماء الدين عن الحد الادنى الذى يجمع كل الاديان عبر كل الازمان ،ليكون ذلك الاساس الذى يلتقى حوله الجميع ويصبح فلسفة مستديمة تصلح لكل زمان ومكان .

ـ ولكن هذا هو الاسلام الذى هو الدين عند الله وهو الذى يصلح لكل زمان ومكان .

ـ آسف مع احترامى لدينكم . ولكنكم تصرون على بعض التفاصيل التى لا استطيع ان اقبلها. وانتم تتقاتلون فيما بينكم ويكفر بعضكم بعضا حول اختلافات على مثل هذه التفاصيل

ـ تذكر انك فى حوار مع مجتمع متحضر ومتنور نسبيا ،ولاتحكم عليه بما يحدث فى غيره .

هل وجدت عندنا شيعة وسنة يتصارعان مثلا؟ اووجدت الاثنين معا ؟ بل هل وجدت عندنا مسلما ومسيحيا. وعما قريب يهوديا ايضا ؟

او وجدت المواطن الصالح ؟ اننا حينما نقول ان الدين عند الله الاسلام . نعنى بان آدم ونوحا وابراهيم وكل من تلاهم من انبياء مسلمون .
فنحن لانكفر غيرنا وربما تجدنا متفقين حول ذلك الحد الادنى الذى طلبته ،وتعتبر كل انسان يعرف ربه ويعبده باخلاص ويعمل الخير مسلما ،دون ان نبحث فى بيانات بطاقته الشخصية . هل تستطيعون تقبلنا مثلما نتقبلكم فى طريق النضج بالتلاقى لاالتطابق ولاالتعارض ؟
وهكذا اتسم الحوار بسمة جديدة تميزه عما قبله فبعدان كان الالغاء المتبادل بالتجاهل او السيطرة او الاعتمادية ثم التعارض المتبادل للعراك من اجل الاستقلال،والتقى النقيضان فى حوار ثرى .

موقف الطب النفسي من الجماعات الدينية المتطرفة

لايوجد موقف موحد يمكن وصفه بموقف الطب النفسى ، فالطب النفسى كانعكاس لعصره - يحوى اتجاهات عديدة تتصف هى ايضا بالاعتدال والتطرف . ولذا فلابد من تعريف الموقف الطبى النفسى الذى يشكل المنطلق الذى منه سنتناول ظاهرة التطرف الدينى ..

لقد اقترب الطب النفسى الى أن يكون علما بحتا بالقدر الذى يسعى به الى موقف التجاوز ، حيث يستطيع ان يرى المتناقضات متجانسة . وجود الشئ لاينفى ضده . الا ان الطب النفسى ممارسة . بل انه علم ينقل وينتشر ويؤثر على الواقع الذى لامفر منه له من موقف . فالفكرة او الكلمة بالنسبة للعالم او المثقف هى فعله الذى يمارس به وجوده فى المجتمع .

ومن هنا فان الطب النفسى لابد ان يعبر عن موقف . ولعلنا نستطيع ان نصنف المواقف من الواقع على متصل فنضع فى أحد أطرافه النزعة المحافظة التى تهدف الى ابقاء الامور على ماهى عليه ، وفى الطرف الآخر النزعة التحررية التى تهدف الى تغيير الامور . والطب النفسى هو الاخر يستطيع ان يساهم فى تغييرها ، واذا كان التطرف على هذا المتصل سوف يجلب نفى الطرف الآخر له ، بمعنى ان الافراط فى المحافظة سوف يؤدى الى تأكيد الرغبة فى التحرر ، والعكس .. فهناك ميل مطرد للسعى الى الوصول الى نقطة الاعتدال بين النقيضين . ويمكن ان نصف الجمع على انه يعبر عن قدر من المحافظة على الامور كما هى ، ويسمح بالتعبير عن النزعة الى تغييرها ، فاذا كانت هناك حاجة الى تغيير الواقع فلابد ان يكون هناك - مبدئيا -

واقع يقاوم ذلك التغيير .

ولتكن هذه النظرة المعتدلة هي المنطلق الذى نسعى من خلالـة الى ان نتفهم ظاهرة التطرف الدينى ،ولعلها النظرة التي تحمينا من الانزلاق فى تطرف مضاد . والتطرف هنا قد يكون مضادا لأى من الاتجاهين :ضد التطرف الدينى أو ضد من يحكم على الظاهرة بالتطرف اصلا.

والطبيب النفسى يجد نفسه هنا فى موقع الحكم بين خصمين متناقضين احدهما يمثل المجتمع الذى يعتبر نفسه محك الاعتدال والآخر تمثله الجماعات الدينية التى ترفض ذلك المجتمع .

وبما ان السائد هو المجتمع ،فمن البديهى ان يدمغ المجتمع تلك الجماعات بالتطرف ،ومن الطبيعى ان تلك الجماعات ترفض هذا التصنيف ،بل ترى فى نفسها الموقف السوى المعتدل،بينما المجتمع هو الذى ضل الطريق وتطرف . وهى تواسى نفسها بأن من يقول الحق دائما يبدأ مرفوضا ،ولكنه يفرض نفسه باصرار وينتصر فى النهاية ،بينما القوة التى يمتلكها المجتمع والتى تعطيه امكانية ادعاء الحق .. هى مؤقتة وزائلة ا ن لم يكن فى الدنيا فعلى أسوأ الفروض فى الآخرة .

والطبيب النفسى كعضو فى المجتمع لابد ان يكون له موقف ازاء هذا التناقض .. انه مطالب بأن يكون حكما محايدا بقدر وظيفته كعالم ،ولكنه كمواطن لامفر له من ان يكون له موقف حتى لو كان هذا الموقف فكرة او كلمة يعبر عنها أو بها فاذا اتخذ موقف المجتمع بشكل قاطع فانه يضع نفسه فى دائرة تغلق على نفسها التفاعل مع النقيض المتطرف وبالتالى فهى قد تحرم نفسها من احتمالات التجديد والانفتاح التى قد تأتى من التفاعل مع الاتجاهات المختلفة والمخالفة ،والتى قد يكون احدها تعبيرا حقيقيا عن اتجاه التطور والمستقبل.

وفى المقابل اذا اتخذ موقف النقيض المتطرف فانه يضع نفسه فى دائرة مغلقة تحرم نفسها من فرصة التفاعل مع المجتمع ،وبالتالى امكانية تغييره .فالموقف المتطرف هذا يفترض ان المجتمع أصم ،ولاجدوى من الحوار معه ،انه يكفر المجتمع ويهجره بغية بناء مجتمع جديد وبديل يحل محله تماما .

اذن فهناك حوار أصم بين المجتمع ومن يدمغه المجتمع بالتطرف . كلاهما ينفى الآخر ويرفضه . ولكن النقيضين يجتمعان فى مكان وزمان واحد،وبالتالى فان ذلك النفى العقلى يتنافى مع الواقع الذى يفرض على النقيضين حوارا . ولكن بما ان الحوار باللفظ وبالفكر معدوم بين الطرفين، فانه تبقى المنافذ غير اللفظية للحوار.. قد تبدأ بالصمت . ولكن الصمت حين يطول يكدس وراءه الرغبة المكبوتة فى الفعل والتفاعل فى حوار .. فتظهر وسائل اخرى للحوار بلا فكر او لفظ ،ولأن كل طرف يستهين بالآخر ويتجاهله فان هذه العزلة النفسية تشكل مجالا تنمو فيه المعتقدات المنفسخة عن الواقع . وقد يصل الاعتقاد فى صواب الذات عند كل طرف الى الحد الذى يجعله يعتقد انه على حق مطلق وان القوة معه،وانه يستطيع ان يدافع عن ذاته ازاء احتمال هجوم الآخر عليه. هنا يبدأ العدوان المتبادل .. الجماعات الدينية تستخدم مافى جعبتها من اسلحة الهجوم بالقلب فى شكل الصبر ،ثم باللسان فى شكل الدعوة والانتشار واكتساب التأييد الشعبى ، ثم باليد فى شكل اعمال العنف المختلفة .

والمجتمع بدوره يمارس هجومه بالقلب فى شكل ازدرائه وتجاهله لهذه الجماعات،وباللسان من خلال الاجهزة الاعلامية بل الاجهزة الدينية الشرعية مثل الازهر والوعاظ الرسميين

وباليد من خلال اجهزة الامن بالتعاون مع القانون وخلفهما التشريع والدولة برمتها .

حتى الآن فانه فيما يبدو ولا توجد مشكلة او مرض ولاداعي لاستدعاء الطبيب النفسي ،فهناك طرفان كل منهما يعتقد انه على صواب وان الاخر على باطل . وكل يعيش في عالمه منعزلا عن الآخر . وهنا ،يمكن استدعاء الطبيب، والطبيب هنا ليس خريج الطب المتخصص الذى يعالج التناقضات بين اعضاء الجسد وبعضها او بينها وبين ماعداها من البيئة او المجتمع ،ولاهو حتى خريج الطب النفسى الذى يعالج التناقضات بين جوانب من وعى الفرد بعضها مع بعض او بينها وبين وماعداها من افراد آخرين او المجتمع ،ولكنه طبيب بمعنى أنه يشخص داء المجتمع فى حالة تناقضه مع نفسه ،ويسعى الى ايجاد علاج للتخفيف من حدة وآثار ذلك التناقض ،والمعروف ان المحو التام للتناقض مستحيل ..اذ انه يساوى الموت .

وهذا الطبيب هو فى النهاية ممارس السياسة .. الا ان الحكام حتى الان لم يصبحوا فلاسفة ،ولاالفلاسفة حكاما – على حد تعبير افلاطون .

والبديل هنا هو الفريق الذى يعاون ممارس السياسة ،ويتكون من مجموعة من العلماء الذين درسوا او مارسوا ظاهرة التناقضات النفسية والاجتماعية والاقتصادية وكيفية حلها بالحد من شدتها .

فاذا اخذنا جانب المجتمع فسوف نجد ان معاناته تأتى من انه يكتشف ان ظاهرة التطرف التى كان ينفيها ويعتقد انها ليست الا انحرافا محدودا من قبل بعض الافراد المرضى او الجماعات المتطرفة ،لم تنته بالقضاء على هؤلاء الافراد سواء بالاعدام او السجن او التهديد بهما. كما أنه يكتشف انه بادانته للظاهرة ،يتمادى بالادانة

والنفى لدرجة اصبحت تهدد بانه يصبح هو ذاته متطرفا.

فالنظم السياسية الفاشية كلها كانت تبدأ بالهجوم على عدو داخلى ثم عدو خارجى ،وفى كل مرة يتم القضاء فيها على عدو .. يتم البحث عن عدو آخر حتى ينتهى الأمر بأن يدمر النظام نفسه. ومن هنا أمتلك المجتمع ذات القدر من البصيرة الذى جعله يبحث عن امكانية التعرف على الداء الحقيقى بما يسمح بعلاجه ،فالمجتمع اذن حينما يستدعى الطبيب يتوقع منه ان يشير الى الداء ويوصى بالعلاج ،حتى لو كان فى ذلك ايلام له .

اما الجانب الآخر فانه ايضا اخذ يكتشف ان احلامه باعادة ميلاد المجتمع المثالى ،لايمكن ان تحقق مادام هو يتجاهل الواقع. فالحلم لايتحقق بمجرد الرغبة فى الغاء الواقع وتأكيد الحلم او بالاصرار عليه ..والحلم كالجنة ،لابد ان نخرج منها لنحيا حياتنا الدنيا فنعمل كأننا نعيش ابدا دون استعجال للعودة الى الجنة الى ان يأتى الموعد المحدد لها.

والطفل فى البداية يصر على الجنة. ولكنه مع النضج يتعلم كيف يعيش فى الدنيا ويؤجل رغبته الفورية .. وهكذا الجماعات الدينية تسعى الى اصلاح الارض لتقربها من الجنة ، ولكنها بتفاعلها مع الواقع اخذت تنضج وتعلم انه لايوجد طريق مختصر للجنة ،ولابد من العمل من خلال الواقع .

كننا ايضا يمكن ان نقول ان الجماعات الدينية تملك من البصيرة مايجعلها تستدعى الطبيب حتى يساهم فى تخفيف حدة الصراع بينها وبين المجتمع .

فوظيفة الطبيب فى هذه الحالة هى فتح باب الحوار بين النقيضين ،وكذلك بينها وبين الواقع الذى هو المحك النهائى لنجاحهما فى تأكيد الذات لكل منهما ،فهناك متطلبات فى الواقع يمكن ان يتفق عليها النقيضان مهما اشتد اختلافهما

ولعل اول مطلب هو قبول حق الاختلاف ،دون ان يلغى اى طرف الطرف الآخر .

ومن هذا الاختلاف ينتهى الخلاف الحاد الذى يؤدى الـــــى التصادم العنيف ،ونبدأالحوار حول عمل مشترك عند نقطـة التقـاء .

والاختلاف فى الفكر والعقيدة يمكن ان يستمر فى صـــورة الجدل ،كما يمكن ان يستمر بلا نهاية ،ولكن نقطة الفعــل تتطلب حصيلة لقاء بين قوى خارج دائرة الاختلاف .

ومن هنا فان العلاج هو ايجاد تلك النقاط من الالتقـــاء والتقاطع بين النقيضين ،فى صورة افعال تشترك فيهـــا الاطراف المتناقضة ،بالاضافة الى ذلك يستمر الحوار اللفظى والفكرى فى قنواته الشرعية بدلا من لزوم الصمت الـــذى يضاعف الكبت الذى يتلوه العنف والانفجـــار .

هذه حكايتى يادكتور
معاناتى اننى فقدت الايمان بكل شئ .. اصبحت اعيش بـــلا هدف ولامعنى ،حتى المتع الحسية التى كانت تكفى لتنسينـــى آلامى لم يعد لها طعم ،كذلك العقاقير - سواء تلك الـــتى وصفها لى الاطباء ،واتجار المخدرات المسموح بها اوالممنوعة من مهدئات ومنبهات ومسكرات لم تعد تكفى لتغيير وعـــى بالواقع المؤلم ،اوباحسيسى بالالم . ولم اعد مقتنعاً اننـــى مصاب بمرض نفسى . اسمه " اكتئاب " اوما شئت . اننـــى ابحث عمن اتحدث معه ليفهمنى ،ويساعدنى على فهم مايحـــدث بغية ان استعيد الرؤية ،واجد للحياة معنى وهدفـــا .

وتبدأ القصة بنشأتى الدينية ،حين ترسخ فى ذهنى الصـــغير ان هناك خيـــراً وشـــراً .. وخالقا يحاسبنا على اختيارنـــا. كان ابى رجل اعمال ناجح ولكن العمل انهكه ،وقرر ان يحيـــا فى ترف . كان يحسن الى الفقراء ،ويتبرع لبناء المساجـــد ويؤدى مظاهر العبادة بدقة وانتظام .. من صلاة وصوم وزكـــاة وحج لبيت الله الحرام . كان يحثنا ،رغم ترفه ،على التقشـــف، فقد كان عصاميا وبدأحياته فقيرا وكان يحثنا على العمـــل ويحرمنا من الاستمتاع الذى كان ينعم به .

وبرزت صفة الاستمتاع عند المقارنة مع حياة الآخرين الذيـــن كانوا يعيشون حولنا ،سواء كانوا موظفين صغارا اوكبـــارا

او عمالا وفلاحين ،ناهيك عن المعدمين الذين لايجدون مصدرا للرزق . وازدادت المقارنة حدة ،حينما شاهدت الخدم الذين يقيمون معنا فى نفس المنزل ،ولكنهم لاياكلون مما ناكل ولاينامون على ماننام ،ولايلبسون ما نلبس ،بل لاملكية لهم على اجسادهم ذاتها ،مثل الجوارى ،بل هم اسوأ حالا فالجارية على الاقل كان يعترف بشرعية امومتها لمن تنجبه ومالكها مسئول عنها الى النهاية ،فلايرمى بها الى الخارج بعد الاستغناء عنها .

ثم اكتشفت ان ابى الوقور ، واصدقاءه يحتسون المنكر ويسهرون بين حين وآخر للمزيد من الاستمتاع . وكان اصدقاؤه بالطبع اثرياء مثله مترفين ،ولم اجرؤ على مناقشته ،ولكنى علمت انهم يجدون المبررات تلو المبررات حتى اذا ما افلسوا قالوا : ان الله غفور رحيم . كيف يكون استغفارهم نابعا من القلب ان لم تكن هناك ذنوب يرتكبونها فعلا ؟ ثم بدات اتساءل عن مصادر الثراء ،وكيف يعقل ان يعمل بعض الناس ولايكسبون بينما يستمتع بعض الناس بثمار كبيرة لعمل قليل او بلا عمل. وزادت تساؤلاتى فى ضوء اننى كنت مولعا بعملى بالاستذكار ومحروما من الاستمتاع . فى ذات الوقت ، الذى اشاهد مظاهر المتعة حولى . كما كنت ارى المحرومين مثلى حولى ،بل يعيشون معى فى نفس المنزل كخدم ،فى حال اسوأ من حال العبيد .

ومع نمو جسدي وعقلى بما يجعلنى اناقش ولو مع زملائى او اساتذتى ،بدأت رفض قيم اسرتى . ولكنى مع ذلك لم ارفض القيم برمتها . فلم يكن فى استطاعتى ان استغنى عن القيم . فرفضت دين الترف الذى كان يحياه ابى ،ومع رفضى له وجدت نفسى فى طرف آخر للدين ؛ يدعو للعدالة الاجتماعية ،وللحرية وللكفاح ضد الظلم . فقد تعلمت من تاريخ الاسلام فى فجره ومن خلفائه الراشدين ثم من شهدائه ،ومنهم الحسين بن على ثم

من الصحوات المتفرقة التى بزغت بعد ذلك .. تعلمت ان هناك وجها آخر للدين غير الترف .. وتطرفت وزاد من تطرفى اننى وجدت ان ذلك يربطنى بالآخرين ،بالاسرة الكبيرة بالغالبية من المواطنين من فقراء مظلومين،ليس فى مصر وحدة ، بل فى العالم العربى والاسلامى .. بل بعالم الفقراء باسره . ووجدت غيرى من الشباب المثالى يحلمون بعالم افضل ،فتآخينافى اسرة عوضتنى عما فقدته من انتماء لاسرتى التى ثرت عليها وتطرفت عنها . ووأسانى انني كنت انظر الى المستقبل . فاذا كان النصر العاجل لاسرة الترف اليوم ،فالنصرالآجل لاسرة التطرف فى الغد . فالزمن معنا لاننا شباب ،والسنوات امامنا طويلة ،ولاننا مظلومون والمظلوم دائم اليقظة بفعل المه ،ودائم البحث عن العدالة .

وكان من مزايا تطرفى ان اجد نفسى فى معركة ادافع فيها عن وجودى فى مواجهة اصحاب الترف ،وكاننى كنت احلم بالاستشهاد ،او اتمنى العقاب . فلا اخفى عليك اننى كنت اشعر بالذنب فى رفضى لابى ،ومعارضتى له . فقد كان كثيرا مايستسلم امامى ،ويكرر تاكيده ان ثروته هى اصلا من أجلى وفى النهاية آيلة لى .

وكنت ابحث عن معركة . فالمعارك تقوى السواعد وتغذى روح النضال من اجل الرسالة التى كنت اعتقد اننى من حملتها والمعركة تساعدنى على ان اؤكد استقلالى عن ابى . كان لابد من أن أجد عداءآخر غير أبى ،وبما ان هويتى دينية فقد توجهت بالعداء نحو الاديان الاخرى . اتصارع معها . وكان، من حظى أن اديان الاقليات تتشكل عصبيتها حول عنصرية يسهل كشف عزلتها عن غالبية جمهور الفقراء والمظلومين.فاليهود حينما يتطرفون مثلى ، انما يجدون انفسهم مدافعين عن كونهم

بأن ابرز ولاءهم لدولة معادية ،تعمل بالتنسيق مع الدول الاجنبية المعادية ،التى كنت فى صراع معها سواء كانت غربية سوفيتية او غربية اطلنطية . والتطرف عند الاقباط كذلك مكننى من ان اعزلهم ،بان ذات الولاء للعنصر وليس للجمهور الغفير من غالبية الفقراء ،فالتطرف هنا يعبر عن الشعور بالظلم ،كعنصر اقلية وسط اغلبية ،ويسعى للانصاف للعنصر المظلوم وليس بين الفقراء والمظلومين من جانب والاغنياء من جانب آخر ،لم يكونوا ثائرين مثلى على أبائهم ،بل على العكس ،كان ولاءهم للاب وللبابا يسبق يهودا مظلومين كعنصر ،وليسوا كفقراء فى مواجهة اثرياء كان من السهل ان اؤكد عزلتهم عن الجماهير التى تساندنى ولاءهم لفئتى .. فئة الشباب الثائر على ظلم الاباء ،والفقراء الثائرين على الاثرياء .. وكنت اؤكد لنفسى ذلك ،برفضى لجميع الآباء ،بمن فيهم مثيل البابا عندى . فان كنت قد تألمت لمقتل الشيخ الذهبى فهو ألم الشعور بالذنب ،لأن الجريمة التى كنت اتمناها تحققت ،لقد كنت اتمنى ،ولو بشكل خفى ان اتخلص من"بابا" أى من اى " أب " .. وهكذا وجدت فى رفضى لاخوانى الاقباط واليهود ،بديلا لرفضى لابى الذى كنت اشعر بالذنب تجاهه . فقد كان بالنسبة لى مثل الازهر والوعاظ الرسميين، وباليد من خلال اجهزة الامن بالتعاون مع القانون وخلفهما التشريع والدولة مظهرا لامتداد ،وتجسيدا لصورة ال " بابا" الشرير ،ممايخفف من حدة هجومى على أبى .

وكان ممايساعدنى على ذلك انهم رغم ،اوبسبب كونهم اقلية يمتازون علميا وماليا بالنسبة لعددهم ،وبالتالى يمثلون قوة تخيف الاغلبية الفقيرة ،وماكان عدلا بالنسبة لهم كان

فى نظر الاغلبية توزيع امتياز يفوق التمثيل العددى . وبما انه كثيرا ماتغلب الكثرة الشجاعة ،فقد كان من الطبيعـــى ان يكون رد فعل الاغلبية فى سعيها للتوازن ، او مخـــاوف الاغلبية من سيطرتهم ،يبدو كأنه اضطهاد لهم ،وهكـــذا تيسر لاثريائهم وأبنائهم ان يكسبوا ولاء فقرائهم اوشبابهم فلايثوروا عليهم كما فعلت أنا مع أبى . لقد كنت أواســى نفسى اننى مع الطرف الآخر المظلوم المطالب بالعدالة ،وان العدالة لامحالـة سوف تنتصر .

ومع ذلك فقد كان هناك ما يؤرقنى فقد كان لى اصدقاء اعتز بهم من شباب يهودى وقبطى ،ومن الشباب الملحد ايضا ،والــذى اكتشف بعضه لنفسه تطرفا آخر فى ذلك الاتجاه ،نعـم كا ن متطرفا فى الحاده ،كأنه عقيدة دينية – إلهها المادة وجنتهـا عالم المنتظر الذى بلاطبقــات ،وجحيمها عالم اليوم ،ورسلــها ماركس وانجلز ولينيــن وغيرهم ،ووجدت قاسما مشتركا بيننـا جميعنـا ،هو اننا كلنا ثائرون على ماورثناه من آبائنــا وحالمون بعالم افضل ،ولكنهم كانوا ايضا متطرفين فــى دينهم "الجديد" وكانوا طرفا جديدا وجدت نفسى فى تناطــح معه .

.هكذا وجدت نفسى على طرف قاعدة مثلث على قمته تــترف وفى مواجهتى تطرف آخر ،حتى تكون له الغلبة واستمر الصــراع ومحاولات الاستقطاب . فكل طرف يرغب فى استمالة طرف آخـــر حتى تكون له الغلبة ،ويتربع على القمة . اصحاب التـــرف القابعون اصلا يضربون طرفا آخر ،وكلما قوى طرف ينحـــازون للطرف المضاد ،حتى يحفظوا التوازن : تارة يستميلون المتطرفين الملحدين تحت شعار بناء الدولة الاشتراكية العلمية الصناعيـة الحديثة ،وتارة يستميلون المسلمين تحت شعار بناء الدولــة

الاسلامية ،واستعادة امجاد الماضى ،وتارة يستميلون الاقباط تحت شعار الديمقراطية والوحدة الوطنية ،وانفتح مجال لاستمالة اليهود تحت شعار السلام العالمى .

لقد ايقنت اننى كالعسكرى فى قطع الشطرنج ،يواسينى اننى لست وحدى الدمية التى يلعب بها ،ولكن يؤلمنى اننى اول من يضحى به فى كل حركة وقررت ساعتها ان اضع يدى فى يد العساكر ،وان استمع اليهم ،وكنت عندئذ قد سئمت الكبت والحرمان . وكان الايحاء اللالفظى الذى كان ابى يوحى لى به من خلال سلوكه ،يجد صدى فى نفسى،ويلح على وكانت رغبات جسدى تلح على ،ووجدت ماكنت ابحث عنه فى التقائى باصدقائى فى ارضية واحدة ،والتقينا حول الحد الادنى الذى يجمعنا ،وهو رفضنا للماضى ،وحلمنا بمستقبل افضل . ووجدت انه عند هذه النقطة لافرق بين مسلم وقبطى ويهودى وملحد ،سعينا للترف الذى كان يوحى به الآباء . وتذوقنا منه العينات فى صور المتعة المختلفة واغترفنا من فضلات الترف الذى كان ينعم به الآباء. ولكننا لم نشبع ،وطلبنا المزيد . وتعلمنا اختصار الطريق واجدنا قواعد اللعبة ،واكتشفنا طبيعة الاعمال التى تحقق لنا الربح السريع . وفعلا صرنا من اصحاب الترف .. ذات الترف الذى ثرنا عليه .

وهنا ارتبكت واهتزت قيمى ،واصبحت لااعلم ما اريد. فقوجدت نفسى اعجز من ان اكرر ماكان يفعله ابى ،اعيش فى ترفى وفى ذات الوقت ادافع لفظيا فقط عمن هم فى الاطراف،فالنتيجة اننى فقدت الطرف وعاديت الترف . ووجدت نفسى عدوا للجميع ولنفسى ،ومنعزلا واتصارع فى داخلى . وعندئذ حضرت اليك لانى لم اعد اجد معنى ولاننى فقدت الهدف والطريق .. فقدت

الدافع والحيوية .. اصبح كل شيء بلاطعم ،لقد حاولت ان اعود للممارسة المظهرية للدين ولكن حتى هذه الممارسة كانت حركات بلامعنى " .

صديقى .. انك انسان تبحث عن ارتباط مع جميع اخوتك في الانسانية ،دون تمييز لعنصر او لفئة ،وتحيا معهم آلامهم وآمالهم . وتضع يدك فى يدهم ،ثم وجدت نفسك بعد ان خضت معركة الحياة مدافعا عن وجودك الذاتى فى عزلة عنهم لقد انشغلت ببناء ذاتك - اسرتك وماتحتاج اليه من فائض من العائد المادى لعملك ،يوفر لهم رفاهية التعلم وحد ادنى من الطمأنينة على مستقبلهم ،عن ارتباطك القديم بزملائك الذين انشغلوا هم ايضا بذواتهم ،وانشغلت عن انتمائك للأسرة الكبيرة بمن فيها من فقراء ومظلومين وفى ذات الوقت لم تستكمل انتمائك لطرف الآباء المترفين لقد صرت أنت وزملائك فى موقع الابوة والمسئولية عن مصير الاسرة ،ولم يعد ينفع ان تمارسوا دور الابن بالرفض المطلق بلا عمل ولابالرفض المستكمل باغتراف فضلات الترف ولا بالرفض الحالم . انك ترفض " الترف" ولكنك ايضا ترفض"الطرف" ، وبين ان تتحمل مسئوليتك القيادية كأب لحفظ كيان الاسرة ومايترتب على ذلك من التربع على القمة بما فيها من متاعب وبين ان تعود لموقع الابناء ،وهو مستحيل ،لانك تتعاطف بنفس القدر مع كل طرف ،فأنت ضائع ،والصراع الذى عشته خارجك فى صورة الانتماءات الاجتماعية اصبح صراعا بداخلك الآن . والشكل الذى يترتب على ذلك الصراع يمنعك من الرؤية السليمة ،والتفرغ لخارجك . لقد حققت مابوسعك ان تحققه من نجاح، لم يعد هذا التحدى يحفزك الى العمل . واصبحت الآن تواجه سؤالا عن حقيقة دورك فى الحياة والمجتمع .

انك تبحث مرة اخرى عن الانتماء والتآخى مع الآخرين ومرضك النفسى ماهو الاهذه العزلة التى تحياها ،وهى بمثابة الوقفة التى تقفها مع نفسك لتعيدحساباتك،وتعيد تشكيل دورك فى الحياة وتعيد البحث عن طريق جديد ،عن دين ولكنه هذه المرة ليس دين ترف ولادين طرف فى مواجهة طرف آخر ، انك تبحث عن دين يجمعك مع سائر أخوتك فى الانسانية ،دين ينبع من داخلك ،لايفرض عليك من الخارج ،ويقربك من ربك من خلال قربك لجميع خلقه بدلا من ان يقربك من فئة ضد فئة ويبعث فى نفسك الطمأنينة والمحبة بدلا من الخوف والكراهية .

" هل لك ان ترشد لمثل هذا الدين ؟"

– لست بكاهن ولاحامل رسالة ولكنى طبيب . وولاشى الاول هو لك كمريض يعانى ويتألم ،ويبحث عن تخفيف لمعاناته وعلى آية حال .. اخبرنى عن مشاعرك فى هذه اللحظة ؟

" اننى اشعر بدرجة من الراحة ان تمكنت من بلورة مشكلتى واضعا قدمى على بداية الطريق واننى وجدت من يستمع الى ويشاركنى فى الامى ،ويشير الى مصادرها "

– آلام العزلة تخففها ال مشاركة . وعلى كل فان مشكلتك ليست خاصة بك ولكنها تعكس مشاكل المجتمع ،بل الانسانية وسوف اقترح عليك كخطوة اولى ان تلتقى بآخرين يعانون مثلك من العزلة لتشتركوا فى طرح المشكلة والبحث معا عن العلاج فى شكل جماعى .

ولكن هذا لن ينهى عزلتى تماما لأنه سيحولها من عزلة اعانى منها وحدى الى عزلة اشترك فيها مع مجموعة مثلى ،لقد قضيت الساعات مع الزملاء نشكو ظلم الواقع ،وآلامه حول الـ[illegible]اق الـكاف[illegible] كئوس الفودكا ،وبعد ان تتكون المجموعة فهناك خطورة ان تنغلق على نفسها وتتطرف هى الاخرى ،كذلك

تصبح بمثابة الفرد الواحد:كل اعضائها نمط متكرر من الآخر،
وهنا لابد من دم جديد ـ قد يكون مهديا منتظرا او انفتاحا
على مجموعة اخرى تتفاعل معها وتشربها،وربما تتحداها
وتتعارك معها . وبعدذلك تتسع حدود المجموعة وتعود الكرة
حينما تنغلق مرة إخرى ،وتتحول الى نمط متكرر لفردواحد
وتحتاج مرة اخرى الى تغيير وتفاعل مع الخارج " .
" معنى ذلك ان المى لن ينتهى تماما ،ولكن فقط سوف
تتسع الدائرة التى يتخفف فيها بالمشاركة والتفاعل ".
الصحة النفسية لاتساوى انعدام الالم الذى هو الوجه
الآخر لانعدام اللذة ،وكلاهمامظهر للتبلد فى الاحساس الذى
هو الموت بعينه . ولكنه الصحة ان نحيا ونموت،وتفرح وتحزن
تتلذذ وتتالم ،تنفتح وتنغلق ،تنعزل وتلتقى ،انت تتالم
الآن وتنعزل وتفقد الاحساس .. وهذا حقك وهو جزء من الدورة
الطبيعية ،فلا تقاوم بل اترك نفسك تمر بالدائرة ،ولكن خذ
معك الرؤية ان هناك مرحلة قادمة تتلوها
فلتعد لها ،ولتبدأ خطوة على طريقها. واعتبر ان ذلك
هوالدواء المر الذى عليك ان تاخذه لتشفى .انى ارى الآن
"الدوائر المتزايدة الاتساع ،والتى كنت انتمى اليها
وكيف كان احساسى بها ان هذا نهاية المرارة وان ما
وصلت اليه هو الحق ،وماحققته هو الخلود . وعند كل ازمة
اكتشف اتساعا جديدا للدائرة السابقة ،كانها الموت الذى كنت
اخشاه . والآن استطيع ان اتقبل انتمائى لدائرة محدودة
فى ذات الوقت الذى كنت اخشاه .والآن استطيع فى ذات الوقت
أن ارى نهايتها وضرورة الانتقال الى الدوائر الاوسع . من
حقى ان انتمى الى الترف او الطرف الاخر ،ولكن من المحتمل
ان اتجاوز الاطراف ،وأوسع دائرة انتمائى ،لكى ابقى حيا

آنمو واتطـــــــــــــور.

اذا كنت مسلما اتميز عن باقى المسلمين فهذا حقى فــى مرحلة على ولكن على ان اعيد انتمائى للمسلمين جميعـــا والا انعزلت ،وان كنتمواطنامصريا فهذا حقى ايضا ولكـــن على ان اتذكر ايضا انتمائى العربى والافريقى والآسيــوى وان كنت ضمن اقلية متميزة فعلى ان اتذكر كذلك انتمائى للاغلبية ولاانعزل عنها ،انى اكاد اخاف على اسرائيـــل بعد ان كنت اخاف منها.

فبينما مصر تشرى نفسهابفتح ابوابهالجميع اطرافهـــا تصـــر اسرائيل على ان تميز بين حق ابنائها اليهود فــى فى وطن قومى ، بينما تنكر نفس الحق للفلسطينيين .

" هل انت مستعد للتفاعل مع مجموعة تشمل اسرائيليـــن وتواجههم بذلك ؟ "

" انك تختبر امكانيتى على الخروج من عزلتى ولكنى مستـعد للتفاعل مع الشيطان وان اذهب للجحيم ذاته للقائه ،مستعــــد ان اسمع اننى ايضا عنصرى وفاشستى ومتعصب دينيا ومنكـــر لحق الاطراف الاخرى فيما أنعم به . فستعد ان اواجه بكـــل عيوبى . فعلى اسوأالفروض هى معركة ألفاظ بدلامن معركـــة رصاص ودماء وعلى أحسن الفروض سوف اسعى لاصلاح العيوب واكتشف المزيد منها افتح النوافذوالابواب لم يعد لدى شيء اخفيـــه كفانى شكوى وألـــم وأخرجنى من العيادة ومن المرض ودعـــنى أنطلـــــق وانفعل ،واصرخ وابكى واضحك هنـا و هناك مــع الناس جميعــا " .

اتمنى لك التوفيق لانك لو نجحت فسوف تتيح لى ولغيـــرى دوائر اخرى تخرجنا من عزلتنا.

ملحوظة : خذ اتعابك . فقد دفعها المجتمع علاوة على انـــه من الان سوف يتولى العلاج اوربما يتلقاه منك وفى المقابـــل

سوف اقبل منك سجائر نسيتها هنا فيما يبدو لك ، كأنك أخترت استغناءك عن ايذاء نفسك .. لعل صندوق القمامة أحق بها من أى انسان .

الازهر ودوره فى تصحيح ظاهـــرة
التطـــرف الدينـــــــى

الجماعات الدينية الخارجة على الاجماع ظاهرة تعم العصر ولاتخص مصر وحدها . وهى ظاهرة طبيعية اذا مافهمنـــــا اسبابها . ولكن الظاهرة قد تزداد او تنجرف هنـــا او هناك بحيث تلفت الانظار وتستوجب التقويم . والتقويـم يتطلب الفهم .

ومن المعتاد ان تلتفت الانظار عند حدوث الازمات والاحداث مـــن مقتل شخصية بارزة الى شغب او اقتتال فى الزحام . مثـــل ذلك مثل الطبيب الذى ينتظر المرض حتى يستفحل وتبـــرز اعراضه فيسعى الى علاجها . وفى اغلب هذه الحالات يكـــون قد فات الآوان ولذلك فلابد من نهج افضل يلائم عصرنـــا السريع التغيير ،ويتيسر فى ظل التقدم العلمى سواء فـــى المجالات المادية او الانسانية . وهو ان نتمكن من تشخيـص المشكلة فى بدايتها بلوالتعرف على الاسباب التى تساهـــم فى ايجادها بغية منعها قبل حدوثها .وهو نهج الوقايـــة قبل العلاج .

فالعلاج هو مهمة الافراد او المؤسسات المحدودة كما فـــى حالة الاطباء والمستشفيات . وهو غالبا افيد لجيوبهم اكثـر منه للجمهور . اما الوقاية فهى مهمة المجتمع ومؤسساتـــه العامة ويهدف الى خدمة الجمهور عامة لا قلة من المرضى او من يعالجونهـــم .

وكذلك فى المشاكل الاجتماعية مثل مشاكل تطرف او انحـــراف بعض الجماعات . علاجها على عاتق الشرطة والمحاكم . ولكـــن الوقاية منها لهى عمل سياسى فى المقام الاول . وهنا يلـــزم لرجال السياسة ان يتعرفوا على الاسباب المختلفة التـــى

تساهم فى ايجاد الظاهرة . والاهم من ذلك ان يتعرفوا على الاهمية النسبية لكل سبب ،والاولوية فى تناول عامل دون آخرلتغييره . ولنستعرض بعض هذه الاسباب .

اولا- اسباب متعلقة بالشباب :

الشباب مرحلة يسعى فيها الانسان الى تكوين هوية مستقلة . واحدى خطوات الاستقلال هى رفض ما هو قائم ،بل هدمه احيانا بغية بناء الجديد . انه يرفض الاسرة وسلطة الاب ،ويرفض بالتوازى المجتمع وسلطة الدولة . واذا كان يستطيع ان يفعل الاولى منفردا ،فأنه فى الثانية يحتاج الى تدعيم من زملاء له ينضم اليهم كعضو فى جماعة . الشباب مستهلك للمادة . والمادة من انتاج الآباء . ولكى يحقق الشباب تعادلا يزيل عنه ذلك الشعور بالعجز المادى فإنه يمارس انتاجيته بشكل آخر . انه ينتج المثل العليا والقيم والعلم . الشباب بعامة مثالى ويطلب العلم ولايبخل بعرق او دم فى سبيل مايقدم . والجماعات الدينية توفر له المناخ الذى من خلاله يستطيع ان يمارس قيمه ومثله العليا. فالمجتمع العام براجماتى . قد يقدم الولاء اللفظى والظاهرى للقيم والمثل العليا.ولكنه بصفته يعتمد على قوة المادة فهو فى حقيقة الامر يسير بقوانينها .

والمثل العليا والقيم والمبادىء التى ينتجها الشباب لابد لها من مستهلك . ولعل افضل مستهلك من لاتتوفر له قنوات الاستهلاك المادى : المواطن الفقير . الجماعات الدينية تخاطب الفقراء وتتكون منهم . واذا انضم اليها متيسر فلعل ذلك تكفير ،عما يشعر به من امتياز لايستحقه او تجنبا لغضب الفقراء منه (اللى ماتقدرش عليه انضم اليه) او حتى استغلالا للموجة راكبا اياها بغية تحقيق مطمح سياسى .

ثانيا- اسباب متعلقة بالمجتمع :

يتضح مما سبق صعوبة فصل العوامل النفسية فى الشباب عن العوامل الاجتماعية فالمجتمع ككل ايضا به هذه التناقضات الموجودة فى الاسرة : المحرومون من القيمة والمتخمون بها، والقيمة قد تكون مالا او سلطة او احتراما، المحرومون يحلمون بما يحرمون منه والمتخمون يستمسكون بما يحوزون خاشيين فقدانه ويسمح التغير الاجتماعى البطىء بدرجة من السيولة تنقل بعض الافراد من حالة الحرمان الى التخمة والعكس . أما الثورات فإنها تحقق ذلك التغيير بسرعة .

ولكن السرعة مقلقة ومقلقلة وكثيرا ما تفقد الثورات السيطرة على شهوتها للتدمير بدرجة انها تتحول على ذاتها مدمرة اياها بعد ان تفرغ من تدمير ما كانت تثور عليه .

ولذا فإن الثورات تبحث بعد فترة من الفوضى عن الاستقرار والثبات . فتبدأ البحث عن القيم الثابتة والقديمة والتى يتمسك بها الناس عبر القرون . ولعل الدين هو اضمن منبع لتلك القيم . فالقيم الدينية راسخة ومغروسة فى النفوس وتملك قوة اقوى من القانون وابقى .

والثورات التى خيبت الآمال كثيرة . بل كل الثورات مخيبة للآمال بشكل ما ، لانها تبدأ بآمال كبار سرعان ما يتضح عجزها عن تحقيقها . علاوة على أنها لا يمكن أن تحقق آمال كل الناس

. فقد ثار مجتمعنا على الاستعمار والاقطاع والصهيونية . وحقق قدرا لا بأس به من الانتصارات . ولكنها ليست اطلاقا الانتصارات التى تشبع الاحلام . فللاستعمار ابواب اخرى يدخل منها والاقطاع يلبس ثيابا جديدة والصهيونية مازالت متمسكة باحلامها فى التوسع او على اسوأ الفروض فى السيطرة او التسلل . وهناك خيبة امل لاشك فيها ، ظهرت بوضوح بعد ١٩٦٧، فقد انهارت الاحلام والآمال ، وكان لابد من البحث عن قيم تعيد التماسك

الاجتماعى والاستقرار . وتمنع المزيد من الثورة اوالفوضى او الانهيار . تلك هى القيم الدينية .

ثالثاً- على المستوى العالمى :

العلم المادى هو الذى سيطر على الحضارة الغربية بشقيها الراسمالى والاشتراكى . ولم تكن المسيحية او اليهودية او الماركسية فى الغرب غطاءات ايديولوجية تخفى وراءها اهدافاً مادية . وهى اهداف تتلخص فى السيطرة المادية على مصادر الثروة .فأمريكا تريد السيطرة على جنوب شرق آسيا والشرق الاوسط وافريقيا (بواسطة اسرائيل)، والاتحاد السوفييتى يريد ان يمنع هذه السيطرة ليستحلها لنفسه بينما تأمل الصين فى منع كل من السيطرة والمنع السوفييتى لها . ولكن فى النهاية كلها سيطرة فى سيطرة حتى لوسميت تحريرا فى البداية . الا ان السعى وراء المادة والسيطرة عليها لم ينتج عنها الجنة المنشودة، بل ان المعاناة كانت على اشدها حيث بلغ الثراء اقصاه فى الولايات المتحدة واخذت شكل معاناة الروح . انها معاناة خيبة الامل فى القيم المادية وفقدان الاحساس بالهدف والمعنى . وتأتى هنا القيمة الدينية - مرة أخرى - كمحرك . فبواسطتها يمكن تحقيق قدر من الاستقرار . ويبقى المسيطر مسيطرا والثرى ثريا ويكف المحروم عن المطالبة بنصيبه ويواسى نفسه بأنه سوف يعوض فى الجنة . والجميع يسعدون : الحائز على القيمة لاستقرار حيازته ،والمحروم منها لرضائه بقيم مؤجلة .

المد الدينى سلاح ذو حدين :

الا ان المسألة معقدة . فالمد الدينى يمكن ان يكون ثورة على القيم المادية السائدة . ولكنه قد يكون ايضا مجرد وسيلة لتجميدها . وفى بعض الاحوال قد يجمع اسوأما فى الاثنين كأن يكون ثورة على المادة دون ان

يكون ثورة من اجل الروح (ولعل ايران مثل على ذلك) او ثورة شكلية على المادة مع عبادتها فعليا (كما فى الدول النفطمالية) علاوة على امكانية كونه مجرد محاولة لتجميد الاوضاع (كما فى غيرها) .

ولكن المد الدينى حقيقة لابد من التعامل معها . والمسألة هى كيفية توجيه هذا المد فى الاتجاه الصالح والحد من مظاهر التطرف والتعصب والانحراف فيه .

فالناس فى حاجة الى قيم راسخة وعريقة، و المجتمع لايملك ان يقف مكتوف الايادى بل لابد له من ان يوفر ويدعم المؤسسات التى تلبى تلك الحاجة عند الناس .

الازهر والمؤسسات الدينية الاخرى :

وهناك مؤسسات تلقائية مثل الجماعات الدينية المختلفة . والمجتمع يسمح بها طالما هى لاتخرج عن النظام العام . وهناك مؤسسات منظمة لها صبغة شبه سياسية ومستقلة مثل جماعة الاخوان المسلمين . وهناك مؤسسات رسمية مثل الازهر . واذا كان المد يظهر فى المجال الاول اساسا اى فى الجماعات التلقائية فلعل فى ذلك تعبيرا عن كون المؤسسات الرسمية وشبه الرسمية لاتفى بحاجة الجماهير لرؤية بديله عما هو متاح . والتنافس بين الاتجاهات الثلاث واضح بل عنيف احيانا كما يشهد على ذلك حادث اختطاف ومقتل الشيخ الذهبى من قبل جماعة التكفير والهجرة . فالجماعات الدينية تنظر للمؤسسات الرسمية على انها مجرد تابع للدولة ولاتقدم رؤية مستقلة وقادرة على تحريك الجماهير بل هى على العكس تجمد حركتها . بينما قد ترى فى الجماعات شبه الرسمية مهادنة اكثر من اللازم . ولذلك فانه فى كلتا الحالتين ينتج تأثير مبلبل على الجماهير يعوقهم عن الاخذ بالرؤية البديلة التى تقدمها الجماعات الدينية . ومن هنا تعتبر هذه الجماعات ان الضرر الاكبر على حركتها يأتى

من الجماعات الرسمية وشبه الرسمية اكثر مما يأتى من المجتمع الممثل فى الدولة .

ومع ذلك فلابد من مواجهة حقيقة ان المؤسسات الرسمية او الازهر بالتحديد مازال هو الذى يملك الزمام فيما يتعلق بالقدرة على توجيه وتشكيل الاتجاهات الدينية لدى الغالبية العظمى من الناس وبالاضافة الى ذلك فهو الاقدر على فتح قنوات الاتصال مع الدولة ومع المؤسسات المختلفة للمجتمع ومهما كانت العيوب الناتجة عن آثار الشيخوخة التى انتابت الازهر ،وكذلك آثار الثورة الاجتماعية ضده ضمن الثورة ضد كل قديم والتى صاحبت ثورة ٢٣يوليو، فما زال الازهر يملك من الامكانيات النابعة من تراثه وتاريخه وتنظيمه ما لاتملكه أية جهة اخرى . فهو الذى يستطيع ان يمد يده للمؤسسات الدينية غير الرسمية - رغم المنافسة والاحتدام - ويفتح معها قنوات للحوار بما يمهد لاستكماله مع مؤسسات المجتمع المختلفة والدولة .

لقد استطاع الأزهر بفضل الثورة عليه التى صاحبت ثورة ١٩٥٢ ان يضيف الى دراساته الطب والهندسة والعلوم الاجتماعية وغيرها . الا ان الاضافة مازالت حتى الآن عملية ترقيعية وليست دمجا او توليفا حقيقيا . فالكليات الجديدة ملحقة بالازهر ومتمتعة بدرجة من الاستقلال فى اطار محدود وهو اطار علومها . ولكن هناك اطارا آخر وهو مجال العلوم الدينية ليس للكليات الجديدة حكم عليه . وهو يقوم بمثابة حق الفيتو المفروض على تلك الكليات والذى يعرقل حركتها .

اذا اضفنا الى ذلك ان العمادة فى تلك الكليات مازالت تحت السيطرة الكاملة لادارة جامعة الازهر (وهو مايخالف قانون الجامعات الاخرى ويخالف مبدأ الشورى فى الاسلام) ولاوزن لاساتذة تلك الكليات فى اختيار عميدهم ،فأن استقلالية تلك الكليات تتمادى فى التناقض. ويفقد العمداء انتماءهم

للاساتذة ،مما يفقد الاساتذة انتماءهم لطلابهم ،مما يساهم في زيادة الفجوة بين الاطراف .

والحوار لايكتمل الا بين كيانين مستقلين وعلى اساس من الندية . ولذلك فالحوار بين الكليات الجديدة والازهر القديم محدود . وبالتالى الحوار بين العلم والايمان ،وبين الاجتهاد والسلفية ،وبين الاسلام كدين دنيا وآخره والاسلام على هيئة كهنوت مناقض لجوهره ،وبين الشباب والكبار وبين الجماعات الاسلامية والازهر .

ولا اعتذار عن طرح ماقد تبدو انها قضية داخلية خاصة بالازهر . ذلك ان القضية ليست الا انعكاسا لحوار حقيقي يسعى الى الظهور والنمو. وتجاهله هو من اهم الاسباب التي تدفع الجماعات المتطرفة والهامشية الى اساليب العنف . فالانسان الذى لايجد من يسمعه معذور حينما يصرخ او ينفجر او يثور. والعلاج الطبى التقليدى هو فى تهدئة ثورته بل كبتها . بينما العلاج الطبى الوقائى هو فى السعى الى معرفة الاسباب وعلاجها وكلاهما يتيسر بفتح قنوات الحوار. فاذا كانت اجهزة الامن نفسها قد بلغ بها التفتح وسعة الافق ان تدرك ذلك ،رغم أن المنتظر منها هو القمع والكبت والاعتقال ،فلا أقل من ان يفتح الاعلام والمثقفون عقولهم وكلماتهم لمثل هذا الحوار على امل ان يعاونوا رجال السياسة فى وضع الحلول الجذرية المبنية على فهم اسباب الظواهر ،لامجرد طمس الاعراض .

لابد ،أن يتطور الأزهر وبصفته مؤسسة رسمية، فلابد للدولة من ان تتحمل مسئولية معاونته على التطور. كما لابد للجمهور - بمافيه جمهور شباب الجماعات الاسلامية - من ان يتقدم ايضا للحوار معه ويساهم فى تطويره . والخيار هو بين ان يطور الازهر نفسه بارادته وبين ان يتجاهل الحاح التاريخ فيستيقظ فجاة ليجد التطوير مفروضا عليه . فيشكو من يشكو ان هناك من تعمد ضرب الازهر ،وتلقى المسئولية على افراد

او جماعات لاذنب لهم الا انهم عبروا عن حاجة تاريخيـــــة وحاولوا فرضها حينما لم يبادر اصحاب الشأن باللحاق بركـــب التاريـــــخ ٠

الصحة والفصم والدين والدولة

الصحة أن يكون المرء صحيحا متكاملا متناسقا لامنفصما . فيها الانسجام والسلام وانعدام الصراع . انها الجنة بعينها . ولكن الجنة لاتوجد على الارض وان كان الحلم بها موجود ، قد يختفي حينا ولكنه دائما يعود. ولذلك لامفر ، طالما نحن موجودين فى هذه الدنيا من درجة ما من الفصم الذى يجعلنا فى حالة صراع بين الجزئيات التى تبحث عن فصم الكل .

الأمثل ألا يكون هناك فصم بين الأجزاء بين الدين والدولة . ولكن الامثل : مثل الجنة ، هو مانحلم به ونتمناه . وماهو موجود هو ذلك الفصم . هناك دين وهناك دولة . وجد ذلك منذ بدء التاريخ . شئون الدنيا التى تهم المجتمع أصبحت تحت رعاية الدولة التى تمثل الوظيفة السياسية للمجتمع وهى وظيفة توزيع علاقات السلطة بين الناس : من الذى يتحكم فى من ولماذا ؟ وشئون الدنيا بطبيعتها هى شئون الأمور العاجلة والملموسة فى دائرة الزمان والمكان المرئى لأغلب الناس .

الا أن هناك نخبة من الناس ، ممن وصفوا بالصلاح والنبوة ، استطاعوا أن يتجاوزوا أمور الدنيا العاجلة . وأمتلكوا الرؤية التى تجعلهم يعملون من أجل الأمور الآجلة ، أن يعملوا للآخرة ويسترشدوا بهدى مبادئها . وكان من الطبيعى أن ينشأ التناقض بين أصحاب الرؤية الآجلة وأصحاب الرؤية العاجلة ، أو بين أهل الدين وأهل الدولة . وكان من الطبيعى أيضا أن ينجذب الى أهل الدين من أهل الدنيا من كان لهم النصيب الاضعف فى القيمة والتى تحصل الدولة على النصيب الاكبر منها . أى المحرومين من السلطة السياسية فى مقابل الحاصلين عليها ، أو الجمهور فى مقابل الصفوة . فيجد أهل الدين أنفسهم بعد قليل وقد تحالفوا مع فريق من الدنيا ضد فريق ، أو مع الجمهور ضد الصفوة .

ولأن الدين يرتبط بالآجل ويؤجل العاجل فهو الأقدر على بعث روح الصبر فى المعركة الطويلة بين الجمهور والصفوة . وفى المعارك الطويلة كثيرا ماينتصر الأضعف لأنه الأكثر صبرا . ومن هنا أرتبط الدين دوما بآلام الضعفاء والفقراء . وانتصر أيضا لهم وبهم .

الا أن النصر يجعل من المغلوب غالب جديد . ويجعل من صفوة من الجمهور الثائر صفوة جديدة تتسلط على بقية الجمهور . وتتحول الثورة الى سلطة جديدة . ولكنها هذه المرة تؤ من نفسها بأن تنتحل لنفسها ذلك السلاح الأيديولوجي الذى كان دوما يشهر ضدها وهو الدين .

لقد حسمت المعارك بين الدين والدولة بأن اخذت الدولة الدين ضمن مؤسساتها . وأصبحت بواسطته تحد من امكانية الجمهور أن يثور عليها بواسطة الدين . بل أصبحت تستخدم الدين لتأكيد سلطانها ولاسكات كل صوت يتحداها . ومن هنا عم الاعتقاد لدى بعض مفكرى الثورات الحديثة بأن الدين أفيون الشعوب .

ومع انهيار الاصنام البديلة التى أقامتها الدول كبديل حديث للدين من أيديولوجيات قائمة على العلوم الحديثة مثل الاشتراكية العلمية أو الديمقراطية أو القومية ثم انهيار ماتلاها من ثورات شبابية خضراء وحمراء على السواء فى نهاية الستينات ،عاد الفراغ . والفراغ يدعو الى مايملاه . فعاد اليه ماكان لتوه بصدد الرفض عاد الفكر الدينى مرة أخرى وعم العالم باطرافه .

الا أن ماهو عام لايخلو من التخصيص . والمد الدينى فى الولايات المتحدة أو اسرائيل غيره فى دول العالم الثالث . فالأولى صاحبة أمتياز وتسعى للحفاظ على التملك وتقاوم التغيير ، بينما الأخيرة محرومة ومظلومة وتسعى الى زيادة نصيبها فى الثروة العالمية من خلال العدالة وغيرها من القيم الأنسانية . أى أن الدين فى العالم الثالث على الأرجح له وظيفة انسانية تقدمية بينما فى الغرب يقوم بدور محافظ وربما غير انسانى .

فاذا حدث فى العالم الثالث أن تفتت الجماهير حول القيم الدينية فوجدت نفسها فى تناقض مع الدولة فلابد لنا هنا من التمييز بين حدى السلاح : هل أن هذا التحالف انعكاس للتناقض الطبيعى بين الصفوة والجمهور والذى لم يجد القنوات الشرعية المعلنة التى ينفذ من خلالها ؟ أم هل هو مجرد ستار لأختيار القوة الخارجية المناهضة

للعالم الثالث والتي تسعى دوما الى اضعافه دون قتله ؟ أو بعبارة أخرى هل هذا المد الديني تعبير عن مصلحة جماهيرية ام هل هو استغلال للمعاناة الجماهيرية الطبيعية من قبل قوى خارجية ؟ هل هو تعبير طبيعي عن الجماهير أم هو موجة جماهيرية يركبها من لاينتمون حقيقة اليها ؟

والاجابة لاهي بيسيرة ولاهي بقاطعة ، بل هناك تدرج بين قطبي الأجابة . وعليه فأن الحلول ليست نهائية ولاالمشاكل منتهية . وانما لابد لنا من يقظة دائمة ونظرة تحليلية نقدية مستمرة تجعلنا دائمي التصحيح للمسار .

فالمد الديني في العالم الثالث له مايبرره . وهو يرتبط الى حد كبير بحاجة الجماهير للتعبير عن معاناتها ومطالبها . وبذلك يختلف عن مثيله في الولايات المتحدة أو اسرائيل . الا أننا من جانب آخر نجد الأنماط المحافظة والرجعية من المد الديني تميز بعض دول العالم الثالث التي مازالت تحسب ضمن العالم الثالث جغرافيا بالعالم الاول (الولايات المتحدة وبالتبعية اسرائيل) من حيث القدرة المالية وبمقاييس التحديث (لاالتنمية) وهي بالتحديد الدول " النفطالية " والتي تزداد ابتعادا بالتالي عن بقية دول العالم الثالث بل تصل الى درجة العداء المكشوف . وهذا الشكل من المد الديني الرجعي هو الذي يحيط بنا في مصر ويؤثر فينا بل ويغذي المد الديني المصري الى حد الدعم المعنوي وغالبا المالي بهدف ركوب موجته رغبة في اضعاف البنيان المصري لكي تعجز مصر عن القيام بدورها القيادي في المنطقة . وفي هذا الهدف المشترك ، يلتقي ذلك المد الديني الرجعي مع مثيله في الغرب (بما في ذلك أسرائيل) . وهو مايفسر حدوث الفتنة قبل كل موعد لزيارة الرئيس المصري للولايات المتحدة .

فاذا كانت الخطوات التي أتخذتها الدولة للحد من تفاقم المد الديني تلاقي قبولا عاما من حيث المبدأ ، فالذي لابد أن نحرص عليه لكي يستمر هذا القبول هو أن يكون الحد للجانب السلبي لهذا المد . أي للتطرف وللعنف وللفوضى وليس لجوهر المد الديني ذاته وهو البحث عن الآجل في غياب العاجل فالدولة يجب ألاتنفصل عن الدين لتكون

نقيضا له . واذا كان المفهوم الخمينى والمفهوم اللبنانى للدمج بين الدين والدولة هو أن تخفع الدولة للكهنوت والثيوقراطية فان المفهوم الأسلامى لدمج الدين والدولة يختلف فى أنه يزيل التناقض أصلا بين الدين والدولة . دون أخضاع لدين أو لدولة فالأسلام قد اضاف للأذهان فى ازالته ذلك الدمج المصطنع بين الدين والدنيا بأن ازال الكهنوت والوساطة بين العبد والمعبود وبين الحاكم والمحكوم . والدولة عليها أن تعيد الدين الى حظيرتها دون أن تماسسه وتحوله الى جهاز بيروقراطى عقيم ،ودون أن تغريه عنها بأن تجعله منفثا للمعارضة أو منفذا لركوب الاعداء الموجة من أجل هدم مصر من الداخل . فتبعية مايسمى برجال الدين (وكان غيرهم من المسلمين رجال دنيا) والجماعات الأسلامية (وكان غيرهم من الجماعات ليست بأسلامية) ليس فيه أخضاع الدين للدولة . ولكنه تصحيح لذلك الفهم المصطنع والغريب عن الأسلام بين الدين والدولة . فالدولة فى سعيها نحو محو التناقض أنما يجب أن تأخذ الصفة الدينية بأن تفكر للآجل مثلما تفكر للعاجل وأن تحمى الفقراء والمظلومين قبل أن تعضد الأثرياء والظالمين.

ولعل خير بداية لأن تطبق الدولة هذا المفهوم هو فى قدرتها على الجمع بين الحزم والتسامح وبين العقاب والثواب . وذلك بأن تنظم عملية الحزم الحالية حتى لاتتحول الى قسوة ،وأن تتبع العقاب بالثواب ،والأدانة بالعفو وهذا ليس بغريب على مصر ولا على ثورة ٢٣ يوليو التى لم ترق الا القطرات القليلة من الدماء . هيبة الدولة واحترامها لابد أن تتأكد . ولكن الحب والوفاء أبقى وأعمق من الهيبة . وهى كلها موجودة ويجب أن نحافظ عليها فلا ننتقص منها .

ليسوا مجرد مجانين أو خونة .. بل ظاهرة تتطلب الدراسة والعلاج الجذرى

الحقيقة النفسية التى أكدها العالم النفسى فرويد بناء على اسطورة أوديب الملك لسوفوكليس هى أن ما من طفل الا ورغب فى الأستحواذ على أمه بازاحة أبيه من الطريق . وهى رغبة محرمة ولذا سرعان ماتختفى من الذاكرة . وان عادت فهى تعود بالرمز سواء فى الاعمال الفنية او الأحلام . ولكن فى حالات العصاب يضعف الكبت وتعود الذكريات المكبوته الى الوعى فى صورة أعراض أو تخييلات ترمز وربما تعبر مباشرة عن تلك الرغبة المكبوتد . أما فى حالات الذهان حيث الكبت ينهار والرغبات المكبوتة تظهر بلاوازع فاننا نستطيع أن نرى هذه الرغبات فى الوعى بشكل مباشر وربما مترجمة الى فعل . كما أننا نراها على هيئة الفعل فى اضطرابات الشخصية (السيكوباتية) الشديدة .

جميعنا اذا نملك تلك الرغبة . وبعضنا قد يعيها على هيئة رمز . وقليل منا قد يفكر فيها بشكل مباشر . والأقل من هذا قد ينفذ الرغبة فعلا . فما أندر حوادث قتل الآباء ومضاجعة الأمهات .

وحينما يبحث عن الظاهرة على المستوى الاجتماعى بمنظورالمجتمع كوحدة تتشكل من أكثر من مجموع أفرادها فسوف نجد التوازى الرمزى بوضوح . فقد نعتبر رئيس الدولة هو رمز الأب الذى نريد أن نتخلص منه بينما نجعل من الوطن الأم ، كما تشير التسمية ، الى رمز الأم التى نريد أن نستحوذ عليها . فنحن نسقط على رئيس الدولة مالدينا من مشاعر تجاه الأب . فهو رمز السلطة المانعة التى تساهم فى كبت رغباتنا فى الأستحواذ على الأم .ونعتره مغتصبا يجب الأطاحة به بينما نحن الأحق بحضن الأم . أن تكون مثل هذه الرغبات موجودة لدينا بشكل غير معلن فهذا أمر طبيعى . ولكن الخطورة تأتى حينما تطفو على السطح وتشكل ايحاء مستمرا يؤثر فى ذلك القطاع منا من يقع على هامش السواء .

عندئذ تزداد احتمالات استجابة قلة منا لمثل هذا الايحـــــاء .
وتتحول الرغبة الكامنة الى رغبة معلنة ثم الى نية فعل ثم الى فعل.

ان حدوث ظاهرة قتل رئيس الدولة لايمكن أن تكون مجرد سلـوك قلة محدودة من النفوس المضطربة بحيث يكون مجرد التخلص من هـــذه القلة هو الضمان للقضاء على الظاهرة . فقد يثبت التحقيق القانونـــي المحض أن الحدث ظاهرة محدودة وليس وراءه تنظيم يدفعـه وأنــه نتاج لنفوس مضطربة أو منحرفة أو خائنة وغادرة . والأنغلاق فـي اطار التفسير القانوني المحض سوف يعمينا عن الحقيقة الاجتماعيـة والنفسية الأوسع وهى أن الحدث مظهر من مظاهر خلل اجتماعى أوسع لابد من علاجه من جذوره والا عادت الظاهرة بشكل مباشر أو غيـــر مباشر (مثل حدوث محاولات أغتيال أخرى لشخصيات غير رئيــس الدولة ولكن ترمز اليه بشكل أو آخر). لابد أن نتمكن من رؤيــة أن وراء كل فعلة قتل هناك أضعافها من نية القتل واضعاف هــذه من الرغبة المعلنة وأضعاف هذه من الرغبة المكبوتـة .

والسؤال الذى لابد أن نسأله اذا هـــو ماهى العوامل التى أدت الى طفو الرغبة فى قتل رئيس الدولة على المستوى الأجتماعى؟وماهـى مظاهر تلك الرغبة وكيف نشأت ؟

الجماعات الدينية هى افرازات حديثة على المستوى العالمــــي والمحلى على السواء . فالسلطة المبنية على العلمانية ـ على المستوى ـ العالمى كانت قد وصلت الى ذروتها فى حالة نشوى . ولم تحقق بالطبع ما كان ينبنى عليها من آمال . ولم يكن أمامها الا الأفول ولـم تترك للشعوب الا خيبة الأمـل . فلا الدعوة الى الحرية والديمقراطيـة الغربية ولا الدعوة الى الأشتراكية نجحت فى توحيد العالم وتجنيبـه ويلات الخراب الناتج من تدمير الأنسان للأنسان أو للبيئة الطبيعيـة التى يسكنها . كما فشلت أيضا آمال العالم الثالث فى الدعوة الـــى الحياد وعدم الأنحياز . وكذلك على المستوى المحلى فى مصر كانـت خيبة الأمل فى النظم الغربية التى أدت قيام ثورة يوليـــو١٩٥٢ متبوعة بخيبة أمل أخرى فى النظم الأشتراكية جلى وضوحها فى انكار

عــــام ١٩٦٧ .

فى ضوء هذا الهبوط للنظم العلمانية لم يكن أمام الشعوب الا أن تلجأ الى الحكام بالماضى لأخفاء العجز أمام حل مشاكل الحاضر. والحلم بالماضى هو حلم بالعودة الى حالة الأعتمادية على قوة خارجية غير واضحة. كل ما تتسم به أنها تمثل المطلق الذى يريحنا من عناء رؤية الأمور كما هى فى الواقع – مجزأة ونسبية . ومن هنا ظهرت الأتجاهات الدينية فى العالم كله بما فيه "العالم الاشتراكى" "الملحد" .

الا أن العلمانية لم تمت ولكن ركبت الموجة . واستغلت ذلك المد الدينى لصالحها . ففى العالم الغربى يستخدم الدين للتأثير على الرأى العام فى الأتجاهات المطلوبة . مثلا فاذا كان المطلوب مساندة اسرائيل فما أيسر استخدام الأنجيل لهذا الغرض . وليس غريبا أن رئيس وزراء اسرائيل لجأ أولا الى ممثل الأتجاهات الدينية فى الولايات المتحدة لمساندته فى ضربه للمفاعل النووى فى العراق . بينما فى ايران استغلت القوى المناهضة لحكم الشاه الدين للأطاحة به . أما فى لبنان فقد استخدم الدين كغطاء لصراع قوى عديدة محلية لبنانية وعربية واسرائيلية وعالمية .

مكمن الخطورة أن التعصب : وهو سمة أساسية من سمات تلك الأتجاهات الدينية ، يعمى صاحبه عن المنطق ويجعله يندفع وراء معتقداته بلا تفكير . بينما يقف السياسى العلمانى خلف الستار راكبا الموجة وموجها دفعها أيضا التى تتحدى توجيهات السياسى وترتطم به .

نستطيع أن نقول أن المد الدينى جاء طبيعيا كما نستطيع أن نقول أنه من الطبيعى أن يأخذها الساسة فى الأعتبار سواء بتشجيعها أو بمحاولة كبتها أو بالأثنين معا أو بالتبادل . وهو ما حدث فعلا. فقد كانت الاتجاهات الدينية مرحبا سياسيا كبديل للمذاهب السياسية التى سبقتها (مثل الأشتراكية العربية) . كما كانت بديلا للاتجاهات الدينية السابقة (الأخوان المسلمين) التى وصمت بالمعاداة لثورة ٢٣ يوليو أساسا . ففى الحالة الأولى تشجيع وفى الثانية كبت بالاضافة (للأخوان المسلمين) . الا أن الجماعات الدينية أخذت فى الأنتشار

وصارت أداة للتعبير عن السخط الموجه الى الدولة . أصبحت موجة خارجة عن طوع راكبها . بل بالاضافة الى ذلك صارت فى خدمة ساسة خارجين على الدولة سواء من الداخل (الساسة القدامى من قبل وبعد ٢٣ يوليو والساسة البازغين الذين لم يجدوا لهم دورا فى الدولة) أو من الخارج (الأنظمة العربية المناهضة لمصر صراحة مثل ليبيا وسوريا او خفاءا مثل غيرها علاوة على الأنظمة التى لاترى مصلحة فى أن تاخذ مصر دورها القيادى القوى وهذه تشمل القوى العالمية المختلفة بدرجات مختلفة بدءا من الأتحاد السوفييتى الى اسرائيل بل والولايات المتحدة ذاتها) . فهؤلاء جميعا أصحاب مصلحة بدرجات متفاوتة فى اضعاف مصر رغم المساعدة المحدودة لها . وكل منهم يستطيع أن يستفيد من الاتجاهات الدينية لتحقيق ذلك الهدف . وهنا كان لابد أن يتلو التشجيع كبت . فالموجة اذا أنحرفت عن توجيه راكبها ارتطمت به . وليس أمام الراكب فى هذه الحالة الا أن يصطدم بها هو الآخر .

الدولة فى مصر عريقة وقوية مستقرة . وقلما نجد فى تاريخها حكاما يتبدلوا بسرعة . واحترام الدولة جماهيريا عميق . فليس غريبا اذا ما اصطدمت الدولة بمثل هذه الأتجاهات أن تضربها فتهرع هذه الى الجحور . فالمساندة الجماهيرية لها تكاد تكون معدومة . ووجودها لم يكن ميسر الا بفضل رضاء الساسة عنها ، فى البداية الساسة داخل الدولة ثم بعد ذلك خارجها محليا ودوليا . ان مثل هذه الاتجاهات الدينية التى تستخدم سياسيا لمناهضة الدولة فى مصر اذا مادخلت الجحور بعد أن خرجت يوما منتشية ومسنودة بنجاحها فى السيطرة على الدولة كما فى ايران واسرائيل بل والولايات المتحدة الى حد محدود ، لاتجد أمامها الا الأنتحار . ومن وسائل الأنتحار ذلك القتل العشوائى أو الرمزى الذى لايهزم الدولة ولكن يقدم لها خير مبرر للانقضاض النهائى عليها .

ان قتل الأب أو رمزه ممثلا فى رئيس الدولة بواسطة أتجاه سياسى ليس تصرفا سياسيا محسوبا ولكن عملية انتحارية والـ[illegible]ذى

يقوم به قد يكون فعلا فردا أو مجموعة محدودة من الأفـــــــراد لايدفعهم تنظيم واعى ولكن تعصب أعمى ويأس . وهو ماقد يكتفى به التحليـــل القانونى . الا أن الفعل لايمكن الأكتفاء بالنظر اليه على أنه مجرد نتاج نفس أو نفوس مريضة ولكن الفعل أنما يمثل انعكاسا لجو أعم من انتشار للرغبة والأعم منه وجود الفكرة فى الوعـــى . ولذا لابد من المحاسبة السياسية لجميع الأطراف بدءا من الدولـــة ذاتها واجهزتها الى خصومها السياسيين داخليا وخارجيا .

ان معاقبة القتلة لن يحل من الأمر شىء. وكذلك قمع الأتجاهـات الدينية. بل ولاقمع الأتجاهات السياسية المعارضة . بل هناك ضـرورة لفهم الأسباب وراء وجودها ، دون انكار لحق الدولة فى الدفاع عن نفسها بما فى ذلك باستخدام القمع والقوة .

لابد من وقفة مع النفس والمحاسبة الذاتية . لابد من الأستمــاع لوجهة النظر المخالفة أولا. وبعدها فيحق للدولة أن تضرب فى موقـع الخلل سواء داخليا أو خارجيا . ذلك بأن تميز الدولة بين درجات الذنب والبراءة سواء فى الجماعات الدينية أو فى الأتجاهات السياسية المعارضة أو فى الأنظمة العربية والعالمية المناهضة وغيرها. وأن يوجه الضرب أساسا وأولا لمن يستحقه أكثر ، ليس فقط بدافع العدالة ولكن بحكم الواقع ، أن المتيسر ضربه هو العدو المحدد . وأن ضرب الجميع ليس الا شكل من أشكال الأنتحار هو الآخر . بل أنه من العقـــل أن يتحالف المرء مع عدو فى مواجهة عدو آخر حتى يهزمه فيلتف بعدها الى الأول .

الى أى مدى يتحمل الذنب الجماعات الدينية ؟ والأخوان المسلميـن؟ والمعارضة السياسية بأشكالها ؟ وليبيا وسوريا وايران ؟ والـــدول العربية الأخرى ؟ واسرائيل؟ والاتحاد السوفيتى ؟ والولايات المتحدة ؟ والدولة ذاتها ؟ بل كل فرد فينا ؟ هل منا من لم يفكر أو يحلـم بالتخلص من الأب أو رمزه ؟ ليس بيننا من بلاخطيئة ولكن هذا لايعنى أن ليس هناك من يستحقوا الرجم بالحجر ، علاوة على من يرجموهـم أيضا. عندئذ ممكن الاجابة على السؤال حول أولويات توجيه الضربـة

وكيفية توجيهها .

فالجمهور الذى يحمل على كاهله مسئولية قتل الأب الرمزى يريد أن يخفف من عبء الذنب . ويريد أن يكفر عن موقفه العاجز أمام الحدث بأن يوجه عدوانه تجاه مذنب محدد يقدمه كفديه . لكى يتحد الجمهور وراء الرمز الجديد لابد له أن يستعين بوجود عدو خارجى توجه له التهمة قبل غيره . والا عادت الرغبة المكبوتة فى الازاحة بالأب وانفضت الجماهير من حول الرمز الجديد ، فتتفكك وتصارع بعضها ربما فى شكل فتنة طائفية أو صراع بين الأتجاهات الدينية وبعضها أو غيرها .

المسئولية عن الجريمة لاتتوقف عند الأصبع التى ضغطته على الزناد . فهناك من قدم الذخيرة . وهناك من حرض مباشرة . وهناك من حرض بطريق غير مباشر . وهناك من مول وساند بالمال . ولم نذهب بعيد؟ فهناك أكثر من ستة منظمات ادعت مسئوليتها عن الحادث بهدف أن تقبض الثمن الجهات صاحبة المصلحة فى الدفع . ماهى هذه الجهات التى تملك المال الذى تدفعه من أجل زلزلة النظام فى مصر؟ هذا على المستوى الخارجى . ويقابله فى الداخل قوى مشابهة أو موازية اما غير مستفيدة من النظام فى مصر أو مضارة به وقد تكون مستفيدة من الأنظمة الخارجية بشكل أو آخر سواء بالتبرعات أو عقود العمل او الصفقات التجارية .

... حه فى المحافظة على النظام فى مصر اكثر بكثير مما كان يظن وهل ادراكهم لهذا الارتباط قد زاد بعد الحادث .ولعل الظرف مواتى اليوم لاعادة الحسابات والتحالفات والعفو عن البعض للتحالف معهم ضد الخطر المباشر على النظام . ولعل هناك قوى عديدة تعجلت فى معاداة النظام وتعجل هو الآخر فى معاداتها سوف تعيد حساباتها وتحالفاتها . .وكذلك على المستوى الخارجى قد تكتشف بعض الدول العربية المعتدلة أنه من الأفضل لها أن تتحالف مع مصر بدلا من الأستمرار فى الطريق الذى يجعلها تقع تحت تهديد وابتزاز الانظمة المتطرفة .

لعلنا نستطيع أن نلخص الأمر فى أن الضرورة ازدادت الحاحا لكى يتكاتف المعتدلون بأجنحتهم فى مواجهة التطرف أيا كان شكله سياسى أم دينى . وأن الالحاح يأتى من أن الظرف الحالى قديغرى بأستجابة رد الفعل العنيف الذى قد يحول الإعتدال الى تطرف مضاد . فالمطلوب من الدولة بالتحديدهو سعة الصدر والقدرة على توسيع دائرة تحالفاتها .

كلما نضج الأنسان كلما اتسمت انفعالاته بالاعتدال . والانفعالات تتراوح فى طبيعتها بين طرفى اللذة والألم ووسطهما نقطة سكون. ومن البدائية الى النضج نشاهد عند طرف الألم تطور الأنفعال من الكآبة وماشابهها من يأس أو تشاؤم او كره الذات الى الحزن ومايرتبط به من وقار ورباطة جأش واحترام للموضوع المفقود . بينمانشاهد عند طرف اللذة التطور من الهوس ومايصاحبه من غرور وسطحية وتقلب الى الانشراح ومايصاحبه من ثقة بالنفس وحيوية واستمرارية .

وبين اللذة والألم نجد السكون البدائى يأخذ صورة التبلد والغاء المشاعر بينما نظيره المتطور يأخذ شكل الحكمة والسكينة وراحة البال.

لقد فقد القوم زعيم لهم بعد أن ارتضوه فى هذا الدور احدى عشر عاما ، كما ارتضوه قبل ذلك مشاركا فى الحكم الثائر الذى جاء فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ،بل قدموا له الحماية كثائر على الحكم من قبل ذلك . وفقدوه فى ظرف أليم وهو احتفال بعيد نصر كان هو قائده وسط ظلمات هزيمة سابقة عليه . ووقت كان يوشك على جنى ثماره باسترداد بالسلم ماتبقى من أرض مصرية محتلة . وبرصاص من من أجلهم بادر بالسلم شجاعا غيرمكبل بابتزاز الشعارات الجوفاء كيلا تسيل دماؤهم هباءا .

ومع هذا لانشاهد تطرف فى الأنفعال بين الناس . فى القاعدة الحياة تسير بأيقاعها المعتاد . وعند القمة تنتقل مقاليد الأمور ببساطة وسلاسة دون أدنى اشارة لارتباك أو خلخلة . كل هذا قد يجعل البعض يتساءل عن مكان الحزن .

فالحزن مازال يرتبط فى اذهاننا بمظاهره المتطرفة وبالتالى فأن غياب التطرف فى الأنفعال قد يبادر الى الذهن شك فى وجوده واستبداله بالتبلد واللامبالاة . وهنا لابد من التمييز بين الحزن كظاهرة صحية والكآبة كشكل مرضى للحزن ،وكذلك بين التبلد والحكمة .

كما أننا من جانب آخر نرى اطرافا عديدة أخرى فى الوطن العربى تتطرف فى الأتجاه الآخر وهو المرح الذى يقترب من الهوس والهرج. وهنا أيضا لابد من التفريق بين المرح المقترب من الحكمة والمرح المتطرف الذى يأخذ شكل الهوس والهرج .

فاذا قبلنا بأن الشعب المصرى قد انضجه التاريخ الحديث مضيفا الى رصيده من النضج الناتج من التاريخ القديم فلعلنا نميل الى تفسير الظاهرة الموجودة فى اتجاه الحكمة بدل التبلد والحزن بدل الكآبة .

فقد فقد الشعب فى مصر زعامات وقيادات عديدة فى الفترة الأخيرة لعل اهمها كان موت الرئيس الراحل عبد الناصر علاوة على غيره من القيادات مثل الفريق عبد المنعم رياض والفريق احمد بدوى ورفاقه . وتعلم الشعب من خبراته هذه أنه باق مهما تبدلت القيادات . وأن قياداته فى جوهرها افراز طبيعى له وتعبير عنه . بحيث تكون الأتجاهات التى يمثلها القائد أنما هى قياذات معبرة عن اتجاهات الشعب . فالشعب ليس بمجموع تابع مفعول به بلا ارادة ولاهو ضحية سلبية لقيادة رشيدة كانت أم منحرفة .

ان العلاقة التى تنشأ بين التابع السلبى والقائد المتسلط لهى فى طبيعتها علاقة اعتمادية بدائية وتتميز بالتطرف . التابع المعتمد يرتبط بقائده بمشاعر متناقضة الثنائية . فهو يحبه بعنف ويكره بعنف فى ذات الوقت . فاذا مافقده أو هدد بفقدانه تطرف فى التعلق به والتمسك به والحزن عليه .

أما فى العلاقة المتكافئة الندية التى تنشأ بين طرفين كلاهما اقترب من النضج ، فان الأرتباط يكون معتدل ، وتتسم الأنفعالات له بالأعتدال . فاذا كان ثمة تناقض وجدانى بين الحب والكره فهو بين درجتين محدودتين منهما وليس بين حب شديد وكره شديد .فاذا ما ذهب موضوع الحب ، أى القائد ، أخذ الحزن عليه شكل الأعتدال، وابتعد عن طابع الكآبة والتشاؤم واليأس .

لقد نضج المغفور له الرئيس الراحل محمد انور السادات بفعل

تجربة سنوات الكفاح الطويل الذى ولد فيه منذ صباه ابان نشأتـه القروية . كان ارتباطه بالشعب بادئا من جذوره الريفية التى هـى منبع كل ما هو أساس للأمة من مأكل وملبس ومسكن الى القيـم والوجدان . كافح ليرتفع بهذا الأصل الريفى ليندمج مع المدينـة والمدنية فيأخذ منها مفهوم الكفاح المسلح والكفاح السياسى بمـا فى ذلك الكفاح السرى والأغتيال . واشترك فى الثورة الشعبية التـى التحمت بها ثورة الجيش فى الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ . انضجته الهزيمة حينما ذاق التشرد والحبس الأنفرادى حيث عاش الخبرة الصوفية التى مكنته من التجاوز لذاته بما جعله قادرا على العطاء لقومه . وانضجه النصر الذى تحقق بنجاح ثورة يوليو ثم الهزيمة التى كانت النتيجة الطبيعية للأفراط فى الفرح بنصر هذه الثورة . فكان هـو القادر على تصحيح مسارها فى ١٥ مايو ١٩٧١ ثم اعادة التصحيـح التصحيح فى ٥ سبتمبر ١٩٨١ .

ولكن نضوج الرئيس السادات لم يكن نضوج فردا منعزلا عـن مجتمعه بل كان تعبيرا عن النضوج الطبيعى الذى كان يعيشه الشعب فى مصر ، والذى كان هو القائد المعبر طبيعيا عنه . واذا كان هناك ثمة فجوة بين القائد والجماعة فهى التى نشأت من سرعة نضوجـه وقدرته على تجاوز الذات . وهى سرعة لم تخلو من المضاعفات والتـى كان اخطرها اعادة ظهور فلول الذات فى مقاومة دفعة التجاوز التى تساوى ذوبانها . وبين سرعة تجاوزه وما تبقى فلول الذات احتـد الصراع بين التقدم السريع ومقاومة التقدم أو بين الحركة والجمـود وبين الأعتدال والتطرف وكأن هذا التطرف فى صحوته الأخيرة ماقبـل موته استمات ليقتل غريمه . فالتطرف الرجعى اكتشف أنه لم يعـد له مكانة فى شعب ينضج . وأخذ يبحث عمن يفتديه ويوجه عدوانـه نحوه وكان الشعب مجرد تابع بلا ارادة ، وضحية لقيادة فرضـت عليه وكان التخلص من ذات هذه القيادة هو الخلاص لذلك الشعب السلبى . وهنا مكمن الخطأ . فالأتجاه الذى قاده الرئيس السادات لم يكن مجـرد وليد ذات منفردة ولكنه كان انعكاسا لذلك المتصل الواسع الـذى كون هذه الذات والذى يحوى جوهر اتجاه الشعب فى مصر . أنه يحوى

الريف والمدينة ،والتراث والحديث ،والشرق والغرب ، والحرب والسلم أو الكفاح المسلح والكفاح السلمى . والقضاء على الذات الجسدية للقيادة لاتعنى أن الأتجاه قد مات . بل أنها الأختبار الحقيقى لمدى ارتباط اتجاه القائد هذا بجوهر أتجاه الشعب فى مصر، ومدى قدرة الشعب فى مصر على أن يبقى على ماتبع منه وعبرعنه من خلال قيادته . ولعل افضل تعبير للشعب فى مصر عن ذلك النضج هو فى كيفية انفعاله بالحزن الهادىء ، لاالصراخ ولا الولولة ولا الكآبة المتشائمة . فالحزن نستطيع أن نودع قائد لنولد، اتجاه ونستغنى عن قائد لنكمل بسواعدنا ماساعدنا فيه هو على اكتشافه . أما الشامتين المفرطين فى الهوس ، فليس لهم الا شهادة الزمان لتبين لهم مدى خواء انفعالهم ، بل مدى نفاقهم فى الفصل المصطنع بين الشعب وقائده . فهم لايجرؤن على معاداة الشعب مباشرة أو التعبير عن حقد تجاهه فلجأوا الى تلك الحيلة المصطنعة والسطحية أن يفصلوا بين الشعب والقائد فيصبوا عدوانهم الذى يحس الشعب نحو القائد لينافقوا الشعب حتى يتحد معهم من أجل هدم خصمهم الحقيقى وهى وحدة مصر وقوتها .

ان مصر وحدة متكاملة ويشهد على ذلك رد فعل الشعب لكافة الخطوات الجريئة التى اتخذها الرئيس السادات بدءا من ثورة التصحيح الى حرب اكتوبر الى مبادرة السلام الى تصحيح التصحيح بغية الأبقاء على وحدة الشعب وتماسكه . والذى يحترم مصر عليه أن يحترمها بكافة جوانبها – شعبا وحكومة ،ثورة ونظاما . وهذه الشماتة المهووسة فى مناسبة حزينة لاتجد صدى لها فى قلوب الناس فى مصر لأن قلوبهم قد نضجت وأبت التطرف فى الأنفعال مثلما أبت التطرف فى كل اشكال حياتها . ان مصر حزينة ولكنها متفائلة . مات زعيمها ولكن بقيت حركتها ، وصارت جاهزة لميلاد زعيم تلو زعيم.

مصـــــــــــــــــروالعــرب

** الأمراض النفسية " النفطمالية " .
** حكم عربية من العيادة النفسيـــة .
** استنزاف الأبنـة لأبيهـا .
** عبادة عجل من الورق الأخضـــــر .
** الكبش المفتدى :عربى بدل الأسرائيلى؟ .
** الحوار والصراع بين الشباب والرشد فى دائرة مصر العربية .
** الشلل والأعتمادية فى مواجهة تحدى الأنتاج .
** كيف يتزوج وقد خصـــاه الأفلاس ؟ .
** الفتاة المهجورة المستنزفـة .
** العـامـل المعلم والمعلـم العامل .
** عادت الى مصر .. فهل هى مجنونة ؟ .
** المصريون العرب والحوار الحضارى أو الدب والذبابـة .
** فلنعلن الظلام ..على أن ننتقل لأضاءة شمعة :دور للمصرى المغترب

الحالات التى ترد على عيادة الطبيب النفسى فى الصيف لها بعض الصفات المميزة . فالصيف ـ وبالتحديد صيف عام ١٩٨٠ م يتميز بوفود الكثير من السياح العرب وخاصة من المملكة العربية السعودية ، علاوة على العاملين المصريين بهذه الدول الذين حضروا لقضاء عطلة الصيف بين ذويهم واذا اضفنا الى ذلك ١٢ بقية العام نشهد توافد الحالات من بين المصريين المتيسرين علاوة على عدد محدود من الاجانب وان هذه الحالات هى الاخرى لها بعض الصفات المميزة وهى انها ترتبط بشكل ما بالعلاقات الاقتصادية مع الدول الخارجية وخاصة العربية اذ ان المستوى الاقتصادى الذى يسمح برفاهية الشكوى من المرض النفسى وبالذات الذى يتطلب العلاج النفسى ، هذا المستوى لايتوفر لدى المصريين العاديين . وفى هذه الحالات فان المورد الاقتصادى اللازم يأتى من عمل سابق فى دولة عربية او تعامل تجارى مع دول خارجية وبالتحديد الدول الغربية الرأسمالية .

نستطيع ان نعمم ان الشريحة التى يشاهدها الطبيب النفسى وبالذات المعالج النفسى ، فى عيادته هى حالات تمثل الفئات الثرية المصرية والمرتبطة بالثراء العربى والثراء العالمى ومن هنا جاز لنا ان نستخلص بعض القواعد التى تميز علاقات تلك الشريحة سواء مع بعضها او مع من دونها . وسوف نبدأ بتحديد طبيعة تلك العلاقات على المستوى الدولى المحلى اى العلاقات المصرية العربية .

المريض النفسى يشكو من مشاعر مؤلمة . وألم المشاعر ليس قاصرا على اناس دون غيرهم ولكن الشكوى من ذلك الالم وبالتحديد المشكوى الى معالج يتقاضى اجرا عاليا تتطلب درجة من الرفاهية لاتتوافر للناس جميعا . صحيح ان الانسان المحروم من المأكل والمسكن والملبس يتألم فى مشاعره مثل

الانسان الذى يمعم بها، ولكنه يتحمل المه او يتجنبه،بان يحول اهتمامه الى عمل يسعى بواسطته ان يوفر لنفسه هـــذه الاحتياجاته فاذا ماتوفرت بدرجة معقولة فانه اما يتوقف ليسعى الى المه ويشكو منه، او يتمادى فى العمل هربا من المه. اذن فالفئة الثريه تتميز بانها اما تستمر بشكل قهرى فى الاثراء او تتوقف شاكية من الالم.وبما ان التوقف يهدد قدرتها على تنمية ثروتها بل يهدد استمرار وجود هذه الثروة،فان الاحتمال الاكبر هو ان تستمر فى العمل من اجل المحافظة على ثروتها او الاستزادة منها وجدير بالذكر ان اكثرية الضحايا الذين يصل بهم الالم الى حد الشكوى والبحث عن علاج لدى معالج ليسوا من بين الرجال، ولكن اكثرهم بين اسر هؤلاء الرجال من زوجات (غالبا غير عاملات) او ابناء.

ان سمة المرضى النفسيين الذى يتوافدون على عيادة الطبيب النفسى والمعالج النفسى بالذات هى انها تمثل اول ضحايا لهذه الفئة الثرية من المجتمع.وهم ضحايا افراد ولكنهم بشكل ما يعسكون الضحايا على المستوى الاجتماعى،فعلى هذا المستوى الاوسع، نجد ان الضحايا الاجتماعيين للفئة الثرية هم الفئة الفقيرة من المجتمع التى تعيش على فتات ما ينوب الفئة الثرية. .قد لاتتشابه الضحايا بمختلف انواعها فى الصفات لاشك ولكنها مع ذلك تشترك فى التألم من وضعها كطرف اضعف فى علاقة فيها القوى والضعيف والتى قد توازى الثرى والفقير. ووراء كل الشكاوى الظاهرية المختلفة عناصر مشتركة ، فهم اولا يتألمون. ويتألمون وجدانيا ويعبرون عن هذا الالم الى حد كبير لفظيا.انه الم يرتبط باحساس العجز. والعجز مصدره انهم لايعملون ولا ينتجون. بل يعتمدون على عمل وانتاج غيرهم.انهم معتمدون وفاقدون للقدرة على التواجد

المستقل . والاستقلال بالنسبة لهم أقرب الى العزلة والوحدة.

أنهم يطلبون من المعالج معاونتهم على الوعى بآلامهم والتعبير عنها . ومشاركته هذه لآلامهم تخفف من حدتها بأن يخرجهم من عزلتهم ووحدتهم كما أن العزلة وفقدان القدرة على العمل والانتاج تساوى انعدام التعبير عن الحاجة الى الحب والحاجة الى العمل ، أو الدوافع الجنسية والعدوانية وهو المرض النفسى الذى هو عزلة والتى يكون العلاج النفسى مخرجا منها .

ولكن العزلة الاصلية هى عزلة بين طرفين خارج عيادة الطبيب أحدهم المريض والثانى بيئته المتمثلة أولا فى الأسرة . ومن هنا فان الخطوة العلاجية التالية للتغلب على العزلة داخل غرفة المعالج النفسى هى التغلب على العزلة خارج غرفته ، أى بين المريض وبيئته بادئا بأسرته .

والمريض يتألم ويعى مصدر ألمه فى محيطه الخارجى بادئا بأفراد أسرته . أنه يتألم منهم وهو لذلك فى حاجة لأن يعبر لهم عن هذا الألم بعد أن نجح فى التعبير عنه لدى المعالج . أنه يتألم منهم ويريد أن يصرخ فى وجههم حتى يشعرون بألمه ويشاركونه اياه . ولكنهم منشغلون هم أيضا بانكار المهم والهرب منه أو التعبير عنه بواسطة انشغالهم بأعمالهم .والمريض يطلب الاهتمام بآلامه وأسرته بدورها منشغلة بالآلامها . أنهم يفضلون دفع أجر المعالج النفسى حتى ينوب عنهم فى القيام بهذه المهمة. والمعالج النفسى يستطيع أن يكون بديلا للاسرة بصفة مؤقتة ومفتعله بهدف العلاج ولكن اذا كان لابد للعلاج أن يكتمل فلابد له أن يعيد المريض الى أسرته حيث يكمل رحلته معها .

عندئذ قد تتألم الأسرة وتقرر أن تأتى هى الأخرى لتشكو من آلامها . وهنا يتحول العلاج النفسى الى علاج أسرى او قد تأتى الأم أولا بصفتها ضحية هى الأخرى . ويتلو ذلك أن تعود بآلمها لزوجها وأسرتها فتؤلمهم حتى يقرروا هم أيضا الشكوى من آلامهم .

وتتكرر الدشرة بأن تكون الأسرة هى الوحدة المرضية التى تعانى وتشكو وتطلب العلاج وتعى مصدر ألمها فى المجتمع الاوسع التى تشكل هى فيه أحدى دعائمه .
وهنا أيضا يعيد المعالج الأسرة ،بعد أن شاركها آلامها الى المصدر الخارجى للألم وهو المجتمع . فاذا مانجحت الأسرة فى التعبير عن آلامها تجاه المجتمع بأن تصرخ هى الأخرى فى وجهه ،فقد يتألم المجتمع ويطلب هو الآخر العلاج . ولكن المعالج فى هذه الحالة لايمكن أن يكون الطبيب النفسى وحده وفى صورته التخصصية رغم امكانيته على تشخيص وجه من أوجه المشكلة . لابد أن يتحول الطبيب النفسى الى طبيب نفسى أجتماعى ومواطن أولا وأن يشترك فى العلاج مع غيره من المواطنين وبالأخص أصحاب القرار السياسى .

هذا هو دور الطبيب النفسى الأجتماعى وهو الأشارة الى جوانب المرض الذى يعانى منه المجتمع والتى تظهر فى صورة آلام أفراده . فان ألم الفرد بالضرورة هو ألم فرد موجود بين آخرين أى فى مجتمع . فهو يتأثر بالمجتمع . ويؤثر فيه بالتالى . والطبيب النفسى الأجتماعى هو من يستطيع أن يشير الى هذه المصادر والأنعكاسات الأجتماعية للمرض النفسى كمايراه فى الفرد .

ومادمنابصدد التركيز على احد هذه الجوانب

الأجتماعية وهى المتعلقة بالعلاقات المصرية العربية ،فلننتقل الى الأشارة لبعض القواعد التى استنبطناها من واقع المشاهدة لهؤلاء الأفراد فى الأطار الأكلينيكى .

المواطن المصرى العامل فى الدول العربية يعانى من عزلة فسواء كان معارا ،او متفرغا للعمل هناك فهو يعى أن وجوده هامشى ومؤقت .

ومهما طال الزمن فهو لابد وأن يعود الى مصر . فهو لايشعر بالأنتماء حيث يعمل لأنه ليس له حق المواطنة ومد جذوره هناك . ربما يواسى نفسه بأن يقول انه عربى ويعمل فى الأمة العربية وانه ينتمى الى الأمة العربية أو أنه مسلم ويعمل فى الأمة الأسلامية وينتمى اليها . ولكن الواقع المادى فصيح ويذكره يوما بعد يوم ومهما طال الزمن أنه غريب وانه أجنبى ومستغل . ولكن مرور الزمان لايعالج الداء ويقلل امكانية العلاج . فجذوره فى مصر قد جفت والعودة اصبحت عسيرة .. وعليه أن يبدأ من جديد . بل هناك احتمال أن يجد نفسه غريبا فى مصر أيضا ومواطن من الدرجة الثانية ولعله يعود بقدر من المال يوفر له فرصة تعويض ذلك التخلف عن اخوانه فى مصر . واذا صار هذا حاله فانه سرعان مايكتشف أن هذا الأمتياز المالى يضعه فى عزلة من نوع جديد . فهو يمتاز عن بقية أخوانه الذين مكثوا فى مصر . وهو امتياز مالى فى المقام الأول وليس كعامل منتج بالضرورة . ويجد نفسه يتجه الى استثمار امواله بسرعة . وخير وسيلة تعود عليه بالربح السريع هى التجارة . وقد ينجح ويستمر او قد يكتشف أنه قد قامر وخسر كل مالديه (وعندئذ يأتى ،رغم افلاسه، الى الطبيب النفسى) . فاذا نجح فسرعان مايكتشف انه فى عزلة جديدة اذ أن أغلبية اخوانه لاتتوفر لديهم مثل فرص نجاحه رغم أنهم يعملون وينتجون اكثر منه . كل ماهنالك انه أخذ دفعة مالية من مدخراته التى حضر بها ووجد الظروف مواتية

للعمل التجارى . لقد أصبح ثريا بينما أخيه أستمر فقيرا ونشأ بينهما حاجزا نفسيا . أنه فى عزلة عن أخيه .

فى ضوء ذلك فأن زميله الحديث الحضور الى الدولة العربية يزداد تأكدا من عدم آمكانية الأنتماء والبقاء الدائم فيها . لقد تعلم من خبرة زميله العائد أن المصير هو فى العودة الى مصر، وفى ذات الوقت يزداد تخوفا من أنه لو طال بعده عن بلده فسوف يعود اليها وقد فقد أنتماءه لها هى الاخرى . ولذلك فهو يضع أمام نفسه هدفا آخر: أن يجنى أكبر قدر من المال فى أقصر وقت ويعود قبل ان يفقد جدوره فى مصر . هذا هو نمط المعار الذى قلما تطول مدة بقائه عن أربعة سنوات (وان كان هذا الوضع سوف يتغير بعد تعديل قانون الاعارة) . وفى هذه الحالات فأنه كثيرا ما يتحول الى الأنتهازية بأن يبحث عن السبل المختلفة لزيادة دخله فى أقصر وقت . أنه لايملك حيث يعمل ولذلك فهو ليس حريصا على الأنتاج فى حد ذاته بل اساسا الكسب السريع ، فهو يقوم بالعمل فى أطار الحد الأدنى الذى يوفر له أعلى دخل واذا كانت هناك سبل غير العمل لزيادة الدخل فلامانع من اللجوء اليها .

ولكنه اذا أكتسب هذه الصفات أى القدرة على جنى المال بأقل جهد ممكن ،والعمل بدون ولاء ولاحرص على الجهة التى يعمل بها ،علاوة على المال الذى أحضره معه ،فأنه يعود الى مصر ويجد نفس المشكلة أمامه : أنه انعزل عن أخوانه الفقراء الذين يعملون كثيرا ولايكسبون مثله . بل أنه فى سعيه للحفاظ على ماجناه من مال ،وتنميته ،فأنه يجد نفسه طرفا مناقضا فى علاقته مع أخيه . فهو يستثمر أمواله أكثر ممايعمل ويكسب أكثر منه بالضرورة . فالنتيجة أنه يستغل أخيه الذى يعمل كثيرا ويجنى قليلا . وتزداد الهوة بينهما حينما يؤدى شراءه النسبى هذا الى أرتفاع فى الاسعار ،الأمر الذى يجعل

فقر أخيه يزداد ضخامة وبذلك يجد نفسه فى عزلة هو الآخر .

ولأنه كفرد فى عزلة فهو يسعى الى التغلب على هذه العزلة بأن ينتمى الى فئة أجتماعية . الى أن يكتشف أن هذه الفئة . هى الأخرى معزولة عن بقية المجتمع . أنها فئة الأثرياء وتواجه عزلتها عن بقية المجتمع والذى يشمل فئة الفقراء . أن العزلة التى شعر بها كفرد انعكاس لهذه العزلة الأكبر ولعلها تساهم فيها أيضا .

ولننظر الى الأنعكاسات الدولية لهذه الحالة . فالوطن العربى منقسم الى دول ودويلات وقبائل وتعصبات . وأصبح الاستقطاب بينهم يتبلور حول قطبين : الثراء لبعض الدول التى توفرت لديها ثروات نفطية من بطن الأرض دون جهد يذكر من جانبها . والفقر للبعض الآخر الذى مازال يعتمد على المصادر الأخرى للثروة والتى تحتاج الى جهد وعمل . وهذا الأختلاف يجعل الدول الثرية فى موقع صاحب عمل يستأجر أيد عاملة رخيصة التى هى الدول الفقيرة وصاحب العمل والمال حريص على الا يكون العامل المنتج شريكا له فى ملكه بل أجير . ولأنه حريص فهو يحرمه من أى حق فى الملكية بأى شكل . ويعوضه عن ذلك بأن يدفع له اجرا عاليا نسبيا . ولكن الأجير لايشعر بالأنتماء ويشعر أن صاحب العمل يستغله . ولذلك فهو لايعمل بأخلاص . ولأنه لايعمل بأخلاص فأنه يثير صاحب العمل الذى يخشى الاستغلال فيزداد حرصا على ماله . وتنشأ حلقة مفرغة .

ولكن الأستقطاب قد لايقتصر على هذا الشكل — أى استقطابا بين دول مالكة ودول عاملة . اذ أن هذا النمط من العلاقات يصدر الى داخل الدول العاملة ذاتها . حيث ينشأ أستقطابا داخليا يمنع وحدتها وبالتالى قوتها فى مواجهة الدول المالكة . فالدول العاملة تنقسم داخليا الى ملاك وعاملين . أو مستهلكين

ومنتجين .

ويستمر الأستقطاب العربى مختفيا وراء أشكال أخرى ظاهرية غير حقيقة وطبيعة الأستقطاب الى دول مالكة ودول عاملة . وهذه الأشكال الظاهرية قد تأخذ شكل الأستقطاب حول قضايا سياسية مثل القضية الفلسطينية أو غيرها . كما تطرح الشعارات التى تؤجل توضيح مثل هذا الأستقطاب وتخفى طابعه الصراعى ولعل أهمها شعارات الوحدة العربية والوحدة الاسلامية . اذ يمكن أن تستمر علاقة الاستغلال بين المالك والعامل تحت شعار الوحدة العربية أو الاسلامية ، بينما الدافع المادى يؤكد أن هناك انشقاق ملموس وأن هذا الانشقاق يأخذ ذلك الطابع المادى حول الملكية والعمل . اذ أن المشاعر القومية والدينية جميلة طالما أنها لا تمس المصالح المادية المباشرة . فالدول النفطية لم تكن تمانع بل كانت ترحب بالوحدة العربية والأسلامية قبل أكتشاف البترول ، وعندما كانت مصر نسبيا قوية وثرية وتدفع أجور العاملين المصريين فى الدول العربية . وعندما بدأ الفقر النسبى يظهر فى مصر والذى عوضته بالقوة العسكرية مع مبادىء الوحدة العربية والحرية والعدالة الأجتماعية (أو الاشتراكية) لم تجرؤ الدول النفطية على التراجع عن شعارات الوحدة العربية صراحة وان كانت تذرعها بالوحدة الاسلامية (حلف بغداد وبعد ذلك الحلف المركزى ومغازلة دول الجزيرة العربية للدخول فيه) هو الذى أنقذها من تحقيق الوحدة مع مصر . ولما خفت حدة دعوة مصر للوحدة العربية والأشتراكية بل كان جزءا من ترابها محتلا بعد ١٩٦٧ ، أى حينما كانت مصر اضعف من أن تحقق الوحدة العربية بشروطها ، انهالت

عليها طلبات الوحدة المشروطة . حتى جاءت صحوة ١٩٧٣ واتضح أن لمصر مخالب وأنياب . وبدأت مصر في الوقوف بدل الركوع . ولم تستغرق المسألة ساعات أو أيام حتى أنسحبت عروض الوحدة ، واحدة تلو الأخرى . فالوحدة كانت مشروطة بأن تكون مصر فيها طرف ضعيف . اما الوحدة التى تكون فيها مصر قوية فهى وحدة تخيف أصحاب النفط . فالأفواه المصرية الجائعة كبيرة ولو كانت لهذه الأفواه أنياب أيضا لزاد الامر خطورة ولما زاد أستقلال مصر للدرجة التى أمكنها فيها أن تتخذ مبادرة منفردة لحقن دماء أبنائها واستعادة أراضيها المحتلة ، زادت مخاوف أصحاب النفط وزادت حاجتهم لأضعاف مصر ومحاولة أعادتها راكعة على ركبتيها .

فشعارات الوحدة العربية والاسلامية التى تطرح اليوم للبيع فى مصر ليست بالضرورة صافية النية أو مخلصة . بل تثير الشكوك حول معرفة صاحب المصلحة فيها ، وخاصة حينما يتبرع طرف او آخر بسخاء لدعمها ونشرها . فهل هى وحدة تسعى الى ابعاد مصر عن الانفراد بالبحث عن حلول سواء كانت حربية أو سلمية لمشاكلها ، فى سبيل أستمرار مصر فى حالة أعتماد غير متماثل مع دول النفط؟ وهل الهدف هو ابقاء مصر فى حالة الأعتماد هذه فتكون العلاقة بينها وبين دول النفط علاقة المالك والأجير ؟ وهل ثمن ذلك أن تنشىء هذه الدول "النفطمالية" أو دول النفط والمال فئات ترتبط مصالحها بها (العاملين فى الدول العربية والمنتفعين بأعمالهم) فتفضل بذلك مصالحها (أى مصالح هذه الفئة) والتى تلتقى وتتقاطع مع مصالحهم النفطمالية على مصالح مصر ككل ؟

لسنا فى حاجة الى وثائق وأدلة للاستدلال على ذلـــك التقاطع بين مصالح الدول النفطمالية ومصالح الفئات المنتفعة بها فى مصر ،ولا الاستدلال على كيفية استغلال هذه وذاك لحماس الشباب وبحثه عن المثالية من خلال العقيدة ، فقد نجحـــت من أول الأمـــر فى ضرب الدعوة الى العدالة الاجتماعيـــة بأن شوهت صورتها بربطها بالتجربة الاشتراكية المبتـــورة السابقة فى مصر ،وربط هذه بالشوعية ثم بالالحاد . وبعد هذا النجاح كان أملها أن العقيدة البديلة ،وهى الدعـــوة الاسلامية ،سوف تدين وتخضع لها وتخدم مصالحها .

الا أن العقائد تجذب الجماهير،لابفضل تماسكها النظرى الذى يجذب المثقفين والمؤمنين بها ،ولكن بفضل قدرتهـــا على تلبية حاجاتهم وتحقيق آمالهم . فالاسلام أنتشـــر بسرعة بفضل قدرته هذه على تحقيق العدالة والحرية حيثما ذهب . والدعوة الاسلامية الجديدة تنتشر أيضا بالقـــدر الذى تحقق فيها مطالب الجماهير أو على الأقل تعد بمثـــل هذا التحقيق . وطالما كانت الجماهير فى حاجة الى قيادات مؤمنة تعدها بحل مشاكلها وتبين لها السبل الى ذلـــك فان العقيدة الجديدة يصعب عليها أن تستمر فى خدمـــة سيدين . وعليها أن تختار بين خدمة الجماهير أو خدمة النفطماليـــة .

أن الشباب المثالى والمثقفين لاغبار على صفاء نيتهـــم فيما يتعلق بعقائدهم . ولكن الغبار يأتى حينما نجـــد الدعم المالى ،وخاصة النفطمالى ،يتكالب عليهم بسخاء .

والدلائل ليست كما أشرنا بالضرورة فى الوثائق ،ولكـــن يمكن رؤيتها فى الدوافع التى تحرك الانسان الذى يكشـــف نفسه بصدق أمام المعالج النفسى . بل أن المعالج نفســـه بصفته من المهن الحرة التى ترتبط هى الأخرى بالنفطماليـــة اذا ماكشف نفسه هو الآخر سوف يجد الدوافع التى تحركـــه

شبيهة بالتى تحرك مرضاه من المنتفعين بالنفطمالية .

أننا نكتشف فى هذه الحالة كيف نخاف من زيادة توتر علاقتنا مع الدول العربية النفطمالية لأننا بلا تردد نفضل العمل فيها مؤقتا على العمل فى مصر . وعملنا مؤقت وهدفه جنى المال وليس الانتاج أو تأدية خدمة . فنحن نعرف أننا عرب ومسلمون من الدرجة الثانية وليس لنا حقوق فى غير دولتنا المتواضعة نفطماليا .

ونخشى لنفس السبب أى اقتراب من اسرائيل فى ذات الوقت الذى شمنا فيه القتال وما يصاحبه من دماء وأموال وأراض مصرية . فاننا بالاضافة الى خوفنا على انقطاع علاقاتنا العربية من جراء اقترابنا من اسرائيل ، نخشى المواجهة المباشرة مع هذه الاخيرة ، سواء فى مجال التنافس أو التصارع أو التعاون .. فهل من مدير بل موظف صغير لا يرى غضاضة فى أن يكون المرء رئيسا سابقا للوزراء ومع ذلك يسكن فى شقة متواضعة من غرفتين ويقدم بنفسه القهوة لضيفه ؟ أننا بلا شك نفضل القيم النفطمالية حتى ولو كنا من المحرومين منها ، فالأمثلة التى أمامنا تؤكد أن المرء يمكنه أن يصعد من الحضيض الى السماء فى لمحة بصر ، وهذا يعطينا الأمل الذى يصبرنا على الحرمان . علاوة على ذلك فأن اسرائيل ليست لديها أموال نفطية أو غير نفطية ولا هى فى حاجة الى أيدى مصرية للعمل ، وكل ما تستطيع أن تقدمه لنا هو التعاون وخاصة التكنولوجى وعلى أسوأ الفروض التنافس الذى يحثنا على العمل . وهو تعاون يعيبه أنه قد يذكرنا بأننا لسنا " الخبراء الأجانب " كما نعتقد عن أنفسنا حينما نعمل فى الدول العربية ، بل أن لدينا الكثير مما يجب أن نتعلمه من هؤلاء " الخبراء" الأجانب فعلا لا شكلا .

ولذلك فأن الحل الذى نجد أنفسنا منزلقين فى اتجاهه هو ان يكون السلام مع اسرائيل حكوميا فقط ولا يتعدى تبادل

السفراء واللهم ان كان هناك بعض المشاريع التجارية التى قد تعود على بعضنا بالربح السريع . بل نفضل أن تتحمل الحكومة وحدها مسئولية السلام بينما نستمر نحن ننادى بشعارات الوحدة العربية والاسلامية ارضاءا لأخواننا أو بالأصح أصحاب المن النفطى من العرب . ١١

لقد أصابتنا أمراض التخمة النفطالية ومايصاحبها من اضعاف للأنتاج وزيادة فى الأستهلاك من جانب الصفوة الأجتماعية . ويقابل ذلك احساس بالحرمان والنقمة من جانب الجمهور . وبينما أمراض التخمة يتاح لها امكانية العلاج الخاص والمتخصص على المستوى الفردى متخذة شكل الأمراض التى يشار اليها بأمراض الحضارة مثل أمراض الحساسية وتصلب الشرايين وأضطرابات الجهاز الهضمى وغير ذلك ،علاوة على الأمراض النفسية كمانعرفها فى الأطار الطبى النفسى التقليدى ،فأن أمراض الحرمان كثيرة ولايتاح لها فرصة العلاج الفردى الخاص والمتخصص . وكثيرا ماتأخذ هى أيضا أشكال الأمراض الجسمية المشار اليها والأمراض النفسية التى قد يغلب عليها الطابع المعادى للمجتمع أو المنسحبة منه ،وعندئذ قد تتداخل مع الجريمة التى تستحق الحبس أو العنف الذى يستحق الحبس المقنع بالأنسانية أى دخول مستشفيات الأمراض العقلية .

حكم عربية من العيادة النفسية

١- من أجل الثروة النفطية .. فقدت القدرة الجنسية

" فقدت القدرة الجنسية مع زوجتي . ومن قبلها فقدت الرغبة . ورغم ذلك فانى محتفظ بالقدرة والرغبة مع غيرها ولكنى استدرك اننى صرت عبدا لشهواتى . واصبحت مغامراتى معطلة لى عن عملى وعن حياتى . اذ اننى انشغل بالبحث عن اللذة بان اسعى وراءها لدى هذه اوتلكمن الغانيات وبعد ان احصل على ما اريد امل ،فاتركها لغيرها وهكذا. واصبح هذا شغلى الشاغل . وترتب عليه اننى اقضى القليل فقط من وقتى مع زوجتى واسرتى .

بدأذلك منذ ان حققت نجاحا فى عملى . وبدأنجاحى فى عملى منذ ان اختصرت الطريق ،وتركت المثل العليا من خدمة الجماهير الى زيادة الانتاج ومن العمل بضمير وكرامة الى حب العمل وعمل ما أحب . ذهبت الى بلد عربى ،وتعلمت من اين تؤكل الكتف ،وكيف اهدهد هذا الشيخ النفطى او ذاك الامير بمايجعله يفتح لى ابواب المكسب السريع الوفير،الذى يفوق مرتبى النفطى اضعافا ،والذى يفوق هو بالتالى مرتبى المصرى اضعافا .

عدت بعدها الى مصر ذكرا منتفخ الجيوب منتصب القامة وكان لدى من المال مايجعلنى اكسب المزيد من المال . هذا هو السر: المال يجلب المال.والعمل . وليس العمل هوالذى يجلب المال . وانتقلت الى طبقة اجتماعية جديدة مليئة بالغوانى والاغانى تجوب الاغنياء ،لامعنى فيه للوفاء . الزواج من اجل الابناء . اما المتاع فهو دائما هناك . كل ما فى حوزتى غباء . دائما اريد مما لااملك ،منذ ان كنت افتقد المال واشتهيه . ثم حصلت على المال ولكنى بقيت اشتهى منه

المزيد. فالذى عندى لا احبه . والذى ليس عندى اشتهيه . وهناك مال ليس عندى ولابد ان احصل عليه . وهناك نساء ليست عندى ولابد ان احصل عليهن . زوجتى عندى ولا اريدها ."

" ياصديقى كان المال بالنسبة لك رمز الرجولة . ولم تكن ترضى بما تملك من رجولة فى علاقتك الوفية الاولى ، بزوجتك. ولعلها مثل غيرها ممن يطلبن المزيد من الاستهلاك ، طلبت منك المزيد من ذاك ..." ذاك المورد الذى يحقق الاستهلاك : المال. ولعلك شعرت بشكل خفى انك ناقص الرجولة . فتركتها وتركت الرجولة لتعمل صبيا لدى صاحب الرمز الذكرى : من يملك من مخزون السوائل السوداء مايكفى اناث العالم فى حاجاتهم الاستهلاكية الاساسية . فرضخت له ولقيمه وصرت صبيا لديه وغلاما تهدهده ويهدهدك ، حتى يلقى لك بما يشاء فى ماتشاء.

وعدت بحصيلتك المالية لتشبع زوجتك المشتهية . ولكنك وجدت ان للشهوة الاستهلاكية ، حدودها اللانهائية . فهما هى تطلب المزيد. واولادكما ، وقد ازدادوا ارتباطا بها فى غيابك يتحالفون معها ليطلبوا المزيد . بعد كل هذا العناء ، لاتجد شكرا ولاثناء .. ولكن بعد ان تعودت الركوع من أجل المال اصبحت عاجزا عن الانتصاب من اجل الحب . ونكرت انك خنعت اوركعت ، وزاد تمسكك المصطنع برجولة لاتصدقها ، وشهد عليك جسدك فى بقعة خفية ، بماكنت تكذب من ادعاء لرجولة وهمية. وثرت لرجولتك وانطلقت تبحث فى احضان الغانيات عمن تطمئنك عليها . فنجحت ولكن الى حين. فالدنيا بطبيعتها متاع الى حين. ولكن كلما طال الوقت واستمرت العلاقة اقتربت المخاطرة بان تكتشف الغانية السر مثلما اكتشفته زوجتك . فتتركها وتذهب الى غيرها . وهكذا تبحث بلا توقف عن طمأنينة لاتجدها. حتى واجهك اليقين ، وان كل هذا متاع الى حين . واتى يوم الحساب، فانيت محاسبا نفسك قبل ان تاتيك يد الحساب الاليم .

جئت الى لكى اقول لك ماتريد اى تسمعه وهو ان تعود الى

زوجك وان ترضى بماوفره ربك ،وان تعمل لدنياك ولآخرتك وبعد هذا قد ترى ربك . انني لااقول لك ،ولكن فقط استجيب لما تريدان تسمعه . فهذا هو طريقك الذى تبحث عنه . فلتسير فيه وحدك . وان خفت او تراجعت ،فتذكر الاتتركني وحدىمثلماتركتاسرتك،وان مصيرك هنا ايضا ان تعود. فالسراط واحد ومستقيم . ومهما انحرفت عنه فلابد ان تعود .

٢- انهاتعوقني وأريدأن أتركها

" لقد تأزمت حياتي الزوجية بعد خمسة عشر عاما من الاستمرار . صحيح انني كنت اشكو قبل ذلك ،ولكن الزواج كان باقيا و الوضع الآن مختلف : فقد فاض بي الامر واريد ان اتركهاالأنها تعوقني . انا انمو واتغير بلاتوقف. فها انا في الخمسين من عمري واولادي على وشك الزواج وحققت من النجاح المالي مايوفر لهم اساس الحياة الكريمة . ولكني مازلت انمو واتطور،بمعنى انني اريد ان ابحث عن هدف اسمى لحياتي . لم يعد يكفيني ان اكون اسرة راحقق نجاحا ماديا ، ولكن اصبحت لي طموحات جديدة . اريد ان تكون لي مكانة في المجتمع . ووجدت ان ذلك يتحقق بفضل نجاحي السابق في الحصول على المال والبنين ثم بتجاوزه في اتجاه خدمة القوم اجمعين . اريد ان اكون خادما للناس وان اكرس نفسي للعمل العام . وهنا أتت المشكلة . فزوجتي لاتعرف الحياة العامة ولاتهتم بها. وتكاد تغار على من الحياة العامة التي بدأت تجذبني . وبدأت تشدني بعيدا عن حياتي الجديدة بان تجدد المطالب التي ظننت انني حققتها وهي تكوين الاسرة وتوفير المال لها ، اي البنين والمال ،وكانت تسعى بالحاحها ان تبقيني بجوارها وبجوار الاولاد ،او على أسوأ الفروض ان يكونكمانى عملى قاصر على مايعود على" بالمزيد من المال . كنت اشعر في البداية بالتقصيرتجاه اسرتي . ثم قررت ان اثور على كل ذلك . وان احقق ذاتي بأن افعل مااريد وهو العمل العام . ولما وجدتها عنيدة ومتشبثة قررت ان امضي في الطريق وحدي وان أتركها .

* * * *

" ياصديقي لوكان الامر بهذا اليسر لما جئت الي ولكن لذهبت فورا الى المأذون . انك تعي انك مسئول عما هي فيه

فقد تزوجتها فى شبابك واتفقتما على توزيع الادوار بينكما هى تصنع الاسرة ومابها من بنين ومتاع وطيبات من رزق المولى ودفء العش ، وانت تخرج الى العالم لتساهم فى صنع المجتمع بمؤسساته الاقتصادية والتى توفر لك المال الذى يجعل كل ذلك ممكنا كان لابد من توزيع الادوار بينكما ، لان جهد بناء البيت يحتاج الى امرأة تعمل به كل الوقت ، بينما كان يكفى جهدك لان يوفر المال وهو متحول . ولكن لهذا التوزيع الحاد للادوار ثمن ، والثمن هو ان عاش كل منكما فى عالم مختلف ويكاد يكون منفصل من الآخر .

وبفضل نجاحك المادى وبفضل نجاحها فى تربية ابناء كبروا واستقلوا اصبح من الممكن ان تنقل اهتمامك نحو اهداف اسمى . ذلك لان العمل العام الذى تتحدث عنه ماهو الا استمرار للعمل الذى بدأت به وهو عملك فى البناء الاقتصادى للمجتمع ، كما ان الانتقال من البناء الاقتصادى للمجتمع الى البناء الحضارى هو انتقال مفهوم ومتدرج . كأن تدير مصنع او مؤسسة فتنتقل الى ادارة حياة الناس فى دائرة سياسية اومحافظة اوفى قطاع من الدولة . ولكن النقلة بالنسبة لزوجتك فى ضوء الدور المحدد الذى قضت حياتها فيه ، نقلة صعبة .

لن اقول انك اخطات فى حقها بانك لم تشركها معك فى تطورك وتركتها منغلقة فى دائرة اهتمام محددة وهى الاسرة فقد يكون الخطأ من جانبها بنفس القدر انها لم تبادر للخروج من دورها المحدد ، او من جانب المجتمع الذى ارسخ تقاليد ذلك التوزيع المحدد للادوار . ولكن سأقول انك شريك فى المسئولية وذلك لانك تتردد فى تركها وتعلم انك بتركك لها انما تترك جزء من نفسك . والمسئولية يمكن ان تجد التعبير عنها من خلال محاولتك الجادة لاشراكها معك فى حياتك بكل ابعادها . ليس من المسئولية ان تغضب منها وتعاقبها بتركك لها . ولكن المسئولية ان تحول غضبك الى فعل . وان يكون الفعل جاد .

وعندماتتيقن عندئذ انك فعلت كل مابوسعك فسوف تتخـــــذ قرارك بدون معونة او استشارة . سوف تأخذ ها معـــــك اوتتركها وتمضى وحدك او تخشى الوحدة فتعود اليها هارعا وتصبح انت طفلها الجديد بدلا من اولادكما الذين كـــــبروا وتركـــــوا الاســـرة .

٣ـ طردت منجنة الشراء المترهلوأقاوم العمل

لقد ذقت من اضطراب نفسى شديد، واشكر لذلك زملاء
لك فى الطب النفسى صنعوا لى الدواء والكهرباء والاستشفاء
فى مكان نائى عن عجلة الحياة المسرعة. اما الآن فانى
اشعر ان العقاقير تكبلنى وتشلنى انفعاليا وجسديا. انى
امشى بصعوبة بل ابدو وكانى تمثال من الشمع، واشعر
بالتبلد. قطعا ستقول لى ولم لم توقف الدواء مادمت قد استنتجت
انه الذى ادى بك الى ذلك الحال؟ لقد فعلت. ولكن النتيجة
اننى انتكست وعادت لى الاعراض: اسمع اصواتا تنادينى
او تتكلم عنى، أسىء فهم حديث الناس معتقدا انه موجها
نحوى. ارى الاحداث وكأنها تحمل معانى موجهة ضدى
شخصيا.. فمثلا اذا تاخر القطار قليلا فانى اعتقد ان ذلك
امر مقصود ومعناه اننى لابد ان اعدل عن القيام بالسفر
وكذلك تعود الى معتقدات ان اجهزة الشرطة والمباحث تتبعنى
وتسلط الرادار على عقلى لقراءة افكارى وغير ذلك من
افكار ومشاعر يستغربها الناس، بل اجدها انا غريبة حينما
اعود الى حالتى الطبيعية بفضل العلاج.

فانا حائر بين مضاعفات الدواء من تبلد المشاعر وبين
آلام المرض حينما اتوقف عن الدواء. وجئتك لابحث عن حل
توفيقى لاتلفيقى، واعلم انك تريد ان تعرف عن حياتى
وظروفى.

لقد انتابتنى هذه الحالة وانا فى بلد نفطي اعمل عملا
حرا وناجحا. ثم وجدت المنافسة شديدة واصحاب الملايين
لايريدون ان ينضم الى ناديهم صعلوك مثلى. هكذا ينظرون
الى والى غيرى من العاملين الوافدين، اننا صعاليك واجراء
وطامعين فى اموالهم. وشنوا الحرب ضدى حتى افلسونى. فعدت
قبل ان اصل الى القاع المالى، ولكنى كنت قد وصلت الى القاع

النفسي وجننت وانتابتني هذه الاعراض التي وصفتها . وعدت الى بلدي مصر تاركا زوجتي واولادي . فقد ساهمت هي الاخرى في تجنيني . اذ هي امرأة عاملة وناجحة واستطاعت ان تتحمل الحرب واستمرت وحدها . فتركتني كشريك اقتصادي كما تركتني كشريك زوجي .

عدت لكي اعيش هنا على عائد من بعض ما ادخرت . فقد سبق ان اشتريت بعض الاملاك وقت الرخص ها هي قد صعد ثمنها الى السماء فجأة واصبح ثمنها وحده قادر على اعاشتي بمجرد وضعه في البنك وحتى الفائدة منه . انني لا اعمل لانني اكبر من ان ابدأ من اول السلم . واكتفي بهذا الدخل المريح

والآن ماذا افعل بالدواء ، وكيف أحيا بلا تبلد وبلا قلق مفرط ؟

* * *

" يقولون ان في الداء دواء . ولكن الدواء كما رأيت ايضا به داء . فالافراط في الدواء له مضاعفاته . واذا كان شيء من الهدوء مطلوب بالنسبة لانسان قلق فان الكثير منه يساوي التبلد . كما ان قليل من القلق مطلوب لكي يستمر الانسان حيا في تفاعل مع محيطه ولكن كثيرا من القلق يعوقه وهنا تنطبق الحكمة القائلة بأن خير الأمور أوسطها .

ان الدواء الكثير يؤدي بك الى التبلد ولكن هذا لا يعني ان القليل منه يؤدي الى قليل من التبلد ولكن الى هدوء تحتاجه . لان القلق الكثير الذي ينتابك من غياب الدواء هو بالقدر الذي يسمح لك بالانفعال المحدود ولكن دون القلق المربك وكذلك دون القضاء تماما على الانفعال بما يؤدي الى التبلد .

في هذه الحالة فسوف تتمكن من ان تغضب وتنفعل لهجرة زوجتك لك ولكن بالدرجة التي تسمح لك ان تفعل شيء اكثر من مجرد البكاء على الحبيب الهاجر . وكذلك سوف يكون غضبك

من المجتمع الشرى الذى طردك منه ليعيدك الى حظيرة العاملين المكافحين ٠

ولكن ماتحتاجه الآن هو ان تثور على ذلك المجتمع الشرى المترهل ،ليس بالغضب او الكره ولكن بالعمل ٠ فبواسطة العمل تستطيع ان تقول لهذا المجتمع انك فى غنى عنه ،بل توءكد اكثر من ذلك ان عملك هو مصدر ثرائه ٠ وان ثروته المكدسة وان كانت فى الامد القصير تنجح فى طردك من معشر الاثرياء الا ان لها حدود ،وسوف تنتهى مثل مخزون النفط الذى تستمد منه ٠ والذى سوف يبقى هو عملك القادر الوحيد على الانتاج ٠

ولكن الاهم من ذلك ان عملك مفيد لك بغض النظر عن العائد منه ٠ فالعمل يوفر للانسان اكثر من احتياجاته المادية اذهو يوفر له - الاحترام من قبل الآخرين ،والسلطة والنفوذ بل والمجد اذا كان نتاج عمله سوف يفيد الاجيال ٠ وهذا الاحترام لنفسك الذى سوف تحصل عليه من عملك هو الذى بواسطته تستطيع ان تعيد زوجتك واسرتك اليك ٠ فالمرأة تفضل الرجل العامل على العاطل حتى لوكان هذا الاخير ثريا ٠ والقصص مليئة بالنساء اللائى يهبن انفسهن للعاطل الثرى فيكتشفن خطئهن ويحاولن اصلاحه بعشق العامل ٠ هل قرأت قصة " عشيق الليدى تشاترلى " للروائى الانجليزى د٠ه ٠ لورنس؟ هيا اذا امسك فأسا او مطرقة او قلم او اى أداة واعمل فالعمل عبادة ٠ والعبادة توصلك الى اليقين ٠

٤- نعم هجرت أسرتى .. ولكن من أجلهـا

" هذه ابنتى البالغة من العمر ستة عشر عاما . لقـــد علمت انها مضربة فى الايام الاخيرة : فقدت شهيتها للطعـــام ونومها مضطرب ،وفقدت اهتمامها بدراستها ،وساءت علاقاتهـــا مع افراد الاسرة . الا ان بوادر ذلك الاضطراب كانـــــت موجودة منذ ثلاث سنوات حين تركت البلاد سعيا وراء الاجـــر الوفير فى بلاد النفط . ذهبت وحدى تاركا زوجتى وابنائـــى حتى يستمروا فى عملهم ودراساتهم . وعوضتهم عن غيابـــى بأن ارسلت لهم النقود او ماتشتريه النقود من احتياجـــات اساسية واضافية . ظننت أن الراحة المادية التى سوف أوفرهـا لهم سوف تعوضهم عن غيابى . ولكنى وجدت المعادلة خاســـرة فليست ابنتى هذه هى الوحيدة التى اضطربت وان كانت هـــى الوحيدة التى ظهر عليها الاضطراب بهذه الدرجة . فقد اضطربـت الاسرة ككل وأنا من ضمنها . فحياتى بدونهم ،بل وبانشغالـى عليهم ،تفتقد السعادة وراحة البال . وضاعف من معانـــاتى اننى وجدت نفسى فى بيئة غريبة . فلا العلاقات الاجتماعيـــة توفر لى الالفة ،ولاعلاقات العمل توفر لى الاحترام ،بل أن الاحتياجات الأساسية من مأكل وملبس ومسكن وان كانت متوفرة فهـــى بلا طعم بدون وجود من يشاركنى فيها وهم افراد أسرتـــى. هؤلاء الناس اقارب واصدقاء بل هم طائفة من الاشرباء يروننـــى اجيرا عندهم طامعا فى مالهم . والفقير منهم يرانى مزاحمـــا له فى مورد رزقه . صحيح انهم يحتاجون عملى . ولكنهـــم يعتبرون أن المال الذى يوفرونه لى هو المقابل الكافى لـــه ولكنهم لايريدوننى ان أكون منهم حتى اشاركهم اياه . ولذلــك يغربوننى عنهم بحجب احترامهم لى . انهم يتعاملون معـــى بتعالى . وبما انهم ليس لديهم مايبرر تعاليهم علـــى

سوى مايملكون من نقود فهم يجعلون من نقودهم القيمة العليا وافتقادى لها قصور وبالتالى مدعاة للازدراء . لقد قررت أن أقطع اعارتي وأعود الى مصر . الا أن جواز سفري محجوز لديهم وعليه فليس لي حق ترك العمل بينما هم يملكون حق طردي فى أى وقت . ولكنني أستطيع فى نهاية العام بالا أجدد اعارتي عاما آخر بعد انتهائه . سوف أعود لاسرتي لأرعى أمورها . ولن اكتفى بأن اكون مجرد مصدرا للخبز وحده بل سوف أعوضهم مايحتاجونه من الفة ودفء ومحبة علاوة على النظام والحدود والقيم .

ولكن أرجو منك أن تريح ابنتي الآن . كما أرجو ان تشهد لها بالعذر المرضى لغيابها عن الدراسة والامتحان اذا كنت ترى ذلك ."

* * *

خيرا فعلت بأن حضرت مع ابنتك ،لالتشكو من مرضها فقط ولكن لتشكو من الاضطراب الذى أصاب الاسرة وانت على رأسها . بل وأنت مالك مفتاح الحل والربط فيها . ففي سردك صياغة للتشخيص وبوادر العلاج . وكان الايسر عليك أن تستمر فى التعامى عن دورك فى المشكلة ،وتكتفى بأن تبرز الاعراض المرضية عند ابنتك وتطلب الدواء الذى يتغلب على الاعراض.

سوف أصف لها الدواء نعم وسوف أحرر لها الشهادة بالاعتذار عن الدراسة . ولكن لابد أن أؤكد لكما ،وكما هو واضح فى سردك ، ان ليس فى هذا الحل الجذرى للمشكلة . الدواء سوف يخفف من حدة الانفعال الذى ظهر عليها فى صورة هذا الاحساس بالقلق والتوتر النفسى والمرتبط أيضا بالاحساس بالاكتئاب الناجم عن افتقادها لك . وكل هذا يظهر عليها فى صورة اضطرابات النوم والشهية وتوتر علاقاتها بأفراد الاسرة . والاعتذار عن الامتحان سوف يعطيها الفرصة أن تحاول مرة اخرى فى ظروف افضل دون ان تعامل على انها طالبة مهملة

او مستهترة . ولكن الاكتفاء بهذا العلاج للأعراض سوف يؤدى
الى التبلد . فقد تختفى حدة الانفعال وتنتفى خطورة الفصل
من الدراسة وذلك قد يجعلها تبدو وكان المشكلة قد انتهت
وتستمر أنت مغتربا فى عملك . وتستمر هى بلا انفعال
يظهر لك اضطرابها وبحثك على حل المشكلة .

لقد تيقنت ان اعراضها ماهى الا طريقتها للصراخ
والتعبير عما تعانى الم نتيجة لغيابك عن الاسرة . بل
هو تعبير عن معاناة الاسرة . فالاسرة بمافيها انت
تعانى ولكن ابنتك هذه هى التى تصرخ وتشكو وتضطرب .وهى
التى تحضر للعلاج . ولذلك لابد من ان نبدأ فقط بعلاج هذه
الاعراض على ان نكمل بعد ذلك بعلاج جذور المرض .
[illegible] وانت وضعت [illegible] على بداية الطريق نحو علاج الجذور
[illegible] تيقنت ان [illegible] ماهو [illegible] مرض للاسرة ككل .
وانمرض الاسرة قد ترسب بذهابك عنهم للسعى وراء المال .

ولكن لاتقس على نفسك وتحمل نفسك ذنب . فقد ذهبت
وراء المال من اجلهم اساسا . فقد كانت افواههم الجائعة
[illegible] . انهم يريدون الطعام .وبعد الطعام [illegible]
المسكن ثم الزوج الذى بواسطته يبدأن فى تكوين اسرة جديدة
وينفصلون عنك . وكل هذا يتطلب امكانيات لايمكن ان تتوفر
من مرتبك او عملك الشريف . ولم يكن امامك غير ان نذهب
وكان عليك ان تختار بين ضربين : البقاء ومايصاحبه
من احساس بالعجز اوالسعى لتوفير متطلبات الاسرة العاطفية .وقد
اخترت الثانى ودفعت الثمن من تقصيرك فى الجوانب العاطفية .
وبنفس الحرية فى الاختيار فانك الان تختار مرة اخرى
أن تعود لتعوض ماقصرت فيه من احتياجات عاطفية للاسرة

اما انت يا ابنتنا لعل اشتراكك فى ذلك الحوار الذى
يدل على ان اعراضك ماهى الاتعبير عن معاناة جماعية

تشترك فيها معك الأسرة كلها بما فيها والدك الذى صاغ الشكوى وأن يكون فى ذلك مواساة لك بأن البلوى ليست بلواك فقط ولكنها بلوة أباك وأمك وأخوتك . ومن رأىبلوة غيره هانت عليه بلوته . فهذا أبوك قد شكا من ألمه وفسر لك سبب غيابه عنك .

ولعلك كنت تعلمين ذلك بعقلك ولكن لابد من أن انبهك أن ترك أبوك لك وللاسرة قد أثار فيك أنفعالات تفوق الموقف . فأن أحساسك بالقلق والاكتئاب لهو تكرار لأحساس الطفل الرضيع حينما يطلب الطعام فلايجده فورا فيصرخ وكأنه مهدد بالمجاعة . الى أن يتيقن أن الطعام آت بعد قليل. ويتعلم الصبر والأنتظار والتوقع بالحد الادنى من القلق والصراخ أننا جميعا نحوى بداخلنا تلك الانماط الطفلية فى الأستجابة نصرخ ونبكى حينما يغيب عنا طلبنا ولانستطيع الصبر.

لقد أكد لك ابوك أنه أنما تركك من أجلك .. من أجل تلبية أحتياجاتك وطلباتك . وهو لم يتركك لانه مهمل أو غير مكترث بك أو لانك لست أهلا بصحبته . كما أكد انه رغم ذلك سوف يقطع أعارته ويعود قبل الموعد بعام كامل. معايدل على أنه يفضل أن يلبى مطالبك المعنوية هذه ولو على حساب مطالبك المادية . فأنت بصراخك تقولين له أنا فى حاجة الى وجودك بيننا فى الأسرة . توفر لناالدفء والمحبة علاوة على النظام والقيم . فأن تركك لنا جعلناشعر بالوحدة وباختلال النظام الامر الذى جعلنا نتعارك ونتشاجر .

سوف أعطيك من هذا الدواء الذى يخفف من حدة معاناتك ولكن الدواء الحقيقى هو ما وصفه أبوك أساسا . وهو أن تعرفى ان اعراضك صرخة نداء لعودته . وانه سمعها ، وانه سوف يعود ، وانه لم يتركك الا من اجلك، وان عليك بعد ذلك ان تصبرى وتدركى ان الافراط فى الصراخ لن يجلب لك وله الا المزيد من الالم ،ومايؤدى اليه من عجز فى مواجهة

أعمالك وهى فى المقام الاول دراستك . عليك أن تصبرى وأكثر من ذلك أن تبدئى فى العمل . فبواسطة انهماكك فى العمـــــل تستطيعين أنتخففى من حدة الملك وهو تخفيف أفضل من تخفيــف الدواء لأنه مصحوب بالأحساس بالثقة والنجاح . فهيا اذا الـــى عملك وأتركى أباك يذهب الى عمله . وسوف انتظر زيــــــاق أخرى منك لاطمئن على نجاحك فى بدء المســـيرة .

"هذا ابنى على باب المراهقة فى سن الخامسة عشر . أبوه يعمل فى دولة عربية منذ عدة سنوات ولكنه يحضر عدة اسابيع كل عام : ويقضيها فى مشاجرات مستمرة معى الأمر الذى جعلنى اشكو بدورى من النفور الجسدى تجاهه ،وأصبحت اشمئز منه فى الفراش . فهو لايميز بينى وبين المرتبة حينما يحين موعد نومه .أنه لايراعى شعورى ولايقدم لعلاقته الجسدية بى بأى نوع من مظاهر الرقة أو المودة . بل كثيرا اما تكون المقدمات عبارة عن شجار قد يأخذ شكل الضرب من جانبه .

لقد سافر للعمل فى بلد عربى أصلا لكى يستعيد مكانته كرب أسرة يلبى لها مطالبها المادية . فقد كان حتى ذلك الوقت يعتمد ولو جزئيا على دخلى من عملى . ونتيجة لهذه العلاقة الندية اقتصاديا ،والتى لم يكن يقبلها أصلا على المستوى النفسى والاجتماعى كان يشعر بالنقمة على فقد نشأ ككثيرين غيره على أن عائل الاسرة هو ذكرها وأن الاعتماد على دخل المرأة يعيبه ويحط من شأنه . وبالطبع فان نشأتى الاجتماعية لم تختلف كثيرا عنه . وعليه فلم يكن رفضى الدفين لهذا الوضع خافيا . ولكنى مع ذلك اكتسبت أمتيازا بصفتى مساهم ندى فى الحياة الاقتصادية فى الاسرة . والاسرة قد تعودت على هذا المستوى الاقتصادى الذى لم يعد يحتمل التقهقر . فالمطلوب هو زيادة الدخل مع مجاراة المستوى المرتفع للمعيشة .

ولذلك لم يكن هناك بد من سفره . انه لابد وأن يلبى احتياجات الاسرة المالية المتزايدة . ولابد أن يلبيها بدون الاعتماد على . لقد سافر ليستعيد رجولته ومكانته كرب للاسرة . ولعل اشباعه لهذا الاحتياج ،أن يستعيد مكانته المفقودة فى الاسرة سوف يعيد له ثقته بنفسه ولعل عودة الثقة سوف تعوضه عن حاجته للتعويض عن احساسه بالنقص بأن يتعالى على ويتعامل معى كانى قطعة من الاثاث بل ،كما قلت لايفرق بينى كثيرا وبين

المرتبـــــة .

معذرة . ماهذا الذى أقوله ؟ لقد جئت لاشكو لك من ابنـــى والذى ينتظر فى غرفة الانتظار بينما أعطيك أنا نبذه عـــن سلوكه المضطرب دون أن يسمع . فهو سريع الغضب وأنا اخشـــى ان يتحول غضبه الى عدوان ويبدأفى ضربى : فهو الآن على بـــاب المراهقة وجسمه ينمو وعضلاته تقوى وصوته يزداد عمقاوخشونـه .

نعم أخشى ابنى . صحيح أنه لم يضربنى حتى الآن ولكنــــه يتعامل مع أثاث المنزل بعنف يحمل التهديد باننى لو لـــم أرضخ لطلباته فسوف يتعامل معى كما يتعامل مع الاثاث ، أى بالعنف . الايكفينى أن أبوه يعاملنى كالمرتبة . وها هـــو الآن يوحى بأنه قد يعاملنى كالمقعد أو حتى السجادة : يجلـس على ويسير على ويستعبدنى لخدمته . انى أخشاه لدرجـــة أننى دخلت عليك وحدى لاشكو منه دون أن يسمع . وأخشى أن يسمع ما أقوله لك فيتهددنى . أرجوك لاتقول له ما قلته لـــك. بل أننى لم اقل له أننى آخذه لطبيب نفسى . بل قلت لـــه طبيب بدون تحديد . على أن افسر له كونك طبيب نفسى بعـــد ذلك بأن أقول أننى انما جئت لك لاننى أنا أعانى من الالـــم النفسى وليس هو . حاشا لله أن يقال عنه مجنون . فأنـــى فى بعض الاحيان أفقد تحكمى فى نفسى وأصرخ فيه أن يكف عن تصرفاته المجنونة الامر الذى يزيد الحريق اشتعالا ويجعله يتمادى فـــى ثورته وغضبه . أرجو أن تعذرنى اذا كنت اشير الى ان الحضـــور الى طبيب نفسى يعنى الجنون وأن الجنون وصمة عار . ولكن هـــذه هى القيم السائدة فى مجتمعنا . اذا لم يعجبنا شئ قلنا عنـــه جنون . وان كانت هناك سبة جديدة نستخدمها هذه الايام لندين من يخالفنا وهى الكفر والالحاد او اليسارية او الشيوعية ."

* * *

أن خوفك من جنونه اى غضبه جعلك تفضلين ان تقولى علـــى نفسك انك انت المجنونة بمعنى انك المريضة التى تشكو للطبيـــب

النفسى . ولكنك تهمسين لى دون أن يسمع هو أنه هـــو المجنون ولست أنت . وتريدين منى موافقة على ذلك . فأتحالف معك فى أن نستمر فى ادانته بالجنون دون أن نقولها لـــه، ولكن هناك حدود لاخفاء الحقيقة . فهو قد حضر معك للعيـــادة ولابد لكى يبدأ فى تقبل العلاج أن يتقبل كونه مريضا أو مجنونــا كما يحلو للكثيرين أن يقولوا . فلابد أن يضع أحد منا الجرس على رقبة القطة ويقول له أنه مجنون وفى حاجة الى علاج . وأنـــت تقولين ذلك فى لحظات الغضب فقط . وتدفعين الثمن بالطبع مـــن غضبه المضاد . وتريدين منى الآن أن أعاونك بأن اقولها لـــه . اقول له أنه مجنون ويحتاج العلاج . بل تشفقين على مـــن العواقب فتطلبين منى أن اقولها بالفعل فقط بدون اللفـــظ اى أن اعطيه العلاج دون أن اقول له انه مريض . بل وان اكشف عليه دون أن اقول له انني اكشف عليه ولكن اننى اكشف عليك أنـــت واعالجك انت .

" على العموم المسألة بسيطة . وسوف أقص عليك احدى نـــوادر جحا . فقد كان جحا يعد لمقابلة السلطان بأن يتلقى التدريـــب على الاجابة على أسئلته . وكانت الاسئلة التى ينتظر ان يوجهها له السلطان تدور حول سنه ومدة طلبه للعلم والحكمة وغيرذلـــك . ودخل جحا على السلطان راهبـا خائفا . فلما ساله عن سنـــه اجاب الاجابة الثانية (أى مدة طلبه للعلم وهى عشرة أعوام) ولمـــا ساله عن مدة طلبه للعلم أجاب الاجابة الاولى (أى سنه وهو خمس وثلاثون عاما) . فتعجب السلطان وساله : هذا لايعقل . امـــا انك مجنون أو أنا مجنون . فعلق جحا بتلقائيته الخفيفـــة الظل قائلا : بل كلانا يامولاى . فغضب السلطان قائلا: يا هـــذا اتقول عنى مجنون مثلك ،فأجاب جحا محاولا اصلاح خطئـــه : عفوا يامولاى . ليس مثلى . ولكن كل منا مجنون بطريقـــة مختلفة .

هكذا يمكن أن تتعاملى مع ابنك . لقد حضرت وشكوت مـــن

مشاكلك مع زوجك بلومن علاقتك الزوجية به . ثم استدركت نفسك لتقولى أنك لم تحضرى لهذا الغرض وانما حضرت لان ابنك مريض . واضفت أنك ادعيت له ،وهو مجرد ادعاء ،انك انت المريضة الطالبة العلاج وليس هو . وذلك خوفا من غضبه الذى يشبه غضب السلطان . وطلبتى منى أن اتحالف معك فى الادعاء أن الجنون عنده وليس عندك وبالطبع ليس عندى . فالمفروض اننى طبيب نفسى أعالج الجنون ولا اعانى منه . ولكن فلاطمئنك مثل جحا ان الجنون نسبى . وأن كلنا مجانين . ولكن لكل منا جنون مخالف عن غيره يجعله يرى وكأنه العاقل الوحيد والكل حوله مجانين .

لوتيقنت هذه الحقيقة وقبلتيها بما فيهاذلك الجانب الخاص بلوبى وبالجميع ،فسوف تجدين أن هذا الدرس بالقدوة سوف يصل بسرعة الي ابنك . وسوف يتيقن أنه ايضا مجنون وانتك مجنونه وأن الكل مجنون ولكن كل منا بطريقته الخاصة والمختلفة. واذا ماقبل ذلك فسوف يقبل أن يدخل فى علاقة علاجية نتفاعل فيها لنغير ونتغير بما يحقق لنا القدر الاكبر من الراحة والسعادة .

فلتدعيه يدخل وتقولى امامه انك تعانين ، وأن معاناتك يرجع بعضها الى نقمتك على أبيه ،زوجك ،وابنه مع الاسف لكونه الذكر الوحيد الباقى بعد سفر أبيه يتلقى غضبك والمقصود به أبيه . وانه بسلوكه العدوانى ضدك انما ينتقم لابيه الغائب الذى هو مصب غضبك انت ونقمتك. فهو يدخل مرحلة المراهقة ويتوحد مع أبيه ويتشبه به . ويسعى بالتالى للتعبير عن مشاعر الغضب الذى يختزنها ابيه تجاهك .

لابد أن تواجهوا جميعا تلك المشاعر وتخرجوها الى الضوء وكفانا ادعاءات واجابات معدة (مثل اجابات جحا) ولنطرق طريق التلقائية فى التعبير عن المشاعر الصادقة مهما كانت مؤلمة . فبواسطة هذا المناخ من الحرية فى التعبير ،يمكننا

أن نخرج المشاعر الغاضبة والفاتلة لاصحابها مثلما هي قاتلة لمواضيعها .. نخرجها الى الضوء لنتعامل معها بصراحة ووضوح . بل أن مجرد أخراجها في حد ذاته خطوة نحو التصحيح . أن ممارسة الديمقراطية ليست مسئولية الاجهزة السياسية وحدها . بل هي مسئولية كل بيت وكل فصل في مدرسة وكل جماعة عمل من الوحدات الاقتصادية (مثل الشركات) او خدمية (مثل المستشفيات وأقسام الشرطة) الديمقراطية مسئوليتنا جميعا . وهي تبدأ هنا والآن . فلنبدأ . وبالبداية والممارسة يبدأ العلاج .

استنزاف الابنة لأبيها

فتاة فى العشرين تعيش مع والدتها وأخواتها فى مصر بينما يعمل رب الأسرة فى بلد عربى منذ عدة سنوات حيث تفتقده أسرته. فالشباب والصبية فى السن الذى يتطلب سلطة أبوية تضع لهم القواعد والحدود فى ذات الوقت الذى تقدم لهم فيه العناية والحماية . ولكنهم من جانب آخر فى حاجة الى الأموال التى تتوافد عليهم من الأجر الذى يتقاضاه الوالد . وهكذا يتجاذبهم الولاء بين الوالد كراع لهم والوالد كممول . وذلك لأن الازدواج الوظيفى قد حال دون أن تتلاقى الوظيفتان فى شخص واحد . فالوالد كان مخيرا بين أن يبقى معهم ليرعاهم او أن يبعد عنهم ليمولهم . ولكن الضرورة حسمت الأختيار وتغلب الأخير على الأول ، وفضل الوالد أن يتراجع ولو مؤقتا عن دور الراعى لكى يتفرغ لدور الممول .

الا أن الحاجة الى راع لم تنتف ، بل زادت بنمو الأطفال الى سن الصبا والشباب . وهى مراحل من العمر تتطلب تواجد رب الأسرة كراع أكثر من غيرها فحين يبلغ الطفل الذكر الثالثة من عمره ويبدأ فى التعرف على هويته الجنسية يأخذ فى التشبه بأبيه . وهو فى تشبهه هذا يتمادى فى انكار الواقع الاليم ، أنه لاوجه للمقارنه او للمناقشة بينه وبين أبيه سوى أن كليهما ذكر ، مع الفارق الواضح أن ذكورة الأب مكتملة الوظيفة سواء بالقدرة على الأنجاب أو التمويل وأنه قد حصل على ولاء الأم كزوجة له بفضل هاتين القدرتين . الا أن الطفل عامة يعى ، منذ بداية وعيه بوجود آخر ، ان كان هناك وقت تدين له امه فيه بالولاء قبل أى كائن آخر وتفضله عليه بما فى ذلك زوجها . أنه لم ينس تلك الحقيقة ويستمر متشبثا بها حتى بعد ان يكتشف ان ولاء امه لزوجها اقدم زمنيا من ولائها

له .
وأن أمه وأن كانت تفضله كطفل على أبيه فهي تفضل الأب كذكر ورفيق المستقبل . أنه يكتشف هذه الحقائق ويشعر أن مكانه على العرش يزول تدريجيا . فنموه في حد ذاته يرتبط بميله المضطرد للابتعاد عن حضن أمه . وكلما كبر كلما كان هذا الأبتعاد متوقعا منه . فالمجتمع يطلب من الطفل الذكر كلما نما أن يبتعد عن أمه . وكلما كبر كلما كان هذا الابتعاد متوقعا منه . فالمجتمع يطلب من الطفل الذكر كلما نما أن يبتعد عن أمه وأن يتشبه بأبيه بدلا من أن يتنافس معه . ووجود الأب في المحيط يحتم مثل هذا التطور . الأب الذي يجاور زوجته أنما يؤكد لابنه الذكر ضرورة أبتعادة عن أمه . كما يقنعه بما لا يحتمل الشك بعدم جدوى المنافسة معه . وهكذا يدخل الصبي مرحلة التعليم الاولى لكي يضع قدمه على أول خطى التشبه بالأب . فهو يعد نفسه لتعلم المهارات سواء اليدوية او الذهنية التي تؤهله ليكون ذكرا مكتملا مثل أبيه انه ينسى الحلم الطفلي بالتربع على العرش في ذلك الأمل بأن يكون ندا حقيقيا لأبيه .

أما الفتاة فهي تكتشف أن ولاء أمها لابيها يسبق ولاءها لها. وتكتشف أن أمها تدين لزوجها بالولاء لكونه رجل وأنه بالتالي يرد لها الولاء لانها امرأة ومادامت الفتاة قد أكتشفت هويتها كأنثى في طفولتها فلعلها اكتشفت أيضا أنها تستحق بفضل تلك الانوثة ، أن تعوض فقدانها لولاء أمها بأن تسعى الي كسب ولاء الأب بدلا منها. بل أن ذلك كثيرا ما يجد صدى لدى الأب الذي كان قد أزيح من عرشه حينما ولت الأم أهتمامها لرضيعتها . فهو أيضا يريد أن يعوض فقدانه السابق لولاء زوجته له بأن يكسب ولاء ذات الابنة التي أخذت منه حينما كانت رضيعة ولاء زوجته له .

وهكذا تستعيد الفتاة احساسها بالقيمة . بل أنها بواسطة ذلك التنافس مع أمها تضع خطا على بداية طريق التشبه بها . والمجتمع يوفر لها أيضا من خلال قنوات التعليم سبل أكتساب تلك المهارات والصفات التى تجعلها ندا لامها .

ولكن غياب الأب . كما فى حالة فتاتنا هذه ، قد أصاب هذه المعادلات جميعا بهزة عنيفة . فالأم بلا زوج يذكرها بقيمتها كامرأة والفتاه التى تتشبه بأمها تكتسب هذا الشعور بأنه لاقيمة فى أن تكون امرأة . والوالد من جانبه يشعر أنه قد حرم زوجته من ذلك الاحساس بالقيمة الذى يأتى باحتياجه لها . ولذا فهو يعوضها بالمال الذى يكسبه فقد أبتعد عنها لكى يعمل ويكسب مالا ، ولن يغفر له الا أن يحيل لها نتاج عمله . فهو يسعى لاعطائها الاحساس بالقيمة بأن يغدق عليها المال . ولكن التعويض لايعادل الخسارة ويبقى الشعور لدى الأم بأن زوجها لايقدرها كانثى . وينتقل هذا الشعور للفتاة التى تتأكد بدورها أنها لاقيمة لها كانثى ، وأن التعويض عن ذلك يأتى بالمال الذى يحضره الذكر ، أى أبوها كلتاهما تجد التعويض فى التمويل المالى عن الرعاية ، وكلتاهما لاتكتفى بهذا التعويض . وتتبقى مشاعر النقمة على غياب الأب ولعل تلك المشاعر تجد المنفث من خلال افراطهما فى استنزاف التعويض المالى بطلب المزيد أنهما تقبلان التعويض ولكن أفراطهما فى القبول ماهو الا تأكيد لرفضهما له . أنهما تقدران الاب على تمويله لهما ولكنهما تنقمان عليه لحرمانهما من رعايته فتبددان ذات الأموال .

وهكذا نجد الأب وهو أداة الأنتاج فى الأسرة يتحول الى موضوع للاستغلال والاستنزاف . أنه يعمل ويحرم نفسه من الألفة والحاجة البدنية الى التقدير فى سبيل أن يجنى المال الذى يكسب له رضاء أسرته وولائها . ولكنه يجد انه

مهما أنتج فالاستهلاك يزيد .

فلا احد من افراد الاسرة يعمل . او ينتج ،بل الكل يستهلك وبصره على ذلك أن هذه حالة أعداد أبناء الجيل الناشيء بواسطة التعليم لكى يستعدوا بدورهم للانتاج . أنهم يريدون ان يبلغوه أنهم ليسوا فى حاجة الى التمويل فقط . فليس بالخبز وحده يحيا الانسان أنهم يريدونه هو . وهو لايسمع ،لأنه أصبح ترس فى عجلة الانتاج ولم يعد يملك أن يتوقف . ولأنه لايسمع فهم يصرخون . ولعلهم ينطقون بالصرخة التى قد توقظه وهى أن يسلبوه حجته ،انه يعمل لكى يتعلموا . اذا فليتوقفوا عن التعليم ،لكى يتوقف هو عن العمل وينتبه لاحتياجاتهم .

وهكذا بدأت مشكلة فتاتنا . فقد أعلنت راية الأضراب السلبى بأن توقفت عن التعليم . فلماذا تتعلم ولماذا تنتج مادام هناك من بين أفراد الأسرة من أخذ على عاتقه دور المنتج المطلق . أنه ينتج وينتج وحده وينتج فقط ولايعبأ بوظيفة أخرى فى الحياة . فليسعد بدوره ،ولتسعد هى بدور المستهلك فهى ترى أمها ،الزوجة وربة البيت لاتنتج بل تتمتع بمايفيض من أنتاج الاب . وكل ذلك بفضل كونها أنثى . فلايضير الفتاة اذا أن تتشبه بامها وتعزف عن الأنتاج هى الأخرى وتتمتع بالاستهلاك . خاصة وأنها تجد فى هذه المتعة تعويضا عم، تفتقده من رعاية كان يمكن للأب أن يقدمها لها لولا انشغاله بعمله .

ولكن الأب فقد حساسية الاستماع لمثل هذه الصرخات أنه يدور فى عجلة الأنتاج ولايوجد لديه وقت للمشاعر الانسانية ،زوجته تصرخ والاسرة كلها تصرخ . ولكن الاسرة تواجه حقيقة أن صراخها بلا مبرر كاف . فهم جميعا ينعمون بنتاج عمله . ولذا تكتفى الاسرة بصراخ فتاتنا لتنوب عنهم فى علان الاحتجاج . وهكذا تتوزع الادوار في الاسرة

الواحدة . واحدة تعلن الاحتجاج والباقى يظهرون الولاء والامتنان. وتذهب الفتاة ضحية دورها . فهى فى النهاية تعانى من الصراخ فتسعى لاخفائه وراء مظهر الاستمتاع السطحى . فهى تحرم حتى من حق اعلان الالم . ولايتبقى لها مخرج للتعبير عن المها الا بواسطة ايلام امها حتى تصرخ هى الاخرى . فهى تتمرد عليها بشكل مباشر ، لا كما تفعل مع ابيها . اذ ان امها هى التى تتولى المسئوليات اليومية للرعاية . وهى التى تنوب عن الاب فى وضع الحدود والقواعد هى التى تمنع وتعاقب بدلا من الاب الذى اصبح هو الذى يبيح ويتسامح بغيابه ويغدق بالمال بدل الالفة والرعاية . ان الفتاة تدخل فى معارك يومية مع امها . الى ان نفذ صبرها واحضرتها للعلاج .

وهنا تبدأ مشكلة المعالج . فالذى يشكو الالم غير الذى يطلب العلاج . الام تشكو الالم ولكنها ترسل الفتاة فى طلب العلاج فالعلاج فى نظرها هو تقويم لخطأ وربما انها لاتريد ان ترى فى نفسها خطأ فلامانع من ان تراه فى ابنتها . ان الفتاة هى التى تشذ عن الاسرة فى سلوكها . والاسرة بخير والجميع يحمدون الله على النعمة التى هم فيها . انها هذه الفتاة المتمردة التى لاخير فيها . هى التى تتسبب فى الالم سواء لامها او لابيها . وهكذا تصبح الفتاة كبش فداء ذبحتها الاسرة وحضرت تطلب المعونة فى اعادة الحياة لها ولكن عودة الحياة للكبش المفتدى ديها مخاطرة ان ينتقم من ذابحه وعودة الحياة لفتاتنا يعنى ان تحول عدوانها بطريق مباشر نحو الاسرة فالعدوان الذى تمارسه هو عدوان سلبى عبارة عن ايذاء للذات المقصود منه أن تولم اسرتها . انها كمن يهدد بالانتحار ليشعر محبه بالذنب . والخطوة العلاجية لابد ان تمر بذلك التحويل من العدوان للداخل الى عدوان الخارج . اى ان تكف الفتاة عن ايذاء ذاتها مباشرة وعند نقطة بداية وعيها بالالم تحول صراخها الى عدوان

نحو اسرتها . ولابد أن تصاحب هذه الخطوة العلاجية خطوة أخرى، تهدف الى التحكم فى شكل ذلك العدوان بحيث لايدمر الأسرة التى مصدر الرعاية والتمويل لنها كان يتحول العدوان الى طاقة عمل . هكذا صارت العمالة المصرية تقوم بالعمل والأنتاج حيث لاتنتمى فى مقابل أجر ،وأن كان تافها حيث تتلقاها . الا أن هذا الأجر حينما يرسل الى حيث الانتماء الى الاسرة فى مصر ،فهو ذو قيمة عالية تجعل منه ممولا كريما وصاحب فضل ،ولكنه كرم لايقدر بل يدمر فمايحوله هو التعويض عن غيابه . ومايتحول فى غيابه يصبح رمزا لغيابه وغيابه مصدر الم . وفقدان لدوره فى وطنه . ولذا فالعدوان الموجه ضده ،والنقمة على غيابه تتحول الى عملية اسراف وتبذير لما يدخره . فكأنهم يقولون له : اذا كان هذا ثمن غيابك فلنقذف به الى التهلكة بتبذيره .

إن الأسرة تنفق مداخراته فى السلع الاستهلاكية التى طالما حرمت منها ،وهى سلع تأخذ شكل الأحتياج اليها فى حد ذاته ولكنه فى الحقيقة احتياج رمزى . وكان السلع هى بديل الحب والرعاية التى تطلبها الأسرة من راعيها . أن الاموال التى يحولها المصريين العاملين فى الدول العربية تتحول الى موضوع للعدوان ضدهم لغيابهم عن مصر . أنها تبدد وتوفر بأن تنفق فى الاستهلاك ، الأمر الذى يرفع من أسعار السلع المستهلكة ،فيزيد من كمية الاموال التى تنفق . فالمصرى المحروم من رعاية الأب يمارس حريته فى تبديد أموال ابيه وهى ليست أموال على آية حال ولم يتعيفى جنوها . أنه يفضل أن يستمتع بأكل اللحم مثلا على أن يعمل فى ارضه ليزيد من انتاجه العلف الذى يمكن ان يوفر له اللحم فى المستقبل . ولذا فالسلع المستهلكة

تزداد قدرة بينما السلع الأصلية التى توفر هذه السلع المستهلكة يقل انتاجها • والنتيجة أن تسورد السلع ويزداد الأعتماد على السوق العالمى الذى يزداد غلوا فى الاسعار طالما هناك أموال نفطية تزداد طلبا له • أن فتاتنا تأكل اللحم بوفرة وترتدى الملابس المستوردة الثمينه وتمتلك جهازا لتسجيل الفيديو فوق كل هذا أيضا سيارة فلماذا تعمل ؟ ولماذا تدخل الجامعة وتدرس ؟ أنها تعلم أن شهادتها الجامعية لن تضمن لها وظيفة لو ادخرت مرتبها كاملا لمدة عشرة سنوات لما تمكنت من شراء عشر ماتمتلكه الآن وهى عاطلة • ولماذا يواجه أى مصرى دخله ليزيد انتاجية الأرض الزراعية ويوفر العلف والغذاء الذى سوف يوفر له اللحم ... فى الامد الطويل • فالأفضل له أن يتاجر فى ... ذاتها طالما الطلب عليها ملحا لهذه الدرجة ،وربحها ،بلاشك أفضل من ربح تاجر العلف ،وربح هذا بالطبع أفضل من ربح زراعته • ليست المسألة أنه جشع وان الله خلقه كتاجر لحم من طينة غير طينة بقية التجار أو حتى الزراع ولكن المسألة انه تاجر والتاجر بحكم تكوينه يهدف الى أسرع ربح فى أقصر وقت • ومادام نمط المجتمع نمط استهلاكى ومتعطش لأكل اللحم فلامفر من الاتجار فى اللحم • واذا كان جشعا فهو يقول لزبائنه : من كان منكم بلاجشع فليرجمنى بساطور • فنحن جميعا نعانى من الجشع لاننا نطلب ماهو غير متوفر ،فاذا توفر طلبنا المزيد بحيث ينتهى الى حالة عدم توفر مستديمة ،الا أن طلبنا أكثر مما هو معروض • وفى معاناتنا من جشعنا فبحث عن كبش فداء • ومادامت الأكباس التى نفتديها بواسطة جزارينا لاتجدى فلنجرب أن نفتدى الجزارين أنفسهم بأن نذبحهم • ولكن هذه العملية ـ عملية البحث عن

كبش فداء هى كالحيل النفسية ـ محاولة غير واقعية ، بل نفسية للتعامل مع الواقع . اننا بدلا من أن نتعامل مع الواقع كما هو نتعامل معه كما نتخيله . الواقع يصعب لأى منا أن يراه كما هو . فكلنا نرى الواقع كما يصور او يشوهه لنا عقلنا . ولكننا مع ذلك نحاول من خلال تعدد المنظور والتأكد بمضاهاة رؤية للواقع برؤية أخرى . لعل الواقع أن مصر كمجتمع تعانى . أفرادها أرباب الأسر يقدمون خدماتهم لاصحاب المال النفطى بأجر ظاهره كريم ولكن باطنه جحيم . فهى خدمات ينتج عنها استنزاف العمالة المصرية من مصر فتفقد مصر قدر من قوتها الانتاجية . ويتقاضى هؤلاء اجورهم الزهيدة لتبدو ضخمة حينما يرسلونها الى ذويهم في مصر . ولكن ضخامتها كاذبة وسرعان ما تنكشف عندما تنتشر عدوى التضخم بان يتضخم كل ماحولها فيتضح ضآلتها . ولكن كل ماحولها يتضخم بنفس النسبة وبنفس السرعة وغالبا يكون آخر مايتضخم هو الأنتاج الفعلى المحلى والعائد منه . وهنا تنشأ الفجوة بين القوى الأنتاجية والقوى الاستهلاكية .

أسرة العامل المصرى تتحول الى قوة مستهلكة . وهى محاصرة من جانبين : المجتمع حولها منتج لاينعم بنفس العائد الذى تنعم به . وعائلها بدوره ينتج ولكنه أيضا لاينعم بالعائد الذى يأتى به لأنه ينفقه على حاجيات أسرته بينما هو محروم من الأسرة أكثر من حرمانه مما ينفقه عليها ومع ذلك فهو لايدخل في صراع واضح أسرته . فهو يشعر بالذنب تجاهها ويسعى بالاغداق عليها أن يعوضها عن افتقادها له ، وأن يرشوها بما له لكى يطمئن لاستمرار حبها وولائها له . وهو فى ذات الوقت يأمل أن يكون انفاقه هذا عليها فى جوهره ادخار للمستقبل بأن يعدهم بالعلم ليكونوا قوة انتاجية تستطيع أن تعول نفسها وتعوله فى كبر

أنه لم يأخذ أسرته معه الى الدولة العربية التى يعمل بها لانه يريد أن يعلم أولاده . نعم هناك مدارس وجامعات فى هذه الدول تقام على أحدث طراز وتوفر لها أحدث الأمكانيات ولكنه يعرف أن العلم ليس مجرد مدارس وإمكانيات ولكنه يرتبط بالجو الحضارى المحيط . فهو يرى أبناء الأثرياء العرب المرفهون لايأبهون بالعلم . أنهم فى موقفهم مثل أبنته ولكن بدرجة تساوى عدة أضعاف .
لماذا يتعلمون طالمايستطيعون شراء كل شىء بأموالهم حتى العلم نفسه بل والأمتحانات والشهادات . فهم فى كل الأحوال الملاك ويستطيعون أن يشتروا العلماء مثلمايشتروا الجوارى . ربما لادعاء حبهم للعلم وربما فقط للزينة وحب الأقتناء .
أن رب الاسرة لم يأخذ أسرته معه لأنه يعلم أن العلم والحضارة هناك فى مصر . وهو وإن هجرها بحثا عن المال فانما فعل ذلك وهو يأمل أن يستخدم المال للحصول على العلم .

ولكن المشكلة تتسع حينمايكتشف العامل المصرى أن العلم ليس مسألة تسديد مصاريف دراسة أو حتى الأنفاق على الدروس الخاصة . فالعلم يشمل القدوة التى يشكلها رب الأسرة .
رب الاسرة تعلم ولكنه لم يستطيع أن يسخر علمه للانتاج فى بلده ، بل عرضه للبيع ليقوم بديكور الأنتاج فى بلد آخر يملك رفاهية أستيراد العلم والحضارة ولكنه فى جوهره لايقدرها ولايحترمها ولايحتاجها . لقد أصبح نتيجة لذلك يكره علمه ومهارته ولاينظر اليها الا كوسيلة للربح ، كما أن المرأة التى لم تعد تنظر لجسدها كمصدر للاستمتاع ولكن كمجرد وسيلة للامتاع فى مقابل عائد مادى . لقد اصبح قدوة سيئة للعلم والعمل . ومن جانب

آخر فان غيابه كعالم وعامل منتج فى بلده يسلبها نماذج القدوة الحسنة التي يتشبه عليها الأبناء، أن ابنائه لايجدون من يقتدون به . فها هوذا أبيهم اذا كان عاملا وعالما منتجا فهو غير موجود ليقتدوا به ،ومن جانب آخر فأنهم لم يستفيدوا من علمه وعمله الاحينما باعه للغير . ولكنهم لم يستفيدوا منه مباشرة .

أن مصر تحرم من أساتذتها وعلمائها وعمالها المهرة الذين يعلمون غيرهم ويقومون بدور القدوة لهم والمثل الأعلى لخريج مدرسة أو جامعة هو العامل الذى يترك بلده ليعمل حيث النفط والمال . لم يعد امله أن يتعلم أو ينتج ولكن أن يتخرج ويحصل على الشهادة أو التسمية المهنية التى تجعله يعرض خدماته فى سوق الديكور الحضارى المصدر للدول العربية النفطية وهكذا تضعف هذه البضاعة الثمينة طاقتنا البشرية ،تضعف على بناء بلدنا ثم تضعف كسلعة صالحة للتصدير .

أما العامل المنتج المصرى فأنه يزداد اندثارا . فها هوذا يرى أن القيمة العليا هى الاستهلاك . وأن خير وسيلة للحصول على العائد هى " بالفهلوة " والشطارة والحظ " وليس بالعمل المضنى ؛ أنه يترك أرضه ومصنعه ليبحث عن محل يبيع فيه ما لاضرورة له أو عن عقد عمل بلا عمل .

الى أن تأتى النقطة التى يكتشف الطفيلى أن غريمه ان مات فسوف يموت هو معه . وتكتشف الدول العربية ان اضعاف مصر يعنى اضعافها .

وأن أملها فى البقاء والاستمرار وصناعة الحضارة وحفظها هو بالحفاظ على مصر . وعندئذ فقط تستجيب لنداءات المساهمة فى بناء مصر وقوتها الأنتاجية ،بدلا من الاكتفاء بقطف ثمار العمالة الماهرة والعقول والأيادى المنتجة .

عيادة مجل من الورق الاخضر

سيدة فى الخامسة والثلاثين من عمرها ،متزوجة منذ عشر سنوات ولم تنجب طفلا حيا بعد ،وان كانت قد حملت مرارا ولكن دون أن يكتمل الحمل . سافرت مع زوجها للعمل فى بلد عربى " نفطانى" شقيق منذ عدة سنوات . وهو بلد يتوافد عليه المصريون بكثرة من اجل العمل .
وقد حضرت فى عطلة الصيف لزيارة الاهل والأصدقاء علاوه على طلب العلاج . فهى تعانى من قلق شديد مصحوب باحساس عميق بالكآبه واليأس . انها كثيرة البكاء قليلة النوم ،غير مقبلة على الطعام ،تضطرب لاقل صوت تشكو من الوحدة . وتذهب بذاكرتها الى السنين الطويلة التى قضتها فى الخارج .

اذ منذ سفرها وابتعادها عن الاهل والاصدقاء وهى تعيش فى غربة .ولا اهتمام لها ولا لزوجها سوى العمل والعمل ليس له هدف الا الحصول على أجر سخى يدخرون منه فى السنوات السمان استعدادا للسنوات العجاف بعد عودتهما الى الأجر البخس . فهذا هو المقابل لذلك الحرمان من الدفء والحياة الاجتماعية اللتين كانا يتمتعان بها فى مصر .

وقد كان بوسعهما أن يعوضا افتقادهما لذلك عن طريق انشاء علاقات جديدة فى موطنهم المؤقت الجديد . فهو بلد عربى مسلم ،والمفروض أننا جميعا اخوة عرب ومسلمون واذا كان الفرق بين العربى والاعجمى هو بالتقوى فقط فما بال الامر والمسالة ليس فيها أعجمى . كلا العامل وصاحب العمل ،عرب مسلمون. فالاحرى الا يكون هناك فرق بيننا .

ولكن هناك فرق . وهو فرق واضح وملموس بل صارخ. انه يبلغ درجة الصفع والبصق فى الوجه . هناك عربى

مالك للمال والسلطة وعربى أجير ليس له فى المال الا أجرة ولا فى السلطة الا خضوعه .

ومع ذلك لـــم ييأسا بعد . فهذا البلد العربى بـه أياد عاملة مصرية كثيرة . ولعله من الممكن أن يجـدا الأخوة فى تكوين علاقات مع المصريين هناك . فـــان الأخوة وان كانت متعثرة بين العربى والمصرى بسبـب وجود حاجز الملكية بينهما ، قد تتيسر بين المصـرى والمصرى . فهما أخوة فى الفقر النسبى والخضوع النسبـى ولكن مساعيهما فى هذا الاتجاه تقابلها عوائق أخـرى فان الملاك عبر الزمان قد تعلموا حيلة أن يفرقوا بيـن الاجراء / فتمنعهم الفرقة من أن يصيروا قوة بفضل الوحـدة وبواسطة هذه الفرقة بينهم يتمكن المالك من احكـام السيطرة عليهم . وهو يغذى الفرقة بأن يخلق روح المنافسة بينهم . فقد يبث المنافسة بينهم بناء على درجـة ولائهم للمالك ومدى استعدادهم للوشاية بأخوانهـم ، ويتمكن بفضل تحكمه فى صنبور الذهب الأسود الذى يستبدل به بذهب من الورق المالى الاخضر أن يلوح لهم به ، فيعطـى من يدين له بالولاء ويحرم من لايدين . ولعله يقيـس درجة الولاء بمدى استعداد المصرى للوشاية باخوانه فـى البلد العربى ، بل أكثر من ذلك أن يتمادى فى الوشايـة بأخوانه فى مصر بأن يخلع عنهم ويدينهم ويهاجمهـم ، ولكنه لايطلب التمادى فى الوشاية بأن يطلب أن تكـون الوشاية بجميع افراد الشعب المصرى . فالمالك مازال فـى حاجـة الى تلك الايادى العاملة الرخيصة ويريد ان يبقيها متلهفة متنافسة على تقديم خدماتها له ، ولذلك فانه يكتفى بأن يكون الهجوم على حكام مصر . أنه يومئـذ أيضـا

لجامعة الشعوب العربية ولايجرؤ لاهو ولاغيره على مهاجمة شعب مصر . فهو يعلم أن شعب مصر هو مصدر قوته الاقتصادية الانتاجية . فالمالك لايملك الا المال، أما العامل المصرى فيملك يده وعقله ، ويملك القدرة على العمل والبناء والانتاج ، انه يملك الحضارة وفوق هذا يملك القوة القتالية التى تغنيه عن الاغتيال فى الظلام او أغتيال الافراد . وشعب مصر يبدو هادئا ووديعا ، ولكنه اذا غضب فان غضبه غضب الحليم لايعرف ساعتها مالكا ولاحاكما ولامستعمراً.

والمالك يسعى الى ابقاء حالة الفرقة بين أبناء مصر فى الخارج ، ويبدأ بأول درجة من التمييز حول من يدين له بالولاء ومن لايدين . ونتيجة لذلك فقد أيقن الزوجان ان الاخوة التى كانا يبحثان عنها بين المصريين هناك غير متيسرة، ولذلك فقد اكتفيا بانفسهما . لقد صار كل منهما المصدر الاساسى للصداقة والأخوة للآخر، الزوج يذهب الى العمل ويعود الى منزله ليبحث عن الدفء والحنان والراحة التى افتقدها طيلة النهار، ولكنه يجد أن زوجته بدورها قد عادت من عملها حيث افتقدت المحبة والأخوة لتبحث هى الأخرى عن التعويض فى المنزل، كلاهما جائع يطلب المعونة . ولكنهما يكتشفان أن كل منهما كعبد المعين الذى جاءه طالب المعونة فوجده هو الآخر فى حاجة اليها "جيتك ياعبد المعين تعيننى لقيتك ياعبد المعين عايز تتعان" .

.. كانا قد أجلا الحمل فى بداية زواجهما لانهما وضعا أولوية لجمع المال من العمل فى هذا البلد العربى ثم العودة به لشراء شقة وتجهيزها، ولهذا لم يكونا مستعدان للانشغال بتربية الاطفال . ولكن الوحدة ومرور السنين جعلت هذا المطلب ملحاً . فالمرأة تشعر بأن

وجودها ناقص بدون انجاب . وتشعر بعدم الاستقرار لانها تخشي أن يبحث زوجها عن غيرها . فالزوج الذى يشقى ليجمع المال يريد أن يطمئن أن هناك ابناء له سوف يرثونه . أنه لايريد لرجل آخر أن يرثه بأن يتزوج من ارملته اذا ما ترك هو الدنيا قبلهاء فكلاهما اذن يريد طفلا ، والزوجة تجهر برغبتها التى هى اكثر الحاحا . اذ أن رحمها يبكى كل شهر . ودموعه دماء . والبكاء على موت بويضة خرجت ولم تجد فى استقبالها منيا يلقحها . والرحم يستعد لاستقبال ذلك الكائن الجديد الذى يجمع بين خلية منها وخلية من زوجها . ولكن الضيف الجديد لايأتى . فيلقى الرحم باستعداداته . فيسقط ذلك الجدار الهش الذى بناه لكى يحتضن البويضة الملقحة . ويأخذ معه بعض الدم الذى كان يتوفر فيه لتغذية الكائن الجديد .

انها تحزن كل شهر مع رحمها . وقد يختفى الحزن بأمر من عقلها ان هذا ليس الوقت المناسب . ولكن الصبر يطول . والرحم يطلب حقه فى العمل وفى اتمام دوره ووظيفته . فيفرض مطلبه على عقلها الذى يرضخ وتقرر بوعيها أن تحمل . ولكن الرحم يطيل تعطيل وظيفته وتعود على الوحدة عقلها الذى يرضخ

ولعل عيبا كان فى الأصل موجودا يجعله غير قادر على اداء الوظيفة ، أو أداءها كاملة . لعله كان صغيرا او مقلوبا او به غشاء يجزئه الى جزئين . او لعل القنوات الفالوبية التى تنقل البويضه كانت ضيقة او مسدودة . ولعل هناك اعتداء قد وقع عليه فى وقت ما كالاعتداء بالجراثيم او الطفيليات . فاصابه بالالتهابات التى افقدته القدرة على اداء وظيفته . لقد جاء القرار بالحمل ولكن الاستعداد له كان قد فقد . هى تريد ان تحمل ولكن الرحم

يعجز ، تحمل فتجهض ، وأحيانا لاتحمل أصلا .

ويدخل الطب الحوار . ويسعى الى معالجة الرحم مباشرة دون أن يعبأ بصاحبته او بقرارها .

فالطب، وخاصة المتخصص منه يركز اهتمامه على اعضاء الجسد التى تخصه ويكاد لايعبأ ببقية الاعضاء ناهيك عن الأنسان صاحب هذه الأعضاء . ويتفق الطبيب والمريض على الا يتعدى الحوار مثل هذا المستوى العضوى وعلى هذا الاساس تستمر صاحبة الرحم فى وضع آمالها وآلامها فى رحمها . أنها تتصور أنها شقية لأنها لم تنجب وأنها سوف تسعد اذا أنجبت ، وان انقاذها فى يد الطبيب ، وكلاهما ينسى أن هناك مشكلة أخري وراء مشكلة الرحم ، وأن المشكلة ليست مجرد مشكلة رحم .

ويستمر الأمل ، ويزداد كلما تأخرت الدورة الشهرية أياما ، ثم يختفى الأمل فجأة ويحل محله ألم مضاعف نتيجة خيبة الأمل ، وتعمر الدموع الساحة كلها ، ولم يعد البكاء بكاء رحم بل بكاء انسانه ، ومع دموع الرحم تأتى دموع القلب ، وتتضح ابعاد المشكلة وتشعباتها .

لقد عانت من الوحدة مع زوجها ، حينما تركت بيت أسرة الامل ، حيث نشأت بين ابويها واخواتها ، الى بيت أسرة الانجاب ، حيث الاستعداد لتكوين أسرة جديدة ، انتقلت من مرحلة الشباب الى مرحلة الرشد حيث تواجه تحدى التخلى عن هويتها التى كانت لتوها قد أكدتها فى مواجهة أسرتها ، لكى تشترك مع آخر من جنس مخالف فى تكوين جماعى جديد ، كانت فى صباها مجرد امتداد مطيع للاسرة فثارت فى شبابها لتقول أنا لست ما املى على فلى طابعى الخاص وتاريخى وطموحي .. لى هوية مستقلة .. وذهبت الى الزوج لتتنازل عن هذا المكسب الذى حققته لتقول ان ما كان خاصا لى اعطيه لك ياشريك حياتى .. وبالطبع

سوف آخذ منك فى المقابل ماهو خاص بك . أننا نشترك فى تكوين كيان جديد .

كانت هذه النقلة من أسرة الاصل الى أسرة الانجاب هى النقلة من حال تعودت عليه الى حال جديد . وبالقدر الذى لم تستعدلها فأن النقلة تكتسب طابع الصدمة وتتسم بالحزن لفقدان شىء قديم . لقد فقدت أسرة الأصل وشعرت بالوحدة مع زوجها بالأضافة الى الشعور المتوقع وهو الشعور بالمشاركة وتجاوز الوحدة والعزلة .

ثم أكتشفت أن اسرة الأنجاب امامها خطوات اخرى قبل أن تصبح منجبة فعلا . فالانجاب يتطلب مسكنا ومصدرا للرزق يتعدى احتياجاتهما الذاتية . مطلوب فائض من انتاجهما يذهب لرعاية الابناء . والانتاج الحالى لايدر الا اجورا كانت بالكاد تصلح منذ عشرين عام ثم أصبحت اليوم تساوى فى قوتها الشرائية أقل من عشر قيمتها والمطلوب لكى يكون دخلهما كما هو مقنن نظريا ،عشرة أضعاف حجمه الحالى . ولعل هذا الدخل يتوفر فى الدول العربية "النفطالية" . فليؤجلا الانجاب اذن حتى يتوفر الفائض اللازم . ويزداد الخير حينما يكتشفان أن العزلة الاجتماعية حيث يعملان فى هذه الدولة العربية ،لاتشجع على الانجاب فلا توجد جدة أوعمة او خالة بل بالكاد توجد مربية لاتكاد تستطيع أن توفر الرعاية للطفل .

وهكذا تلت أول صدمة ،وهى الانتقال من أسرة الاصل الى أسرة الأنجاب ،صدمة ثانية وهى الأنتقال من المجتمع الذى نشئا فيه الى مجتمع آخر ،بلا أقارب ولا اصدقاء . ثم جاءت الصدمة التالية بأن اكتشفا أن العروبة والاسلام يختفيان حينما تظهر المنافسة على ملكية المال او السلطة بل أن الانتماء المصرى يختفى هو أيضا عند هذه اللحظة ، ولماذا نذهب بعيدا: ففى صراع السلطة والمال نجد الأخ يقتل

أخاه او قد ينتخر اذا ما تخلى عنه اخوه • >

كانت مواساتهما انهما يذهبان لبناء جزء من امتهما • ولكنهما اكشفيا انهما كالاجراء يعملان عند صاحب ملك، ولاءه الاول لماله الأسود، بل للمال الاخضر الذى يطبع ويخزن فى بنوك العالم الغربى، انه لايبنى أمة ولاحتى يبنى وطنا، بل كل مايفعله أن يستورد حضارة جاهزة بكل معداتها التكنولوجية ويزرعها فى الصحراء، أنه يستورد الالة ولكنه لا يستورد القدرة على صنعها ولاصيانتها بل ولاحتى تشغيلها • ويزداد ولاءه بالضرورة لذلك العالم الغربى الغريب وكذلك أعتماده عليه • أما أبناء الوطن او أبناء الامة العربية فليس لهم الا أن يخدروا بواسطة هذه الرفاهية التى أصبحوا يتعلقون بها كالمدمنين، حتى اذا ما انسحبت منهم لسبب او آخر - ولعل أوضحه ان البترول ذاته سوف يجف وينضب - فانهم عندئذ سوف يصرخون ويتشنجون، فقد تعودوا الا ينتجوا بل يستهلكوا، وتعودوا أن يعملوا كالأجراء بلا ولاء، فاذا ما انخفض الأجر او انقطع، توقفوا عن العمل •

لقد انقشع حلم القومية العربية ولاح حلم الأمة الاسلامية فى الأفق كبديل يشتعل حماسة وايمانا • ولكن هذا الحلم أيضا ينقشع رويدا رويدا • فهذه بلاد الكعبة المقدسة وبلاد الجماهيرية وبلاد الأمامة الشيعية ترفع كلها الشعارات الاسلامية لا للتعارف ولكن للتقاتل والتخاصم • والمسالة ليست فى حاجة الى وعى سياسى • فيكفيه أن يرى أن صاحب الملك المسلم لاياخذ من الأسلام الا مايبيح له استغلاله ومص دمائه • أنه ياخذ بالمظهر ويطلق لحيته، ويمتنع عن افطار رمضان جهارا نهارا أو ياخذ بالتشريعات التى تمنع الاتجار والتعاطى للمشروبات الروحية، حتى اذا ماعاد الى منزله المستورد المكيف والمفتوحة نوافذه، لاعلى مآسى أخوانه المسلمين فى جميع انحاء العالم، بل على الملذات الحسية التى

يصدرها له الغرب بواسطة تكنولوجيا الفيديو والارسال اللاسلكى ، فانه يستمتع بتعاطى المنكر ويغرق فى اللذات الحسية ، مستوردا الجوارى والغوانى . انه يتعامى عن آلام المسلمين والعرب فى كل مكان . فاذا ما كانت صرخاتهم عالية ذهب بجواريه ليشيد القصور فى جبال سويسرا أو غيرها التى تأمن فيها الاموال حتى المسروقة منها . فهناك اتفاق بين لصوص العالم أن يكون هناك بلد محايد يحمى كل هارب بغنيمة من بلده ، ولاتمتد له يد لص آخر او شرطى .

وهكذا وجد الزوجان أنهما يعملان بلا هدف وبلا أيديولوجية بل وبلا أسطورة تملأهما حماسا . أنهما يعملان من أجل المال . ولاء هما للمال . ورب البيت ـ صاحب المال ـ ولاؤه أيضا للمال . والمال فى بنوك الغرب يستثمر لصالح الغرب . بل يستثمر فى اسرائيل قبل أن يستثمر فى أى دولة عربية وما دام ولاء صاحب البلد العربى للمال الغربى ، فلا يعيب العامل المصرى أن يكون ولاؤه هو الآخر لذات المال وينسى العروبة وينسى الاسلام بل وينسى مصر . واخيرا ينسى اسرته وبيته .

نعم . ان الزوج يذهب الى عمله ليجنى المال . ولا يريد أن يستمع الى هموم زوجته . والزوجة فى وحدتها تريد أن تشغل نفسها بطفل يملاء حياتها . فيصفعها رحمها ويرفض . فتواجه مشكلتها قبل الأوان .

ان زميلاتها اللاتى انجبن قد اجلن هذه المواجهة واكتفين بتخدير الانشغال بالاولاد والاسرة والمنزل . ولكنها واجهت المشكلة من جذورها فى وقت مبكر . انها تتساءل : لماذا أعيش ؟ لمن أعيش ؟

هل استمر كزوجى الابله مجرد آمة للأجر الذى اتقاضاه فى نهاية كل شهر ؟ بل لماذا يعيش هذا الابله ؟ ولمن

يجمع هذا المال ؟ لاتوجد قضية تلهب مشاعره . ولاعقيدة تجعله يتحمل عذاب الدنيا في سبيل تعويض في الآخرة فكلما قدتبقى له من الاسلام هو ذلك الأداء للفروض . أنه يصلى كالآلة ويحج كالآلة ويزكى كالآلة فالشهادتان على لسانه صوت بلامعنى . فهولايؤمن في أعماقه بهدف الحياة ولايعلم مدى آلام اخوانه المسلمين في العالم أجمع . انه لايعمل لكى يبنى عالما افضل لهم . ولكنه يعمل ليتقاضى أجرا . لم يعد في حياته غير هذا الورق الاخضر وهو ورق تنخفض قيمته يوما بعد يوم .

لعله يحلم بالعودة الى مصر . وانه سوف يبنى هناك للاجيال القادمة . ولكن هيهات انه يحلم . فقد نسى اننا خرجنا من مصر أصلا سعيا وراء الورق الاخضر. وعلى كل فهو يدرك انه يحلم . وهذا الأمل ليس الامجرد امل لفظى . فهو يعلم في أعماق نفسه ان ولاءه في الاصل كان الى حد كبير للورق الأخضر .

ولم يتغير شئ بعد رحلته هذه ، اللهم الا ازدياد ذلك الولاء للورق الأخضر . فقد تأكد انه لو نادى بغير ذلك لصار وحيدا مجنونا . فالكل يدين للورق الاخضر. اما شعارات الدين والقومية ، فهى تطلق فقط لتأكيد الولاء للورق الاخضر . وليس لتحطيمه . فالولاء للدين والوطن ليس الا ولاءا لفظيا . والولاء الحقيقى هو للورق الاخضر .

لقد هجر بنو اسرائيل نبيهم وعبدوا العجل الذهبى واما العرب فقد عبدوا عجلا من الورق الاخضر يسبح فوق بحيرة من النفط الاسود . وفى قلب بلادهم فى المنطقة التى يحتدم فيها الصراع والحوار بين الأيادى العاملة والجائعة والواقعة بين وادى النيل ووادى الاردن. أياد لم يشفع لها اسلام ولانصرانية ولايهودية ، فنالت جميعها

جفاف نضوب النفط ،فتحولت بالتالي الى فتيل لاينقصه
الا شرارة ليحرق النفط ومايطفو على سطحه من
ورق أخضر .

الكبش المفتــدى : عربى بدل الاسرائيلى؟

حالة شاب فى الثلاثين من عمره لم يحضر للكشف والعـــلاج ولم يحـــوى من قبل القضاء لتقرير مدى سلامته العقليـــة ومسئوليته عن سلوكه ،ولكن كان اللقاء بشكل غيـــر مرتب وودى بهدف التعرف على دوافع السلوك غير المتوقـــع الذى صدر منه . فهو شاب مثقف ووديع ولم يسبق لـــه أن ارتكب أى حوادث عنف او أصيب بأمراض عقليـــة . ولكنه فاجأكل معارفه بارتكـــاب جريمة عنف فى لحظـــة غضب أنهال فيها ضربا على أحد السيـــاح العرب . ثم أفـرج عنه بعد ذلك بكفالة على ذمة التحقيق .

لقد قدمناه على أنه شاب فى الثلاثين من عمـــره ، ذلك لأن سن الشباب فى هذا العصر قد امتد حتى الى مـــا بعد الثلاثين . فلا السكن المستقل ولاالقدرة على أعـــالة أسرة متيسرة بالطرق العادية لشاب مثقف يكرس نفسه باخلاص لعلمه وعمله وعليه فهو يستمر شابا بلا استقلال ولازواج إذ لابد له من مصدر خارجى مثل أعانة الاسرة أو عمـــل اضافى او عمل فى احدى الدول العربية . وهذا الشـــاب من أسرة فقيرة . ولم يلجأالى عمل أضافى لأنه يريـــد أن يستكمل تعليمه . ولنفس السبب قاوم فكرة الســـفر الى دولة عربية .

ولكنه بدأيواجه سنه المتقدم والحرمان الطويل مـــن علاقة الألفة بامرأة . بل أنه لم يستطع أن يصبرنفســـه بالعلاقات السطحية الزائلة ، اذ أن مثل هذه العلاقات اصبحت هى الأخرى مكلفة . فهذه النوعية من الفتيات او النســـاء يفضلن المتعة المقرونة بالمال . وهو ،وان كان ذاصحبـــة ممتعه الا أنه لايملك المال . ومحاولته الوحيدة الجـــادة لتكوين علاقة ملتزمة انتهب بأن فضلت فتاته الزواج مـــن

شرى عربى . كما أنه سئم أن يعيش وسط أسرته التى لاهـم لها الا أغراق همومها فى ضوضاء أجهزة الارسال والاستقبال والتسجيل . ناهيك عما يفرض عليه من ضوضاء الأفـراح والمياتم علاوة على أصوات الضحك العالى المميت للقلـب وشجار الغضب الذى يأتية من كل جانب مخترقا الخواط اذا ما وجد الابواب والنوافذ مغلقة أمامـه .

أنه لم يعد يستطيع أن يوجه كل طاقته نحو علمه . اذ لابد له من مجهود عنيف حتى يستطيع أن يتجاهل أو يتحمل تلك الاعتداءات المتكررة عليه وعلاوة على ذلك فأنه قد بـدأ يواجه احتمال أن علمه هذا بلا قيمة . ففتاته فضلـت الزواج من رجل أهم مميزاته الثراء، وأسرته ، وان كانت فقيرة ولكنها تستطيع من خلال الشاشة الصغيرة الى نموذج من الحياة لايحلم أن يساهم هو بتوفيره لهم . وجيرانـه الذى يضحكون ويتشاجرون ، ربما حول زجاجات المنكر أو بواسطته وهم يهزئون بجديته وسكوته ، انما يؤكدون له أن جهده يضيع هباءا ، فهاهم ينعمون بالحياة ، بضحكها وبكائها ، دون جهد علمى يذكر ، بل ربما يفضلون جهلهم . فهذا شقيق فتاتـه التى هجرته قد عاد بالثمن الذى أخذه مقابل تزويج أختـه لذلك الشرى (الذى يملك ثلاثة زوجات غيرها علاوة على مـا ملكت أيمانه) . فقد اصبح الآن مالكا لمتجر بقالة يبيـع فيها السلع الغربية المستوردة غالية الثمن وبالتالى الكبيـرة الربح ، أنه لايقول له فقط أنه اثرى بلا جهد يذكر فى طريق العلم ، ولكن أيضا أن استمرار ثرائه يعتمد على التعامـل مع فئة من الزبائن ليس هو منها . فهو أدنى من أن يكـون زبونا له ناهيك عن كونه ندا . أنه يشترى منه فـى ذات الوقت الذى يراه بعينه يبيع ويكسب . لقد صـار ، وحيدا على المستوى الشخصى بعد أن هجرته فتاته . ثـم صار وحيدا على المستوى الاسرى حينما رأى اسرته تتطلـع

فى أتجاه غير الذى يتطلع اليه . ثم صار وحيدا على المستوى الاجتماعى حينما رأى المجتمع حوله يكتظ بكم هائل من هؤلاء الذين اختصروا الطريق . قد جعلته يشعر بأن الجميع ضده ولكنه لايستطيع أن يواجه الجميع . والشعور بانه محاصر من كل الجوانب لهو شعور مخيف حقا ومستمر . قد ينكر انه يعادي هؤلاء جميعا أو يكرههم ولكنه لايستطيع أن يلغى شعوره العدائى تماما . وهنا يلجأ العقل الى احدى حيله ، فيوجه كل الطاقة العدوانية نحو موضوع واحد يؤدى وظيفة التجسيد الرمزى لكل مواضيع العدوان الأخرى أنه ينكر مشاعره العدوانية ثم يسقطها على الخارج ، ثم يزيحها نحو موضوع محدد يستخدمه كرمز لجميع من يتصورهم أعداءه . وفوق كل هذا فهو يستخدم قدراته المتبقية على حساب الواقع وقياسه والتعامل معه . فهو يختار موضوعا يمكن أن يكون العدوان الموجه نحوه بلا مضاعفات تذكر . بل ربما يستطيع أن يتحالف مع بعض أعدائه ليستخدمهم فى تأييده فى مهاجمة موضوعه المختار هذا . لم تكن هذه الحسابات جميعها تقع فى دائرة وعيه . فالعمليات النفسية الدفاعية أو الحيل النفسية تفقد وظيفتها . اذا وعاها الأنسان . فالذى يكذب على نفسه مثلا اذا اعرف ذلك سوف تفقد الاكذوبة قيمتها لأنه يعرف أنها كذبة ولن يصدقها بالتالى . ولكنه اذا استكمل الكذبة بكذبة أخرى ، وهى أنه لايكذب فلسوف يكذب فعلا ولكن دون أن يعى أنه يكذب ، وبالتالى فسوف يصدق كذبته .

فهو لم يكن يعى طيلة هذا الوقت أنه يحول شعوره بالعجز الى شعور بالعدوان ثم ينفى شعوره بالعدوان ويصدق ان العدوان آتى من كل مكان فى الخارج ثم ينفى أنه آت من كل مكان حوله انما هو آت من جهة موضوع محدد وقد تم كل هذا بدون وعى منه . وتم على مراحل واجزاء لايعيها الى ان وصل الى نقطة حرجة تغير عندها كل شىء واصبح فجأه يعى النتيجة

النهائية لحساباته هذه . وفى احدى الأمسيات خرج من منزله بعد ارهاق محاولات الاستذكار الفاشلة وليس معه الا بضعة قروش فى نهاية الشهر ليشترى قطعة جبن من عند البقال (فساعات العمل بالجمعية التعاونية كانت قد انتهت) . وكان جائعا ومرهقا ومهزوما ، وكان يشعر وكأن الدنيا كلها تحاصره وكأن هذا فى حد ذاته يضاعف من أحساسه بالعجز . وكلما ازداد أحساسا بالعجز ازداد ألما ثم غضبا ، وكل غضبه يكفى لتدمير هذا العالم كله . ولكن ما تبقى من عقل يؤكد له استحالة أن يقف وحده ضد العالم ، فهو لايملك تاريخا فى العنف مثل الذى يتوفر لعضو جماعة الايرجون الاسرائيلية . وعليه فليس لديه مايطمئنه أنه يستطيع أن يقف وحده ضد العالم ، ناهيك عن كون ذلك الوضع الوحيد الذى يستطيع بواسطته أن يمارس جوده . وبينما كان يهم بطلب حاجته اذا بضيف عربى يأتى وهو حافظة سميكة وكأنه يستعد لشراء المحل بأكمله . ويرى البقال الذى كان يستقبله متثائبا يمتلىء فجأة بالنشاط ويتحول عنه ليهرع خادما لزبونه الثرى . أنه تاجر كريه . ولكن ماذنبه فولاء التاجر ولاءه الأول للزبون الذى يحمل النقود . وعلاوة على ذلك فانه يعول أسرة وله أفا[illegible] وهناك صلات عائلية تربطهم . ولعل له قريبة يمكن أن يتخذ منها زوجة تعوض خسارته السابقة حين فضل شقيق فتاته الاولى اقتناء البقالة على اتخاذه زوجا لشقيقته .

ووسط هذا الشعور بالعجز ينظر صاحبنا الى ذلك الثرى ، ان أنفه متجهة الى أعلى وكأنها تسعى لتنطح السحاب لايكاد ينافسها فى بروزها من بين أعضاء جسده سوى كرشه الذى تكور كالبالون الطائر ويكاد يرتفع هو الآخر سابحا فوق السحاب ، بلا حاجة الى نطح

او احتكاك . انه يشعر بالدونية لانه يرى كل شيء يعلـو فوقه يحجب عنه السماء وكلما أرتفعت الاشياء كلمـا أنخفض هو . وكلما انخفض هو كلما إزداد شعوره بالألـم والغضب . ويصل الى نقطة لايستطيع عندها أن يكتـم ألما أوغضبا . فلابـد ان يصرخ أويثور . ولكنـه اذا صرخ فسوف ينظر اليه الآخرون كطفل عاجز فاقـد السيطرة على نفسه ، الأمر الذى سوف يضاعف من احساسـه بالدونية . ولابد أن يغضب وعلى أسوأ الفروض فهو يمكـن أن يجعل من غضبه ستارا يخفى وراءه ألمه . فهو فـى صرخة الغضب يستطيع أن يخرج صرخة الالم بشكل قد لايميزه السامع العادى . ولكى يكون غضبه مقبولا من الآخريـن فلابـد أن يوجهه الى موضوع . ويفضل أن يكون الموضـوع يتفق عليه الآخرون أنه يستحق الغضب . وفى هذه لـن ينظر اليه الآخرون كطفل عاجز يصرخ أو يغضب بلا هـدف بل هو فى الواقع يعبر عما فى نفوسهم ويخفى عليهـ وسوف يصفقون له ويؤيدونه .

أنه ليس الوحيد الذى يعانى من الفقر النسبى المصحوب بالطموح . وليس الوحيد الذى يعجز عن شراء السلـع الكستوردة الباهظة الثمن . وليس الوحيد الذى يرى ان هناك فئة من الناس انفردت بهذه السلع وربطت بها فئة أخـرى تتعيش من بيعها لها ، بينما هو قد أخرج من الدائرة . هناك متألمون وغاضبون غيره . وكلهم يشعرون بالعجـز وكلهم يبحثون عن موضوع يصب فيه غضبه . وحينما يعجز الأنسان عن مواجهة مشكلة لأنه يبحث عن سبب محـدد وملموس يلقى عليه بالمسئولية . أنه يبحث عن كبـش فـداء يوجه له غضبه بدلا من مجابهة الأسبـاب المتعددة والعامة والمتشعبة للمشكلـة .

أنه يعلم أن هؤلاء جميعا مثله يبحثون عن كبـ

فداء . لقد رأى فى نظراتهم وفى همسهم أنهم أيضا يشكون من ذلك التفاوت، ولكنهم يكبحون غضبهم أملا فى أن ياتى دورهم فى الانتقال الى المكان الأعلى الذى يتطلعون اليه ، لقد فضلت فتاته الاولى الشيخ الثرى وفضله شقيقها. ولكن لم يمض وقت كثيرا حتى اكتشفت الفتاة أنها مجرد أداة للانجاب ورعاية الاطفال يمتلكها الشيخ ضمن ملكيته لغيره. ولم يصبر على ذلك الا لعلمها بأن الاطفال الذين أنجبتهم سوف يرثون الشيخ يوما ما . أنها تقبل الوضع ولاتريد أن تغيره ومع ذلك فهى لاتكف عن الشكوى لشقيقها. وشقيقها يصعب عليه أن يعلن نكرانه للفضل ، ويطمع فى المزيد فلا يبوح هو بالشكوى الا همسا .

ويعلو الهمس حينما يصل الامر الى الزبائن . ويستمر يعلو حينما يرى المتزاحمون على طابور الجمعية الرفاهية التى يتمتع بها رواد البقالة .

لقد دارت مثل هذه الأفكار فى خلده كثيرا ولكنها لم تصل به الى درجة الغضب الجامح . أما فى تلك اللحظة فقد كان منهكا ، وكانت قدرته على التحمل قد وصلت الى أقصاها . وعند انهيار قدرته على التحكم فى انفعالاته صاحب انجرافها المفاجىء شريط سريع لم يدم الا ثوان يعيد هذه الأفكار كلها الى ذهنه ويجسد الموضوع أمامه فى شكل ذلك الثرى المسكين الذى لا علم له بما يدور فى خلده أو فى خلد الآخرين . بل يخدر نفسه ويخدر رفاقه من أمثاله، ان ماهو قائم من تفاوت بينهم وبين غيرهم لهو من أرادة الله الذى أنعم عليهم ولم ينعم على غيرهم وأن أرادة الله بالتالى يجب الا يعترض عليها البشر، على الأقل ففى هذه الحالة بالذات هو لايعترض . فكيف يمكن أن يعترض الآخرون ، وخاصة المحرومين ، على ما هو فيه ؟

دار شريط الأفكار سريعا بفعل التيار الجارف من الأفكار

وانفعالات الغضب . وتجسد أمامه الموضوع والكبش المطلوب تفديته وهو ذلك الثرى . أنه لم يتذكر تفاصيل ماحدث عندما سئل فى التحقيق . لقد حدث كل شيء بسرعة . ولم يكن للتفاصيل وزن على أية حال . هو متأكد من الكواقع لانها جزء من وجدانها . اما التفاصيل فهى المبررات ، لعلها كلمة من هنا وكلمة من هناك، حتى انتهى الامر بأن انهال ضربا على ذلك الشيخ الثرى المسكين ولعل صاحب المحل الذى لم يكن يريد مشاجرة داخل محله كان سعيدا للحظة فى بداية المشاجرة أن يرى غيره يعبر نيابة عنه فى الغضب الذى يختزنه هو الآخر ولكن يكظمه حفاظا على مصالحه . ولعل غيره من [illegible] المحل فعلوا الشيء نفسه . أو لعلهم المارة ولكن احساسه الداخلى أن هؤلاء جميعا يصفقون له [illegible] يشجعونه على هذه الثورة . انهم لم يقوموا بها لانهم يعلمون الثمن . انهم يحلمون بها ولكنهم يفضلوا ان يقوم بها غيرهم . فاذا ما انتصر كان ذلك انتصارا لهم واذا ما انهزم فهو الكبش الذى يقدموه من بينهم فداء ، فيغفر لهم غضبهم الامر الذى يسمح بزيادة جديدة فى رصيد الغضب . ماداموا قد كفروا عن غضبهم فيمكنهم أن يبدأوا من جديد بتخزين المزيد من الغضب .

وهكذا انتهى الامر بكبشين افتديا : الاول هو ذلك الشيخ الثرى الذى افتداه الشاب بأن اعتدى عليه بدلا من محاولة علاج المشكلة من جذورها . والثانى هو ذلك الشاب نفسه كفدية قدمها الجمهور لاجهزة الامن والقانون . وهما كبشى فداء لأنهما اضيرا ، ولان الضرر الذى اصابهما لم يغير شيئا من الاسباب العديدة التى أدت اصلا الى وجود الظاهرة . فالمشكلة تستمر ، و[illegible] الغضب قد انخفضت حدته بان تم التعبير عنه ثم الندم [illegible] . ولكنه يتراكم من جديد . ويتم البحث عن اكباش جديدة للفداء .

أن العمالة المصرية قذفت بنفسها الى نيران الصحارى ، محتمية بالتخدير المؤقت الذى يتوفر بفضل أجهزة التكييف ولكن الصحارى المغلقة بالهواء المكيف لها حدود لن يمكنها بعد فترة ، أن تستوعب كل العمالة المصرية . ويتبقى فى مصر بالضرورة عمالة تعمل فى ظروف ، وان كانت افضل من نيران الصحارى ، فهى أسوأ من الظروف المكيفة . واذا كانت هذه العمالة تسكت حينا لانها تأمل فى اليوم الذى يمكنها فيه أن تنضم الى قوافل العاملين النازحين عن الوادى المنحدرة عن خصوبته ، فلابد انها ستكشف يوما أن للصحارى المكيفة حدود ، وانه لابد ان يكون هناك فئة محرومة من امتيازاتها . وهذا اليوم قد بدأ فى الظهور فى شكل التكالب على طلب العمل مع انخفاض العروض .

هؤلاء المتبقين من العمالة المصرية فى مصر سوف يزدادون نقمة على شيوخ النفط الذين تمنعوا وسوف يبحثون عن كبش الفداء حينما يطفح بهم كيل الغضب . قد يراودهم فى بادىء الامر أن يضربوا اخوانهم المصريين الذين انفصلوا عنهم بالثراء السريع ، كما حدث فى يناير ١٩٧٧ . ولكن قد يفضلون توجيه الضربة ، مثل صاحبنا الشاب ، الى احد الأشرياء ، كما حدث عندما استجاب الجيش المصرى للاستفزازات العسكرية الليبية فانهال على ا ضربا .

الغضب المتراكم لابد له من منفذ ، واذا لم يحول ذلك الغضب الى فعل يهدف الى تغيير الواقع الذى افرز اسباب الغضب اصلا ، فانه سوف يخرج نحو موضوع قد لايكون له ذنب اى كبش فداء .

أن الثورات العشوائية أو الفوضوية الداخلية لاتغير الواقع بطريق بناء ، قد تنبه وتنذر بوجود خلل ما فتسترعى انتباه المسئولين لحلها ، ولكنها فى المقابل قد تودى الى

ثورات عشوائية مضادة تأخذ شكل التمادى فى التسلط والكبت وعودة مراكز القوة على شكل جديد . ومن جانب آخر فأن المعارك الخارجية المنفعلة بدورها لاتحدث تغييرا يذكر . وكذلك فأن التعامى عن الأسباب التى تؤدى الى تراكم الغضب ،وإنعدام الجدية فى البحث عن حلول وتطبيقها للحد من هذه الاسباب يودى الى تراكم الغضب،والتراكم يودى الى الانفجار.والأنفجار يتجه نحو تدمير موضوع لن يغير فى الأمور شىء ،أى تغذية كبش،وهذا قد يخفف من حدة الغضب فترة ،ولكنه سرعان ماسوف يعود ليتراكم مرة أخرى .

مصر بحضارتها العريقة وهويتها المستقرة نسبيا على مر العصور وظروفها الطبيعية الجغرافية المستقرة من مياه منتظمة وجو مستقر ،لاتحتمل الهزات العنيفة ولا الفوضى كثيرا . ولكن ذلك لايمنع أن يكون التعامى عن التغيرات السريعة التى نعيشها فى عصر اليوم والأحتماء فى ذلك الاستقرار هو ذاته الذى قد يخل بهذه المعادلة ،يدخل عنصرا جديدا فى التاريخ الحضارى المصرى،وهو عنصر الأنفجار العنيف . وقد تفضل مصر الفاشية على الفوضى . ولكن تمادى الفاشية بالتعامى هو ذاته قد يفرض الفوضى .

وكذلك على المستوى الخارجى ،قد تنجح المعارك المنفعلة أن توحد الجبهة الداخلية فترة ،ولكنها بقدر ما هى منفعلة وليست هادفة لاحداث تغيير ما ،فهى لن تغير من الظروف التى تؤدى الى تراكم الغضب،وان كانت سوف تؤجله فترة . ولكن التعامى عن الأسباب الموضوعية التى تؤدى الى الغضب قد يجعل ذلك الغضب يتراكم ويتحول بشكل انفعالى عقيم نحو موضوع خارجى .

فهناك أسس موضوعية للخلافات سواء داخليا بين أبناء المجتمع المصرى ،اوقوميا بين مصر وبقية الامة العربية

وهذه الأسس الموضوعية تستدعى الدراسة بهدف تغييرها
والتعامى عنها أو تجاهلها أوتغطيتها بشعارات الأخوة
العربية والأسلامية لن يزيلها . بل سوف يؤدى الى تراكمها
حتى تصل الى درجة الأنفجار فيحدث التقاتل بين أبناء
الامة الواحدة .

لقد كانت اسرائيل حتى قريب تؤدى دور كبش الفداء
والموضوع الخارجي الذى تتوحد ضده الامة العربية وتحول
غضبها نحوه بالأضافة بالطبع للتناقضات الموضوعية .وبالقدر
الذى كانت هى كبش فداء (دون أن ينفى ذلك كونها
عدوا موضوعيا) فأن مقاتلتها فى حد ذاته لم يخفف
من مشاكل مصر أو الامة العربية كما أن ايقاف القتال
معها هو الآخر لم يأتى بثماره على الأقل حتى الأن . بل
مازالت البوادر الأولى لهذا الوقف للقتال مع اسرائيل
أنه مازالت حاجتنا تدور حول البحث عن كبش فداء خارجى
آخر ولعله يكون موضوعا عربيا هذه المرة . ومرة أخرى
فأن ذلك فى حد ذاته لن يحل المشاكل وخاصة اذا كان
التعامل معه انفعالى وعنيف كما هو الحال بين العراق
وايران .

وان كان سهولة تفدية دولة أو حاكم عربى مغرية للغاية
فها هى الجزائر والمغرب وتونس وليبيا ،وسوريا والعراق
وايران واجزاء الجزيرة العربية وغيرها . بل أن لبنان
ما هى الا ساحة قتال ،مثل كوريا ،تتصارع فيها القوى
الغربية وغيرها . اذا أضفنا الى ذلك (فيما يتعلق بمصر)
الاستقرار المتزايد لحجم العمالة المصرية الأمر الذى يغلق
الباب فى وجه المصريين الذين لايعملون فى الدول العربية
أويستفيدون من هؤلاء ،ولذلك قد يؤدى الى زيادة حجم
الغضب بين المصريين وبعضهم والذى يعزى بتحويله
بعد ذلك نحو العرب . "

وعلى الجانب الآخر من المعادلة وجود الارتباط العضوى والمادى الذى ينشأ بين المصريين والعرب من خلال هذه القوى العاملة . ناهيك عن الأرتباط المعنوى بالأبعاد القومية والدينية . القوى فى المعادلة هى قوى تجذب نحو تحويل الغضب نحو موضوع عربى (دولة أو حاكم) قد يكون لاذنب له فى حد ذاته ،فى مقابل قوى تمنع مثل ذلك التصادم .

والمانع الجذرى لمثل هذا التصارع بين أبناء الأمة الواحدة هو المواجهة الصريحة والمبكرة للاسس الموضوعية للخلافات والسعى الجاد لتشخيصها ومحاولة حلها .

لقد اختلف العرب والاسرائيليين حول من من آبائهم الذى كان سيفديه ابراهيم عليه السلام ،بناءا على أمر ربه . ومازال السؤال مطروحا فى المنطقة حول من الذى سيذبح من ارضاءا لمن ؟
فصناع السلاح وتجاره فى العالم الصناعى الشمالى (بمافيه الاتحاد السوفييتى) لايهمهم من الأمر الا أن يستمر العالم الثالث فى شراء أسلحته ليذبح بها أحد أبنائه كل حين وآخر . ومايحدث بين العراق وايران يعكس ذلك . فان تراكم الاسلحة فى بلدين متجاورين متنافسين على حدود مليئة بالثروات الطبيعية (النفطية) لايمكن الا أن يؤدى عاجلا أوآجلا الى حرب ،بغض النظر عن العلاقة التى تقوم بين الزعيمين من عداء شخصى أو محبه ،أوبين الشعبين من مذاهب دينية شيعية أو غيرها .

الحــوار والصراع بين الشباب والرشد
فى دائرة مصر العربيـــــــة

"ياحكيم ،يحيرنا موقفك . بل اننا نجاملك بهذا التعبير فالاجدر ان نقول ان موقفك يستفزنا. والمقصود هوذلـــك الموقف من العلاقات العربية الاسرائيلية . اذ ان انتمـــائك الوطنى لاغبار عليه . فقد نشأت فى ريف الوطن وتعلمت فـــى خيرة مدارسه ثم تعلمت فى جامعاته مهنة استطعت بواسطها ان تجد موطنا مؤقتا فى ارقى بلاد العالم . ولكنك آثـــرت العودة الى الوطن وانتمائك الاسلامى والعربى لاغبارعليـــة فقد كنت منذ صباك ضمن اول من شاركوا فى الدعوة الـــى الاسلام فى عقر دار الاستعمار البريطانى فى احدى اهـــم مدارسه الداخليـــه .

" ونحن طلابك من الشباب الوطنى المتحمس لانستطيع ان نفهم كيف يكون موقفك هذا من العلاقات المصرية العربية الاسرائيليـة وهو ان السلام مع اسرائيل امر طبيعى وانه جاء نتيجـــة للتوتر فى العلاقات المصرية العربية . وان التطبيع ضـــرورة يمليها تخلف الفكر عن الفعل . اى ان الفعل الذى تم بالاقبـــال على السلم مع اسرائيل سبق الفكر الى ذلك . وبينما قـــرار السلم جاء وكأنه قرار فوقى لايمت للواقع بشىء فانك تؤكـــد انه كان يعبر عن وجدان الشعب المصرى الذى كان قد وصـــل اذ ذاك الى قمة التوتر فى علاقاته مع الدول العربية الاخـــرى وان هذا التوتر المصرى العربى هو ما أدى الى خطوة السلم وليس بالضرورة العكس ."

" دعونى اذا اشارككم فى مايؤرقنى . اذ انه من خبرتى فى العلاج النفسى اجد ان هدف العلاج هو ان ينهى العلاقة الطبيبية المريضية الغير متماثلة ويحولها الى علاقة ندية متماثلـــة فيكف المريض عن دور المرض ويصبح مواطنا راشدا وانسانــــا

وهو بتحرره من هذا الدور يحرر طبيبه ليضامن دوره فيصبح هو الآخر مواطنا راشدا وانسانا . وبالمثل فان خير التعليم هو حيث تتحول العلاقة بين الطالب والاستاذ الى علاقة ندية متماثلة وهى العلاقة الانسانية الراشدة . وبدون تخل تام عن دور المعلم فانى فى ذات الوقت سوف اخلع الدور واطرح نفسى كانسان .

" يؤرقنى ان اراني انزلق تدريجيا لاستقطاب يجعلنى فى قطب يواجه قطبكم الآخر . فالانسان حينما يودع شبابه انما يرضخ بدرجة ما للواقع الذى طالما رفضه كشاب .فالواقع هو مايوجد فعلا . وكلنا نحلم بمكان فيه . ان الشباب بطبيعته لايجد مكانا فيه فيرفضه ويحلم بواقع أفضل وقد يسعى لتحقيقه . فاذا نجح فى تحقيقه صار هو الواقع الجديد . وصار راشدا ،وعندئذ سوف يجد فى الشباب الجديد رفضا له . واذا فشل فى تحقيقه فأنه اما يعيش فى مرارة الحلم الذى لم يتحقق او رضخ للواقع الذى لم يرض عنه ،وفى هذا مرارة ايضا . والخروج من المرارة يأتى بأن يزيل التناقض بين واقعه وحلمه . اذ عليه ان يقرر اما ان يكف عن الحلم ويعيش الواقع او يحول الحلم الى واقع فيعيش الواقع ايضا. فى كلتا الحالتين فلابد من العودة الى الواقع .

" فالأنسان عليه فى هذه المرحلة من عمره اما ان يصبح هو الواقع الجديد ويتحمل رفض اخواته الشباب له ،او ان يرضخ للواقع فيعيش مرارة الرضوخ ورفض اخواته الشباب أيضا او ان ان يتمسك بالحلم ويستمر فى شبابه وفى تأييد الشباب له فيعيش كل من مرارة ورفض الواقع له وعجزه عن تحقيق حلمه ، ليس الخيار الا بين اشكال مختلفة من الألم .

" انى انزلق بحكم موقعى فى الصفوة المهنية الطبية والتعليمية . فالمهن الحرة تتكسب من خدمة الصفوة الاجتماعية

فان اتعاب المهندس او المحامى اوالطبيب ليست فى متناول الغالبية من الناس . ومن الطبيعى ان ترتفع اجورهم مع الارتفاع فى مستوى المعيشة . إذ طالما يوجد من يدفع ليعوض من غلو الاسعار فلا مانع من رفع الاجور.

" وهؤلاء القادرون ليسوا من عامة الشعب ،ولايعملون فى نفس ظروفه . انهم غالبا ممن اثروا بفعل دخلهم المضاعف نتيجة عملهم فى الدول العربية ،التى تتوفر لديها السيولة النقدية بسبب وجود النفط وخاصة بعد ارتفاع سعره بفضل الوحدة والقوة المصرية العربية فى مواجهة القوى العالمية المستهلكة للبترول . واذا لم يكونوا منهم مباشرة فانهم يستفيدون منهم بشكل اوبآخر كأن يبيعوا لهم السلع الاستهلاكية والمستوردة الباهظة الثمن ، اويقيمون لهم المساكن وغيرها من المستلزمات والمهن الحرة تنتعش نتيجة تعاملها مباشرة مع الدول العربية ، اوبطريق غير مباشر من خلال الذين يعملون فى هذه الدول او يتكسبون ممن يعملون فيها . فهى تقدم خدماتها الخاصة لهم ،حتى وان كانت تعطى بعض من وقتها للخدمة العامة ،للجماهير .

والاستقطاب يجعل هؤلاء جميعا فى جانب وعامة الشعب فى جانب آخر. ويجعلنى فى شدى فى جانب وانتم فىشبابكم فى جانب آخر .

ان مصالحنا جعلتنا نرضى بالعلاقات المصرية العربية بالحال التى هى عليه . فلماذا نغير مانحن مستفيدون به ؟ العمل متوفر فى الدول العربية ولكن ليس باليسر الذى يسمح للجميع ان يستفيدوا به . ولهذا الانكماش فى العرض من جانب العمل ،فان المستفيدين هم من يعملون فعلا . اذ ان المنافسة معهم تبقى محدودة . وليس من صالحنا اذن أن نوسع رقعة العاملين فى الدول العربية ،كما انه ليس من صالحنا

أن نضيقها عما هى عليه . ولذلك فان الوضع الامثل هو أن نبقى العلاقات المصرية العربية على ماهى عليه: متوترة ولكن ليس لدرجة الانقطاع ومسترخية ولكن ليس بدرجة الذوبان . انها علاقة تناقضية وجدانية فيها خليط من الاقتراب والابتعاد ، ومن الشد والجذب ومن الحب والكره .

لقد توترت العلاقة فعلا لدرجة اننا اقبلنا على السلام مع اسرائيل. ولكننا لانريد بها ان تنتهى بقطيعة تامة ولذلك نتروى فى اقبالنا على السلام مع اسرائيل . وكذلك لاننسى اننا كنا بالامس فى علاقة توتر مع العرب وفى هذه الحالة نتروى قبل ان نحجم عن السلام مع اسرائيل . إن علاقتنا مع إسرائيل تتناسب عكسيا مع علاقتنا مع العرب : كلما توترت واحدة استرخت الاخرى . كما يلوح أيضا التناقض الوجدانى : نريد ولانريد .

اننا نخاف من مواجهة تلك الحقيقة . وذلك لانه من الايسر لنا أن نرى الابيض ابيضا أو الاسود أسودا ولانكلف أنفسنا عناء البحث عن درجات اللون الوسيطة او الخطوط البيضاء وسط الظلام والخطوط السوداء وسط الضوء .

ولاننا لانواجه الحقيقة بوعى ، فأن الحقيقة تفرض نفسها علينا بتحريك سلوكنا ، وعليه فنحن نتصرف بالحد الادنى من الوعى وكثيرا مايتناقض فكرنا مع فعلنا وهو الأمر الذى يحرمنا من القدرة على الحركة الارادية الواعية المحسوبة مما يجعلنا نخسر فى تعاملنا مع الواقع . اننا بهذا نتعامل مع الواقع كما نفضل أن نراه : أما أبيض او أسود ولانتعامل معه كما هو: فيه الابيض وفيه الاسود ايضا .

يؤرقنى ان أرانى أواجه جانبا من الواقع لاتتفق الأغلبية على رؤيته : أن أقول أن هاهوذا خط ابيض فى الظلام او خط أسود وسط البياض . بينما الغالبية تفضل تبسيط الامر والتمسك بالرؤية الواضحة المحددة : ان الابيض أبيض

والاسود أسود. ولكنى من جانب آخر لو رأيت الابيض فقط فسوف اتناقض مع من يرى الاسود فقط. وعليه فالخيار فى النهاية ليس الا بين شكل اوآخر من اشكال التناقض ،ونوع اوآخر من انواع الالم. ولكن لأنى اختار ان اعيش الواقع ،فأراه خليطا من الابيض والاسود ،فهناك حتمية لان اتناقض مع من يرفض الواق ويراه اسودا او من يقبله بقطيعة مشابهة وتعصب مساوى فيراه ابيضا."

يقول الطالب :" أخى الحكيم ،دعنى اقص عليك قصة طالما سمعتها منك وهى قصة جحا وابنه والحمار. فقد ذهب جحا مع ابنه الى السوق لشراء حمار . وعادا به فركب جحا الحمار بينما ابنه يسير على قدميه ،فاشمأز الناس من قسوة الاب على ابنه . فبدلا الاماكن فعلق آخرون على سوء خلق الابن الذى يركب بينما يسير أبوه . فركب هو وابنه الحمار فعلق آخرون على انعدام الشفقة على الحيوان المسكين . فنزلا من عليه فعلق آخرون على غباشهما لعدم الاستفادة من الحمار للركوب . فلما نفذ صبره حمل الحمار هو وابنه وسارا به غير عابثين بالجمهور الضاحك .

فالنتيجة ان كلا منا يعمل مايشاء وهناك حد عنده لابد من ألا يكترث المرء بما يقوله الآخرون. لعل فى ذلك اعلانا لانتهاء الحوار . ولكن لكل حوار نهاية. فاما ان نتفق أونختلف وقد نتفق على أن نختلف ونختلف على امكانية الاتفاق . وفى كل الحالات فلامفر من ألم الاختلاف . ولعلك اخترت دورك ان ترفض من يقبل الواقع قطعيا كما ترفض من يرفضه قطعيا .

وهذا يعيدنا الى نقطة البداية وهى انك رأيت نفسك تنزلق ،أى تنزلق لقبول الواقع بعد رفضك له ،فتضع فى قطب مواجه لنا مما يجعلك تبدو وكأنك ضمن من يقبلون الواقع قطعيا .

" ياصديقى، ان التحول من الشباب الى الرشد يعنى بالضرورة الانتقال من حالة رفض الواقع الى حالة قبوله . والواقع الذى نعيشه فى الرشد هو الواقع المادى الملموس، على خلاف الشباب حيث يكون الواقع المعاش هو الواقع المتخيل اى ان الشباب يرفض واقعه ويحلم بواقع افضل .

وهو يستطيع ذلك لانه لايشعر بانه مسئول عن واقعه بل يعيه مفروضا عليه . علاوة على ان سنين العمر مازالت كثيرة أمامه ويستطيع أن ينتظر، واذا كان الراشد يرى فى قبول الواقع خطوة نحو تغييره فان الشاب يرى أن سبيله الوحيد لتغيير واقعه هو برفضه وتخيل واقع أفضل. فقد يتخيل مجتمعا اسلاميا او مجتمعا شيوعيا او مجتمعا ديمقراطيا. المهم انه تخيل . والذى يقبل الواقع يجد نفسه بالضرورة فى تناقض مع من يرفضه : الراشد والشاب.
والانزلاق هو ما نعيه حينما ننتقل من حال الى حال بينما ارادتنا الواعية لها اتجاه آخر. اننا بالوعى لانريد الواقع كما هو ونتخيل واقعا افضل، ولكن سلوكنا ينقلنا من حال الى حال . والسلوك هو التعامل مع الواقع الامر الذى يتحتم بفعل الرشد ، ومايتطلبه ذلك التعامل من درجة من القبول للواقع . نحن اذن نقبل الواقع بسلوكنا ونرفضه بوعينا. وحينما نعى ذلك التناقض فاننا نعى انفسنا وكأننا ننزلق بلا وعى ولا ارادة ، الى ان يتم التوافق ويتغير الوعى وتتغير الارادة فى اتجاه السلوك، او ربما يتغير السلوك فى اتجاه الارادة والوعى. اى اما ان نقبل الواقع او نغيره وعندئذ نقبله لانه صار كما نريد ، ولايوجد هناك وقت للتمنى او الانتظار حتى يأتى واقع أفضل .

" السلوك الذى ننزلق فيه ، هو أننا نعيش على وجود

نمط من انماط العلاقة مع الدول العربية . اننا نتكسب من هذه الاوضاع كما هى . وبهذا القدر فاننا نقبل هذا الواقع بل الادهى من ذلك لانريد ان نغيره . فى نفس الوقت الذى مازال وعينا وفكرنا يعبر عن رفضنا للواقع . فنحن نمارس غير مانقول ونقول مالا نفعل .

وبطبيعة الحال فبما ان هناك مستفيدين من العلاقة المصرية العربية على ماهى عليه ،فهناك ايضا المضارون، ففوائد قوم عند قوم مصائب . ان زيادة الدخل الناتجة عن الانفتاح المحدود على العالم العربى والغربى عامة لاتعود على الجميع بنفس الزيادة ،بل ان هناك من يحصل على نصيب دون غيره او على أقل تقدير افضل من غيره ولكن الأمر لايقف عند هذا الحد لان زيادة الدخل تصحبها زيادة فى مستوى المعيشة بفضل ارتفاع الطلب على العرض . وعليه فأن الدخل الثابت هو دخل متناقص . وبينما يزداد الاثرياء ثراءاويزداد الفقراء فقرا .

وهذا يحدثوكأنه بلا وعى . وكل طرف منا يزداد ابتعادا عن الآخر . فالشباب الذى لايستفيد بل يضار من تأثير الاقتصاد العربى يجد نفسه فى تناقض مع هؤلاء الذين يستفيدون منه .وحتى لاتتم المواجهة بين الطرفين فان التحالف بينهما يبقى طالماهناك عدو خارجى مشترك. فانا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب . هكذا نجد الطرفين فى الدخل يتفقان فترة على تحديد العدو خارجهما وكان هذا العدو هو اسرائيل . ولكن الدول العربية الثرية تسعى بدورها لأن تخفى حقيقة التوتر بينها وبين مصر ،وهو التوتر الذى ظهر فيما يبدو وبشكل فجائى بعد خطوة السلم مع اسرائيل . فقد بدا هنا وكأن الصراع مصرى عربى وليس كما كان :عربيا اسرائيليا وهكذا أصبح العدو الخارجى الجديد الذى يوحد صفوف الداخل

هو الدول العربية الاخرى أوبالتحديد مايسمى بدول الرفض
الا أن هذا التوتر فى العلاقات المصرية العربية والذى يهدد بأن يحول العلاقة الى علاقة عدائية ...
التوتر الذى يقربنا من درجة القطيعة ، اصبح يهددنا الأن . لقد كنا راضين بدرجة من التوتر ولكننا نخشى القطيعة . وكنا نريد السلام مع اسرائيل ولكننا نخشى ان يكون ذلك على حساب علاقاتنا العربية .
ولان السلام مع اسرائيل لم يحقق لنا بعد عائدا ملموسا مثل الذى نجده فى علاقاتنا العربية النفطية المالية ،فأن هذا البعد هو الايسر فى التراجع عنه .
فان هذا التراجع المحدود يحفظ درجة من الاتصال فى العلاقة المصرية العربية . فى ذات الوقت الذى نستطيع ان نتراجع تماما عنه حفاظا على درجة محدودة من التوتر فى العلاقة المصرية العربية وتجنبا العودة حالة الصدام الصريح مع اسرائيل الذى سئمناه .
والانزلاق هو أن اجد نفسى مبقيا على المصالح القريبة الأجل والتى تتمثل فى هذا النمط فى العلاقة المصرية العربية الغربية كما هى . وهونمط اقرب مايكون الى النمط الطفيلى . او التكافلى حيث يضار طرفا والطرفين فى العلاقة . وهونمط لايرعى المصالح البعيدة المدى فالطفيلى اذا نجح فى مص دماء غريمه او مضيفه تماما سوف يجد نفسه ينتهى بانتهاء غريمه او مضيفه . "
المصلحة البعيدة المدى تجعلنى أحافظ على درجة من التوتر فى علاقاتى الخارجية سواء مع الاصدقاء أو الاعداء - ونحن هنا نشير الى العلاقة المصرية العربية ،تجعلنا قادرين على الضغط والمطالبة لا الرضوخ للشروط التى تملى .
وعلى هذا فان المصلحة البعيدة المدى تقتضى بالا

نعيد التوتر مع اسرائيل الى ما كان عليه فى الماضى، أى الا نتراجع عن السلام . ولعل الشعب فى مصر يعبر عن ذلك بترحيبه المهذب بالزائر الاسرائيلى دون ان يفرط فى ذلك ،وبالطبع دون أن يكون ذلك على حساب الزائر العربى .

الخطورة تأتى من أن هناك قوى موازية فى اسرائيل بل اكثرمنها تناقضا فى وجدانها : يريدون السلم بالوعى ،ولكن السلوك ، اللاواعى غالبا والذى يصل الى درجة الوعى احيانا ،يعبر عن رغبة فى التراجع عن السلم .فمنهم أيضا من يخشون فقدان العلاقة الطفيلية مع الغرب ،وخاصة مع يهود الغرب،التى كانت تزدهر مع زيادة التوتر والتهديد بالفناء . وقد كانت اسرائيل تفضل ان تضفى هذا الموقف على العرب كسبا لعطف يهود العالم .ومنهم ايضا من يخشى أن يتبلور الاستقطاب الداخلى ،فيصبح المستفيدون من الأموال الامريكية اليهودية فى جانب وغير المستفيدون والمنضرون من عامة الشعب فى جانب آخر هذه القوى بالطبع لاتريد السلام لانها هى الاخرى تفضل الوحدة الوطنية الداخلية التى تخفى الصراع الداخلى .

ان حكومة بيجين ذاتها تمثل هذه القوى وتدافع عن مصالحها . وقد شعرت بالتهديد فى مواجهة عجزها عن الاستمرار فى السلام الذى أبرز الخلافات الداخلية فلم تجد طريقا لتوحيد صفوف الشعب خلفها الا بواسطة اثارة عداء خارجى . وما فعلته بالاعلان الاستفزازى لقرار ضم القدس حقق لها ذلك العداء الخارجى ،لامن جانب مصر فقط ولامن جانب الدول العربية بل من جانب العالم كله .

واذا ما استمرت على ماهى عليه ونفذت حيلها ،فلا مفر من ان تلجأ للحيلة التالية لكى تبقى على مكانها تلك

الحيلة هى استفزاز العرب مرة اخرى وجرهم الى حالة الحـــرب وهو مايتم التمهيد له بـالتحرشات المستمرة على الحدود اللبنـانية والسورية • وبالطبع فـأن ذلك سوف يضع مصر فى موقف حـــرج وحكومة بيجين والقوى الطفيلية التى تؤيدها تتمنى افشـــال السلام على شرط أن يكون التراجع من جانب مصر أولا• ولـــذا فهى تستفز مصر بشتى الصور ،وتدعى أن مصر هى التى تعـــوق التطبيع فى العلاقات كخطوة من خطوات السلـــم •".

ولما كانت هناك وحدة شبه فكرية أقرب الى التفكيـــر اللاواعى ،تجمع الطفيليين عبر كل الحدود ،فـاننا نجد أن هناك صدى لما يتم فى اسرائيل من محاولات لافشال السلام • وأن هذا الصدى يأتى بعضه من الطفيلية المماثلة على الجانب المصرى •

الا أن المؤسف أن يختلط الحابل بالنابل • وأن نجـــد أن المقاومة للســـلام تأخذ اشكالا ايديولوجية براقة فتجـــذب بعض الشباب ،فيجد نفسه فى النهاية يخدم مصالح الطفيليـــة على على الجانبين ،بل يخدم مصالح حكومة بيجـــين •

وهى المقاومة التى أجدنى – ضمن المهن الحرة – أنزلـــق فيها بلا وعى ،دفاعا بالموقف السلوكى الحاضر عن المصـــالح الطفيلية القصيرة المدى • ولذلك أفيق لأصلح بوعى ما أفسدتـــه بسلوكى اللاواعى • فـأنبه الى خطورة الانزلاق فى مخطط حكومـــة بيجين ، او لخدمة المصالح الطفيلية المصرية العربية ،والـــذى يحدث بفضل التسرع فى اغلاق باب الحوار • وهو فى هذه الحالـــة الحوار مع اسرائيل • ولكنه ينطبق بنفس القدر على الحـــوار المصرى العربى الذى يجب أن يستمر دون ان ينقطع من شـــدة التوتر او ينتهى من شدة الاسترخاء • باختصار أن نـــرى فى الظلام خط ضوء أبيض ،وفى النهار الابيض ظلال سواد مظلـــم •

ويختتم الطالب :" ومعنى ذلك أن لانتجمد فى قطب يدين القطـــب الأخر • ان نتفهمك وتتفهمنا مع قبول أختلافنا ،دون أرق أو قلق • فما زال الذى يجمعنا هو وطن واحد ولعل الخلاف الواعـــى

والمعلن بيننا أفضل من الخلاف الخافى والذى يحرك سلوكنا
فنجد انفسنا نستيقظ على مايبدو أنه تصادم مفاجئ.
وقد بدأنا بأول خطوة فى الطريق بأن تصارحنا وواجهنا
بعضنا البعض بخلاف تنادون أن يعنى ذلك نفيا لأى طرف
من قبل الآخر. أننا نختلف وتقبل اختلافنا . "

فتاة فى العشرين جاءت تشكو من حالتى شلل اصابتاهـــا خلال الاسابيع السابقة ، الاول شلل عضوى اصاب عصـــــب عضلات نصف الوجه واخذت علاجا له . والثانى شلل اصــــاب رجليها بعدم القدرة على الوقوف او المشى الا بالمساندة ، وهو شلل من النوع الهستيرى والذى يحدث رغم عدم وجـــود اساس عضوى له .

والاحداث السابقة للمرض انها قد رسبت فى امتحان الثانوية العامة للمرة الثانية واصابها شبه يأس من امكانيـــة النجاح بعد ذلك واستكمال تعليمها الجامعى . وفى ذات الوقت فان احد اقاربها الذى تقدم لخطبتها ويعمـــــل تاجرا فى احدى الدول العربية يتعجل الزواج منها ، وان كان يبدى استعدادا ظاهريا لتقبل رغبتها فى استكمال تعليمها .

انها حائرة بين ان تكمل تعليمها رغم محاولاتهـــا التى فشلت حتى الآن وبين ان تتوقف عن "التعليم وتتـــزوج" بل تتزوج من حرفى لم يكمل " تعليمه " بالمعنى السائـــد . فالتعليم كما تشربت مفهومه من بيئتها يساوى دخـــول الجامعة والحصول على الشهادة بهدف الجلوس على مكتـــب والحصول على مرتب يتحول بعد سن الستين الى معاش (او بالمقاييس المتضخمة لمستوى المعيشة اليوم : الحصول علـــى معاش اسمه مرتب يتحول الى صدقة بعد سن الستين) . ان عقلها مازال متشربا لتلك القيمة التى اتضح لها زيفها وهـــى قيمة مساواة العلم بالشهادة بالاستقرار الوظيفى والمكانة الاجتماعية الموقرة . لقد اكتشفت من واقعها المباشـــر والمجسد فى صورة من يقبلون على الزواج منها ، او مـــن اقاربها ، ان القادر على تحقيق الزواج ماديا ليس هـــو

الحاصل على الشهادة الجامعية . انها تطلب نقيضين زوجها يحمل شهادة جامعية ، وزوجاً حصل على مكسب سريع يمكنه من توفير متطلبات الزواج الاساسية واولها المسكن. فالاول يعيش فى مصر مع اسرته ولايستطيع الاستقلال عنهم طيلة فترة دراسته بل وبعد تخرجه . واما الثانى فقد استطاع تحقيق ذلك بسرعة بل وبفعل ضرورة سفره للدول العربية للعمل . الاول شاب وديع مطيع ولكن بلا مخالب . والثانى يعيش صراع الغاب فتتاهب مخالبه وانيابه .

وبعد هذه السنوات من الاقناع الذاتى بواسطة عقلها ان القيمة فى الشهادة تكتشف فجأة انها لم تحصل على اول درجة من الشهادة . وتزداد الطينة بلة ان تكتشف ان من يتقدم لها ايضا لم يعبأ بهذه الشهادة . وحتى فى موافقته على ان تكمل تعليمها فهو كمن يعطى طفلته حق ممارسة هواية ، ولكنه يحلم انها بلا قيمة تذكر وانه عند اللزوم سوف يطالبها باداء دورها الاساسى الذى يريده منها وهى ان تكون اداة استمتاع له ، ومديرة لشئون معدته وراحة جسده ، واداة لانتاج ورثة يبررون له سعيه المستمر لجنى المال . وهى نفسها تسأل : وماذا بعد ان تجمع المال ؟ واذا فقد فما الذى سوف يبقى ؟

لقد فقدت الشعور بالقيمة برسوبها ، وفقدت الامل فى الحصول على تلك القيمة فى المستقبل . وكلها ضربات متتالية اصابتها فى خلال اسابيع . انها لم تجد اللغة التى تستطيع بواسطتها ان تعبر عن ذلك الاحساس بالعجز وهو احساس نما عندما اقترب موعد استقلالها عن العلاقة الاعتمادية مع اسرتها . لقد وصلت الى السن الذى وجب عليها فيه ان تنفصل عن اسرة الاصل وتتجه فيه نحو ارساء قواعد اسرة جديدة للانجاب تكون هى فيه شريكة مسئولة لهذه المهمة مع زوجها . وانتمائها لاسرة الاصل يساوى ان تكون

فى حالة اعتماد اى ان تكون محمولة بواسطة والديهـــــا او الاسرة . واتجاهها نحو اسرة الانجاب يساوى ان تستقل اى تقف على رجليها دون ان تستند على احد .-

ان من تقدم للزواج منها ليس الا نجارا . واذا استخدمت المقاييس التى انغرست فى عقلها من ان حـــامل الشهادة هو الذى يقف على رجليه او يضمن الوظيفة الدائمـة والمعاش ،فان "خطيبها بالتالى لايقف على رجليه . ومع ذلـك فالواقع المادى يقول ان وقفته بفضل حرفته رعمله الـــذى يتقاضى عليه اجرا فى تلك الدول العربية يقول لهـا ان وقفته على رجليه اشد صلابة من وقفة زميله الجامعـــى.

انها تريد ان تدخل معه فى علاقة زواج كشريكة وليــس كتابعة . والا فإنها إنما تنتقل من حالة الاعتماد علـــى ابويها الى حالة الاعتماد على زوجها . ومادامت لاتملــك حرفة تستطيع بواسطتها ان تقف هى الاخرى على رجليها فعلـــى الاقل يجب عليها ان تقدم له شهادة جامعية . وكأنهــا توازن قوتها المادية بقوتها العلمية . مادامت هـــى ليست ندا له ماديا فعلى الاقل فهى " افضل " منه علميـا وبهذا تحقق شيئا من المساواة معــه .

أما الآن فهى لم تحصل على هذه الشهادة .وتشعر بالتهديـد أنها سوف تنتقل من حالـة اعتمادية على والديها إلـــى اعتمادية على زوجها . ومادامت هى عاجزة معتمــــدة إن بقيت مع والديها وعاجزة معتمدة إن ذهبت معه ،فهـــى تشعر فى محاولتها الاخيـرة لحل المشكلة بأن تقبـــل الزواج منه بعقلها وترفضه بجسدها . فجسدها يتحدث عنهـا ويقول : أنا لا أستطيع الوقوف على رجلى . وأريد من يسندنى فأعتمد عليه .وكأنها تقول لوالديها : إننى كالطفلة الرضيعـة التى لاتسير على رجليها فلتحملانى وتستمرا فى ارضاعـــى. والبديل أن استبدلكما بزوج اطرح عليه هذا النمط مـــن

العلاقة : فيحملني ويسندني ويقبلني كطفلة رضيعة ، ومادمت عاجزة ، فعلى الاقل سوفاعلن عجزى عن ان اكون امة اوخادمة . ايضا وليصبح عجزى طريقا سهلا لاستعادة مكانتى على عرش الطفولة المدللة .

هكذا شعب مصر : انه يعد نفسه بالتكالب على المدارس من اجل التعليم والحصول على شهادة بغية الحصول على وظيفة . ولكنه يواجه الحقيقة المرة ان الهدف النهائى يبتعدرويدا رويدا ، بل يتحول الى شبح ، فلم تعد الوظيفة متوفرة وميا يجده اتما هو نوع من البطالة المقنعة اسمها وظيفة ولكن لايجد من خلالها عملا بناءا يقوم به . ويتقاضى عليه مايسمى مرتب ولكن يكتشف انه لايعدو ان يكون نوعا من التامين الاجتماعى ، بينما الدخل الحقيقى الذى يسمح له بالمعيشة فى مستوى لائق لايتوفر الا اذا وجد منافذ اخرى للدخل . وقد تكون منافذ شرعية (وان كانت غير قانونية) من خلال العمل الاضافى خارج الوظيفة . وقد تكون منافذ ملتوية ومخالفة للعرف والقانون ولكنها لاتسمى جريمة طالما لم تضبط ، وهى ان يستغل نفوذه الوظيفى ليحصل على مكاسب ذاتية كما فى تقاضى الرشاوى والعمولات وعمل الاتصالات اللازمة او استغلال وظيفته لترويج عمله الخاص .

ثم يكتشف بعد طول انتظار ان الاعمال الحرفية بجانب وظيفته او حتى بدلا منها ، قد توفر له دخلا لاباس به ، فيحتفظ بشهادته للزينة بينما يحول نشاطه فى اتجاه تلك الاعمال أي ان وظيفته اذا ما اعارها لدولة عربية سوف توفر له الدخل اللازم لتعويضه عما يتقاضاه .

لكن عدد المصريين الذين تتاح لهم فرص العمل الاضافى مازال محدودا . صحيح ان الدخل الذى ياتون به لمصر يفوق اى دخل آخر سواء من البترول او قناة السويس او السياحة ولكنه مع ذلك دخل لا يوزع الا على نسبة محدودة من الشعب

ويستفيد منه بطريق غير مباشر نسبة اخرى . بينما ترتفع مستوى المعيشة بقسوة ،فالنتيجة ان الذين حرموا من مثل هذه الفرص للاستفادة اضيروا على مرحلتين ،الاولى الحرمان ذاته من مثل هذا الدخل الاضافى والثانية اضمحلال قيمة مايتوفر لهم من دخل فى ضوء ارتفاع مستوى المعيشة .

وهذه الفئة من الشعب المصرى هى التى تشعر بالعجز وتشعر بالاعتماد . ومخيرة بين ان تعتمد على الفئة التى تستفيد من العمل بالخارج وبين ان تعتمد على الحكومة . اذ أن عملها لم يعد يكفى لان يغطى احتياجاتها . انها الفئة التى اصبحت تشعر بالعجز ومازالت تتردد بين ان تسلك الطريق المعهود للنجاح وبين ان تستمر فى نمطها القديم بالسعي وراء العلم . وتعبر عن عجزها هذا بان تصاب بالشلل معلنة اعتماديتها وطلبها للمعونة . انها من جانب آخر تعلم ان هذه المهارة ليس لها قيمة ملموسة فى وطنها. لقد فقدت الاحساس بالقيمة والوظائف العامة - سواء فى الحكومة اوالقطاع العام - لها هذا الطابع . فلا هى ذات قيمة فى الامة العربية ولاهى ذات قيمة محلية .فهى على المستوى القومى اعجز من ان تنافس منتجات القطاع الخاص . بينما تأتى منافستها مع المحلى القطاع الخاص على المستوى المحلى من الدعم الذى يجعل سعرها فى متناول غالبية الناس . ولكنه سعر مصطنع ،وبالتالى فان قيمتها الفعليه وهميه .ففى الجوهر هى عاجزة ومشلولة .

ان هذا الانهاك للقدرة الانتاجية المصرية وتحويلها الى مجرد قوة انتاجية للايجار فى الخارج يحول مصر الى مجرد معمل تفريخ بشرى ينتج كما من العاملين مع انخفاض مستمر فى كفاءتهم . وقد يبدو ان هذا الاستنزاف لمصر هو استغلال من قبل الدول العربية لمصر . ولكنه فى النهاية استنزاف للأمة العربية ذاتها. فان قوة الامة العربية فى النهاية مستمدة من قوة مصر . واذا استمرت مصر فى النزف واستمرت الدول

الدول العربية فى الاستنزاف انتهى الامر بان تموت الاوزة التى تبيض الذهب وينقطع الذهب . والاوزه هى مصر . والبيض الذهبى هو الكفاءه المصرية فى العمل المنتج . والاهتمام بالبيض الذهبى دون رعاية الاوزة قد يعود بالفائدة السريعة على مقتنى الذهب ولكنه فى الامد الاطول سوف ينتهى بافلاسه . ان مصر فى حاجة الى رعاية مسئولة من قبل شقيقاتها العربيات. والرعاية لاتعنى التسول ولا الاستجداء ولكن المطالبة القوية بحق وواجب وهو حق لايعتمد فقط على اثارة المشاعر القومية او الأسلامية بين الاشقاء العرب والمسلمين ، ولكنه حق يمليه بعد النظر. فأن بناء مصر لتنتهى باعانة ولامنة ولاصدقة ، ولاهو بعمل مثالى وكرم واخلاق . ولكنه ضرورة تاريخية . ان العرب والمسلمين بدون مصر قوية وقائدة أعجز من ان يتحدوا حول هدف ، او يتحدوا فى صف ، واعجز من ان يواجهوا التحدى الحضارى فى مواجهة اقتحام الغرب للمنطقة سواء كان حصانه الطروادى هو ذلك الاستيطان التوسعى والساعى الى السيطرة والاستغلال فى الشكل القبيح لاسرائيل ، او ربط مصالح الطبقات الحاكمة فى الدول العربية بمصالح الغرب فتقوم هى بما كان يجب ان تقوم به اسرائيل وحدها .

والتحدى الذى يواجه العرب هو ذلك التحدى الحضارى وليس فى قدرتهم على تسخير شعب مصر للانشغال فى امر القتال نيابة عنهم تارة او فى المساهمة فى استيراد الحضارة الغربية الى الامة العربية دون ترسيخ لحضارة اوبنائها من الامكانيات الذاتية للامة .

وبناء الامة العربية هو بناء للامة كلها وليس بناء مهطبقا بالاستيراد لجزء منها على حساب جزء . انه بناء القاعدة الأنتاجية الزراعية والصناعية والثقافية فى مصر ولمصر أسوة بالامة العربية كلها .

والقضية المطروحة امام مصر الآن ليست مجرد الحرب والسلام

مع اسرائيل ولكنها قضية تأكيد وجود،وتحقيق استقلال ، وتنمية قدرات انتاجية ،وتقديم شكل حضارى . فـــــاذا نجحت فى ذلك فسوف ينعكس على الحرب او علىالسلم ،بـــأن يتحقق لها النصر . واذا لم تنجح فالهزيمة هى النتيجة سواء فى مجال الحرب او مجال السلم . والذى سوف يحـــدد ما اذا كانت اسرائيل ستفرض سيطرتها عليم لا هـــــو ذلك التأكيد من عدمه لوجود مصر .

وقيصر لم يتحول الى ذئب الا لأن من حوله ساهمـــوا معه بأن تحولوا هم فى ذات الوقت الى خراف . اى ان العرب عليهم ان يسالوا انفسهم متى نكف عن التحول الـــى خراف بدلا من ان نطالب اسرائيل ان تكف عن الاستمرار فى دور الذئب ؟ متى نتكاتف من اجل السيطرة على انفسنـــا وبناء انفسنا بدلا من ان نجعل هدفنا مجرد لوم الاخريـن على ضعفنا؟ متى نقوى سواعدنا بدلا من ان نشكو آلام ضرب سواعـد الغــــير؟

الفتاة المهجورة المستنزفة

حالة فتاة فى الثامنة والعشرين من عمرها بقيت فى مصر لتكمل تعليمها الجامعى بينما يعمل والداها فى دولة عربية منذ سنوات عديدة . انها وحيدتهما ولكنهما قررا ذلك بعد محاولة اصطحابها لهما فترة لم تتكيف فيها مع الجو الاجتماعى والتعليمى فى هذه الدولة فلاشك ان المدارس والمدرسين على مستوى عال وجميعهم مستوردون . فمعظم البشر من مصر او فلسطين واما المبانى فمن دول الغرب كثير من الطلاب من اهالى البلد والبعض منهم من ابناء العاملين. ومع ذلك فانها لم تجد الحافز العلمى الذى يدفعها للسعى وراء العلم . علاوة على ذلك فقد افتقدت الحياة الاجتماعية تماما . فالفتاة لاتجد حرية التنويع فى نشاطها هناك كما كان الامر فى مصر . واذا كان لابد من أن تمارس حرية فان ذلك بالضرورة سوف يكون فى السر . لقد اتفقت فتاتنا ووالداها على افضلية عودتها الى مصر لتكمل تعليمها هناك . وقررت ان تسكن عند بعض الاقارب حتى توفر لنفسها مسكنا مستقلا . ولم لا ؟ فان والديها من الفئة المثقفة التى تعرضت للثقافة الغربية ؟ وتؤمن بحرية الفتاة . وعلاوة على ذلك فقد تحولوا وخاصة بعد ذهابهم الى تلك الدولة ، الى التدين الشديد وتمكنا من بث هذه الروح فى ابنتهم والتى كانت تواظب على العبادة واتباع التعليمات الدينية . لاخوف عليها اذن ولتترك لتحقق آمالها فهى محبة للعلم والتعلم . ولكنها اكتشفت بعد شهور من بعد والديها ثم استقلالها عن اقاربها انها تعانى من الوحدة الشديدة . فاخذت لنفسها صديقا من الشباب . برزت علاقته بها بانها اشبه بالخطوبة غير

المعلنة . ومادامت نية الزواج متوفرة فلا عيب فيها .وتوطدت العلاقة وانفتحت شهية الجوع الى الحب والدفء والاقتراب وهى تنضج وجسدها يصرخ معلنا استعداده للتعبير عن تلك الاحتياجات بوسيلة حادة الحس والانفعال وسريعة ومكثفة، والزواج مشاركة لمسئوليات عديدة ابتداءا من السكن المشترك ومايترتب عليه من تنظيم للعلاقات الحضارية التى تتطلب تربية النشء. اما الالفة التى كانا يشبعانها فقد كانت تحوى تمردا على ما هداه من آلام العلاقة الزواجية بين والديهما . ففتاتنا لم تستقبل من زواج والديها الا انهما كانا يسأمان مسئولية تربيتها. نعم لقد أرسلاها الى مصر لتكمل تعليمها ولكن ماتلقته على المستوى الوجدانى انهما فضلا العمل والاغتراب من اجل المال على المعيشة معها . انها لاتعلن ذلك لانها فى النهاية لاتملك تغييره، علاوة على انها تعلمت ان تستعيض عن حبهما بماوفراه لها من مال ورفاهية . فهما لايتأخران عليها فى طلب بل زنرا لها مايحلم به اى راشد ناهيك عن فتاة مراهقة وعوشقة تسكنها وحدها وتسودها بلا أب او ام او زوج يشاركها فيها . اما السيارة وغير ذلك فكل هذا بالمقارنة ملاليم .

انها تتحول بالضرورة الى ماتتصوره لشكل الفتاة المصرية فهى تتعلم وتتثقف ،وتتساوى بالرجال ،بل ربما تفوقهم. فكم من الرجال فى سنها او اكبر منها يمتلك ماتمتلك من مسكن وملبس ومأكل؟ وماحاجتها للرجال اذن كمصدر للمعاونة او المساندة الاقتصادية ؟ ان كل ماتحتاجه من الرجال هو فقط ماتفتقده بغياب اسرتها . واسرتها تعطيها كل شىء ماعدا الالفة والدفء ،وخاصة تلك الدرجة من الاقتراب التى تأخذ شكل الاقتراب الجسدى الحميم ، اى العلاقة الجنسية . فلماذا لاتستكمل احتياجها عن طريق غيرهم ؟ فليتفضلوا اذن الى مسكنها ليوفروا لها ماينقصها من احتياجات . فليوفروا لها الاقتراب والدفء

ولـيتطور ذلك لـيأخذ الشكل الجسدى . وهو فى هذا الشكـــــل حاد وكشف وواضح ولكنه مثـل الومض الساطع قصير العمـــــر، انهامتعة حادة ولكن المتعة الحادة بطبيعتها تنتهى بنفس السرعة التى نشات بها .والعلاقة تبدأسريعا ولكنها فـى المقابل تنتهى سريـعا.

لقد كانت تجوع الى الحب والدفء .فاختصرت الطريق اليـه وحصلت منه على احد جوانبه دون غيره وهو الجانـــــب الجسدى . والشاب من جانبه يكتشف انه ليس لديه مـــــا يعطيها الا هذا . فهى تمتلك مالايمتلك من الاسس الماديـــة للاستقلال والاستغناء عنه . وهو يشعر ازاءهـا بالدونيــــة (وفى مقابـل ذلك فانه يعوض نفسه عن هذا الاحساس المؤلـم بأن يقلب الوضع بأن ينظر اليهاهى من عل . فهو ينظـــر اليها على انها مجرد متعة مادية يستطيع ان يفرضهـــا بايريد فى لحظة جوعه .فاذا ماشبع استغنى عنها وتركهـا لغيرها . فهى على أية حال لاتنتمى اليه ولاهى فى حاجة له. فوالداهـا يوفران لها ماتحتاج اليه ماعدا هذا الـــذى يوفره هو لها . وهى تأخذ منه هذا بشرط الايطالبها بنصيب فيما تملك . وتفقد العلاقة ماكان مستهدفا منها فى البداية وهو الدفء والالفة . وتتحول الى مجرد اقتراب جسدى يشبـع ذلك الجوع الى الدفء وقتيا . حتى اذا ماعادت آلام الجـــوع مرة اخرى استدعيت الوجبة .
كان جوعها فى البدايـة الى الدفء والاقتراب . واستبدلتـه بوجبة يسيرة من الاقتراب الجسدى . كانت تظن ان العلاقـــة التناسلية المنفصلة عن وظيفة التناسل هى علاقة تعبر عـن

حريتها واستقلالها ونضجها، واخفت عن نفسها حقيقة مطلبها وهو جوعها الى الالفة التى افتقدتها ببعد والديها. ولكن الذى يوفر المتعة الجسدية كما نعب الطفل ويستمتع ليس هو ... يعمل المنتج الذى يحقق لها المعيشة التى حققها لها والداها . انه شاب مستهتر بالضرورة ويضع الاولوية لشهوته فى الاستمتاع . انها سرعان ماتكتشف انها لاتجد متعة فى الاقتراب الجسدى التناسلى هذا . وان العملية آلية . فبكاء قلبها بلد مشاعر اللذة التى كانت تأمل بواسطتها ان تخفى الالم . انها تكتشف ان ماكانت تريده منه لم يكن مجرد ذلك الاستمتاع الطارى ولكنها كانت تريد منه ان يكون مثل والديها مسئولا عنها ملتزما بها راغبا فى مشاركتها طريق حياتها الى مالانهاية . انها كانت تحلم بالاستقرار والديمومة فى علاقة دائمة كبديل لما كانت تتعشم فيه من خلال علاقتها بوالديها .

لقد حرمها والداها من ذلك الاستقرار وتلك الديمومة الا فى شكل الدخل المالى المستمر. فبحثت عنها فى فى غيرهما فى رجل او شاب ينجذب اليها بدافع حاجته المشابهة الى مثل هذا الاستمرار فى العلاقة ولكنها من فرط جوعها ... واستعجالها كانت تلجا الطريق المختصر والذى اغراها به جسدها الملتهب جوعا الى الاقتراب . ولانها تعجلت واختصرت فقد حققت مطلبها على المدى القصير ولكنها اكتشفت ان ذلك كان على حساب المدى البعيد .

لقد ايقنت ان العلاقة الجسدية لاتدوم . وان انتهاءها انما يتركها اشد جوعا من ذى قبل . فالذى لم يذق طعم لذة لايعرف انه يفتقدها مثل الذى ذاقها اصلا . ولقد ذاقت لذة الاحساس الجسدى الحاد الذى ينسيها الوحدة والبرود العاطفى، انها تجوع اليه اصلا ولكن جوعها اليه يزداد حدة كلما اشبعته ثم حرمت منه . ولذلك تجد انها بعد كل خبرة حرمان

تعود لطريق الاشباع السريع الذى ابرز ذلك الشعور بالحرمان فى الاصل . لقد اكتشفت انها ادمنت المتعة الجسدية وانها فى كل مرة كانت تخدع نفسها بانها فى هذه المرة تبحث عن تلك العلاقة المسئولة المستمرة الدائمة . ثم سرعان ماتكتشف انها مجرد علاقة استمتاع زائلة وسريعة .

انها تواجه نفسها بحقيقة مرة : انها اصبحت امراة رخيصة يتبادلها الرجال للاستمتاع الوقتى . ان الامل فى امكانية التغلب الحقيقى على وحدتها يزداد ضآلة .وهى تعلم انه لا احد يريدها لذاتها وانما اما لجسدها او على اسوأ الفروض لمالها .. فتهرع لاهثة الى الدين لتجد فيه متسع للغفران والبدء بصفحة جديدة تنوى فيها الجدية والالتزام والتحكم فى مشاعر الجوع . الجوع لا يشبع. فاذا اشبع حتى القمة ادى اما الى الغثيان او نفى وجوده بشكل ما حتى يعود مرة اخرى اشد من ذى قبل . الجوع موءلم واشباعه وان خفف المه الا انه لم يخففه الا ليعود به مضاعفا وشديدا . لا امل فى التغلب على الجوع الا بتحمله . وعليها الآن ان تتعلم كيف تجوع وتتحمل الجوع ،فتؤجل الرغبة الملحة فى اشباعه وخاصة بالطرق السريعة الزائلة .

وتنجح فترة فى احتمائها فى الدين الذى يأمرها بالتقوى والطاعة . ولكن الجوع يلح . والدين الذى يامر بالتقوى والطاعة يعود ايضا الذى يوفر الغفران والرحمة . والله الذى خلق الانسان بطبيعه ،خلق فيه ذلك الميل الملح للعصيان. انها تعود للعصيان راغبة فى ذات الوقت الذى تكون فيه نادمة وتتأرجح بين الطاعة والم الحرمان ،والاشباع وندم العصيان فتسعى برهة للحفاظ على الاثنين معا كمن يقول : هذى نقرة وهذى نقرة . ولكن التناقض لا تحتمل . لان الشباب يجد صعوبة فى تحمل التناقضات ،لانه يطلب ان يكون الابيض ابيضاً والاسود اسوداً. وهى لا تستطيع ان تستمر ،كما يفعل الكبار

ممارسة لنقيضين معا : الانحلال والتقوى • ولذلك فهى تقرر ان تتخلى عن التقوى تماما وتتمادى فى الانحلال حتى يغلب عليها الندم فتعود الى التقوى •

لقد فقدت فتاتنا القدرة على الاعتدال وهى تتأرجح من نقيض الى نقيض • ان غياب الاب يجعلها تبحث عن مطلق لايغيب • ولكن المطلق مطلق لانه نفى لنقيضه وهو العدم فتمسكها بالمطلق انعكاس لخوفها من العدم •ولذلك فحينما تخف قبضتها على المطلق فهى تجد العدم • تترك التقوى لتجد الانحلال •

ان غياب الاب قد جعلها فى حالة عدم فيما يتعلق بوجود سلطة تتحكم فى رغباتها • وهذا العدم التام هو الذى دفعها للبحث عن المطلق التام • ولكن التطرف لايدوم وسرعان ما يتضح [illegible] • فوجود الاب ، السلطة الدنيوية المجسدة يمنع ذلك التأرجح بين المطلق والعدم بين التقوى الشديدة والانحلال الشديد• ولكن فتاتنا حرمت من ذلك التواجد القريب فحرمت من الاعتدال واخذت تتأرجح بين نقيضين لاصدق فى اى منهما •

لقد حرمت مصر من آبائها •العقول المفكرة والعلماء والعمال المهرة وغير المهرة التى نزحت الى حيث الاجر الوفير• وذهبت بدافع الرغبة فى مساندة مصر بتمويلها بما تدخره من اموال سائلة مضطردة التضخم وفاقدة لقيمتها الحقيقية• كما نرى فنى [illegible] لقد اخذت مصر تبحث عن البدائل السريعة التى تعوضها عن ذلك الشعور بالعجز لفقدانها تواجد ذلك المصدر المنتج• فهو ربما ينتج ولكنه لايهدف للانتاج حيث ينتج بقدر ما يهدف للحصول على الاجر • ومصر تتلقى الاجر بيسر يجعلها تشعر بالاستغناء عن تنمية قدراتها الذاتية فى الانتاج • فمهما عمل ابناؤها فى الداخل فانهم لن يستطيعوا ان ينافسوا ذلك الدخل الهسير الذى يوفره اخوانهم • فى الخارج • ولذلك

يشعر ابناءها ، مثل اصدقاء فتاتنا بالدونية . انهم لايشعرون انهم يقدمون لمصر شيئا ذا قيمة . فالعائد المالى فضيح ويقول لهم انهم انما يتلقون معونة اجتماعية اومعاشا اسمه اجر . من يريد ان ينتج او يحصل على اجر يماثل اجر زميلة اجير النفط، عليه ان يعمل لنفسه وليس لمصر . لان مصر لن تعطيه الا تلك الاعانة المسماة بالاجر . ويتحول عمله الجاد المنتج الى هدف ثانوى بينما هدفه الاول والعاجل هو الكسب وهو المتعة السريعة التى تعوض شعوره بالدونية الناتجة عن عجزه عن الانتاج وعن الرعاية وتحمل المسئولية فيقلب الوضع ويزدرى عمله واجره بدلا من ان يشعر بانه المزدرى . انه يبرر اهماله لعمله كمن يقول " على قد فلوسكم " يحول نشاطه وطموحه الى تلك العجلة التى تدور بدفع النفط وليس بدفع السواعد . انه يترك أصحاب السواعد ليركب المركبات المسيرة بالاحتراق النفطى غير عابىء بالعادم الذى يسمه ويخنقه . ان العائد السريع يعميه عن الخسارة البعيدة .

انه يهجر عمله او يهمله او يزدريه . انه يستعمله للحصول على الشرعية فى عضوية المجتمع . ولكنه لايريد ان يلتزم به ولا ان يكون به علاقة ديمومة واستمرار ويرى له ناتجا كالنسل يستمر من بعده . ان علاقته بعمله علاقة طارئة وزائلة ورخيصة .

وامام هذا الانحلال والاستهتار يواجه امكانية ان يفقد المكانة والشرعية التى كان يجدها بفضل ارتباطه بعمله . فيهرع الى الدين ليعلن تمسكه بمبادىء الاخلاص والوفاء والامانة . ويجد فيه الغفران عما ارتكبه من ذنوب . وقد يتبرع لبناء المساجد اولمساندة الجماعات الاسلامية املا فى الغفران . ويتطرف فى تدينه . ولكنه ، لرشده ، اقدر من فتاتنا على تحمل التناقضات . فهو يستطيع

ان يقول ان هذى نقرة وهذى نقرة . وان يجمع بين التطرف في التدين ،مع التمسك بمظاهر الوفاء للعمل بل انه يجد سبل الانحراف من خلال تمسكه بعمله وبموقعه الادارى ،علاوة على ان الاحتماء في الشكل الديني يبعد عنه الشبهات .

ولم لايبيع العامل المنتج نفسه؟ فها هو ذا زميله المنتج الذى سبقه الى منابع النفط قد باع قدرته الانتاجية حيث لاينتظر منه الانتاج بل التوظف والعمالة ،ففقد بذلك حافزه على الانتاج وصار فى علاقته بعمله هو الاخر مجرد مستغل له فى اطار علاقه طارئة وزائلة ورخيصة . انه يتظاهر بالاخلاص لعمله ولولى نعمته ،ولكنه فى داخله لايضمر الانقمته . فهو يعلم انه ترك من كان وفيا له - عمله فى مصر- وفقد هو الاخر وفاءه وولاءه موقوتا بالحيز الذى يتوفر فيه الاجر . انها علاقة زائلة وموءقتة .

والذى كان منتجا وذهب ليبيع انتاجيته فقد ولاءه للعمل المنتج واصبح ولاءه للاجر. والذى بقى لينتج دون ان يحصل على اجر فقد ولاءه هو الاخر لذلك العمل . فاذا اراد المنتج القديم العودة لموقعه بدافع سراب انه يريد ان يعيد انتماءه لعمله فسرعان ماسوف يكتشف ان قدرته على الوفاء قد ماتت . وخاصة حينما يجد ان زميله الذى بقى فقد هو ايضا ولاءه للعمل . فيلتقى الاثنين عند تقاطع الإستهتار وفقدان الولاء للعمل .

ويصبح العمل كقيمة رخيصا ووحيدا . يخدمه من يريد ان يستغله وقتيا حتى يشبع منه فيتركه لغيره.وكم من موظف لايبحث من خلال عمله عن مصدر يعوض ذلك الذى يسمى اجرا . العمل والانتاج الذى هو بنيان مصر،وليس نفطها اصبح وحيدا ورخيصا ولايجد من يرغبه اويلتزم به او يتحمل مسئوليته . ولوكان هذا العمل يذهب فغلالبناء امة العرب

أوالمسلمين لكان في ذلك سلوان . فمصر قلب العرب والمسلمين وماتوفره لهم من عمل انما هو في النهاية ادخار لهـا ولكن العمل يذهب لاثرياء العرب الذين يتخمهم تكـدس فائضه فيحولونه الى غير مصر وغير العرب وغيرالمسلمين ،الى الغرب، اما بادخاره هناك اوبشراء الملكية او بإستثماره ، او على احسن الفروض باستيراد منتجاته الجاهزة التى تؤكد اعتماديتهم على الغرب حتى تصان وتتكاثـر .

كيف يتزوج وقد خصاه الافلاس ؟

رجل فى الخمسين من عمره أصيب بانهيار حاد ثم وصل ،بفضل العلاج بالعقاقير ،الى حالة التماثل للشفاء ويحضر لمتابعة علاجه،فقد اصبح بلاعمل وبلا أسرة . فقد كان يعمل فى احدى الدول العربية النفطالهبه طيلة عشرين عاما . ترك عمله واشتغل بالتجارة ونجح . الا ان الحال لم يدم وخسر خسارة شديدة . وعلى أثرها أصيب بانهيار جعله ينزوى عن المجتمع وعن العمل معتقدا أن الجميع يتآمرون ضده . وفى هذه الاثناء باشرت زوجته عمله التجارى وتمكنت من انقاذ مايمكن انقاذه . عادا الى مصر مع ابنائهما ،واستقلت الزوجة بعملها وكذلك بحياتها بعد أن وافق زوجها على طلاقها . وهكذا وجد نفسه وحيدا بلا اسرة أو مصدر دخل . وكان قد اشترى بعض الاملاك فى مصر منذ عدة سنوات . وفطن الى ان ارتفاع الاسعار قد حولها الى ثروة يستطيع أن يودعها فى بنك ويتقاضى فائدة تغطى احتياجاته المعيشية . ولكنه ادرك ان التضخم العالمى سوف يجعل هذا الدخل يتناقص قيمته الحقيقية وأن مايمكن ان يجعلها تحفظ بمستواها هو قدرته الانتاجية النابعة من مهارته فى العمل . لقد تخرج من كلية التجارة ولكنه لم يعمل فى تخصصه ولم يستخدم علمه واعتمد على الحظ والحنكة والحدس والاتصالات . وهى كلها مهارات لم يتعلمها فى الجامعة ،ان لم يكن العكس،اى ان التعليم الجامعى كان على حساب هذه القدرات . فالتعليم الجامعى فى مصر لايؤهل الطالب لحل المشاكل او استخدام قدراته الخلاقة . فقد اقترب من تعليم الكتاتيب : يملى الطالب فى المحاضرة او يمكنه الحصول على هذه المحاضرة مملاة جاهزة (شكرا لتكنولوجيا الطباعة) ،فيحفظها قبل الامتحان بأسابيع

ويكون الامتحان أساسا حول قدرات الطالب على الحفظ والتذكر
لقد كان سر نجاحه فى التجارة فى قدراته الشخصية
علاوة على ظروفه ،ولم يكن فى علمه الجامعى . ولذلك
فقد نسى علمه الجامعى ولم يتبق له منه الا الشهادة .
وبعد انكان هدفه فى الاصل أن يحصل على وظيفة اوعمل
فهو الآن بلاعمل وبلا مهارة فنية. ولكنه يحمل شهادة .
والشهادة الآن تؤهله للعمل بأجر زهيد بل تافه . انه
لايستطيع أن يعمل فى الحكومة ويبدأ من أول السلم . اما
القطاع الخاص حيث المرتبات عالية فأن التفضيل سوف يكون
لحديثى الخبرة . فالمرتبات التى يطلبونها سوف
تكون أقل ،وامكانية اعادة تعليمهم وتعويض مافقدوه
من قدرات على الخلق والابداع وحل المسائل بسبب التعليم
الجامعى سوف تكون اكثر. ولذلك فان فرصة الحصول على
وظيفة .أو عمل مناسب فى هذا القطاع ضئيلة . انه مازال
يخشى المجازفة بعمل تجارى حر مرة اخرى . لقد لدغه
الثعبان وهو الآن يخاف الحبل . هنا وجد نفسه بين الرمضاء
والنار. فالعمل الحر يخيفه والوظيفه غير متوفرة او اذا كانت
متوفرة فهى غير مناسبة .

وقد أوصله العلاج الطبى بواسطة العقاقير الى حالة
هدوء نسبى ،ولكنه هدوء مؤقت ومصطنع . اذ أنه يعود الى
حالة الانفعال الشديد التى وراء الاعراض التى يشكو منها فور
توقفه عن العقاقير. واذا أستمر على العقاقير
فانه يزداد تبلدا فى مشاعره مما يجعله لايريد ان يغير
من موقفه أو حياته بما يزيل العوامل البيئية التى تتسبب
فى حالته .

المعادلة الصعبة تتلخص فى ان يبحث عن عمل مناسب
او يتقبل العمل الذى يجده فى نفس الوقت الذى يخفض فيه
من جرعة العقاقير بالقدر الذى لايعيد الانفعال العنيف ومن

جانب آخر بهدف ازالة حالة التبلدالتى تترتب على كثرة العقاقير .

الابعاد السياسية والاجتماعية :

ان العمل فى مصر لايوفر الدخل الكافى لاغلبية المواطنين، وعليه فلابد للبعض من السعى خارجها، ويتم ذلك اما بالهجرة الدائمة كما فى حالة امريكا الشمالية واستراليا او بالهجرة المؤقتة بواسطة عقود العمل فى الدول النفطالية اساسا. لقد اصبح السعى وراء الرزق هو الدافع الملح وأخذ أولوية على الانتماء الاسرى او الاجتماعى اوحتى الامان والاستقرار. لم يكن الشعب المصرى يميل الهجرة . فقد كانت مصر هى الغنية بالغذاء وبالأمن والاستقرار، وكانت الهجرة اليها تغلب على الهجرة منها . وسعت ثورة يوليولتوفير الاثنين معا: الغذاء والأمن . وتم ذلك بمحاولته فى أتجاه عداله توزيع ،وتأمين كل مواطن على حق العمل . وتم ذلك بواسطة مركزة السلطة الاقتصادية فى يد السلطة السياسية . وكما قال اللورد آكتون فشأن السلطة مفسدة والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة . والسلطة السياسية والسلطة الاقتظادية اذا ماإرتبطت ايضا بالسلطة العقائدية (الاشتراكية العربية) تقترب من شكل السلطة المطلقة . والمفسدة تعم على صاحب السلطة وضحيتها. كان هدف السلطة أن تتم عدالة التوزيع مع زيادة الانتاج بواسطة تنظيم محكم يعطى قمة الهرم السلطة المطلقة علىقاعدته . ولكن النتيجة أن قمة الهرم الصفوة الاجتماعية فسدت مماجعلها ترغب فى الاستحواذ على النصيب الاكبر فى القيمة. والقيمة في المجتمع هى مايتكالب عليه الناس ولايحصل عليه الا الصفوة . صارت القيمة هى الغذاء ،والغذاء يتوفر لمن يملك السلطة . والسلطة تتوفر لمن يملك العقيدة (الاشتراكية العربية) .والعقيدة تتوفر لمن يملك سلطة املائها

وسلطة املاء العقيدة تتوفر لمن يملك التحكم فى الغـــذاء وهكذا فى حلقة مفرغة .

ولان الحلقة قد انغلقت بينما الاحتياجات موجودة بازدياد مطرد فان النظام كـــان لابد وان يهتز . لو يستبدل بآخر تماما او يتحول من الداخل . لقد تم التحول الداخلـــى بادىء فى ١٩٦٧ وأخذ يتبلور واستمر يتضح فيما بعد ذلك التنازل عن مركزة السلطة (١٥ مايو ١٩٧١) ثـــم جمود العقيدة (الانفتاح الاقتصادى والديمقراطية الاشتراكية بدلا من الاشتراكية العربية) ثم توسيع دائرة الاستحواذ علـــى الغذاء .(توفير فرص العمل فى الخارج والاستثمار والعمـــل الخاص فى الداخل) .

وهناك عوامل تجعل لمشكلية البحث عن الغذاء اولوية علـــى سائر المشكلات منها زيادة الأفواه الجائعة . وحاجة كل فم منهـــا الى مزيد من الطعـــام بفضل التطلعات الناتجة عـــن زيادة الوعى الاجتماعى والسياسى ومنها لذلـــك ان الأرض الزراعية لاتكاد تحتفظ بقدرتهـــا علـــى الانتـــاج (رغم المد العالـــى والميكنـــة الزراعيـــة). كل هذا وغيـــره جعـــل مـــن المحتـــم ان يبحث المواطن المصرى عـــن عمـــل خارج بلده وخاصة فى ضوء توفر السيولة المالية الناتجـــة عن توفر النفط فى بعض الدول العربية المجاورة ،وفى ضـــوء حاجة هذه الدول الى الايدى العاملة والمهارات المهنيـــة المختلفة والتى لاتتوفر لديهـــا .

ولكن الذى يملك مالا -وخاصة المال الذى ينبع من الارض بدون تعب او عرق- يعرف جيدا كيف أن الذى يأتى بيسر يمكـــن ان يذهب بيسر. ويعرف ايضا كيف يحسده عليه من لايملكه بينما يتعب ويعرق . انه يخاف على ماله ويحترس مـــن

الغريب الذى يريد ان يأخذه منه بالاحتيال أو بالقوة كما يحترس من القريب الذى يريد ان يشاركه اياه باسم الاخوة .

ومصر هى الوادى والخضرة للدول العربية النفطية - دول البادية والجبال - هى دولة غريبة قريبة معا . كان الوضع يوما ما معكوسا . دول البادية تعمل وتتعب ودول الوادى تنتظر المحصول الذى تنبته الارض والمياه التى تقذفها الانهار . كانت البادية تحسد الوادى فتسعى اليه : معتدية تارة بالقوة العسكرية ، ومبشرة تارة بالعقيدة - الهكسوس والحيثيين والفرس والروم والعرب والاتراك والانجليز . وكان الهدف دائما مصر مباشرة أو مصر عن طريق الدول المجاورة وخاصة من خلال النافذة الشمالية الشرقية لحدودها (فلسطين) . كل هذا حول مصر الى بلد يعمل ويعرق بينما غيرها يقاتل وينهب الثمرات وعليه فكانت مصر تسعى بدورها الى تنمية قوتها لتحمى نفسها من هذا الأستغلال .

لقد صار الوضع اليوم معكوسا مرة اخرى : مصر تعمل وتملك القوة العسكرية بينما ملكيتها للثروة محدودة . بينما الدول العربية المجاورة تملك المال النفطى بلا قوة عمل او قوة عسكرية . بل أنها تعتمد على مصر تماما كقوة عمل وقوة عسكرية . فمصر هى التى توفر العمالة والثقافة والعلم التى تعمل فى الدول العربية . وهى ايضا التى توفر القوة العسكرية التى توفر الحماية ، لا لنفسها فقط ، بل للدول العربية ايضا . ولكن الدول العربية فى علاقتها كصاحب ثروة حديث الثراء بمصر العاملة والقوية عسكريا تهدف الى تسخير مصر ، مثلها مثل اى علاقة صاحب مال حديث الثراء مع الاجير . انها تريد العمالة المصرية حسب شروطها وتريد ان تصدر الاوامر بالقتال حسب احتياجاتها

ولكن البقرة الحلوب لها حدود. والحليم اذا غضب صار شريرا . ومصر عندما تزيد معاناتها لامفر لها من التحرك المستقل الذى يخدم مصالحها ولو على حساب جيرانها وأخوانها. الجيرة والاخوة كان لها الفضل فى أن تشبع الدول المجاورة احتياجاتها بتشغيل اليد العاملة المصرية قبل غيرها. ولكن الامر ليس مجرد جيرة وأخوة : فاليد العاملة المصرية اكفأ من غيرها وخاصة حينما يتطلب العمل اجادة اللغة العربية كما فى التعليم ، وبالاضافة الى ذلك فهى أرخص من غيرها ولكن بالقدر الذى يكون للجيرة والاخوة فيه وزن، فإن مصر كدولة عربية وأسلامية بل كقلب العروبة وحافظة الاسلام على مر العصور لهى الأجدر بالمعاملة الحسنة . بل لهى صاحبة حق فيما تتمتع به الدول العربية من مزايا سماوية التى نزلت عليها من تحت الى فوق،أى بتدفق الذهب الاسود من آباره .

ولذلك فأن نظرة الدول العربية الى مصر بها خليط من الحب والكره الشديدين . فهى تنتفع بمصر وكذلك تأمل فى نفعها ، ولكنها فى ذات الوقت تستغلها وتسعى الى السيطرة عليها خشية ان تسيطر مصر عليها.

أن صاحبنا التاجر ذهب الى حيث الذهب الاسود بغية تجميده على هيئة ذهب أصفر يمكنه ان يحوله بعد ذلك الى حيث الوادى الاخضر . وهناك يمدله الجذور التى تضمن له الاستقرار والامان الذى افتقده حينما دفعه الجوع الى الهجرة . لقد ذهب ومازالت جذوره فى مصر وانتماءه لها. كان يمكنه ان يستقر ويجد الامان حيث ذهب لو كان ذهابه من أقليم لاقليم داخل الامة العربية الواحدة الخالدة او فى اطار الاسلام الحنيف. ولكن حقيقة الامر أنه ذهب كأجير جائع السفاه يسعى لينهم مايمكن نهمه ليعود بالغنيمة الى بيته حيث الخضرة والنسيم . فهو لم يجد امانا ولاتأمينا . ولم يسعفه الا قدرته على

دخول صراع الغاب فيلتهم مايتيسر له . ولكنه يواجه الحقيقة أن من ياكل اخناه سوف ياتى له يوما يأكله أخ آخر ذو فم اكبر وأنياب اشرس . انه لم يؤمن نفسه ضد قوانين الغاب او الصحراء الا بواسطة معبر صغير فى الوادى فى صورة الاملاك البسيطة التى ادخر بعض من امواله فيها .

ان صراع الغاب الصحراوية قد بدأ . العمالة المصرية تذهب بجهدها لتعمير الصحراء . فتعمل حتى تنهك ثم تعود جلدا على عظم . ولكن العجب أن هذا الكائن النحيف يكتشف أنه سمين بالمقارنة مع أخوانه الذين بقوا فى الوادى . ورغم أفلاسه النسبى فهو بجوار أخوته الذين استمروا يعملون ويكدون فى مصر، شرى ويستطيع أن يتحول الى مالك مستغل لعمالتهم بدوره . انه يستطيع ان يحول ماله القليل الى راسمال يؤجر العمالة اللازمة لتعود عليه بالفائدة بينما يجلس هو متكئا على الارائك مستمتعا بحور العين ولو بالنظر فقط ، بفضل الشاشة الصغيرة التى تدخل غرفة نومه . أن هذا يومه يتحول من أجير الى صاحب مال . والاجير هذه المرة هو أخوه ابن الوادى . وهى فرصته لان يفعل فى اخيه مافعله فيه ابن عمه . لقد تعلم صراع الغاب بالدرس المر . وهاهو ذا كالنمر الذى جرح ولم يمت ، يعد ماتبقى لديه من عدة لكى يفترس حتى ولو كان هذا آخر عمل يقوم به فى حياته. لقد عاد الى مصر واحضر معه الجروح التى تجعل من الانياب والمخالب التى نمت فى ذات الوقت أدوات للانتقام لما أصابه وغريمه هذه المرة اخوه . انه يلجأ الى حيلة نفسية يخفف بها آلام العدوان عليه وهو أن يقوم هو بدور المعتدى بينما يترك دور المعتدى عليه لأخيه . أنه يتوحد مع المعتدى وبواسطة هذه الحيلة النفسية فهو يخفف من آلام العدوان عليه . اذ فى علاقة الاعتداء نجد ان الالم الظاهر هو الم المعتدى عليه . صحيح ان المعتدى ايضا يتالم . بل انه لايعتدى

الا لأنه يتالم • ولكن الـمه يخف بفضل ممارسته للعدوان • فـان انفعاله فى عملية العدوان تخفف من حدة أحساسه بالالم•

ولكن الى متى تتحمل مصر أن يدور الاعتداء بين ابنائها وأن تتفكك داخليا بسبب مثل هذا الصراع ؟ وخاصة فى ضوء حصارها من جميع الجوانب • فهاهى القوة العسكرية الاسرائيلية من جانب • والقوة النفطمالية العربية من جانب آخر• وحتى العمالة أصبحت تنافسها فيها العمالة الفلسطينية• ومصر عليها أنتعمل وتقاتل بينما الآخرون يدفعون الأجر الزهيد فى مقابل حقهم فى أصدار أوامر القتال والعمل دون جهد من جانبهم •ان مصر وهى مفككة من الداخل لاتستطيع مجابهة كل هذه القوى فى دفعة واحدة • وعليها ان تعيد حساباتها وتضع الاولويات•

ولعل مصر فى قرارها بايقاف قتالها مع اسرائيل قدأيقنت ان الاولوية هى لحل صراع من نوع آخر وهو الصراع من أجل الغذاء ،والذى يترجم الصراع مع من يملكون أجر شراء الغذاء ويزهون به على مصر•

ان العمالة المصرية تتدرب فى مصر• فى حقولها ومصانعها ومدارسها وجامعاتها • ويتم ذلك من قوت المصريين وعرقهم • ثم تذهب العمالة جاهزة لتقدم خدماتها الى اصحاب المال النفطى التى تستلمها لحما وتعيدها عظما• ولكن العظم الذى يعود كفتات من بقايا الاستنزاف النفطمالى ،مهما كان به من بقايا لحم ،يجد نفسه أكثر سمنه ولحما من اللحم الذى تبقى فى مصر وهذا الاخير مع ذلك هو الذى يزداد نحافة بأن يقترب من قوته حتى يوفر المزيد من العمالة للدول النفطمالية • أن العمالة المصرية التي تبنى الامة العربية تستحق الرعاية والتنمية من قبل هذه الامة ولايمكن ان تعامل معاملة الأجير المؤقت وعلى الشكل الإستغلالى الحالى • الحق أن تساهم هذه الامة مساهمة فعالة • لابالمن ولا بالاحسان

ولكن كحق وواجب ،فى تنمية القوة البشرية المصرية التى تعمل وتقاتل باسم هذه الامة .

والطريق الى مثل هذه العدالة لايأتى بالرجاء ولا بالدعوة الى المشاعر القومية العربية ولاالمشاعر الدينية الاسلامية. فالمشاعر وحدها بل والعقائد المعزولة عن اللغة المادية الملموسة ،لايمكن أن تحقق عدالة . والا لما احتارت ايران فى تحقيق العدالة بين ما تبقى متماسكا من شعبها فيما يتعلق بما تبقى، ثروتها بعد أن استنزف الكثير منها بفعل التضخم والبطالة والتوقف الناتج عن الفوضى المصاحبة للثورة .بل لابد للمشاعر والعقائد من ترجمة الى لغة الواقع الملموس .

وما نحن فى حاجة اليه فى حوارنا مع الدول العربية هو أن نخرج الى الضوء الاسس الموضوعية للخلاف . فالعلاقة الحقيقية والحوار الصادق توجد حيث يتم تجاوز الخلاف وليس بانكاره او التعامى عنه . ولايكفى أن نتبادل الشتائم ثم نتعانق بالاحضان . كما لايكفى أن نتكلم عن الاخوة فى العروبة والاسلام بينما واقع الامر ان الأخ يأكل لحم اخيه ميتا بل مقتولا بيديه .

واذا كان يساور هذه الدول انها يمكنها ان تنفذ الى الشارع المصرى بواسطة اثارة النعرات القومية والدينية وبواسطة تمويلها الخفى والمعلن لهذه الاتجاهات ،فالاجدر ان تسبق الدولة فى مصر الى فتح باب الحوار جهارا نهارا مع اصحاب العقائد من جماعات اسلامية واشتراكية عربية وغيرها بغية مواجهة تحدى ترجمة العقائد الى واقع ملموس ،يعود على ابناء الامة العربية والاسلامية جميعا ،وأولهم ابناء مصر بالعدالة والرخاء. فأن مايجبع مصر ليس نقص العقائد اوالمبادىء ولكن حقائق اقتصادية وسياسية واجتماعية ملموسة .

هذه الحالة ليست فى الأطار الطبى النفسانى العيادى . هو من العمال المهرة ويجد فى عمله ما يشغله عن الحاجة الى الشكوى. علاوة على أن شكواه لم تتوقف الا عندما أتخذ موقف العمل كطريق لاشباع أحتياجاته التى تشكل مصدر ألمه بغيابها . ولكنه مع ذلك يحضر الى عيادة الطبيب النفسانى ليعمل . ولامانع من أن يشكو بينما هو يعمل طالما ان شكواه لاتعنى اعلان العجز والتوقف عن العمل ودفع أجر المستمع الى شكواه والساعى الى تخفيفها . والطبيب بدوره لايمانع فى التنويع بأن يستمع الى الشكوى فى غير الاطار الطبى حيث يحضر المريض معلنا راية الاستسلام والعجز أمام الالم . أنه يتصيد انين الألم بين سطور محدثه وهو يتبادل معه الحديث البرىء .

لقد سبق لصاحبنا أن ذهب الى احدى الدول العربية لاداء فريضة الحج . ولكنه استغل وجوده هناك ليبحث عن عمل بلا تصريح اقامة . انه يعمل بلا أدنى ضمانات لايملك حق الاستقالة ولكنه مهدد دائما بالأقالة . فلا الدولة المضيفة تحميه ولا دولته تحميه . فقد كانت مصر حينذاك حريصة على الحفاظ على طاقاتها البشرية بحجزها وعدم تيسير فرص العمل خارج حدودها . وكانت العقبات عديدة أمام السفر والهجرة . ولذا لم يجد الاطريق التحايل ليخرج بحثا عن الرزق .

ولكنه يكتشف انه اشبه مايكون بالرقيق. بل اقل من الرقيق فهو محروم من اصطحاب أسرته معه والا انفق فائض اجره وفقد الهدف الاصلى الذى كان يسعى اليه وهو التوفير من الاجر الذى يستطيع أن يدخره ويرسله الى اسرته فى مصر. انه يعمل وهو محروم من دفء الانتماء والاستقرار كالعبد المملوك

وفاقد الحرية . ولكن العبد يتمتع بضمان الاستمرار والاستقرار في حماية سيده حتى يبيعه الى سيد آخر . أما هو فهو مملوك مؤقت لايشعر بالانتماء لمالكه ولا بالاستقرار معه .

أنه يضج وتغلب عليه الوحشة الى الدفء والاستقرار العائلي . لكنه يتمكن من الحصول على حريته ، عاد الى بلده ، ليكتشف مرة أخرى ان عليه أن يضاعف من جهده في عمله حتى يغطي احتياجاته . ولكن المسألة تتيسر ، اذ أن زملاءه ومنافسيه الذين لم يكونوا قد مروا بخبرته جذبهم الاجر السخي في الخارج ، وظروف العمل ، ويسر السفر والهجرة التي ذلك الاغراء بموجة من النزح لهذه المهارات ، وفرغت له الساحة ، ووجد أنه يستطيع أن يرفع من أجره بشكل مضطرد . فهؤلاء الذين ذهبوا الى هناك وعادوا بأموال سائلة وفيرة أغرقت السوق ، قد مهدوا الجو لارتفاع الأسعار . ومهارته أصبحت نادرة . العرض يقل والطلب يزيد فيرتفع الاجر . المسألة تتقارب ، وما دامت المعادلة محفوظة ان اغلبية زملائه بعيدون عن الساحة ، بينما غيرهم اوذويهم يقدرون على الانفاق ، فان عمله في مصر أصبح مجدبنا .

ولكن انعدام المنافسه جعله يهمل في عمله . فالعميل الذي لايعجبه عمله لن يستطيع ان يهدده بالتعاقد مع غيره . فلا يوجد غيره كثير . وهكذا يفقد المهارة ، وعلى الأقل يفقد الرغبة المخلصة في الاداء الجيد لعمله ويفقد الامانة ، فهو يعد ولايفي بوعده طالماكان الذي يتعامل معه لاخيار له في غيره . وهو يهمل في عمله ويغالي في أسعاره فمازال الاقبال من قبل الشباب قاصرا على التعلم والحصول على شهادة ، لا على اكتساب المهارة المهنية التي تؤهله لكسب القوت . حتى أبنائه هو يذهبون الى المدارس . واذا كان

لديه صبية يتلمذون عليه فلعلهم لم يفلحوا فى التعليم لسبب او لآخر، او لعلهم صبية هجرهم معلمهم الاول ليذهب الى حيث النفط . فهم اذا صبية ينقصهم الوفاء واستمرارية التتلمذ، بل أن القدوة التى يجدونها أمامهم هى قدوة يعيبها ذلك التدهور فى القيم الذى حل بهم - فقدان الأخلاص والامانة والأهمال فى العمل .

أن العمال المهرة الذين يتركون مصر لايفقدونها فقط ما كانوا يشكلونه من قوة عاملة منتجة ولكن يفقدونها أيضا تلك المدرسة التى تنتج أمثالهم مثلما أنتجتهم . أن مايضيع ليس فقط عمل العامل ولكن امكانيته لتعليم غيره . ليس العامل فقط ولكن العامل المعلم .

وصاحبنا هذا يعمل كثيرا ، و يتقاضى أجرا كبيرا . فيفطن الى أنه قد اصبح الآن قادر على التوقف برهة عن العمل ليستمتع بما حرم منه طيلة عمره من راحة ورفاهية، ولم لا ؟ فهو يرى زميله الذى عاد بعد سنوات من العمل فى الخارج وقد أحضر معه وسائل المتعة والترف من سلع استهلاكية . ويجده يقتنى ويحتوى ماكان محروما منه ومتطلعا اليه طيلة عمره . فلماذا لايفعل هو مثلهم وخاصة أن أسرته التى تحرم من وجوده بفضل انشغاله بالعمل تطالبه بالمساواة بأسر زملائه . هم يريدون التليفزيون الملون والغسالة الكهربائية ويريدون أكل اللحم والبطارخ أيضا ان أمكن . وهو يسكتهم بأن يوفر لهم مطالبهم أويسعى الى متع بديلة او مكملة .

ان اولاده الذين هجروا مهنته واتجهوا نحو للعلم والشهادة يحتقرون الشهادة فى أعماقهم ولكنهم مقهورون على الحصول عليها، فقد كان ضمن طموح صاحبنا حينما كان صبيا أن يصبح " أفنديا" مثل

حاملى الشهادات وأن يصل الى موقع اداري او قيادى يعطيه المكانة الاجتماعية . وهو يريد أن يعلم أولاده كي يحصلوا على هذه الزينة . فالعلم هدفه الشهادة ، والشهادة للزينة . اذ أن الواقع المر ينافى أحلامه القديمه من أن الشهادة والعلم هم من أعلى مصادر القيمة . فالواقع المر يقول لهم أن القيمة تقاس بالمال والمال يأتى من النفط والثروات الطبيعية وليس من العمل . والمال يجلب المال بينما الفقر يجلب الفقر . والشهادة وحدها بلا مال او نفط لاقيمة لها اليوم ولكن الحلم القديم يفرض نفسه . والتطلع الى الحصول على الشهادة يبقى . أنهم يعملون بالدراسة من أجل هدف يعلمون أنه سراب . والعائد الملموس هو مايأتى فى حاضرهم .

والاب الذى حقق الحاضر . مازال يحلم بتطلعات الماضى بينما أولاده الذين يعيشون الحاضر لايلهبهم طموح التطلع الى المستقبل الغامض . أنه لم يعد يؤمن تماما بحلمه ولكنه فى ذات الوقت لم يعد راضيا عن حاضره . ولايبقى له طموح الا أن يرغب فى المزيد مما لديه . أنه يؤمن بالكسب ولا يستطيع الا أن يطلب المزيد من الكسب مهما أعلن باللفظ أنه يريد العلم لاولاده . انه يبعث اليهم برسالتين متناقضتين : تعلموا ولاتتعلموا . والنتيجة ان يصاب الاولاد بالأرتباك . فيقبلون على علمهم بآلية وبدون اقتناع . والنتيجة أن يتدهور مستوى التعليم رغم أرتفاع درجات النجاح ونسبها .

لقد وجد ذات يوم ان للعلم قيمة . وكان أغلبية العاملين فى الدول العربية من أصحاب الشهادات العالية ولكن هذا الوضع على المستوى المادى ، فمازال هناك تمسك الفكر الذى ارتبط بالواقع السابق . الفكر الذى يقول بأنه

لابد من الشهادة .

الاقبال على العلم اقبال زائف . من أجل شهادة لم تعد لها قيمة وفى وجود واقع صارخ يؤكد الانخفاض المضطرد لتلك القيمة أو ماتبقى منها . فالذى يتعلم لم يعد يتعلم الا للديكور والزينة .

واصبح هذا ينعكس على بالتالى . فالمعلم يقدم العلم سلعة لها قيمة حتى يتمكن هو الآخر من طلب الأجر العالى فى مقابلها أنه لم يعد يقدس العلم بل يستغله . فأصبح العلم بالنسبة له مجرد وسيلة لكسب الرزق بالأتجار فيه . انه لم يعد علما يهدف الى التثقيف أو الى اكتساب المهارات اللازمة لتلبية حاجيات المجتمع . وهو علم يعبر عن حاجة المعلم لكهنوت يحتكر بواسطته مفتاح الدخول اليه .

وهكذا ينضم المعلم لطابور الساعين الى المال النفطى ، فقيمة مايقدمه مرتفعة هناك ايضا . فالعلم زينة وديكور وسلعة ضمن السلع المستوردة . وينزح هو الآخر عبر الصحارى باحثا عن وديان النفط ، التى تغشى على عقله بلزوجتها فتحوله من معلم عالم محب للعلم الى صاحب حرفة وعضو كهنوت .

العامل المعلم يذهب ينضب والمعلم يسخر العلم لعمل هو الآخر يجلب الرزق . وكلاهما يذهب حيث يعيد ولاءه لحاضره بماديه من مهارة اكتسبها دون أن يفكر فى مستقبله مع الأجيال التى سوف ترثه ، وعليه أن يعدها لتحمل عبئه وتطور ماتركه . ولكنه بذهابه وفقدانه لاتصاله باجيال تلاميذه يفقد هذا الاتصال بالمستقبل الذى يجعله صانع حضارة ومستقبل . انه يتحول الى عبد لحاضره . يعمل ليكسب اليوم ولايريد عناء التفكير فى الغد . ولأنه يريد ان ينسى قلق التفكير

فى الغد فهو يتأرجح بين الانهماك فى عمله والهرب فى ملذاته
والمعلم الذى فقد ايمانه بعلمه وحول علمه الى مجـــرد
وسيلة يقتنى بها المال ،فازداد تشبثا بتحويل علمه الـــى
كهنوت يستطيع بواسطته أن يحتكر دور المعلم ويرفع مـــن
سعره ،ينضم للعامل الذى يصيب الحضارة من افتقادها الـــى
معلمين يعشقون علمهم ويقدرونه ولايحولونه الى مجـــرد
وسيلة لكسب الرزق ولايضحون به من أجل الكسب .
ان العامل الذى يعمل فى الانتاج والبناء انما هو خـير
قدوة تعليمية للاميذه . فالعلم الذى ينتقل من جيل الـــى
جيل لايقتصر اطلاقا على كم من المعلومات التى تنتقل مـــن
مذكرات الأستاذ الى مذكرات الطالب ثم تعود الى أوراق الامتحان
دون أن تمر بعقل أى من الاطراف ،ناهيك عن المرور بالوجدان
والتأثير على السلوك . فالعلم أكثر من معلومات وأكثر مـــن
قدرات عقليه على حل المسائل ،ولكنه يشمل مهارات يكتسبها
الطالب من الممارسة والقدوة ،ومواقف وأخلاقيات يتعلمها
الطالب بالممارسة والقدوة والالهام من أستاذه . بل ان أكثر
من نصفه فى الماثلة مما ينتقل من الاستاذ الى الطالـــب
حتى فى الدرس فى أطار التعليم المدرسى هى أمور تتجـــاوز
المعلومات والمعرفة التى تشكل محتوى الدرس . فهنـــاك
مشاعر وأحاسيس ومواقف ومهارات تنتقل من الاستاذ للطالـــب
أثناء الدرس تترك تأثيرها على الطالب وتستمر معه أكثـــر
بكثير من المحتوى المعرفى للدرس .
وعليه فان القيمة التى تفقدها مصر من جراء سفـــر
عامليها ومعلميها ليست مسألة النقص الكمى فى العاملين ولكنه
نقص يتضاعف فى الجيل التالى الذى يحرم من التعليم ســـواء
كان تعليما على مستوى المعرفة أو على مستوى المهارات
والمواقف . وتزداد المسألة سوءا بفضل الشكل الذى يأخـــذه
ذلك النضوب فى العقول والمهارات المهاجرة . فما هـــو

التأثير الذى ينطبع فى نفس الطالب حينما يرى معلمه
يعطيه الدرس وهو متأفف ،ثم يهرع جريا مهاجرا عند
أول فرصة يجدها لاغتنام بعض النفط ؟ ما أثر التشتت
الذهنى الذى يصيب المعلم الذى بقى فى مصر منتظرا
دوره فى الاعارة او الهجرة بينما زميله يكدس المال
فى الخارج ؟ فهو يفكر وينتظر ويضجر من عمله وحياته
وكيف تكون العلاقة بين الزملاء المعلمين حينما يكون
واحدا منهم قد أثرى لانه ترك تلاميذه بينما الآخر
قد ازداد فقرا لأنه بقى معهم ؟ كيف لايزدرى العالم
الفقير زميله الثرى لجهله ولا يزدرى المعلم العامل
الثرى زميله لفقره ؟

الخسارة اذن تتضاعف وتتضخم : كمية العمل ،ثم
استمرارية العمل عبر الاجيال ،ثم قيمة العمل ذاته.
والخسارة لاتظهر آثارها الآن ولكن ربمافى المستقبل.
فاليوم نحن نخدع بتأثير الازدهار الظاهرى . ولكن التخدير
ينسينا أن البنيان الانتاجى ذاته يضعف الى أن يأتى
اليوم فى المستقبل الذى لاينفعنا فيه نفط ولامال .ولانجد
أمامنا الا مانملكه من ايدنا ومن مهارتنا وما تحويه قلوبنا من
مواقف ملتزمة وعقولنا من قدرات على التفكير وحل
المشاكل . فالذى نحتاج اليه اليوم هو الاعداد لذلك
اليوم . فالسنوات السمان دائما تتبعها سنوات عجاف
على الأقل فى الاطار الذاتى والنسبى . فالأحتياجات
الترفيهية اليوم قد تصبح ضرورات غدا . وفى هذه الحالة،
فانه رغم توفرها بكم أكبر،فان ازدياد الحاجة اليها
قد يؤدى الشعور بالفقر النسبى .

فالحاجة اذن ا ماسة للاعداد للمستقبل والتدريب المستمر
على الحرمان والتحكم فى الأستهلاك من أجل تنمية القدرة
على العمل والانتاج . وهذا الاعداد ،أى تربية الاجيال

ونقل الحضارة ، قد يبدو للمحتاج للعائد الفوري من العمل ذي الكسب الشريع وكأنها خدمة وليس عملا انتاجيا ولكن بالمقاييس البعيدة تعتبر أدخارا للمستقبل .

وبما أن ناتجها في النهاية يعود على الامة العربية جميعها بالفائدة فأن رعايته هي مسئولية الامة العربية كلها . وليس من الانصاف أن تكد مصر وتعرق لتخرج هذه الاجيال لكى تأخذها الأمة العربية جاهزة ودون مساهمة منها في تكوينها أو رعايتها . ان قطاع الخدمات ، بما فيه من رعاية تربوية وصحية وثقافية ، لهو مسئولية الأمة العربية ، وليس مصر وحدها . والأمة العربية مهما أستوردت من مدارس وجامعات جاهزة لن تستطيع أن تعوض ماتقدمه مصر كمدرسة . فالجامعات والمدارس في مصر ليست مجرد مايوجد داخل أسوارها ولكنها تشمل البيئة الحضارية التي توجد فيها ، وهذه بدورها في حاجة الى رعاية .

عادت الى مصر.. فهل هى مجنونة؟

طبيبة شابة تطلب بشيء من الدعابة أن تتأكد من قواها العقلية. فقد قال الجميع عنها أنها لمجنونة أن تركت بارادتها عملها فى البلد العربى الذى ذهبت اليه، وذلك بعد أربعة شهور من وصولها، وعادت الى مصر. ومن جانبها فانها أنما فعلت ذلك لأنها لم تستطيع أن تتركه فى أقل من هذه المدة نظرا للاجراءات التى كادت تقترب فى تعقيدها من عتق الرقبة. فقد اتخذت قرارها خلال أيام من وصولها وسط هذه الضغوط من اخوانها سواء من أهل البلد أو المصريين العاملين هناك، بل وأسرتها فى القاهرة. الجميع متفقون على الهدف من الوجود اذ يقيسون العقل والجنون بناء على هذا المنظور. فهدف الانسان ان يعمل ليجمع المال فلا يعمل بعد ذلك. وبهذا القياس فقد كانوا جميعا يتعجبون لقرارها هذا، فها هى تتلقى نظير ست ساعات من العمل اليومى أجرا كل شهر يفوق ماتتقاضاه فى مصر نظير عمل عامين. علاوة على أن تتوفر السكن واللوازم الاساسية للحياة فى المتناول. وكلها مستوردة بالطبع. حتى الهواء مستورد. اذ أن الهواء المحلى ساخن ومترب ولم يحل بالحال لسكان المنطقة الاصليين ولا للوافدين عليهم فلا يلبثون أن يتعودوا عليه لعدة أيام حتى يعجزوا عن الحياة بدونه بعد ذلك. وكأن الجميع قد صاروا سجناء لغلاف من الهواء النقى البارد.

كانت قبل أن تذهب فعلا تعانى من كثرة العمل فى الوقت الذى تطالب فيه بالاستمرار فى دراستها العليا. وكانت لها احتياجات بيولوجية على مستوى آخر آخذة فى الالحاح مع مرور السنين وهى أن تكون أسرة للانجاب بعيدا عن

أسرة الأصل التى نشأت فيها . ولكن هذا يتطلب
مسكنا . والسكن يحتاج الى أموال ، وهى أموال تتزايد
عاما بعد عام ولا علاقة لحجمها أو سرعة زيادتها بحجم
دخلها المصرى أو سرعة زيادته . كانا عالمان منفصلان ،
عالم الاستهلاك والشراء والامتلاك من جانب ، وعالم الانتاج
والعمل من جانب آخر . كانت تعمل كثيرا وتنتج كثيرا
ولكن لخلل ما فى المعادلة لم تكن قادرة على تلبية
حاجاتها الاستهلاكية .

ولذا لاح لها هذا الحل الذى يتسابق عليه الجميع . وكان
لها ميزة فى السباق فقد كانت متفوقة وتمكنت من
الحصول على عمل فى موقع تتوفر فيه الخبرة والعلم . لانه
موقع يتوافد عليه الفقراء وتنفق عليه الدولة مما يتيح
لها فرصة الخبرة والتدريب واما من جهة العلم فان العلماء الذين اكتسبوا علمهم
أطلا من هذه المواقع يستقرون فى مواقعهم . وليس ذلك للاستزادة من العلم
ولكن لان المنصب العام ينعكس على الدخل الخاص .

فالمنصب العام يجعلهم على صلة بالطلاب والشباب والمرضى
الذين هم بالتالى على صلة بالجمهور بدوره وهو على صلة بالصفوة
التى تتمكن من الحصول على خدماته الخاصة . ومن هذا
الامتياز كان الطلب عليها عاليا . وفضلت على العديد
من زملائها وزميلاتها . بل فضلت على أكثر من مائتى
زميل تمكنوا من السفر والاقامة ولكنهم لم يتمكنوا من
الحصول على عمل . ولابد أن نذكر فضل جنسها . فالنساء
فى هذه البلاد ما زال ينتابهن الخجل من الكشف لدى الاطباء
الرجال . واذا ما توفرت طبيبة مؤنثة مثلهن فلاشك
أن الاقبال عليها سوف يشتد . فكان لها أن تفخر وأن
تشعر بقيمتها . كان المجال مفتوحا أمامها لكى تكون
مرغوبا فيها ومقدرة ، ولا تتعرض للاهانات التى يتعرض
لها الأجير الزائد عن الحاجة . فذهبت .

كان املها ان تستمر فى اكتساب الخبرة والعلم . فالحاجة

اليها موجودة ،والمرضى متوفرين . والأمكانيات تسمح باستيراد الكتب والمكتبات الأنيقة ،وهى لم تكن تريد الا فرصة للقراءة لتعدنفسها للقيام بأبحاثها بعد عودتهما واذا توفر الجو العلمى بالمنافشة واللقاءات مع الزملاء والزميلات فهذا افضل . والأفضل أيضا ان يكون من هؤلاء معارف او أقارب .

وكان ذلك موجودا فعلا ومتوفرا فمستشفى الجنون الذى الاتذهب؛ ونهبت . ولم تهنأ باللقاء مع الأصدقاء والأقارب فقد بدأ تنفيذ العقد فوروصولها . وبدأ عملها اليومى من السابعة حتى الواحدة . كان عملا مضنيا . اذكان سهلا لايثير فيها التحدى او التفكير . كما انها لم تكتسب منه خبرة او علم . كان العمل مطلوبا لأن الخدمة المعروضة للمستهلك مشروط أن يقدمها طبيب ،بل طبيب متخصص . فالذى يملك الأجر يستطيع أن يستشير أعظم المتخصصين فى مشكلة بسيطة . بينماقد يذهب الفقير الى السحرة والمشعوذين او حتى لايذهب الى احد فى مواجهة مشكلة عويصة . فلامانع اذن أن تقوم من فى خبرة صاحبتنا بعمل يقل بكثير عن قدراتها ،ماذامت تحصل على اجر عال: فكيف تعترض ؟ .

ويبقى لها اليوم الطويل بعد الواحدة . تستطيع أن تفعل فيه ماتشاء : أن تنام ،او تقرأ ،او تاكل ،وتشرب ،ولكنها تكتشف أن المشيئة ذاتها غائبة ،فهى لم تعد تشاء أن تفعل كل هذا . فقد شبعت نوما واكلا وشربا ولاتعطلها مواصلات أو طوابير جمعيات . أما القراءة فهى تحتاج الى ذهن متحرك ونشط . والذهن ينشط فى مواجهة المشاكل أوفى مواجهة الاثارة والحث الناتجين من الاحتكاك بالاذهان الاخرى. أى فى الجو العلمى والثقافى المناسب . أو فى بعض الحالات

فهو ينشط بفعل تكوينه الذاتى . والجو العلمى والثقافى لم يكن مهيئا . فالجميع يعمل ليكسب لكى لا يعمل بعد ذلك . والتطبيق يترجم الى يوم العمل العادى . عمل فى كل صباح يأتى بمكسب . ثم لا عمل فى المساء . فليس هناك مشكلة يفكرون فيها . جميع المشاكل تحل بالمال والحلول تستورد جاهزة ،فلماذا عناء التفكير ؟ بل أن البلد كله يطبق هذه الفلسفة ، فقد عملوا فى البداية ولكنهم وجدوا الكسب يأتيهم من تحت الارض . فلم يعد هناك حافز للعمل . وخاصة أن المال يستطيع أن يجلب العاملين الذين يقومون به . بل انه قد صار يجلب المفكرين والمثقفين والكتاب والمتكلمين . فلا داعى اذن يقوم بذلك احد ،مادام يمكنه استئجار من يقوم به . ولكن الذى يقوم به يجد نفسه بعد فترة أنه كالبهلوان او الببغاء اوالقرد فهو لا يفكر من موقع الالتزام الجاد أو المسئولية . ولكنه يفكر لكى يرضى صاحب المال ويزين له بلاطه بالفكر . واذا كان المال زينة للحياة الدنيا ،فما يشتريه المال أيضا زينة ،وليس له قيمة جادة فى حد ذاته . ولهذه الاسباب لم تجد صاحبتنا اثرا ولا اساسا فى تفكير المفكرين ولا علم العلماء ولا ثقافة المثقفين . فلقد كانت كلها بضائع زائفة . للزينة فقط ولكن ليست للاستخدام المفيد ،كما لم تجد أثارة للفكر من خلال تحدى مواجهة المشاكل . فقد كان كل شىء يسيرا .

ومع ذلك فانها لم تكف عن التفكير . فهى بطبيعة تكوينها تمثل ذلك النمط الثالث من المفكرين . فهى تفكر حتى فى غياب الجو الفكرى وفى غياب تحدى المشاكل . لم تفكر فى المشاكل الطبية اليومية ،فهذه كانت أيسر من أن تحتاج الى تفكيرها . ولم تفكر فى المشاكل العلمية العويصة التى قد تشكل موضوعا للبحث العلمى ،فهذه لم تكن مطروحة ، ولكنها فكرت فى الوضع الشامل ،فى معنى وجودها فى هذا المكان .

لقد نظرت أمامها قليلا وشاهدت منهم فى موقع أساتذتها واكتشفت الفرق . ماليا، فانهم ليسوا أفضل حالا من الناحية المالية اذ مازالوا يتقاضون المرتب دون ملكية لغير ما سال منه، وعلميا فقد كان الفرق واضحا . فلا كتب مكتبة الكونجرس، ولا الخدمات العقلية الالكترونية المتقدمة، بقادرة على أن تعوض العنصر البشرى الناقص الذى لا تجد علماء أو معلمين كالذين نشأت على أيديهم . بل أن نفس هؤلاء العلماء والمعلمين ممن جذبهم المال وحضروا وغابوا عن موطنهم ، لا يوما بل أربعين عاما ، نسوا ربهم وتحولوا لعبادة العجل الذهبى، نسوا العلم وصدأت أذهانهم، ونسوا الهدف السامى، وظنوا أنه مجرد عملية تحويل الى ذهب فتشبعوا بالذهب دون تسام . فقدوا الروح وصاروا كالآلات وكالبالونات المنفوخة فليس استيراد المواد العلمية لكاف . فليكن اذن استيراد العلماء أنفسهم بل ان هذا أيضا لم يكف لتحول العلماء من ذهب الى نحاس مقابل تحويل النحاس الذى فى جيوبهم الى ذهب . وها هى ذى تطمع فى العلم وتجده كالسراب ، مثله مثل الماء . فلما ارتضت بما هو دونه أى المال وجدته هو الآخر كالسراب : نفط أسود يتبخر وورق أخضر يتحلل .

فكرت فى ذلك المستقبل منذ الأيام الأولى من وصولها . ورأت ما بعد السراب . وانزعجت وحاولت بمعاونة أخوانها أن تطمئن نفسها بأنها لا تنوى الاستيطان .

فالاستيطان بلا ضمانات ويتوقف على ارادة صاحب العمل لا على ارادتها . وتقبلت أن يكون بقاءها لفترة محدودة عاما أو بضعة أعوام ، تجمع خلالها قيمة ما تحتاجه لتؤثث عش زوجيه تشارك به الزوج الذى تريده ، أو شقة تمارس فيها عملها الخاص . ولكنها اكتشفت فى نفسها ذلك التمرد المضاد لتمردها على المال والزينة وهو الاغراء الشيطانى بأن تسلك الطريق المربح ، ان تنعم بالثمرة المحرمة على بقية بنى وطنها

أن تنعم بالشقة الميسرة والسيارة الامريكية المكيفة الهواء والسلع الاستهلاكية المستوردة والفاخرة وأن تنسى عناء ركوب المواصلات المصرية بل ومغامرة السير على الأقدام فى شوارع مصر المزدحمة . وتنسى آلام المرضى الفقراء الذين يرضون بالامكانيات المحدودة التى تتوفر لهم فى تلك المؤسسات التى تنفق عليها دولتهم اللاهثة للحفاظ على الحد الادنى من الخدمات . لقد ضبطت نفسها وهى تكاد تنسى الآلام لتنعم بالراحة . والراحة ثمرة نبعت من نفط أسود اخرجته الارض لأصحابها وهى ثمرة محرمة فى ظاهرها تبدو وكأنها تعد بالمزيد من النعيم . ولكن نذير بالعذاب الأليم يكمن فى باطنها . ثمرة أكل منها أصحابها فلما فاض دعوا الغير أن يأكلوا من فتاتها . ولم يتيقن بعد هؤلاء أو هؤلاء عقبات الأكل منها . ولكن صاحبتنا أدركت بحسها الفطرى : أن وراء الثمرة المحرمة المغرية عواقب عقيمة، فأقلقها الامر، وحرمت نفسها من المتاع الدنيوى قبل أن تعتاد عليه فتفقد بذلك متاع الآخرة .

بل أن المتاع ذاته فيما يبدو فقد طعمه . فقد ادركت أن اهل البلد الاصليين ، الذين طال بهم الاستمتاع ، لم يعودوا يجدون الثقة فيه فالشباب منهم يذهبون الى أوربا والشيوخ منهم الى .. مصر . وتعجبت كيف يذهبون الى مصر وهى عائدة منها ؛ ولكنهم يذهبون ومعهم من المال ما يكشف جنات مصر التى كانت خافية عليها ، بل أن فى أكتشافهم لهذه الجنات وتكالبهم عليها أحد العوامل التى جعلتها نادرة وغير متوفرة لها . نعم ان الغلاء فى مصر الذى حرمها من أمكانية الحصول على حاجاتها الاستهلاكية يرجع بعضه الى تلك الاموال السائلة التى تأتى من فائض المال النفطى .

والآن هل هى مجنونة ؟ أن الدعابة فى التحليل النفسى لها مدلول جاد . وهى فى هذه الحالة تعكس قلقا حقيقيا عاشته صاحبتنا وهى تفكر بغير ما يفكر الآخرون . فهى هى وسط معابد العجول الذهبية تفكر فى الموجود الأزلى ووسط التمرغ فى المتعة تفكر فى آلام المعذبين المحرومين. وينطبق عليها قول على بن أبى طالب (رضى الله عنه) " أن الزاهدين فى الدنيا تبكى قلوبهم وان ضحكوا ، ويشتد حزنهم وان فرحوا ، ويكثر مقتهم لأنفسهم وان أغتبطوا بما رزقوا" فلا عجب أن يقلق تفكيرها القوم حولها فيقولوا عنها كما قيل عن كل من خالف الأعتقاد السائد فى عصره : انك لمجنونة . وضغط الجماعة لايستهان به . والفرد وحده أمام الاجماع أضعف من أن يقاوم فيرضخ أو ينهار أو يتكيف . ولكنه فى بعض الأحيان يكون واثقا من رؤيته : وفى هذه الحالات قد يحفظه من ذلك الرضوخ او الانهيار أو التكيف وخاصة اذا وجد ولو شخصا واحدا بجانبه ، يرى مايرى ويؤكد له صدق رؤيته .

وقد وجدت ذلك فى عودتها الى مصر . حقا أن الذين بقوا فى مصر أغلبهم لم ير مارأته اذ أن هؤلاء ينتظرون دورهم للسفر الى حيث السراب ويتعجبون كيف عادت والبعض الآخر عيل صبره من الأنتظار ومكث متقبلا واقعة فلم يعد يرى أن فيما رأت جديدا يلفت النظر . ولكن مقابل ذلك فأنها وجدت زميلا لها فعل مافعلت وعاد بعد أربعين يوما من سفره . بل وجدت زميلا آخر ألغى سفره بعد أن حصل على عقد للعمل . بل وجدت من يرفض فكرة السفر أصلا . ولم يكن ذلك من موقع تعال على المادة ، فقد كانوا جميعا من ذوى الدخل المحدود كما لم يكن بدافع التعلق الطفلى بالأسرة والاحباب ، فقد كانوا ممن حققوا قدرا من الاستقلال وكونوا اسرهم

وهم ليسوا ممن ينطبق عليهم قول الصوفى (شقيق البلخى)
" اذا كان العالم طامعا وللمال جامعا فبمن يقتدى الجاهل؟
واذا كان الفقير المشهور بالفقر راغبا فى الدنيا والتنعم
بملابسها ومناكحها فبمن يقتدى الراغب حتى يخرج من رغبته ؟
واذا كان الراعى هو الذئب فمن يرعى الغنم " .

كان وراء موقفهم وجدان يبحث عن فكر يفلسفه . وجدان .
يقول ان أبناء مصر مسئولون عن مصر . فاذا كان بها خطأ
او ضعف فهم مسئولون واذا كان بها ميزه فهم مسئولون،
، مسئولون عن كون مصر ماهى عليه ،ومسئولون عما سوف
تكون عليه بعد ذلك : فى السراء والضراء . أنهم يقولون
ان مصر سوف تبنى نفسها بسواعدها . بل ان مصر بنيان
شامخ ومفخرة . وهى لاتتسول أياد تبنيها بل هى مصدر تلك
الايادى التى تمتد [illegible] .

بل أن ابناء مصر العربية مسئولون عن الامة العربية .ومن
هذا الموقع فمنهم يرفضون أن يكونوا مجرد اياد تبحث عن
[illegible] ترزق منه .بل يرفضون أن يساهموا فى أضمحلال هذه الامة
باستيراد حضارة زائفة . فان عمل مصر فى الامة العربية
لايجب أن يكون مجرد انتاج عمالة تملاء وظائف . بل يجب أن يكون
هادفا منظما يسعى الى بناء الامة العربية جمعاء
والا تكون العمالة المصرية مجرد سوق للأيادى بل جزء من
خطة تشترك فيها مصر بنصيبها من موقع الشريك الند . ولذا
فهى فى حاجة الى تنظيم وتخطيط يمكنها من هذا الدور . فيكون
التعاقد مع مصر ككل . ويكون الانتاج للأمة العربية التى تساهم
بدورها فى حماية القائمين عليه . فاذا كانت مصر تنفق

من قوتها لتعد هذه العمالة التى تنتشر فى ارجاء الامة
فعلى بقية هذه الأمة أن تساهم فى حماية اعداد تلك العمالة
فتدعم بأموالها مدارس مصر وجامعاتها علاوة على المؤسسات .

التى توفر الخبرة التعليمية المكملة من مصانع ومزارع ومستشفيات. وعلى الامة أيضا أن تساهم فى حماية هذه العمالة بأن توفرلها الطمأنينة والاستقرار. فتساهم فى تأمينها اجتماعيا وتوفير المواطنة الكريمة حيثما وجدت بما فى ذلك مصر نفسها.

والمواطنة الكريمة فى مصر لاتتوفر الا بوجود درجة من عدالة التوزيع للثروة تجعل الكرامة فى المواطنة فى كم الثروة التى يحوزها المواطن. والعدالة فى مصر لايمكن أن تنفصل عن العدالة بين مصر وبين غيرها فطالماكانت مصر تعيش وسط مجتمعات تتمايز علي بعضها بكم الثراء، فأنها سوف تعكس بداخلها ذلك التمايز. وإذا ماتحققت العدالة بين مصر وغيرها فسوف تحقق مصر العدالة الاجتماعية بداخلها. فالعدالة الاجتماعية قضية لاتتجزأ الى داخل وخارج. ولكى تتحقق داخل الامة الواحدة فعليها أن تتحقق بين الامم وبعضها.

والتفاوت بين الأمم بدوره له مستويات ترتبط ببعضها فالتفاوت بين أبناء الامة العربية انعكاس، للتفاوت بين تلك الامة وغيرها وبالتحديد بينها وبين عالم الشمال الصناعى. وهو العجز الذى يعكس عجز عناصرها فى تحقيق العدالة بينهم، والذى يعكس هو الآخر العجز الداخلى فى كل عنصرمن عناصر المجتمع العربى عن تحقيق العدالة داخل المجتمع الواحد.

والجانبان مرتبطان، فالعدالة بين المجتمعات لن تتحقق الا بتحقيق العدالة داخل كل مجتمع. وعلى العكس فان العدالة داخل كل مجتمع لن تتحقق الا بتحقيق العدالة بين المجتمعات ولذا فعلينا أن نهتم بقضايا التنمية والعدالة الداخلية فى مجتمعنا فى ذات الوقت الذى نناضل فيه من اجل تحقيق العدالة بين مجتمعنا وغيره، وأن نبدأ بالدائرة الأقرب فى نطاق الامة العربية ثم الأبعد فى العالم الثالث ثم الأبعد

فى العالم كله ،كطرف يمثل العالم الثالث ،ثم الأبعد
فى العالم كله كطرف يمثل العالم العربى والعالم الثالث
فى مواجهة عالم الشمال الصناعى .

المصريون العرب والحوار الحضاري

أو

الدب والذبابة

لقد اصبح المصريون صنفين : مصريين مصريين يعيشون بالمستوى المصري للدخول ويمارسون الأعمال المصرية والتى تمثل انتاجية مصر ، ومصريين عرب يعيشون بالمستوى العربي والأعلى من المستوى العالمي للدخول ويمارسون الأعمال العربية التى ترتبط بالأنماط الاستهلاكى العربي .

فالمصريون العرب يعيشون من الدخول العربية بشكل مباشر أو غير مباشر . والذين يعملون منهم فى الدول العربية النفطمالية "يحولون الى مصر دخلا سائلا يفوق فى حجمه أضعاف مايرد من الانتاج الزراعى والصناعى المصرى . و ينفقون اموالهم هذه فى توسيع دائرة ملكيتهم واشباع حاجياتهم الاستهلاكية التى طالما حرموا منها . ولهذا فهم يشبعونها بشراهة يسرت للوسطاء الذين يستوردونها أن يثروا ثراءا باهظا يثير نقمة غيرهم من المصريين المصريين الذين يعملون ويعرقون ولايحصلون الا على الفتات .

وهذا الوضع يستمر رغم المقاطعة التى لم تتعد المستوى السياسى علاوة على بعض اكباش للفداء لتخويف غيرهم من المصريين المصريين . بل انه يزدهر بفضل تلك المقاطعة ، فالمقاطعة تثبت اقدام المصريين الذين يعملون فى الدول حيث اصبحوا عملة نادرة نسبيا ويخشى هجرها أو طردها من هذه البلاد والا انهارت حضارتهم المستوردة والمصطنعة ومن جانب آخر فأن الحد من نزوح غيرهم المصريين بدوره ثبت من أقدام المصريين العرب داخل مصر . فنادى الاثرياء بغلق بابه قليلا فتبطئ حركة الصعود الإجتماعى .

الا أن لهذا الوضع مخاطره . اذ أن الذى يصبر المصريين

المصريين على همومهم أنهم يحلمون بالانتقال من موقعهم الادنى الى الموقع الاعلى للمصريين العرب . وحلمهم هذا مصحوب بالامل طالما كانت هناك سيولة اجتماعية ، ويرون بأعينهم أمثلة لفقراء أصابوا غنى . ولكنه إذا استمر تشبيت الاوضاع وغلق نادى الأثرياء فلسوف يبدد هذا الحلم ، واذا تبدد الحلم فلن يبقى الا آثاره من الم الاحباط ومايتبعه من نقمة ثم غضب ثم انفجار . ومازالت احداث يناير ١٩٧٧ فى نطاق الذاكرة ، ولاتكف عن تذكير من يخفى همومه فى نشوة الثراء المفاجىء ومايصاحبه من انغماس فى ملذات الجسد بل وملذات الروح من تدين مفرط ومصطنع بأن هناك آلاما تتزايد وصراخا مكتوما يتراكم وشعب حليم يخشى من شره اذا غضب .

وحينما يشعر الظالم بغضب المظلوم ويخشى من تحوله نحوه فانه يلجأ الى حيلة نفسية يحول بها ذلك الغضب نحو غيره : الشر هناك وليس هنا . وهذا العدو الخارجى هو الكبش الذى يأمل أن يفتديه ويحول غضب المظلوم نحوه . وهكذا تكون الحروب أحيانا ، حينما يتهدد التماسك الداخلى لشعب فلايجمعه الا عدو مشترك يمثل هدفا للطرفين يجتمعان ضده . الحرب العراقية الايرانية وحدت صفوف ايران المشتتة . وكان التهديد العربى الاسرائيلى المتبادل يوحد الشعوب على الجانبين . وصار التهديد العربى المصرى أخيرا بدوره مصدرا لتوحيد الصفوف الداخلية للطرفين .

وإذا كان الخطر العربى على مصر يخف بنزيف احدى أهم دعائمه وهو العراق ، علاوة على تفكك الجبهة العربية الموحدة التى اجتمعت حوله وفى مواجهة مصر ، فأن هذا التفكك ذاته بدوره يهدد مصر فى الأمد الطويل . فالامة العربية المفككة لن تستطيع ان تقدم بديلا لحل

القضية الفلسطينية وعليه فلن يبقى فى الساحة غير الحل المصرى . ومن هنا فان هذا يمكن اسرائيل من الضغط لصالحها اذ أن مصر سوف تفقد الورقة الضاغطة الباقية ، فان فشل مصر فى تحقيق الحل العادل سوف يجعلها تلجأ للحل العربى البديل .

ولايبقى أمام مصر الا ورقة ضاغطة واحدة وهى ورقة التطبيع . فان مصر سوف تجمد التطبيع حتى ترضخ اسرائيل لشروطها . ولكن هناك حدوداً لتجميد التطبيع . فالمصريون العرب من جانبهم لاتحكمهم الاعتبارات السياسية . فهم أصحاب المال السائل والمال السائل وطنه حيث الربح . فهو يفضل بنوك سويسرا واوروبا والعالم الغربى عامة على البنوك المحلية ناهيك عن الاستثمارات المحلية التى قد تحرقها ثورة او حرب فى مثل هذه المنطقة الساخنة من العالم ولهذا ياخدون من التطبيع المجمد ما ياخذونه فى غياب التطبيع او وجوده . انهم لايمانعون فى التعاون التجارى مع الشيطان طالما كان هنك ربح . أما الحوار والتعاون الثقافى والتعاون العلمى فهذا أمر لايهمهم على اية حال وليتجمد بل ان تجميده خير نظرا لما يحقق ذلك من ارضاء للعرب يجعلهم لايتمادون فى الضغط بطردهم . بل لامانع من التضحية بالسياحة العربية فهى ليست ذات وزن عال على أية حال .

ولكن التطبيع التجارى الذى يتم بين العرب العرب والمصريين العرب ومن يقابلهم من الاسرائيليين الامريكيين (اى الذين يتكسبون من أرتباطهم الوثيق بامريكا من خلال يهودها) لايفعل الا أن يزيد الفجوة ويثبتها بينهم وبين المصريين المصريين (ومن يقابلهم الاسرائيلين الاسرائيلين) . ولأن هذه الفجوة تزداد على الجانبين وتزداد معها النقمة والتهديد بالتفكك الداخلى فيصبح على الجانبين ان يبحثا عن كبش فداء .. عن عدو خارجى يوجه اليه الغضب فالعرب العرب فى تفككهم

من أن يمثلوا تعديدا لاى من مصر أو اسرائيل. وعليه فلم يعد العرب صالحين للقيام بدور كبش الفداء او الخطر المشترك الذى يجمع الصفوف الداخلية فى أى مكان . اللهم الا ان كان الشعب الفلسطينى يدفع لهذا الدور .

وهنا يلجأ الطرفان للحيلة القديمة وهى أن يكون كل منهما عدوا للآخر . فتصعد أسباب الخلاف ويزداد التوتر . الا أن القيادات السياسية ابعد نظرا ممن يساندونها سواء من مصريين عرب أو اسرائيلين امريكيين .

وتتمسك القيادات بالمكسب السلمى رغم جذب الاغراء بالعودة الى العداء القديم . لان العداء القديم ليس له الا نهاية منطقية واحدة : وهى أن يصيب الدمار الطرفين ودرس العراق وايران ليس ببعيد فى المكان والزمان . وان القيادات السياسية لتعلم ان اصحاب المال السائل فى اللحظة الحرجة سوف يختفى بنفس السيولة التى تتميز بها أموالهم . وسيذهبون الى حيث الأمان فى بنوك الغرب . بينما يموت الشباب المثقف المكافح وتتهدم المصانع والمبانى التى يعيشون منها . فما أيسر أن يقاتل الاثرياء حتى آخر قطرة من دماء الفقراء . ويمارسوا الحروب الاذاعية من مواقع الرفاهية بل ويقيموا حكومات المنفى .

وترى القيادات السياسية البعيدة النظر ذلك وتتمسك بالسلم . ولكنها تعجز عن التحكم فى الاثرياء . فهى تعجز عن حثهم على الاستثمار والعمل المنتج ناهيك عن جمع الضرائب . ولا يبقى امامها الا أن تضغط على الطرف الاضعف وهم المصريون المصريون . وهؤلاء يسهل الضغط عليهم بترغيبهم فى الانتقال الى الصفوة المصرية العربية أوتهديدهم بالحرمان منها . ويبقى هؤلاء خائفين منتظرين دورهم فى الحصول على نصيبهم من النفط الاسود او عائده الورقى الاخضر فهم غير قادرين على المضى فى طريق السلم . مطالبين

بالبناء والعدالة وبحرية الكلمة . فمادامت المعركة لم تنتهـه تماما فلا صوت يعلو على صوت المعركة . وبالتالى فلابد أن تؤجل القضايا الداخلية حتى يتوطد السلم . ولاهم قادرين من وجـه آخر على الاستعداد للحرب او المناداة بها . فالذى سـوف يموت فيها هم أبنائهم والذى سوف يدمر فيهـا مصانعهم ومدارسهم ومزارعهم . بينما يظل المصريون العرب فى أمان خارج أرض المعركة والطريق مفتوح لهم للخروج اذا ما اقتربـت المعركة .

وهكذا نجد الاطراف المفككة او المهددة بالتفكك تجتمـع حول هدف واحد وهو تجميد السلام وعدم الاستعداد للحـرب اللهم الا أن كان هذا الاستعداد لايعدو أن يكون مجرد مزيد مـن الانفاق فى السلع العسكرية ، وبالتالى مزيداً من الحرمان مـن غيرها .

اذ أن هذا التردد وهذا التجميد على الجانب المصرى هـو ذاته الذى يغذى مثيله فى الجانب الاسرائيلى - أى الاسرائيلين الامريكين .

ويزداد هذا تخوفا فيغموق من جانبه جهود السلام . ويتمـادى فى ضرب الفلسطينين فى الداخل وقتل ماقد يوجد من آمـال للوصول الى حل سلمى مع الفلسطينين مباشرة . وتتزايـد الحلقة المفرغة .

ويشبه كلا الطرفين على الجانبين الدبـة التى ضربـت صاحبها بالحجر لتهش عنه الذبابة . فكلاهما يخشى السـلام بينما يعد به . وهما باسم السلام يضربان معوقاتـة بالحجر جاهلين بعواقبه .

وليس السلام المصرى الاسرائيلى استسلاما لطرف أو آخـر ولكنه انتقال حضارى بالصراع من شكله النارى الدمـوى الى شكل متحضر .

قد يشمل التنافس الاقتصادى والحضارى والسياسى .

ولنسأل أنفسنا عما اذا كان هناك ما نخشاه من مثل هذا الحوار . هل هو الخوف من عدوى الديمقراطية السياسية من جانب مصر أو هو الخوف من كشف زيف الديمقراطية السياسية من جانب أسرائيل ؟ هل هو الخوف من فقدان المال النفطى العربى او هو الخوف من فقدان الدعم المالى اليهودى الغربى ؟ هل هو الخوف من انشقاق الاقليات الداخلية أو من تحدى التعايش مع " الاقلية " الفلسطينية ؟

والذى يجب أن يطمئن مصر هو ثقتها بنفسها . لقد حققت هذه الثقة على المستوى العسكرى بقرار الحرب فى أكتوبر ١٩٧٣ بغض النظر عن النتيجة . وعليها أن تحقق نفس العبور على المستوى الاقتصادى والحضارى بأن تتمى نفسها مع تحقيق العدالة والحرية معا .

فهى وأن كانت تبدو أقل ديمقراطية من الناحية الشكلية من اسرائيل فهى على الاقل لاتميز بين ابنائها على مستوى الانتماء العنصرى او الدينى . وهى وان كانت تبدو أقل انتاجية من اسرائيل فهى على الاقل تملك من الايادى العاملة القوية من يعمل حتى فى ظل الشدة والفقر. وعامليها وان نزحوا للدول العربية المجاورة فأنهم ماذهبوا هناك الا لتدعيم مصر واشقائها العرب ولم يهاجروا للاستيطان حيث البنوك العربية . وهى وان استقطب مجتمعها الى فئتين متباعدتين (المصريين المصريين والمصريين العرب) فمهما كان الامر لايتمايزان عنصريا او دينيا (مثل الاشكناز والسفارديم أو اليهود والفلسطينين). وعلى هذا فان احتمالات التفكك الداخلى اقل .

والمبادرة الشعبية المنتظرة هى أن يتمكن الشعب

المصرى من تأكيد استقلاله سواء كان استقلاله فى مواجهة الابتلاع العربى المالى أو الابتلاع الاسرائيلى الحضارى والاقتصادى .وأن سلامه مع اسرائيل لايعنى استسلامه لها كما لايعنى تخليه عن عروبته .

فالتحدى الحضارى يدور حول امكانية مصر أن تؤكد أقوى مالديها من أسلحة وهو السلاح الحضارى . فيكون على اسرائيل فى هذه الحالة ان تلهث للحاق بها بأن تحقق الرخاء والعدالة والحرية بداخلها بمافى ذلك للفلسطينين والقضية الفلسطينية هى التحدى الحضارى الحقيقى الذى سوف يؤكد لاسرائيل امكانية استقرارها فى المنطقة كعضو مقبول فيها .

فلنلعن الظلام .. على أن ننتقل لإضاءة شمعة :
دور للمصري المغترب

موظف كبير ذهب إلى مكان عمله لزيارته بعد أن غاب سنوات يعمل في دولة عربية " نفطمالية ". وكان قد فصل من عمله لإصراره على عدم العودة بعد انتهاء مدة إعارته ولما وصل إلى مكان عمله انتابته بعض الاضطرابات البدنية مثل سرعة ضربات القلب وضيق في التنفس وعرق ورعشة وصداع. وهي أعراض تعكس آثار القلق الذي انتاب الموظف . والقلق يعكس حالة صراع وجداني يمر بها الفرد. فهو يشعر بشيء ويشعر بنقيضه بينما يسعى لنفي الشيء. ما هي طبيعة المشاعر التي تصارعت في وجدان صاحبنا ؟

ان ذهابه الى مكان عمله القديم لزيارة زملائه وأصدقائه ينم عن رغبة ايجابية في اعادة أواصر العلاقة المنفصمة . الا انه في ذات الوقت ينقم على مكان عمله الذي فصله. وهو يعلم أن زملاءه ينقمون عليه، لأنهم يشربون العمل المضني مع الظروف المعيشية الصعبة بينما هو مترفه ولكن ليتهم يعلمون انه ليس مترفا الا بالمعنى المادي . فهو معزول عن قاعدته وزملائه ويشعر بالعقم حيث يعمل . وهو لذلك يأتي لاعادة العلاقة . ولكنهم لا يعلمون أنه وحيد ومعزول بل وربما مهان ومضطهد . وهو أيضا لا يريد ان يعترف . فهذا ضعف والضعف مؤلم . ولذلك فهو يخفي ضعفه بمظهر من القوة. والمظهر بطبيعته اصطناع . والاصطناع يتميز بالمبالغة وعدم مطابقة الواقع . انه يدينهم . فهم جزء من النظام . والنظام هو المسئول عن كونهم كما هم . النظام مسئول وربما هم مجرد ضحايا له . ولكنهم ضحايا ساكتين لا يثورون مثلما يثور هو بقلمه ولسانه .

ولذلك فهو محق فى غضبه منهم وادانتهم . انه يحمل كما لا لابأس به من المشاعر السلبية خلف المشاعر الايجابية التى اتت به لزيارتهم . انه يكرههم ويحبهم فى ذات الوقت .

والمشاعر المتناقضة موجودة فى الجميع . وفى حالتها المثالية تندمج وتذوب فى بعضها بحيث تجد المشاعر السلبية منفذا من خلال المشاعر الايجابية على ان يكون الترجيح النهائى يكون للجانب الايجابى . قد أحب زوجتى . ولكنى اذا نفيت الجانب السلبى فى مشاعري تجاهها فقد يظهر هذا الحب فى قالب سلبى كأن افرط فى تدليلها او حمايتها او فى محاولة تملكها . بينما لو تركت العنان للمشاعر السلبية فقد اكثر من الشجار معها حتى انفصل عنها . ولذا فانى أدمج الاثنين بأن احب دون افراط فى التدليل وغير ذلك ، مع تحويل المشاعر السلبية الى علاقة فيها الحزم والقوة والاستقلال دون الشجار والانفصال .

واغلبنا لا يحقق هذا الدمج فى صورته المثالية . ولذا فأن المشاعر المتناقضة تبقى متباعدة وبالتالى متصارعة. الصراع قد يحسم لفترة بأن يغلب جانب على آخر . فأنا اؤكد انى احب وانفى انى اكره . ولكن نفى المشاعر لا يلغيها . ولذلك فهى تتراكم وتتفاقم حتى تبرز على السطح . وهنا يعلن الصراع .

لقد جاء صاحبنا بعد ان ظن حسم الصراع ، ورجح الجانب الايجابى بأن قرر زيارة زملائه . ولكن الصراع فيما يبدو لم يحسم . فحين وصل الى مكان عمله ظهرت المشاعر السلبية باستعادته لذكرى إبعاده عن قاعدته ولذكرى وحدته وعزلته. وبما أنه يشعر انه لم يتعمد ايذاء مكان عمله وانما فعل ذلك مضطرا تحت ضغط الظروف ، وهو بالتالى غير مسئول عن مشاعره السلبية ، وانه هو الآخر ضحية . وربما أيضا للنظام .

فهو يطمئن نفسه ان ليس هناك عداء بينه وبين قاعدته . فكلاهما ضحية لعدو خارجي وليكن له اسم "النظام". الا انه من جانب آخر لايشعر بالألفة والتآخي مع زملائه لانهم جزء من النظام وعلى احسن الفروض صامتون ازاءه . فها هو ذا يناضل ضد "النظام" من الخارج بأن يدينه بقلمه ولسانه . بينما زملاءه صامتون .

الا انهم لايأبهون لادانته . فهو حينما يعادى النظام من الخارج فهو لايفعل شيئا لتغييره او تطويره الى أفضل. على العكس فهو لايفعل الا ان يدعم الانظمة المتصارعة مع النظام المصرى . وهو دعم على أية حال لايجد صدى سواء فى المجال الدولى العالمى او فى المجال الشعبى المحلى . فالعلاقات الدولية لمصر ليست أسوأ من المعتاد ولاهى أسوأ من غيرها . هناك نقاط لقاء ونقاط تصارع مع غيرها . بل قد تكون افضل مما كانت عليه وافضل من غيرها . فهو اذن بموقفه الخارجى هذا غير فعال . ونجاحه او فشله متوقف على نجاح او فشل الانظمة فى صراعها مع النظام المصرى . وليس دعمه لهذه الانظمة الادعما معنويا على أية حال . وبالتالى فأن قيمته للأنظمة محدودة . ولذلك فهو عنصر هامشى بالنسبة لها .

ولكن الانظمة تتمسك به لانه يساهم فى التنمية . انه طاقة عمل مخلصة نسبيا لدرجة تغرى باستنزافه تحت شعار التآخى العربى والاسلامى . وهى طاقة رخيصة أيضا . فالعامل المصرى الذى لايشكل جزءا من نظام ولكنه ممثل لذاته يمكن التحكم فيه بدءا من أجره الى مايبوح به لسانه . انه يتقاضى أجرا باهظا لتنمية بلادهم . بينما زميله فى مصر يتقاضى أجرا زهيدا لذات العمل فى بلاده . ولذلك فهم اصحاب الفضل ويجب ان يدين لهم ويفضل ان يكون ذلك مصحوبا باغترابه عن بلده ، او على الاقل عن "النظام" بها .

ولكن الأغتراب عن القاعدة الأصلية مسؤولم اذ هو

ذروة العزلة الاجتماعية والسياسية . ولذلك فهو يحل التناقض بأن يفصل مشاعره الى شقين . شق ايجابى يقول به أنه يحب بلده . وشق سلبى يقول به انه يكره " النظام ". وهى جوهر الرسالة التى يتلقاها من اخوانه العرب " اننا نحبك كفرد ولكن ليس كمصرى " .

وقد ظهر الصراع على السطح حينما ايقن وهو يزور مكان عمله ان هذا الفصل بين بلده ونظامها فيه شىء من الاصطناع . فزملاؤه جزء من النظام او على أحسن الفروض صامتون ازاءه . وزملاءه هم ايضا اولاد بلده . انه يعى ان ذلك العداء المنفصم والموجه ضد ذلك العدو المجرد " النظام " انما هو عداء يشعر به تجاه مكان عمله ايضا وتجاه زملائه . فهو يدينهم لصمتهم . وهم يدينونه لمعارضته المرفهة وغير الفعالة . فالمناضلون فى المكاتب المستورده بالخارج انما يطمحون الى مكانه فى الصفوة السياسية بعد ان تربعوا وسط الصفوة الاقتصادية .

ان مشاعره المتناقضة ظهرت على السطح . والصراع بينهما اصبح معلنا وصريحا وعنيفا . والقلق هو الحالة الوجدانية التى تنتابنا حينما نواجه خطرا يداهمنا . والخطر هو أن نكون تحت رحمة انفعالات عنيفة . فالحب العنيف مؤلم والكره العنيف مؤلم . والصراع بينهما مؤلم .

ولكن الألم بطبيعته يحمل بذور انتهائه . فهو حالة غير مرغوب فيها . فقد يبحث عن وسائل قديمه لحل الصراع بأن يغلب جانبا على جانب . ولكنه يتذكر ان هذا الحل المصطنع قد فشل . ولذا لابد وان يبحث عن وسيلة مبتدعة يحقق بها ذلك الدمج الامثل بين المشاعر المتناقضة . لابد وان يعترف بادىء ذى بدء انه يملك الجانبين من المشاعر . وعليه ان يبحث عن منفذ ملائم يسمح بالتعبير عنهما بشكل بناء .

يمكنه ان يحول العداء الى طاقة بناء بما فى البناء من هدم مخطط، ولكن البناء يتميز بأنه ايضا تعبير عن الحب به ومن خلاله يمكنه ان يحقق ذلك الدمج الامثل بين مشاعره المتناقضة .

فقد يفكر بادىء ذى بدء فى البناء فى محيطه المباشر بما يمكن ان يعود على زملائه المصريين بالفائدة . قد يبدأ بمحاولة رفع مستوى أجر العامل المصرى فى الدولة النفطية وتحسين ظروف عمله بتوفير الطمأنينة من خلال التأمينات المختلفة . قد يشكل هيكل يدافع عن حقوقه كعامل ويعوضه عن حق المواطنة او على اسوأ الفروض الاقامة . فالعمالة المتكتلة يمكنها ان تحصل على شروط افضل بكثير من العمالة المتفككة . ويمكنه بعد ذلك ان يطالب بضريبة تضاف قيمتها الى اجره تحول لتدعيم الخدمات فى مصر التى وفرت له ولأولاده التعليم والصحة وتنتظره فى شيخوخته . وبالاضافة فأن الارتقاء بمستوى تعليم العامل المصرى سوف يعود بالفائدة على سمعته ومكانته حيث هو ، علاوة على الفائدة لذات البلد الذى يعمل فيه . اذ ليس من المصلحة ان تنفق مصر على ابنائها بينما يستفيد الغير وحدهم من انتاجيتهم . فالاوزه التى تبيض الذهب ان لم ترع فسوف تتوقف عن ان تبيض .

والمصرى فى الخارج مسئول عن رعاية الاوزة قبل غيره . ولكنه يستطيع ان ينور غيره ايضا بأن رعاية الاوزه هى لفائدتهم ايضا وليست منة او تعطفا . فالاموال التى ينفقها العرب فى استيراد الحضارة الجاهزة سوف تدفن فى الرمال من حيث أتت . فالذى يبقى للحضارة هو قدرتها الانتاجية والأبداعية . والاستيراد الجاهز للحضارة مثل التدليل قد يعطل القدرة الانتاجية ، ويقتل القدرة الابداعية .

وبما ان مصر هى من اعمدة القدرة الانتاجية فى المنطقة

وبما انها جزء يرتبط تاريخيا وفى مستقبله بالمنطقـــــة فان تنمية مصر هى لصالح المنطقة وليس لصالح مصر وحدهـــا . وبدلا من أن تستورد عمالة مصر مثلما تستورد الادوات التى تعمل بواسطتها ،فتدفن معها وقد انفصلت عن جذورهـــا وتموت الفروع والجذور بلا اخصاب ،بدلا من هذا فالأولـــى ان تسعى هذه الدول الى المحافظة على انتاجية مصـــر . وذلك بأن تدعم الخدمات التى تؤهل هذه العمالة وهى القطاعات التعليمية والصحية والعسكريــــــة ،وذلك باقامـــة المدارس والمستشفيات والمعسكرات وغيرها من منشآت . ثم تدعم المجالات التى تحافظ على القدرة الانتاجية لتلـــك العمالة من خلال وجود امكانيات العمل والتدريب واكتســاب الخبرة والبحث من أجل الارتقاء بالاداء . ويتم ذلك مـــن خلال اقامة المنشآت الاقتصادية من مصانع ومعامـــل ومزارع وغيرهـــا .

ان صاحبنا المصرى يدرك أن مثل هذه المبادرة الايجابيـة من جانبه هى المخرج الوحيد من أزمته حيث يشعر بالعجـــز واللافعالية ،وحيث يشعر بالعزلة والاغتراب عن قاعدتـــه . وبدلا من ان يدين زميله المصرى او على احسن الفروض النظام" الذى يشكل هو جزءا منه فيمكنه ان يتكاتف معه بـــضرب هذا المثل للايجابية والفاعلية . فينمى فيه بالتالـــى ذات المواقف . ويطالبه بأن يقوم بدوره هو الآخر فـــى بناء مصر من جانبــه .

فهو يريد ان يعود ليجد لاولاده الرعاية التعليميـــة والصحية الكافية ويجد لنفسه الرعاية فى الشيخوخة . وذلـــك بدلا من تفتيت طاقتيهما فى اللعن والادانة . فما أيســر ان نلعن الظلام دون ان نضىء شمعة . ولكن ما الفائدة مـــن التوقف عند لعن الظلام ،على فرض أن اللعن المحدود قد يفيـــد بأن ينمى الدافع للبحث عن الشمعة واضاءتها؟ أفليـــس

من الأجدر أن نصفح عن اللعن ونكف عنه ونتكاتف في سبيل الاضاءة ؟

الباب الثالث

مصر واسرائيل

- ** التفسير النفسى السياسى لتطبيع العلاقات .
- ** مصر والعرب واسرائيل: صراع حضارى عربى غربى .
- ** الهوية المصرية . والمواجهة الثقافية مع اسرائيل .
- ** الصقور والحمام والسلام والكلام .
- ** معاناة مواطن اسرائيلى شريف .
- ** معاناة السلام ومعاناة القتال .
- ** شعب غزة شبل جريح فى زنزانة .
- ** مهلا للتطبيع وأهلا بالحوار .
- ** بارانويا .
- ** التنافس على عقدة الضحية بين العرب واليهود .
- ** العظمة والدونية فى الشرق الأوسط .
- ** العدوان والشكك .
- ** بعد هذه الطعنات .. ترى هل مات المولود؟ .
- ** اللاعنف الثورى أو السلام الأيجابى ..مولود جديد مهدد بالموت فى المهد .
- ** حيث تزمجر الجبال .

التفسير النفسى السياسى
لتطبيع العلاقات

يكثر الحديث عن التطبيع بمناسبة فصل جديد فى العلاقات بين مصر واسرائيل ،فقد أنتهت نية اللجوء الى لغة التصادم العسكرى . كوسيلة للحوار بين الطرفين بخطوة المبادرة السلمية التى قدمتها مصر من خلال قائدها الرئيس انور السادات وأستجابت لها اسرائيل بالتالى .. كانت النقلة فى الحوار من الصراع البحت عسكريا ولفظيا الى الحوار فكريا ولفظيا وحتى عسكريا ،وظاهرها التقاء بين زعيمين ،ولكن حقيقتها تعبير عن أحتياج جماعتين تمتلكان من القوة مايجعل كلا منهما لاتخشى قضاء الأخرى عليها قضاء تاما ،فقبلتا بالتالى واقعية وجودهما المتبادل ،وتركتا الحكم للتاريخ من أمكانية وطبيعة أستمرار ذلك الوجود فيما بعد .

فاذا كان الذى حدث امرا طبيعيا فما هو لزوم التطبيع ؟

اذ أن لفظ التطبيع يعنى أن هناك افتعالا لما لايوجد أصلا ،وليس طبيعيا أو على الاقل : تعجيلا لما قد يكون موجودا .

تكمن الاجابة فى أن الفعل أحيانا يسبق الفكر رغم أن الفكر من وظائفه التنبوء وسبق الاحداث .

أما الفكر الذى يسبقه الفعل فهو الفكر المتجمد والمتخلف عن حركة التطور . أننا نتعلم القيم والمفاهيم فى طفولتنا فترسخ وتستمر معنا حتى نكبر ونتجمد ونتوقف عن التطور والتعليم . ولكن الواقع يتغير ويفرض فكرا

فاذا بقينا على حالة الجمود وتخلفنا من حركة الواقع سبقنا بالفعل .

ان حركة الواقع هذه ، هى هذا التحول الطبيعى فى العلاقة بين مصر واسرائيل من الصراع العسكرى الى الحوار المتحضر . بل انها الحركة الطبيعية فى علاقة العرب جميعا باسرائيل والقوى العظمى ببعضها وكل كيان اجتماعى مع نقيضه .

صحيح ان مصر قد سبقت بقية العالم العربى ، بل انها سبقت اكثرية مفكريها ايضا ، او على حد قول الشاعر الشعبى :

اسأليلى بالعتاب كل قارئ فى الكتاب
حد فيهم كان يصدق بعد جهل وبعد موت
ان حس الشعب يسبق اى فكر واى صوت؟!
هى دى مصر العظيمة

والفعل الذى يعبر عن احتياج الجماعة قد يبادر به زعيم الجماعة . فهو زعيم بفضل قدرته على التعبير عن احتياجات الجماعة . كما ان زعامته تنتهى فى اللحظة التى يكف فيها فعله عن التعبير عن احتياج الجماعة ومن هنا فان كلا من الجماعة وزعيمها قد يؤكدان بعضهما البعض وقد سبقا الفكر بالفعل فيصبح الزعيم السياسى والجمهور فى جانب واغلبية المثقفين فى جانب آخر او على احسن الفروض فى خطوة مختلفة او متخلفة . ذلك ان المثقف تعلم وتربى عقائديا طيلة السنوات الماضية على مفاهيم معينة .. هناك عدو داخلى اسمه الرجعية او الاخوان المسلمون او الشيوعيون ، وهناك عدو خارجى اسمه الصهيونية او الاستعمار . ان مصدر مشاكلنا فى كل الحالات هو " شئ آخر " سواء فى الداخل او فى

الخارج .. المهم أننا نحير ،وليبقى الأمكان أبدع مما هو كائن . وبالتالى فلاتوجد ضرورة لتغيير أنفسنا وعندئذ أراح المثقف نفسه من عناء النقد الذاتى أو التغيير الذاتى .. وأكتفى بأن يشير باصبعه الى موضع الداء .. أنه هناك فى الخارج .

وبما أنه لايملك زمام الأمور فأنه يعفى نفسه بالتالى من المسئولية عما هو واقع .. بل على العكس أنه يسعد بوجود "شخص آخر" يملك زمام الأمور،ويقوم نيابة عنه بالعمل السياسى .

أنه يستطيع أن يزيح المسئولية عن نفسه ويحيلها الى ذلك القائد أو المسئول ،وهو فى ذلك يستغل التناقض الوجدانى الطبيعى الذى يوجد بين القائد وبين جماعته .

فهى-اذن- ظاهرة طبيعية : أن يكون موضوع الحب الأول هو أيضا موضوع الكره والحسد . ان الذى يعطينى الحياة هو أيضا الذى يستطيع أن يسلبها منى . أن الذى أحبه هو أيضا الذى اخشاه وأكرهه . هذا هو مصير الأم والأب فى الاسرة ،والقائد فى الجماعة : أن يكون مصب كل المشاعر البدائية - من حب وكره - التى تدور بينه وبين من يعتمد عليه .

والمثقف فى الجماعة يلعب هذا الدور : أن يفكر ويترك مشاعره لغيره،كى يعبر عنها .. هو يرفض ،ولكن لايعلن رفضه بانفعال أو فعل ،ولكن يكتفى بالفكر واللفظ - وهما فى النهاية حدود فعله وامكانيته فى نفس الوقت .

لقد تعود المثقف والمفكر كما أشرنا على أنماط فكرية معينة ،وأصبحت أفكاره هى أداته وثروته ومصدر وجوده ولذا تشبث بها . لكن الواقع يفرض فعلا ما . والفعل قد يسبق الفكر او يختلف عنه فى الاتجاه فى لحظة ما

والمفكر المتخلف يتشبث بموقعه ، ولايستطيع اللحاق بسيرة الواقع .

فالطبيعى هو مايحدث فى الواقع . وبالقدر الذى يتخلف فيه الفكر عن الفعل ينشأ وضع غير طبيعى ،وبالتالى، تنشأتلك الحاجة الى"التطبيع" أى التعجيل بالفكر لكى يلحق بالفعل .

ومن الطبيعى أن يكون هناك تناسق أو تنسيق بين الفعل والقول والفكر . أما ما هو غير طبيعى فهو ذلك التخلف أو الأختلاف بينهما بشكل زائد.

أذن فهناك تطور طبيعى قد حدث بأن سبق الفعل لا الفكر . واذا كان انفصال الفعل والفكر هو فى حد ذاته أمرا غير طبيعى فالخطوة الطبيعية التالية لذلك أن يلحق الفكر بالفعل ،والمثقف برجل السياسة .وبالقدر الذى لايتم فيه ذلك بصورة كافية ،فأن الأمر يحتاج الى تعجيل ،وهذه وظيفة التطبيع . والمطلوب أن يحدث التغيير الفكرى اللازم كى يلائم الفعل . وعلى أحسن الفروض فاذا كان هناك غبار على الفعل فالمطلوب أن يؤكد الفكر أختلافه بأن يوجه الفعل فيما يراه أنه المسار الصحيح .
والفعل هنا هو هذه النقلة .. ذلك أن الفكر مازال مرتبطا بشعارات قديمة قامت على أن الأبيض أبيض والأسود أسود ولايوجد تدرج أو مزج بين الأثنين .. علاوة على الأعتقاد بأن الجانب الافضل هو مايخص الذات أى ما يخصنى أنا..

والنقلة المطلوبة هى نقلة فى أتجاه النضج الفكرى والسياسى : اى ان اقبل انه ليس بالضرورة أن تكون الأشياء اما أبيض واما أسود ،ولكن قد تكون أبيض واسود معا . كما انه ليس بالضرورة أن أكون انا فقط - دائما الأفضل ،وغيرى من الناس هم الأسوأ. فأنا بى عيوب ومزايا ،وغيرى به عيوب ومزايا ،وبالتالى فأن

التسميات القاطعة ذات المعنى الواضح : الأيجاب والسلب لم تعد تجدى فى وصف الأشياء . فليس الآخر هو مجرد " صهيونى استعمارى أستيطانى معتد" ولكن هناك جوانب أخرى فاضلة توجد فيه . كما أن هناك جوانب سيئة موجودة عندى أيضا . قد يكون صهيونيا ولكنه مواطن وجد نفسه ينتمى الى أرض ولها حدود وحكومة وجيش ويريد أن يحقق وجوده مثل أى مواطن فى أى بلد . وكذلك من جانب آخر فأن الصفة السالبة أى الصهيونية مثلا ليست مقصورة عليه فأنا أيضا تعيبنى نزعات عنصرية ودينية تعصبية تجعلنى أميز بين الناس حتى فى الوطن الواحد على أساس الأصل أو المذهب أو الدين (شيعى وسنى ،ومارونى ونجدى وحجازى ...الخ) .

هذه النقلة الفكرية هى المطلوبة كعملية تطبيع حتى يمكن للفكر أن يواءم الفعل فلايتخلف عنه . فالفعل من افرازات الواقع ،ويفرض نفسه بحكم حركة الواقع والتاريخ .. فالجندى المصرى،وكذا الأسرائيلى، كلاهما سئم القتال من أجل أن يستفيد أثرياء البترول والمنتفعون من تجار السلاح وغيرهم ،سواء فى العالم أجمع أو فى العالم العربى أو فى داخل الوطن ،وسئم كل منهما أن يعمل ويقاتل لحسابهم ،بينما هم فى ترف ينعمون .

أنهم يبيعون السلاح غاليا مقابل بترودولارات يدفعها أثرياء يستأجرون مقاتلين ،كلاهما يربح والجندى يموت. واذا لم يمت فى ساحة القتال فأنه سوف يختنق نتيجة لأرتفاع الأسعار الذى تحقق بفضل القتال ،بينما دخله ثابت رغم أنه دعامة العمل والأنتاج والفكر الذى يعطى قيمة مستقرة للبترو دولارات .

ان الواقع فرض على هؤلاء - بغض النظر عن التاريخ والمعتقدات - أن يكفوا عن قتل بعضهم ، ويوجهوا جهودهم فى أتجاه آخر : للبناء بل ربما للمطالبة بالعدالة فى توزيع الثروة العالمية والعربية والمحلية على السواء .

لقد فطن الجندى المقاتل والعامل والفلاح عبر الحدود السياسية أنه يجب أن يعمل لمصلحته وليس لحساب من يستأجره .

ولعل المقاتل الفلسطينى أيضا يعلم ذلك ، ولكنه قد يؤثر الصمت لأنه محاصر من جميع الجوانب .

وهكذا كانت المبادرة تعبيرا عن ارادة شعبية وضرورة تاريخية . وهكذا لم يكن هناك مفر للجانب الآخر من الأستجابة لها لأنها تقابل أيضا هناك ارادة شعبية .

ومادامت تعبيرا عن مثل هذه الارادة ، فأنه من الصعب بل المستحيل الرجوع فيها أو محو آثارها ، وكل ماتستطيعه هو اما المقاومة الفكرية لها ومن ثم تأكيد الانفصام بين الفكر والفعل ، وأما السير مع التاريخ والواقع والفعل ، وبالأصح اللحاق به ، فنعيد النظر فى مفاهيمنا .

وليس المطلوب تطبيعه هو مجرد العلاقة الرسمية بين مصر واسرائيل فى صورة تبادل التمثيل الدبلوماسى ولا تزوار المسئولين ، ولاحتى العلاقة الأقتصادية فى صورة انهاء المقاطعة ووضع أسس التعاون الأقتصادى والتجارى — فهذه امور يمكن أن تتم بقرار سياسى .

المطلوب تطبيعه هو ذلك التخلف الذى يعيشه الفكر والذى يهدد بتعويق الأنجاز الذى بدأ بالقرار السياسى المعبر عن ضرورات تاريخية وشعبية .

وهذا التخلف الثقافى والفكرى والذى نتحمل مسئوليته كمثقفين هو وجه من أوجه التناقض الوجدانى الذى يشكل

موقفنا من عملية السلام . فنحن نخشى المجازفة باتخاذ الخطوة الى نهايتها فنترتد ونتراجع ،مما يحرمنا من مزايا اتخاذ الخطوة بعد أن فقدنا مزايا عدم أتخاذها . فنجد أنفسنا وقد انتقلنا من حالة اللاحرب ولاسلم الى حالة اللا سلم واللا سلم . لابد ان نسأل أنفسنا ما الذى يمنعنا من التناسق أو التنسيق مع قيادتنا ؟

هل نحن نعكس أو نعبر عن تردد داخل القيادة أو هو تردد داخلنا نحن ؟

هل نخشى فقدان أرتباطاتنا المالية العربية التى تتمثل فى صورة المصريين العاملين فى الدول العربية ونخشى أن يستبدلوا بهم فلسطينين مثلا ؟

هل نخشى فقدان التأييد الشعبى الأسلامى لأننا نتعامل مع دولة يهودية ؟

بالنسبة للسؤال الأول فلابد من المصارحة بين القيادة والمثقفين فيتم الأتفاق حتى ولو كان أتفاقا على الأختلاف . بحيث يكون الموقف المتخذ محصلة لخدمة المصلحة العامة ،وأن تحول ترددنا الى موقف أو مواقف واضحة ومعلنة .

أما الثانى فأن المصالح المشتركة بين القوى البشرية المنتجة سواء المصريون أو الفلسطينيون وكذلك الأسرائيليون فى مواجهة أصحاب البترو دولارات وتجار السلاح أكبر من التنافس المؤقت واذا كانت الأموال السائلة لها وزن فأن وزنها الحقيقى يعتمد على قدرتها فى التحول الى قوى منتجة . فالأثرياء لايستطيعون شرب بترولهم أو أكل دولاراتهم وهم أحوج الى المنتجين وليس العكس .

والدول البترو دولارية لاغنى لها عن اليد العاملة

المصرية والفلسطينية وربما قد تستفيد أيضا من اليد الأسرائيلية فيما بعد . أما الموقف الشعبي الاسلامي فأن محكه الحقيقي هو في النتيجة الملموسة التي يحسها رجل الشارع ، وليس في الشكل ، فرجل الشارع لم يمانع بل رحب بالتعاون مع الكتلة الشرقية رغم موقفها الألحادي المعلن وذلك مادام هذا التعاون يعود عليه بالفائدة .

كما أنه لم يمانع بل رحب بالتحول نحو الغرب المسيحي حينما أقتضت مصلحته ذلك .

فما الذي يمنعه من التعامل مع دولة يهودية اذا كانت النتيجة سوف تعود عليه بالفائدة الملموسة ؟

هذا اذا هو المحك النهائي لأية سياسة خارجية كانت أو داخلية .

وهنا تبرز الأبعاد الأخرى للتطبيع .. فهو لايقتصر على تطبيع العلاقة بين مصر واسرائيل بل بين فقراء العرب وأثريائهم ، وبين الجماهير والمثقفين ، وأبن المدينة وأبن الريف ، مثلما يلزم تطبيع في الجانب الآخر بين الاسرائيلي والفلسطيني داخل اسرائيل وفي الأراضي المحتلة وفي المهجر ، بل بين الأسرائيلي الغربي والشرقي ، وبين الدول الكبرى والدول النامية والدول الكبرى وبعضها وكل كتلة ونقيضها .

وعلى مستوى الأفراد فالتطبيع يتم بين الفكر والفعل والأنفعال ، وبين العقل واليد والقلب ، وبين الآباء والأبناء ، والشيوخ والشباب .

بسم الله الرحمن الرحيم "فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة
من عندنا وعلمناه من لدنا علما، قال له موسى هل اتبعك
على أن تعلمن مما علمت رشدا ، قال انك لن تستطيع معي
صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ، قال ستجدني
ان شاء الله صابرا ولا أعصي لك امرا ، قال فإن اتبعتني
فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ، فانطلقا
حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها
لقد جئت شيئا أمرا ، قال ألم أقل انك لن تستطيع معي
صبرا ، قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا ،
فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا
زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا ، قال ألم أقل لك أنك
لن تستطيع معي صبرا ، قال أن سألتك عن شيء بعدها
فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا ، فانطلقا حتى اذا أتيا
أهل قرية استطعما أهلها فأبوا ان يضيفوهما فوجدا فيها
جدارا يريد ان ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا ،
قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع
عليه صبرا ، أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر
فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ،
وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما
طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه
زكاة وأقرب رحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في
المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد
ربك أن يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك
وما فعلته عن أمري ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا "

صدق الله العظيم

(سورة الكهف) . آية ٦٥-٨٢

هكذا كانت حكمة الله أن يوجد من الصالحين من قد يكونوا اكثر حكمة من الانبياء وان يأخذ العمل الصالح شكلا ظاهره قسوة بينما باطنه رحمة ، وأن يخطىء النبى بفهم ظواهر الأمور متجاهلا بواطنها .

ورغم أنه قد لايوجد بيننا أنبياء اوصالحون فى مقام الذين ذكروا الا أن المعانى الجليلة لها دلالة ليومنا هذا فكم منا يأتى بالعمل الصالح المدفوع بأحسن النوايا فيجد نفسه هدفا للاتهامات والاستجوابات ، وكم من الذين يوجهون الاتهامات والاستجوابات يعطون لأنفسهم أكثر من هذا الحق بأن يدينوا غيرهم بالخيانة والعمالة بل وبالكفر ، فالايمان اللفظى يسير ويعتمد على المجاهرة المتباهية المصحوبة بالأصوات الغليظة والألفاظ الجارحة والمدعمة بمحطات الأرسال الاسلكية المنشأة بالعملة النفطية الصعبة ، وهى تتجه غربا من المشرق العربى فى الوقت الذى يتجه فية الرصاص المسلم شرقا يسفك الدم المسلم ويقابل بالرصاص المضاد تاركا حصون الغرب المزروعة حوله راكزة مستقرة .

واذا ما اتجه الرصاص غربا فانه سرعان ماينحرف شمالا أو جنوبا ليقتل العرب وبالذات الفلسطينين فى لبنان أو فى الاردن ، وما يتبقى منه يفرغ فى أصحابه ، فالذى خلق من ازواجنا واولادنا عدوا لنا ، لايتأخر فى أن يخلق منا كقوم عرب عدوا لنا .

لقد نزف قلب الأمة العربية بما فيه الكفاية وهو يسعى لاقتلاع ذلك الجسم الغريب عليه فى شكل أمة من الغرب لبست ثوب القومية اليهودية ، والآن يجىء يوم الأطراف لتستكمل النزف فى اقتتالها على هوامش قضيتها الاساسية ، فتستنزف نفسها بنفسها بالنار والحديد احيانا والالفاظ الجارحة دائما ، مبقية هذه الأخيرة - الألفاظ - لأعدائها دائما . والأولى - النار والحديد - لأعدائها نادرا . ويستمر الاقتتال

بفضل النفط الذى يشترى الحديد والنار واللفظ معا مـــــن ذات العدو،من الغرب . ومايتبقى ينفق على الترف ، وفـــى دار العدو الغربى ايضا . واما الأمة فتضمد جراحهاوتسكن آلامها بقليل من الأصلاحات السطحيـــة .

واستيقظت مصر لتكتشف ان العدو الذى نريد أن نقتلعـــه بالحديدوالنار هو ذات العدو الذى يبيع لنا الحديدوالنـــار فلا يعقل اذا أن يمدنابماسوف نقاتله بهوان كان يمدنـــا بالقدر منه الذى يجعلنا دائمى الحاجة اليه ،وأنه لايعقـــل ان نحارب عدوا بذات السلاح الذى يتحكم فيه هـــو .

ان معركتنا هى معركة حضارة عريقة هرمت بل ماتـــت وتسعى لأن تولد من جديدوالمواجهة هىمع حضارة ناشئـــة أعماها غرورها باكتشافها للقدرة على السيطرة علىالمادة بما جعلها تتصور أنها قادرة بالتالى على السيطرة علـــى الروح .

واذا كانت اسرائيل قد جسدت فى فترة ما هذا الصـــراع وكأنه صراع من أجل زرع دولة غربية وسط محيط من الـــدول العربية ، فهناك جانب آخر اغفلناه وهو ان تلك الدولـــة تمثل فى داخلها ذات الصراع بين حضارتين وانبمعاداتنـــا للكيان ككل قد فرضنا عليها الاتحاد والتحالف داخليـــا وكذلك خارجيا مع الحضارة المناهضة لنا ، ونسينا الصـــراع الحقيقى ، وأبقينا صراعنا مستقطبا بين دولنا المتشبهـــة بالغرب والمتخلفة عنه والغرب ذاته مجسدا فى اسرائيـــل مستخدمين السلاح الذى يملكه الغرب وملتقين فى داخل حلبـــة صراعه . فلم نجد الا ماهو حتمى وهو الهزيمة بالمقاييـــس المادية الغربية ، ونسينا مصادر قوتنا وامكانيات نصرنا وهو الحضارة البديلة التى نستطيع أن نواجه بها الغـــرب فندعوه الى حلبة غير حلبته وسلاح غير سلاحـــه .

فسيف العربى الذى نشر الأسلام والعروبة لم يفعل ذلك بحده

بقدر ما نعلنه بقوة الكلمة المصاحبة له والمعبرة عن تلك المبادىء التى كان يتعطش لها كل خاضع لقيم المادة . والسيف الذى نحن بحاجة اليه اليوم ليس فقط ذا الصفائح البيضاء ولكنه المقرون بالصحائف السوداء ، بالكلمة المكتوبة والمعبرة عن مبادىء وفكر يحتاجه العالم .

هكذا ذهب منا من ذهب الى الغرب كثيرا ثم أخيرا الى تلك القلعة المحصنة المجسدة له والتى كان يمنعنا من دخولها بدعوى انه لن يسمح لنا بالاقتحام .

واذا لم يكن ثم اقتحام فلن يسمح لنا بالالتحام ، فالغرب يريد ان يحافظ على تجسيده نقيا لانؤثر فيه أو نتأثر به وبالطبع لانقتلعه . انه يريده غريبا مفروضا علينا لا يتلاحم - فالالتحام والامتزاج لايمكن ان يتم الا بين جسمين متشابهين ، والغرب يرى نفسه جسما غريبا مختلفا بتفوقيه ، وقد ظهر غروره فى نازيته حينما توهم أن داخل ذلك الجسم المتفوق اجزاء يتفوق بعضها على بعض .

ذهبنا الى الغرب وسمح لنا بالتشبه والتقليد الأعمى والزائف ولكن لم يكن الامتزاج مطروحا ولم يكن الحوار .

ولكن الانسان الذى يوجد بلا آخر ينعدم وجوده : فالانسان يعى وجوده - كما يؤكد الفيلسوف الوجودى الموحد بالله والمتغنى بحبه ، بوبر Buber - من خلال مشاطرته لوجود آخر غيره فالوجود يتحقق من خلال علاقة أنا وأنت ، وينتفى حينما تصبح العلاقة أنا وهذا (بمعنى الشىء لا الشخص) .

ولقد كان الغرب دوما ينظر الى الشرق على أنه " هذا " أى أنه شىء ، وليس انت اى بشرا مثله . ومادام " هذا " شىء فلا مكان للحوار معه . لا مكان لان يتحاور الغرب مع الشرق أو يسمع له رأيا . وعندئذ تيقن الغرب أنه بدون آخر حيث أن هذا الشرق الذى حوله الى شىء لايحاوره ولا يشكل آخرا بالنسبة له عندئذ واجه الغرب امكانية ان ينتفى وجوده

لأن الوجود لايتحقق الا من خلال الوعى المتبادلبالآخر، ومن خلال أن يكون هناك أنا وأنت .

اكتشف الغرب ذلك . واكتشفت اسرائيل ذلك. واكتشف الشرق بدوره انه لم يعد " هذا " ،لم يعد شيئا .وانه له وجود . وأن من حقه بلمن واجبه ، من أجل ذاته ومن أجل الغرب ، أن يواجه الغرب كآخر يتحاور معه ، يخاطبه بلغته أحيانا (أى لغة الغرب)ولكن مضيفا لغة أخرى وهى لغة الشرق . أى متشبها بقيمه المادية أحيانا ولكن مقدما له قيما جديدة وروحية من عنده ايضا .

وذهب منا من ذهب للغرب ليس مقلدا او ناقلا بل محاورا ثم تجاسر بعد ذلك بالذهاب الى قلعته ، الى القدس ، ليدعوه للحوار مع الجوار . فاكتشف ان هناك أيضا بوادر حوار بين قطبين يمثل احدها الشرق والآخر الغرب .

ولم يكن يخفى ذلك الاستقطاب الا ظروف الاتحاد الطارئ الذى فرضناه عليه بمعاداتنا له ككيان موحد وكحضارة . فهناك فى اسرائيل ذاتها عربى لكل خمسة يهود ، يعيشون سويا فى حوار وصراع منذ جيل مضى ، ناهيك عن الأعداد التى زادت بفعل التغيرات الجغرافية والسياسية العسكرية الناتجة عن الأزمات الحادة العنف فى الحوار والتى تشكل سكان الضفة الغربية والقدس وغزة .

ولكن الأدهى من ذلك اكتشاف ان داخل الخمسة من اليهود قطبين - يهود شرقيين (عرب وغيرهم) ويهود غربيين (سيفارديم واشكناز) وداخلهم جميعا قطبان ايضا ، من يميلون لاستعادة جذورهم فى المنطقة ، سواء من خلال التاريخ القديم واللغة المشتركة فى الأصل الواحد مع اللغة العربية وغيرهم ممن يشدهم الحنين الى الغرب . بل وداخل اليهود والعرب ذات القطبان ، من يتطلعون الى الغرب ومن يحنون الى الشرق .

وهكذا اتضح ان لذات الصراع الحضارى الذى كنا نظنه بين

دول وحوده داخل الدولة التى جسدنا فيها الغرب المعادى .
فاكد ذلك انذات القطبين ـ كأزواجنا وأولادنا ـ موجودان بداخلنا . فالأمة العربية نفسها ، بل وفى كل دولة فيها على حدة بل وداخل كل فرد فيها ، يتصارع ذلك الانجذاب نحو القطبين المتعارضين ، أفليس منا من يشترى انتاج الغرب من سلاح وكلام ، فيستدمجه بلا مضغ أو هضم حتى يصير جسما غريبا بداخله يتصارع معه ؟

أن قضية النهضة العربية لم تعد مجرد قضية القتال والصلح مع اسرائيل ، ناهيك عن القتال والصلح بين الدول العربية ذاتها ، ولكن القضية ان تتحول جميع شعوب المنطقة وقبائلها للتعارف لا للتقاتل ، وللاعتصام بحبله لا للتفرقة بحربه .

ولعل التحدى الذى يواجه الأمة العربية وفى مقدمتها مصر هو قدرتها على التأكيد بالقول وبالفعل وبالتأصيل الحضارى هذه القدرة على التعايش فى سلام سواء بين مكوناتها المختلفة أو بينها وبين غيرها . أنها القدرة على الوجود بأن يتحقق ذلك الوجود فى المشاركة مع آخر، فى شكل الأنا والأنت . فقد اخذنا عن الغرب أسوأ مافيه وهو نازيته أى أصراره على تصير الأوحد . أننا نتوقع أن يكون الآخر متفقا مع ٩٩ر٩٩٪ مما نقول بنسبة ٩٩ر٩٩٪ . وهناك قصة من قصص الدراويش تؤكد خواء هذا المسلك ، فقد استدعى احد السلاطين حكيما له صيته وطلب منه أن يقيم مدرسة يعلم فيها حكمته فسأل الحكيم الناس عمن منهم يرغب فى اقامة هذه المدرسة ، فوافق ٩٩ر٩٩٪ واقبلوا على بناء المدرسة ثم مالبث أن اجتنبهم وذهب الى القلة المتبقية وطلب منهم أن يعاونوه فى هدمها ! فالتأييد الحقيقى للحكمة لم يكن ذلك الذى جاء نتيجة التأييد الأعمى لطلب السلطان . بل لعل التأييد الحقيقى للسلطان هو ما أتى من الاختلاف معه . فالاختلاف

هو الذى يوجد الآخر . والوجود الذاتى لايتحقق الا من خلال الوجود مع آخر . والسلطان فى حاجة لمن يختلف معه . كل ماهنالك أنه يحتاج الا يكون هذا الاختلاف قائم على نفى المختلفين معه له .

أننا فى أمتنا العربية نطلب اجماع الصف ونريد أن تتطابق كل الآراء والمواقف واذا أختلف معنا احد أدناه بالخيانة والعمالة والأنحراف . ولم نتريث لنقدر وجهة نظره فى الأختلاف او حقه فى ذلك . لقد اختارت مصر أن تبادر بأن تجعل من صراعها العسكرى مع اسرائيل صراعا سلميا . فالصراع العسكرى البحت لايترك فرصة للحوار، اذ أن مراده أن ينفى أحد الطرفين الآخر . اما الحوار فهو يحقق للآخر وجوده وبالتالى يحقق ذلك الوجود للذات . علاوة على ذلك فأنه يكتشف بعدا آخر للصراع لم يكن ظاهرا أنه يكشف حقيقة الصراع وهو صراع بين اتجاهات أوحضارات وليس مجرد صراع بين كيانات دولية محددة يسعى كل منها لنفى الآخر ماديا ، والحوار مع الآخر يمثل ذلك النضج فى أن نرى صراع المبادىء واتجاهات وحضارات . والصراع الحضارى لايتطلب نفيا ماديا أو مطلقا للآخر، بل فيه امتزاج والتحام بين الطرفين ضد ماهو سلبى فيهما .

وهناك ماتلتقى فيه مصر مع اسرائيل، بالقدر الذى توجد فيه الاتجاهات المتناقضة داخل كل منهما . وهناك مايلتقى حوله أطراف داخل الطرفين الاصليين . فاسرائيل حاليا فيها الفلسطينيون من سكان الضفة والقدس وغزة واسرائيل وفيها الاسرائيليون العرب والاسرائيليون اليهود ، وفيها اليهود العرب واليهود الغربيون ، وفيها الذين يرغبون فى الأندماج مع شعوب المنطقة ومن يريدون أبقاء ارتباطهم العضوى والحضارى بالغرب . كل هذه التناقضات تتحالف أجزاؤها مع بعضها فى مراحل مختلفة . ومصر اختارت أن تدخل

بحوارها فى تحالفاتها مع تلك "المتناقضات بما فيها من متناقضات .

لم يكن غريبا أن يلتقى نخبة من العلماء المصريين مع مثيلتهم من العلماء الأسرائيليين فى واشنطن حول ضرورة حل القضية الفلسطينية "، لا لصالح الفلسطينيين فحسب ولا حتى لصالح المصريين بل لصالح الاسرائيليين بالقدر الذى يريدون فيه أن يندمجوا مع شعوب المنطقة . وليس غريبا أن يكون هؤلاء تعبيراً عما فى بلادهم من اتجاهات مطالبة بنفس الهدف . كل الأختلاف هو أن نقيضهم يطالبون بتحقيق ذلك الهدف بوسائل مخالفة فيها النفى القاطع للآخر . ومصر بصفتها صانعة حضارة وقائدة ، اختارت ان تنتقل بالعرب من حالة النفى القاطع الى حالة التأكيد المتبادل . وأن تقدم نموذجا جديدا للتعامل مع الآخر لعله يمثل قدوة ، لا لبقية العرب فحسب ولكن للمجتمع الدولى ككل . ولايعيب مصر ان تتعلم من خلال مثل هذا الحوار ان الآخر هو أيضا لديه درجة من امكانية تقبل غيره . أن تتعلم من اسرائيل أن هذه الأخيرة تمارس درجة من التواجد مع الآخر بالفعل وحتى وان كانت تحتضر بنفس ذلك بالقول . اسرائيل تقاوم بالقول التعايش مع الفلسطينيين فى علاقة جوار ولكنها بالفعل تتعايش معهم أكثر من غيرها اذ لايوجد فى أى بلد عربى مكان لفلسطينى الا كضيف طارئ وان كان كل بلد عربى يحتفظ بالمساندة اللفظية لحقهم فى وطن لهم . وتقدم مصر لأسرائيل من جانبها أهمية أن يكون التعايش مع الآخر ضمن أطار ندية فيكون للفلسطينيين وطن مثلما للاسرائيليين وطن . ان مصر تستطيع بحوارها مع اسرائيل ان تؤكد ذلك الاتجاه الذى يؤكد وجود الآخر ويعترف بحق الفلسطينيين فى وجود ندى وهو مالم تستطيعه بالتهديد العسكرى وحده . فقد نجحت فعلا فى تحقيق انسحاب اسرائيلى من اراضيها

لم تحققه بواسطة الوسائل العسكرية وحدها .نجحت بوسيلة حضارية جوهرها المبادرة بالحوار .

والقضية ليست في تأييدنا أو رفضنا لمبادرة السلام أو اتفاقية كامب دايفيد .فهذه أمور واقعة والتأييد لها أو عدمه مثل تأييد طلوع الشمس أو عدمه – لن يغير في الواقع التاريخي كثيرا . ولكن القضية هي في ما الذي نستطيع أن نفعله بهذا الواقع لنطوعه لأهدافنا . الاسرائيليون يفعلون كل ما بوسعهم ، ويستثمرون الحوار للتعرف على وجهة نظرنا ولتوصيل وجهة نظرهم . بينما نحن أما نؤيد القرار بمفهوم الـ ٩٩ر٩٩٪ موافقة أو ننفي وجوده وندير ظهرنا للواقع تماما . والعرب بدورهم بنفس المنطق يعارضون بمفهوم الـ ٩٩ر٩٩٪ ولا الرافضون يرغبون في الاستفادة من مواقف المؤيدين ولا العكس صحيح . فالقاعدة هي النفي المتبادل وإدارة الظهر لبعضنا البعض . والذي ينضجنا بما يجعلنا نسمع للآخر الاسرائيلي لاشك يؤهلنا لنسمع الآخر العربي والداخلي والعكس صحيح .

لقد اخترنا الحوار ،وان نعرف وجهة نظر الآخر ،واذا صار الآخر اسرائيليا فليس هناك مبرر لأن يكون ايضا عربيا والحوار مع اسرائيل لا يعني الخصام مع العرب ولا العكس وما دمنا نؤمن بالحوار مع طرف فالمنطقي أن يكون الحوار مع الطرف الآخر ضرورة . فاذا كان حوارنا مع اسرائيل حقيقة فلابد وان يكون الجانب الآخر لها هو الحوار مع العرب وبنفس المنطق فاذا كان حوارنا مع العرب حقيقي وليس مجرد تهابق أعمق بعقلية الـ ٩٩ر٩٩٪ فهذا لا ينفي حوارنا مع اسرائيل . ليس الخيار هو اما هذا أو ذاك ولكن قد يكون هذا وذاك .

فلا يعني اذا أن الدخول في حوار مع اسرائيل معناه الخروج من الحوار مع العرب . كما لا يبرر ذلك ادانة مثل هذا

الحوار من جانب الرافضين له بأنه خيانة او استسلام .
ولعل هذا يفتح امامنا ابعادا اخرى للصراع كأن يكون
صراع حضارة وقيم ومبادىء مع غيرها . وأن الخصمين موجودان
على جانبي الحدود . وان محكات التحالف لم تعد فقط قائمة
على الانتماء الوطني . فالحضارة العربية اذا كان لها أن تبعث
لابد لها وأن تجسد مبادىء وقيم لاتكون مجرد عنصرية
قومية في مواجهة عنصرية قومية أخرى . ولعل هذه القيم
هي ماتحققه هذه الأمة من مبادىء التعايش السلمي الايجابي .
ولعله ماتقدمه مصر باتجاهها خطوة تبدو وكأنها منفردة
بها وخارجة عن صف الأجماع العربي ، أما في حقيقتة تعبير
عما تخطو نحوه الحضارة العربية في اتجاه النضج .

شاب يقع فى غرام فتاة تختلف من أسرته ماديـا واجتماعيا ، أنه يرغب فى تأكيد هويته الجديـدة واستقلاله عن القيم التى تشربها من أسرته ، فيبحث عن صفات مناقضة لها تتجسد فى فتاة يسعى للا لتحـام بها بدافع الحب والرغبة التى تؤدى الى زواجه منها ، أنـه يرفض كل ما تشربه من أسرته بأن يؤكد ايجابية كـل مايرتبط بالقيم المناقضة والمتمثلة فى فتاته ، أنـه يضفى عليها الصفات الحميدة حتى وان لم توجد ، ويبالـغ فى تجميل ماهو موجود او اخفاء ماهو جميل .. وبعـد ان يحقق رغبته ويتزوج منها يكتشف بعد شهر (العسـل) عيوبها .

فتاة حافظت على عفتها فى أنتظار اللحظة المشروعـة فى ليلة الدخلة ، وكلما أقتربت اللحظة زاد شوقهـا ولهفتها ، وفى الوقت ذاته تزداد ميولها للتحكم والتأجيل فاذا أتت اللحظة المنتظرة وجدت حبيبها معقدا مغتصبـا يهجم عليها كالبهيم ، فخافت وأقشعر جسدها ، وفقـدت ما كانت تدخره من رغبة ، فصارت باردة كتمثال من الرخام فى مواجهة قوة وحشية تداهمهـا .

شاب يحلم بعروسة وبليلة الزفاف . وكلما لمسهـا أو تخيلها أنتفض جسده وسرى الدم فى عروقه وتوتـرت عضلاته وأعضاؤه . انه ينتظر لحظة الخلاص حينما يتمكن مـن ترك العنان لرغباته ، فيقبل على فتاته لينهل منهـا ما كان يحلم به طيلة فترة الأنتظار والقلق ، فـاذا ما أتت الساعة وجد نفسه وقد تجمد خوفا ، وأصابه الشـلل وكأنه لم يعد يريدهـا .

مجموعة من سيدات المجتمع المصرى لايكاد يكون لهـن

علاقة بالسياسة عدن بعد قضاء سهـــــــرة مرحـــــة
وفى الطريق شاهدن العلم الأسرائيلى يرفرف على السفـــارة
فتحول المرح الى حزن .
طبيب كبير عمل بالخارج ،وأشترك مع أطباء اسرائيليـــين
فى رعاية مرضى مشتركين. كان يشترى ملابس من محــــــل
ثم أكتشف أنها مصنوعة فى اسرائيل ،فتراجع عن الشراء .
أستاذ جامعى تخطره الظروف لاستقبال الوفود الاجنبيـــــة
يبحث عن عذر كلما علم أن هناك أعضاء اسرائيلين فـــى
الوفد ،واذا ما أضطر الى لقائهم أقشعر جسده .
عالم أجتماع يدرسمجتمعات الشرق الأوسط ومن ضمنها اسرائيل
وجد الفرصة متاحة أخيرا لأن يستكمل دراساته النظــــرية
بزيارة على الطبيعة ،فتردد .

* * *

فى كل الحالات نجد علاقة متخيلة ننتظرها ونفع فيهـــا
الأمال ،يعوضنا الحلم بها عن مرارة علاقات الواقـــــع
القائم ،حتى تأتى لحظة تحويل الحلم الى حقيقة فنجـــد
الآمال تنقشع ومرارة الواقع تعود حينما يكون الواقـــع
مريرا يسعى الأنسان الى تغييره ،وهو يفكر فى واقـــع
أفضل ،ويتخيله ،ثم يعود الى الواقع بغية تغييــــــره
ولكنه اذا شعر بالعجز ازاءه سواء لصعوبة فى الواقــــع
أو لقصور ذاتى يرجع الى الخيال .. ويتحول الخيال مـــن
مؤشر يرشد الواقع لأتجاه التغيير ،الى بديل عن الواقـــع
وحينئذ تتصف العملية بأنها عملية تخييل دفاعـــــــــى
تهدف لا الى تغيير الواقع ،ولكن القائه كما هو،بينمـــا
يستعيض الأنسان عنه بالخيال؛والتخييل يقوم بعملية الحماية
من ألم التعامل مع الواقع من موقع العجز ،ولكنه فـــى
ذات الوقت يبقى حالة العجز فتزداد الفجوة بين الأنســـان
وواقعه ،ويزداد العجز . ولهذا فهىعملية دفاع مرضيـــة

لاتؤدى الى تفاعل الأنسان مع واقعه ،ولكن الى انسحابه منه .

الا أن الواقع بطبيعته هو السائد وبما أنه السائد فهو الذى فى النهاية يفرض وجوده على الأنسان فيعيده الى الواقع أو يقضى عليه ويفنيه .فالبقاء للواقع .اذا كان الواقع أيضا بطبيعته متغيرا فهو يتغير بقوانينه وليس بقوانين الخيال ،فالخيال تحكمه الرغبة النابعة من الذات ،بينما الواقع تحكمه علاقات الموجودات وقوانينها الذاتية التى هى هدف المعرفة .

فالشاب الذى يريد أن يتزوج من فتاة لأنه فقط يريد أن يؤكد ذاته ولو بدفن التصور الذى يعيه مفروضا عليه من قبل أسرته لذاته ،لايختار الفتاة لذاتها ،ولكن للقدر الذى حقق له فرصة التعبير عن ذلك النفى .. مادام تصوره الأساسى لوجود هوية مستقلة له منبعه نفى وليس أيجابا ،هدم وليس بناء ،فهو تصور مبنى على جانب واحد من الواقع فكل مايطلبه من فتاته أن تكون ذات صفات مخالفة لما يراه الشاب فى أسرته ،فاذا كانوا من السنة اختارها من الشيعة واذا كانوا من أنصار الأهلى أختارها من أنصار الزمالك وهكذا . وهولايعجب بالشيعة لصفاتها أوبالزمالك لصفاته ،ولكن لأنها مناقضة لما نشأعليه ويرفضه لأنه يتوحد مع نقيضه ليعاونه على الوعى بذاته ،كنفى لما كانت عليه نتيجة التربية ،أنه يرفض أسرته وفى ذات الوقت يرفض نفسه كما كانت عليه . وبما أنه ينظر الى أسرته والى ماكان عليه بالسالب ويتخذ منهما موقف الرفض ،فأن الصفات الأيجابية كلها تضفى على المحبوبة ،والمحبوبة أصبحت جزءا منه ،أنه يمجد ما فيها من صفات منافية لصفات أسرته وصفاته الماضية.

ولكنها على أية حال صفات أصبحت تخصه هو بحكم توحده معها ، أنه ليس سيئا مثلما كان أو مثل أسرته ، بل هو جيد مثل محبوبته التي يراها امتدادا له .

ولكن شهر العسل يمر ، وهو يمثل تلك الفترة التي يستمر الانسان فيها عائشا في الخيال وبعيدا عن الواقع : بما أنه يتخيلها و بالموجب - جميلة ورقيقة وفاضلة - فهي لاشك كذلك . الا أنه سرعان ماينتهي مفعول الرغبة الجامحة التي كانت تدفعه لتخطي الحواجز، حتى يقترب منها وتخمد الثورة التي كان بواسطتها يرغب في تأكيد وجوده المستقل بنفي وجوده السابق المبني على التبعية لاسرته وبعدها تعود ذاته القديمة لتؤكد وجودها ، ويكتشف ان الصفات التي كان يعتبر أنها ويسعى لنفيها هي جزء منه .

ويبدأ في الصلح معها وتقبلها ، حتى تفقد الصفة السالبة التي كان قد أضفاها عليها . وبعد ذلك لايعود في حاجة لان يضفي الصفات الموجبة على محبوبته ويبدأ في رؤية صفاتها على حقيقتها فيرفضها وينظر اليها بالسالب على أنها عيوب ، انه يكتشف عيوبها بعد أن كانت محجوبة عنه ، لابحكم غيابها ولكن بحكم تخيله لها على أنها محاسن وصفات موجبة .

واذا ما تمادى في اضفاء الصفة السلبية عليها واجه حياة معذبة لايتحملها .

وبدافع الرغبة في الصلح مع الواقع ، وبعد أن يصفي المعركة مع محبوبته ، يعود مرة ثانية الى اعادة تقييم الواقع وقبوله ، وينظر الى صفاتها بموازين أكثر اعتدالا ، لاهي مبالغة في الايجاب ولافي السلب ، فهو يقيم مزاياها وعيوبها بالقدر الذي يستطيع معه فعلا أن ينمي من المزايا ويسعد ويقلل من العيوب وتحملها .

والذي يحدث في حالة مثل هذا الشاب ، أن الاعتدال المنشود يتحقق بالقدر الذي تكون فيها نقط البداية متطرفة في حدود أن

الرفض القاطع لواقعه السابق الممثل في أسرته ،يجعل القبول القاطع للنقيض ينبني على تخييل ،والتخييل يضاعف من الأبتعاد عن الواقع ولايقربه ،ولذلك فأن اصطدام هذا الشاب مع الواقع حتمى وعنيف . وعندئذ قد يطلب المعونة لكي ينجح في العودة الى التعامل مع الواقع أي يصبح مريضا في حاجة الى علاج .

وكذلك الحال عند الفتاة أو الفتى الذى يفاجأ بالشلل العضوى والعاطفى في ليلة الزفاف والفارق في البعد الزمنى " الفجائية الحادة في تلك الليلة ،وأطار التعبير" الجسدى على المستوى الاجتماعى فان مجتمعنا المصرى بدوره يبحث بأستمرار عن هوية جديدة ،يؤكد بها أستقلاله عن أمتداده الزمنى في الماضى التاريخى وأمتداده المكانى في الحاضر الجغرافى ،أنه يملك تراثا تاريخيا طويلا ،يبدأ من عصر الفراعنه ،مارا بالأقباط والعرب والمسلمين ،كما يملك أرتباطات تمتد جغرافيا عبر العالم العربى والأسلامى ،والى حد ما الأفريقى والآسيوى وهو اذ مر بفترة تعامل مع عالم خارجى غربى كان يسيطر عليه في الحقبة التاريخية الماضية .

فقد قبل هذا التعامل مع الغرب ،وتحمله بأن أضفى عليه الصفات الأيجابية ،ونفى هويته الأصلية في أمتدادها الزمانى والمكانى ،فقد فصل نفسه عن أمتداده الجغرافى بأن أنفصل عن الأمة الاسلامية التى وصلت في شيخوختها الى الشكل الذى باتت عليه الأمبراطورية العثمانية ،كما فصل نفسه عن ماضيه (وسبقه فى ذلك منبع الأمبراطورية العثمانية ذاتها وهو تركيا) بنفى تراثه الاسلامى علاوة على التراث العربى ،ولم يجد غضاضة في التمسك بالهوية الفرعونية مادامت هذه تحقق هدف الأنفصال عن الأمداد الجغرافى لهويته العربية

والاسلامية ،علاوة على أنها لم تكن تمثل تهديدا حقيقيا للشكل الجديد الذى كان يسعى لتقمصه .وهو الهوية الغربية ولقد سعى المجتمع الى التوحد مع المعتدى – وهو النمط الغربى – ليخفف من وطأة أعتدائه عليه ،فصار يبالغ فى الصفات الحسنة للمجتمع الغربى والحضارة الغربية ،لقد لبس لبسه وأكل أكله وأستخدم منتجاته ،بل أخذ يتحدث لغته ويفكر تفكيره ،فالأنجليز هم سادة العالم ،وكان يشرفنا أن نتشبه بهم ،وهم سادة لأنهم يتصفون بصفات حسنة مثل العلمانية أو التصنيع أو النظام أو الديمقراطية أو الاشتراكية وغير ذلك .

ولكن الافراط فى الصفات الحسنه والتمجيد من مظاهر التخييل الذى يسعى الى تخفيف وطأة الم الواقع ،فلا يعبر عن تقييم سليم للواقع يسمح بالتفاعل معه وتغييره ،فهنا يفرض الواقع نفسه وتظهر الصفات السالبة ،فيتحول الانجليز الى مستعمرين ومعتدين ،ويضعون يدهم فى يد فرنسا واسرائيل لأعادة الوضع القديم ،وبفضل أختلاف بقية العالم الغربى على (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى) على الغنيمة واصرار مصر على تأكيد استقلالها ،لم يكلل لها النجاح وتستمر الصورة السالبة للمجتمع الغربى ،وتزداد تجسيدا وكلما أزدادت مشكلتنا ازداد ميلنا لأسقاط المساوئ عليه فالغرب برمته استعمارى متسلط مستغل ،واسرائيل هى التجسيد لتلك الصفات ،بينما يزداد الميل من جانبنا للتمسك بالتقييم الموجب لذاتنا ،فمصر الأمة العريقة ذات التاريخ أصبحت القائدة لحركة تحرر الدول العربية والاسلامية والافريقية والآسيوية على السواء .

وتأكد انتماء مصر فى ١٩٧٣ الى ذلك العالم فى ذات الوقت الذى تؤكد فيه أستقلالها عن الغرب فقدت طردت الخبراء الروس ولم تعد تعتمد بعد على السلاح او الخبراء الاوروبيين او الامريكيين

وعند قمة ذلك النصر يصبح الظرف مواتيا لتعيد مصر تقييم الأمور ،فقد مرت مرحلة شهرالعسل مع العالم الثالث ،و حققت أستقلالها عن العالمين الأول والثانى وأصبح ممكنا أن تعيد علاقاتها مع الغرب من موقع جديد •

وتنقلب الآية ويصبح الغرب حسن الصفات بينما يكتسب العالم الثالث بعض الصفات السلبية ،ويبدأ ذلك اللقاء مع الغرب فى صورة الأنفتاح ،ثم اللقاء المباشر مع تجسيد الغرب فى واقعنا الجغرافى فى صورة الوجود الأسرائيلى ،هذا هو شهر العسل الجديد •

ان أنتماء مصر للعالم العربى أساسا والعالم الاسلامى والأفريقى والآسيوى ،كان مصحوبا بزيادة مطردة فى الاعتمادية ،فأموال بتروله التى ينفقمنها على المصريين العاملين داخل مصر وخارجها ،مقابل قوتهم الأنتاجية والعسكرية ،أصبحت سندا قويا لمصر ،وفى ذات الوقت أداة للضغط عليها ،وكان التعامل الوحيد الذى يسمح لمصر أن تمارسه مع الغرب هو من خلال الأمة العربية وليس بدخولها مباشرة مع الغرب ،فمن حق العرب أن يستثمروا أموالهم فى البنوك الغربية ويستوردوا بضائعهم من الغرب (وهى نفس المصادر التى تمون من خلالها اسرائيل ،وبعض البضائع مصنوع فى اسرائيل فعلا ولكن بأسماء غربية) وينعموا ببعض الفضلات على مصر ،ولكن هيهات أن يكون التعامل مباشرا بين مصر والغرب ،ولهم أن يقرروا مصير أموالهم لشراء أسلحة لاسرائيل (عن طريق المعونات التى تتلقاها أسرائيل من الاموال الغربية التى تضم أموال العرب) ولشراء أسلحة لمصر عن طريق الدعم العربى المباشر) شريطة ان تستخدم تلك الاسلحة لتدمير بعضها

ومستخدميها من جنود مصر واسرائيل ،فالمهم أن يستمر قتالهما بما يشغلهما عن التحول نحو الممول ذاته الذى لاينالهم منه الا الفتات ،بينما تتسرب أغلبية أمواله الى الغرب . فمصر هى التى بادرت منذ ١٩٥٢ بالسعى نحو تحقيق الأستقلال والعدالة الأجتماعية والحرية داخلها ثم نشرت تلك الدعوة خارجها ،ثم أخيرا أجلتها مؤقتا الى حين تحقيق هدف أسبق :وهو تحقيق العدالة بين دول الامة العربية وربما الأسلامية والأفريقية والآسيوية وكان هذا الهدف مؤجلا مادام يوجد عدو صنع خصيصا لأمتصاص طاقة مصر وتوجيه معركتها بعيدا عن المعارك داخل الأمة العربية ،فما بال الحال الآن وقد أغلقت مصر ذلك الباب لاستنفاد طاقتها ،بل ربما وجدت مع ذلك العدو قضية مشتركة ،وهى قضية عدالة التوزيع بين المجتمعات المنتجة العاملة والمنتجات المالكة المستهلكة .

ولكن هذه الرؤية المستقبليه لم تكن هى الغالبة على اقدام مصر نحو التعامل مع الغرب الذى يمكن اعتبار اللقاء مع اسرائيل هو قمة التجسيد له . ولكن الذى كان غالبنا هو ذلك التمجيد المبالغ فيه لمزايا الغرب والمبالغة فى وضع العرب ،ولذلك كان أقبال مصر على ذلك اللقاء أقرب الى رومانسية شهر العسل .

ولهذا كان الترحيب بمبادرة السلام قويا بل مبالغا فيه . ثم أتت فترة ترجمة التخييل الى واقع بالتعامل المباشر مع اسرائيل والبحث التنفيذى عن نقط التقاء المصالح ،فعادت ارتباطات الماضى وعاداته تفرض نفسها علينا ،وخاصة ان تلك الارتباطات مازالت موجودة فى صورة الملايين من الدولارات التى يدخلها العاملون المصريون الى مصر من الدول العربية . وأن الاعلام العربى

وليس العبرى هو الذى مازال يخاطب المصريين ،مثلما يخاطب الأعلام المصرى فى مخاطبة العرب أكثر مما يخاطب الاسرائيليين .

وتتضح من هنا استجابات التشكك والتخوف التى نجدها اليوم بين المصريين من المثقفين وأبناء الطبقة المتوسطة ازاء محاولات التطبيع التى تسعى اليها اسرائيل ،رغبة منها فى تأكيد أن السلام سلام مصر كشعب ،وليس كدولة فقط ،والمشكلة أن مصر كشعب جزء من الامة العربية أولا أن لم تكن من الأمة الاسلامية الأفريقية والآسيوية .

كما يحمل الافراط فى التفاؤل فى طبيعة العلاقة مع اسرائيل طابع التخييل البعيد عن التقييم الموضوعى للواقع أنه كشهر العسل ،ومن المحتم أن تتبعه خيبة أمل ورد فعل فى شكل افراط مضاد فى التشاؤم . والنتيجة أن نخسر ما كان يمكن أن يعود علينا من فوائد السلام ، دون أن نحتفظ بما كنا نستفيد منه من وجود حالة الحرب . كما نفقد القدرة على التعامل مع الواقع كما هو مستمرين فى تمسكنا بالخيال .

والمطلوب الآن هو السعى لرؤية الواقع كما هو ، فليس الأمر هو أمر الموافقة على السلام أو كامب دافيد أو التطبيع من عدمها ،فهذه كلها أمور واقعة وموضوعية كالليل والنهار والقمر والشمس ،فكلها موجودة بغض النظر عن كوننا نوافق عليها أو نرفضها ، ولكن المطلوب البحث عنه هو كيف نستطيع أن نحول هذا الواقع الى ما يعود بأكبر فائدة علينا ،فأين النقاط التى تلتقى فيها مصالحنا مع مصالح غيرنا حتى ولو كان الشيطان على حد تعبير تشرشل ؟ وأين النقاط التى تتعارض فيها مصالحنا مع مصالح الآخرين حتى ولو كانوا

ملائكـــــة ؟

فالضمان الوحيد لتكاتف الآخر معى هو أن تلتقي مصلحتـــه مع مصلحتى فى نقطة التحالف ،فلا الاتفاقيات ولا المعاهدات ولا النوايا الحسنة ولا الماضى المشترك او اللغة او الديـــن امور تكفى وحدها لتوطيد العلاقات بين الاطراف المختلفـة. والعالم ملىء بالشواهد التى تؤكد ذلك ،وعليه فليس ماهـو مطلوب الآن نظرة رومانسية تصور ان عدو الامس حبيـــب اليوم اوالعكس . ولكن نظرة واقعية تبين اين تلتقـــى مصالح الاعداء ،وتفترق مصالح الاصدقاء ،وينتهى تفـــاؤل شهر العسل وتشاؤم مابعد شهر العسل ،ويبدأ التعامـــل على اساس العقل المتزن الذى يقيم الواقع كما هـو وليـس كما يخيل .

واذا كان لقاء مصر مع اسرائيل يمتلك من جوانـــب ايجابية ما يجعله ينتج ما يحقق صالح الطرفين، فلعـــل البحث عن تلك الهوية الجديدة من بين هذه الاهداف الايجابيـــة المشتركـــــــة ،فهل مصر دولة عربية ترتبـــط ارتباطا وثيقا ببقية الامة العربية ولامكان فيها لحضارة غربية ؟ او هل تستطيع ان تستوعب الحضارة الغربية التـــى تتجسد ماديا فى صورة الوجود الاسرائيلى وبالذات الاشكنازى؟ او هل مصر دولة فرعونية منفصلة عن امتداداتها الجغرافية الحالية ،وبالتالى يمكنها ان تنعزل عنها وتنشئ علاقـــات ثنائية مع الغرب ومع اسرائيل بالتحديد ؟ وهل مصـــر أمة اسلامية تحلم باستعادة امجاد الماضى ومد وجودهـــا عبر حواجز اللغة العربية الى الدول الاسلامية جميعا؟ اوهـل هى دولة عالمية تستطيع أن تنتمى الى الغرب وتتعـــاون مع اسرائيـــل ؟

قد لانجد صعوبة فى الاتفاق بالايجاب حول كل ســـؤال ما ولكن الصعوبة تأتى عند التنفيذ ووضع الاولويات ولعل المحـك

الذى يمكن أن نلجأ اليه للاحتكام هو المدى الذى تخدم فيه الأجابة مصالحنا سواء المباشرة أو البعيدة ، فالأنتماء العربى مطلوب وممكن ولكن يلزمه قبل أن يتم تأكيد الشخصية المصرية المستقلة والممثل رمزيا بالأنتماء الفرعونى والأنتماء الأسلامى ضرورى وممكن أيضا ، ولكن القفز اليه دون عبور الحواجز الأولية المانعة عنه بواسطة تأكيد الأنتماء المصرى أولا والعربى ثانيا هو مظهر من مظاهر التخييل الذى يبعدنا عن الواقع المباشر . والانتماء العالمى والغربى مطلوب وممكن أيضا ولكن ليس على حساب مايسبقه من دوائر مصرية وعربية وأسلامية .

واذا نظرنا من منظور الصراع مع الاعداء ، فانهم عندما يخيرون بين تأييد أو مقاومة أحد البدائل ، فسوف يخشون ما هو ممكن وقابل للتحقيق الفورى فى الواقع والذى يشكل خطرا حقيقيا عليهم ، ولعله فى هذه الحالة الانتماء المصرى الذى يعطى مصر القدرة على وضع مصالحها فوق مصالح العدو والصديق على السواء ، ولكن الأنتماء المصرى فى جوهره لاينفى دوائر الأنتماء الاخرى ، وعند هذه النقطة فقد نجد تأييد العدو يأخذ شكل التأييد للأفراط فى الانتماء المصرى الذى يفصلنا عن بقية العالم العربى والأسلامى ، أو قد يأخذ بدلا من ذلك شكلا مناقضا وهو الأفراط فى تأكيد الأنتماء العربى أو الأسلامى أو الغربى على حساب الدائرة المصرية ، فالممكن هو تقوية الجبهة المصرية ، وهذا هو الخطر المباشر ، أما الدائرة العربية فهى أقل خطرا والدائرة الأسلامية ايضا ، وكذلك الدائرة الغربية .

ولعل التحدى الذى يواجهنا اليوم هو هل نستطيع أن نؤكد شخصيتنا المصرية كند ، وليس كتابع ؟ . وكوحدة تتفاعل

مع الدوائر المختلفة دون أن تذوب فيها وتفقدشخصيتها وأن نعى مصالحنا ونحققها بدلا من أن نكون أداةلتحقيق مصالح الغير ؟ وهل نستطيع أن نقترب من الواقع ونبعد عن التخييل ،ونتعامل مع الواقع كما هو وليس كما نتمنى أن يكون ،فنتعامل مع الغرب ومع العرب ، ومع اليهود ومع المسلمين على السواء ؟

وهنا تتضح لنا بعض جوانب تلك الأزمة التى تحدث عندما يلتقى المثقف وابن الطبقة الوسطى بمثيله الأسرائيلى ،فربما كان الذى يعتقد أنه قد توحد مع الغرب بأن أستخدم منتجاته (دون أن يعرف أن يصونها ناهيك عن أنتاجها) وأخذ ببعض أفكاره (دون أن يترجمها الى فعل يؤثر فى واقعه وربما لم يترجمها الى لغته العربية أصلا)قد يجد فى المواجهة - هويته الغربية سطحية وزائفة بالمقارنة مع زميله الاسرائيلى، وعندئذ قد يسرع نحو بحث زائف عن هوية مناقضة، فاذا ما كان عربى الأنتماء دون أن يكون ذلك الأنتماء راسخا وقويا فقد يخشىأن يكون مجرد حواره مع زميله الأسرائيلى تخليا عن عروبته ،وخاصة اذا لم يكن لديه من الحجج القوية فى الدفاع عن عروبته مايحول ذلك الحوار من تخل الى دفاع ،واذا كان اسلامى الانتماء فقد يخشى أن يواجه حقيقة أنه لايختلف مع زميله الاسرائيلى الا فى أسم الدين الذى يجب أن يسيطر على الدولة ، فكلاهما يتفق على اخضاع المواطنه للهوية الدينية وتبعيتها لها ،واذا كان أنتماؤه مصريا فقد يخش فى مواجهة زميله الاسرائيلى أن يكتشف أنه مثله يهدف الى العزلة عن المحيط الجغرافى الذى يتواجد فيه كل منهما .

ولذلك يجد المثقف المصرى مبررا للابتعاد عن

مواجهة مثيله الأسرائيلى ،ويخفى وراء مثل هذا الموقف
خوفه وسلبيته غالبا ،فلا غبار على الموقفالسياسى اذا كان
معبرا عن أتجاه عاموممنسق ،كموقف بعض النقابات
وما دام يهدف الى تحقيق هدف مثل الضغط على اسرائيل
لربط التطبيع بالتقدم فى مفاوضات الحكم الذاتى ،ولكن
الذى نشير اليه هنا هو تلك المواقف الفردية التى لاتعكس
الا الأزمة النفسية المزمنه التى يعيشها كثير من المثقفين
فى مصر ،والمرتبطة بعزلتهم عن العمل العام ،فهذه
مواقف عقيمة لاتكاد تؤثر على الواقع ، اللهم أن كان
بالمحافظة عليه ،مثلما لاتؤثر فى صاحبها ، اللهم
أن كان بالابقاء على ركوده ،وتبرير جموده .

الصقور والحمام والسلام والكلام

خمس دقائق من لقاء صقرين

يتناغم الحمام بالكلام عن السلام
وتطير الصقور بعد أكل الطعام
تاركة سلام
بلا كلام.

الصقور لاتريد أكل بعضها بل تريد أكل الحمام ، وهي حينما تريد أكل الحمام فهي لاتريد القضاء عليه بل أن تبقى عليه لتأكل منه لكي تشبع . ولكن اذا كثرت الصقور وقل الحمام بدرجة لاتشبع الصقور ،تقاتلت الصقور أو ماتت جوعا .

كان هذا جوهر بدء الحوار بين الدكتور ابراهيم البحراوي والسيد/الياهو بن اليسار سفير اسرائيل فى مصر عام ١٩٨٠ . نعم ان الحمائم تكثر من الكلام عن السلام . ولكن الصقور هى التى تستطيع أن تحقق السلام . فالذى يستطيع أن يقتل هو الذى يستطيع أن يكف عن القتال . والذى يخاف من أن يقتل (بضم الياء) لايستطيع أن يمتنع عن القتال اذا ماهدد بالقتل ،كما أنه لن يستطيع أن يحقق السلام بمجرد مناداته به .لكن الصقور هى التى تصنع السلام .

وتقول سيمادار بيرى مراسلة صحيفة " عل همشمار"اليسارية أنها ليست يسارية رغم الصحيفة بل أنها أميل الى اليمين وهى مع هذا تدافع عن السلام . وكذلك شمعون شامير استاذ التاريخ بجامعة تل ابيب يصف لقاءاته التلقائية مع المقاتلين المصريين وكأن اثنين كانا أخوة فى مجابهة الموت ثم ولدا من جديد ليشتركا فى حب الحياة . ان مصر أنتصرت سياسيا

فى حرب ١٩٥٦ رغم الهزيمة العسكرية الساحقة حيث لم يجابه الجيش المصرى اسرائيل والقوات البريطانية الفرنسية المشتركة . فالذى قاوم العدوان حينذاك فى الواقع هو الشعب والقوات الخاصة من الجيش . ومع ذلك ، بل لذلك ، فقد كانت مصر السياسية حينذاك كفيلة برد آثار العدوان باستثناء بعض المكاسب لاسرائيل ، أهمها حق المرور من مضيق تيران عند شرم الشيخ .

كانت قوة مصر السياسية مستمدة من قدرتها على اللعب بالتوازن بين القوتين العظميين : الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة .

لقد واجه الصقر العسكرى الاسرائيلى الصقر السياسى المصرى . ولانهما كانا صقرين استطاعا أن يحققا السلام مع بعض التنازلات المتبادلة ، بما فيها الا يكون السلام دائم بل مجرد هدنه . فلا اسرائيل تخلت تماما عن أحلامها التوسعية . ولا مصر تخلت تماما عن أحلامها بتحرير أرض فلسطين من قبضة اسرائيل .

ولكن فى ١٩٦٧ كانت الهزيمة لمصر عسكرية وسياسية فى آن واحد . والصقر الاسرائيلى قد جرح الصقر المصرى وان لم يقتله . وتحول الصقر الى شبيه الحمام : لايقاتل ولكنه يستطيع تحقيق السلام . فالحمام لايحقق السلام ولكن يحلم به . والحمام طالما هو حمام لامقر له من أن يغرى الصقور على أكله . لاسلام اذن بين صقر وحمام . والصقر المجروح شبيه بالحمام .

لكى يتحقق السلام إذن ، وجب أن يستعيد الصقر صقورته بأن يضمد جرحه ويسن أسلحته ويتأهب للعدوان . واستعادت مصر قوتها من جانب بأن بدأت فى التصعيد بحرب الاستنزاف ومن جانب آخر بأن وضعت يدها فى يد المقاومة الفلسطينية التى كانت فى بداية تلك الفترة هى القائد الحقيقى لروح

المقاومة العربية للإهانة الغربية المجسدة فى النصر العسكرى والسياسى الاسرائيلى .

وكادت تنجح المهادنة بين الصقور عند قبول مبادرة روجرز، الا ان التماثل بين الجانبين المصرى والاسرائيلى لم يكن متساويا بعد . فقد كانت اسرائيل هى القوة العسكرية التى لاتقهر (حسب اعتقادها انذاك) وكانت مصر دون تحقيق القوة السياسية التى تستطيع ان تجمع العرب والعالم الثالث لمجابهة القوتين العظميتين . فقد كانت مساندة الاتحاد السوفيتى وحده قاصرة عن تحقيق القوة العسكرية اللازمة التى تحسم النصر لصالح مصر . كما كانت مساندتها السياسية عاجزة عن ان تجلب نحوها مزيد من دول العالم العربى ناهيك عن العالم الثالث . فقد كان العالم الثالث بما فيه دول العربية مفككا بما يجعله ينذر بالوقوع فى تقسيمة لمناطق سيطرة بين القوتين . ولم يعد هناك مايوحد هذا العالم فى جبهة تواجه القوى العظمى او تجرى معه التفاوض . بل اصبحت كل مجموعة تقع تحت سيطرة احدى القوتين . وغابت القوى الزعمة لمثل هذا الاتجاه بان ضرب النظام الاندونيسى والغانى من الداخل وضربت مصر من الخارج والمسالة مسالة وقت قبل ان ينتهى نظامها من الداخل .

لقد فقدت مصر قوتها ازاء الولايات المتحدة ووجدت نفسها واقعة تحت رحمة قوة الاتحاد السوفيتى وكان عليها عندئذ ان تثبت قدرتها على تأكيد التفوق العسكرية بدون المساندة السوفينية وقيادة الجبهة العربية ،بل والعالم الثالث ،رغم تفتت ولائه بين القوتين . وكانت القضية الوحيدة التى تمكن مصر من تحقيق هذين الهدفين هى الصراع العربى الاسرائيلى . فبادرت بهجوم اكتوبر ١٩٧٣ الذى حقق لها النصر المعنوى قبل النصر العسكرى بأن اكد ان الجيش الاسرائيلى ليس بالذى لايهزم وحقق النصر السياسى بأن وضع مصدر الطاقة

فى العالم وهو البترول العربى تحت أمرته . وفى ذاتالوقت فهو لم يحقق الهزيمة تماما للجيش الاسرائيلى ولذلــــك كانت المواجهة بين صقرين . الصقور لاتريد أن تأكــــل بعضها ولكن تريد أن تأكل الحمائم . ولذا كان لابـــــد للصقور أن تتوقف عن تجريح بعضها وأن تلتفت للحمائــــم فالحمائم كثيرة وتغرى بالأكل . واذا كان يراودها أن تقلد الصقور فتأكل بعضها البعض ،فلنتركها حينا حتـــى تنهك قواها ثم نأكلها بعد ذلك . ولكن ماجدوى أكـــل حمام متهتكوجائع . أليس من الأفضل أن نمنعها مـــــن الأقتتال ؟ وليكن ولكن مادامت هى ليست تحت امرتنــــا وتظن أنهاصقـــر مثلنا وتريد أن تجرب الاقتتــــــال فلتجرب حتى تتيقن أن عليها أن تحقق السلام بينهــــا مثلما فعلنا نحن . وأن النصر العسكرى الحاسم لن يرجح لطرف دون طرف . فمادامت الصقور قد أتفقت على تقسيم مناطق النفوذ ووقعت السلام بينها فلن تسمح الصقور بأن تتغير حدود تلك المناطق الموزعة بينها . اللهم ان كان ذلك بما يمكن الأتفاق على وصفه بأنه ارادة الشعـــوب، فهل هى ارادة الشعب الأفغانستانى مثلا أن ينتقل الــــى منطقة النفوذ السوفيتية وهل هى ارادة الشعب المصــــرى أن يفعل العكس ؟ هناك أختلافات بين القوتين فى وجهـــة النظر وان كان الأختلاف حول مصر أقل وضوحا لأنها كانــت أقرب دائما الى السعى للتحرر من القوتين العظميــــــن أساسا مع المحافظة على قدراتها على مساندة كــــــل منهمــا .

ان مصر بصفتها المبادرة بالسلام والساعية اليه عليهــا أن تؤكد للعالم العربى ان السلام بينها أيضا ضرورى . فأقتتالها لن يحقق لها نصرا علىالصقر الاسرائيلى.واذا كان يمتاز بأنه لن يستطيع أنيحقق لهم نصرا على أى طرف

بينها . فالدول الكبرى لن تسمح بإعادة توزيع الحدود بواسطة القوة العسكرية . بل الواقع أنها تسمح بذلك لاسرائيل فقط . وبالتالي فأن اقتتالهم مع اسرائيل يعيبه أن هناك احتمال أن يفقد المزيد من أراضيهم بينما اقتتالهم مع بعض لن يكسبهم شيء . ومن جانب آخر فأن اقتتالهم سيضعف من جبهتهم للضغط على مصر بأن تعود لقيادة المعركة العسكرية مع اسرائيل مرة أخرى .

فمصر قد أختارت السلام . وهو أمر يصعب الرجعة فيه خاصة طالما أنه يخدم مصالحها . وعليها أن تقنع العرب أن قيادة مصر لهم هى قيادة من أجل السلام ورفاهيته فهى سوف تمتنع عن الدخول معهم فى معارك عسكرية بل ستسعى للدفاع عنهم ضد أى معتدى .

وهى بهذا تضع القدوة لاسرائيل لتحاول هى الأخرى أن تبادر بالعدوان ضد أى دولة عربية لأنها فى هذا الحال سوف تخسر السلام مع الجميع بما فيهم الولايات المتحدة . فالولايات المتحدة تفضل الولاء المباشر للدول العربية على الولاء من خلال وسيط وهو اسرائيل . وخاصة اذا كان هذا الولاء قد أتى بقوة السلاح مما يجعله ولاءا مؤقتا .

فالسلام بين مصر واسرائيل مرهون بألا يتم اعتداء على أى منهما على منطقة نفوذ أيا كانت . سواء كانت منطقة نفوذ عسكري سوفيتى أو مشترك مع النفوذ الأقتصادى الامريكى أو العكس أو توليفة بينهما .

فالتحدى المصرى الاسرائيلى اليوم هو حول امكانية أى منهما على قيادة المنطقة . فالعقلية الاسرائيلية كانت مبنية على ان القوة العسكرية كفيلة بتحقيق الأمن والسلام وحسم الصراعات . والعقلية المصرية حاولت ان تثبت عكس ذلك وان تؤكد أنها داعية للسلام رغم قوتها العسكرية وعلى ذلك فالتحدى يتمثل فى ان نجاح الدول المتناحرة فى

العالم الثالثي تحقيق نصر أوحسم صراع بواسطة القـــوة العسكرية وحدها .. هذا يمثل نصراً للعقلية الاسرائيليـة القديمة . بينما نجاح حل الصراعات بين دول المنطقــة بالطرق السلميـة . ولو بالمبادرات الفردية من جانب واحـد يمثل نجاحا للعقلية المصرية .

هل تستطيع مصر أن تعززالقيادات المؤمنة بالسلام فعـــلا سواء كمبدأ أو كتكتيك سياسي لتنادى بالسلام وتسعـــى لتحقيقه بادئة بالمثال الحى بينها وبين اسرائيل،وهـــو سلام لم يكن هناك من يتوقعه حتى قريب ،ومطبقة ذلك فـــى مواقفها المؤثرة لايقاف الأقتتال العربى والاسلامى بلوفـى العالم الثالث . لقد سبق أن نادت مصر بالسلام والحياد الايجابى حينما كانت تسمى القوة السياسية دون القوة العسكرية الحقيقية ليس وقتها الان أن تنادى بالسلام الأيجابى والحياد وهى تملك القوة العسكريـة والسياسية التى تمنع اسرائيل من التوسع بل تجعلها تتنـــازل عنه طواعية . فقد أيقنت مصر أن يد السلام الممتدة الـــى اسرائيـل أقوى من يد القتال وحدها . ولذلك مدت الاخيـرة أولا ثم الأولى . واذا كان هذا الدور يتم فعلا عن مبـــدأ وعقيدة، فالتحدى الكبير هو فى قدرة مصر على القيام بدور ايجابى فى حل النزعات بين الدول العربية والاسلامية بـــطرق سلميــــة .

ولعل اسرائيل تريد أن تحرم مصر من هذا الدور بأن تجعل السلام معها مجرد عملية تكتيكية مؤقتة هدفها عـــزل مصر عن أنتمائها العربى والاسلامى ،وأخراجها بموقف العاجز الذى لم يستطع الا أن يخرج من المعركة بجلده متناسيا رفاقـه الفلسطينين أولا والعرب ثانيا والمسلمين ثالثا ودول العالـــم الثالث رابعـــا .

واذا كانت ذلك هى سياستها الخالية فلعل فى ذلك قصـــر نظر قد يمكن اصلاحه بمواجهتها بذلك والتحدث معها بمنطـق

المصلحة الأسرائيلية وليس بمنطق المصلحة العربية .فاسرائيل لابد أن تدافع عن المصلحة الاسرائيلية أولا وهذا مفهوم . والمصلحة الاسرائيلية فى الأمد الطويل لن تأتى من خلال اضعاف مصر وعزلها عن أنتماءاتها المختلفة وحرمانها من دور الدولة القائدة والمدافعة عن المنطقة . قد يكون هذا مكسب تكتيكى مؤقت لها . ولكن مالذى سوف تجنيه اسرائيل من مصر ضعيفة عاجزه فقيرة ؟

وعلى هذا فلابد للمثقف المصرى أن يبادر بالدفاع عن السلام الشامل وهو دفاع يكتسب صدق حجته بممارسته .فالسلام الشامل مهما كان لابد وأن يبدأ بخطوة . والخطوة هى فرصة الحوار المثقف بين الطرفين المتصارعين التى تتوفر اليوم بفتح الحدود وأمكانية اللقاءات المباشرة بين المثقفين من الطرفين . وهو حوار شامل بالقدر الذى لايتسبب حدوثه فى قفل الآذان للحوار المصرى العربى . واذا كان الحوار المصرى العربى متوقفا اليوم أو متعثر ،فهناك باب مازال مفتوحا أمام المثقف المصرى وهو الحوار المصرى الفلسطينى . فالحوار الرسمى بين مصر وفلسطين يكاد يكون مقطوع على الأقل فى العلن . بينما الحوار مع الشعب الفلسطينى داخل الأراضى المحتلة واسرائيل نفسها مفتوح تماما لولا احجام المصرى عن عبور الحدود بحجة أن فى ذلك رضوخ لطلب اسرائيل بالتطبيع .

فالحوار الاسرائيلى الفلسطينى على المستوى المثقف يسبقه بمراحل . فالفلسطينين فى الضفة وغزة يجرون حوارا مع المحتل الأسرائيلى وهو لايختلف كثيرا عن حوارهم مع الحكم العسكرى أو القبلى سواء من مصر أو الأردن . والأنتخابات التى جرت فى الضفة أبان الاحتلال الاسرائيلى هى التى وضعت القيادات الحقيقية فى مواقع القيادة على عكس الانتخابات اثناء حكم النظام الاردنى .

أن لقاء الصقر المصرى والصقر الاسرائيلى يستوجب اشراك الصقر الفلسطينى لكى يتم الحوار .

والصقر الفلسطينى أظافره خارج أرضه تسلسلها الأنظمة العربية المتحدثة عن القتال مع الصقر الأسرائيلى والعاجزة عنه والمستبدلة به الأقتتال فيما بينهما ناهيك عن قتل الصقر الفلسطينى .

كما ان الصقر الفلسطينى الجريح لابد وأن يطلق سراحه وذلك بعد التئام جراحه . فهو وحده القادر على جعل السلام المصرى الأسرائيلى سلام شامل ويجمع الأمة العربية حول مصر ومعها .

ولكى تحقق الصقور ماتنادى به الحمائم من سلام لابد أن تكون الصقور صقور . والصقر الفلسطينى مهما أصابه من تقليم لأظافره فهو مازال يملك منها على مستوى القوة السياسية والمعنوية بلوحتى العسكرية مايجعله قادرا على الغاء قرار السلام أو تحقيقه . واذا كانت الدول العربية قد حاولت تقليم أظافره فليس هناك الا أن تقوم اسرائيل مرة بمبادرة من جانبها وتعلن أعترافها به .

فوجود الصقر الفلسطينى الطليق لاالجريح ،فى حوار مع الطرفين المصرى والاسرائيلى هو الأمل الحقيقى لتحقيق السلام .والمثقف المصرى عليه أن يبادر بدوره بمد يد التعاون مع الشعب الفلسطينى مباشره حيث يوجد ،على مايملك من أرض ،لا الاكتفاء بالتأييد بالكلام للمناداة بالقتال دون قتال على أى مستوى سواء من جانبهم أو من جانب لمنادين اللهم ان كان القتال بين بعضهم وبعض .

والتعاون هنا أن يشتركوا كطرف ثالث فى الحوار الدائر بينه وبين الصقر الأسرائيلى .

معاناة مواطن اسرائيلى شريف

٩

أيها الصديق: انى متألم لما يحدث فى بلادى، فى اسرائيل. يؤلمنى أكثر أن أخوانى فى مصر لايقدرون ألمى. ويضاعف من ألمى أكثر وأكثر أنك أيضا فيما يبدو لاتقدر ألمى، كما كان عشمى. فقد التقيت معك فى مؤتمر ما منذ عدة شهور حضر معنا أمريكيون وغيرهم والتقينا منذ البداية بأسرع وأعمق مما حدث بين أى منا وبين أخواننا الأمريكيين سواء المحايدين منهم أو المتحيزين لاسرائيل من اليهود .. فقد تشاطرنا الدهشة منذ لحظة الافتتاح أن الطرف الحقيقى فى الصراع والقائد الأصلى للجلسة كان غائبا ومجهولا الا وهو الطرف الفلسطينى

فصراعنا الذى نحن بصدد تصفيته على المستوى العسكرى كان يدور أولا وأخيرا حول حقوق الفلسطينين. وصراعنا مع مصر لم يكن مع مصر كجارة ضمن الجيران، ولكن كممثل لهم جميعا وناثب عنهم. فأننا نعلم أن مصر تستمد قيمتها، بل أمنها ووجودها من تربعها على موقع القيادة للأمة العربية والأسلامية، بل والدول الاسيوية والأفريقية والعالم الثالث. ونعلم أن مصر حينما تبادر للسلم فأن ذلك يكون بمثابة القدوة التى تؤذن بميلاد تحول تاريخى فى المنطقة وبالتالى فى العالم أجمع، والذى أصبح فى حالة أعتماد على ماتقدمه هذه المنطقة من طاقة، والطاقة ليست مادية فى المقام الأول فيما يتعلق بالمنطقة لما تملكه من نفط. ولكنها معنوية وبشرية فيما يتعلق بمصر لما تملكه من حضارة وفكر.

لقد أشتركنا فى رؤية أن السلام هو سلام المنطقة بل سلام العالم وليس مجرد سلام ثلاثى بين مصر واسرائيل

وامريكا . وان مفتاح السلام هو مرور الشعلة بالفتيل قبل ان تصل الى القنبلة ، القنبلة التى تعلن السلام . فمصر هى الشعلة وفلسطين الفتيل والامة العربية هى القنبلة وقدكان موقف اخواننا الامريكيين انه يكفى ان تتصالح الاطراف الثلاثة فاذا غضب طرف رابع وهو فى هذه الحالة الامة العربية ـ فليس الا ان يضطلع احد الاطراف ، منفردا برأب الصدع ، وكأننا نحمل مصر المسئولية وحدها . ولكن كيف للشعلة ان تصل الى القنبلة دون أن تمر بالفتيل ؟ وكيف يتأتى لمصر ان تتواصل مع الدول العربية ما دامت عاجزة عن حل القضية التى أجتمعت حولها المنطقة وهى القضية الفلسطينية ؟ هذا ما نافطنا اليه وتجاهله أخواننا الامريكيون .

وكان كلامنا منطقيا وعاقلا : وهو اذا كنا نريد أن يستمر وجود اسرائيل فى سلام فى المنطقة ، فأن ذلك لايعنى مجرد تحييد مصر ثم الاستمرار فى منطقتنا القديم وهو فرض الوجود بالقوة العسكرية على المنطقة .ولكن معناه أن يكون سلامنا كاملا مع المنطقة كلها من خلال مصر وبواسطتها . فالعرب بدون مصر قوة مفككة ومتضاربة . يسهل بل يغرى حالها بهذا الانقضاض. ولكن الانقضاض لن يسفر الا عن أن تعيد المنطقة وحدتها وتستعيد قوتها التى ذاقت طعمها ،ولو لايام ، خلال أكتوبر ١٩٧٣ .ان السلام هو سلام مع مصر العربية ،وبالتالى مع العرب وليس مع مصر المعزولة عن العرب والعاجزة عن لم شملهم .

وكان كلامكم عاقلا ومنطقيا هو الآخر وهو أن مصر قد بلغت من النضج والاستقلال ما يجعلها تبادر بتجاوز العرب اذا ما اصروا على التخلف عن التاريخ ، وانها مستعدة

لكى تبنى نفسها وأن تمد يدها للجميع دون عصبية لدين أولمذهب سياسى ،فتقود بدلا من أن تقاد.وتؤكد قدرتها على المضى وحدها اذا لزم الامر . ولكن واقع الأمر أيضا أن مصر تعتمد فى بعض اقتصادياتها على العرب : فى دخلها ،الذى يعود عليها من العاملين المصريين بالدول العربية والذى يفوق دخلها من البترول والذى يساهم العرب فى رفع سعره باطراد يفوق دخلها من القناة وكذلك من السياحة ،وكلها مرتبطة بالعرب مباشر أوغير مباشر من خلال الغرب .

والفلسطين هى الحلقة الغائبة والمفقودة بين مصر والعرب فقد كانت فلسطين القوية المتعاونة مع مصر على مر التاريخ هى النافذة التى تحجب الغزاة عنها أو تيسر لهم دخولها . فمصر هى صاحبة المصلحة الحقيقية فى اقامة دولة قوية وصديقة فى هذه المنطقة . وهو أمر ثانوى بالنسبة للعرب الذين يراودهم الحلم كلما ضعفت مصر ،أن يدخلوها من تلك النافذة اذا ضعفت هذه النافذة أو اذا انحازت لهم فى لحظات قوتها. والشعب الفلسطينى الذى بلا أرض يستوطن الدول العربية كيد منتجة وحاملة للسلاح ،وهو ليس وضعه مع مصر .

ولذلك فإن المبادرة القادمة المطلوبة من مصر هى أعادة تحالفها مع الفلسطينين كخطوة لأعادة التحالف مع العرب . ولكن الفلسطينين محاصرون بين مطرقتنا أى اسرائيل وسندان العرب ،الامر الذى لايترك لها مجالا للمبادرة بل يلقى بمسئوليته على الطرفين الآخرين ،أمريكا واسرائيل .

وحين التقينا فى ذلك المؤتمر تجاوزنا امريكا فى ترددها نحو هذه المبادرة تجاه الفلسطينين وأبدينا ضرورة أن نقوم بها نحن الاسرائيليين وفى اضعف الايمان تضغط امريكا لتضغط على حكومتنا لكى تقدم على

مثل هذه الخطوة . وتجاوزتم أنتم الامريكيين حينما قبلتم – أوبالأصح قبل البعض منكم – أن يقوم هو بهذا الدور بشكل مباشر بأن يأتى بنفسه لاسرائيل ليقول لشعبنا مانقوله ولكننا نعجز عن تقديم الدليل عليه ، وهو أن مصر حقا تريد السلام . وأنها تريده سلاما عربيا شاملا بل عالميا ، وأن الطريق الى هذا السلام هو من خلال فلسطين .

ولقد كنتم أنتم ممن قبلتم ان تقوموا بمثل هذه المهمة وكم تنزلق كما انزلق شعبانا وراء الأغراء بالعودة الى حالة الفجوة والجفاء التى كانت هى حالة الحرب بيننا فى الثلاثين عاما الماضية باستثناء دوى المعارك العسكرية القصيرة والمتقطعة التى كانت بمثابة المحاولة اليائسة للخروج من الم الجفاء . فلقد كان القتال بمثابة المحاولة اليائسة للخروج من ألم الجفاء ولم يكن السبب بل النتيجة للصراع الذى استمر على هيئة الجفاء ولكننا قد انتقلنا خطوة بمبادرتكم ليتحول الصراع العسكرى الى صراع حضارى يشمل الحوار ويمهد له . ولايمكن أن يقبل أى من الطرفين بعد الآن أن يتوقف السلام عند التهادن أو ايقاف الصراع العسكرى بل لابد من التقدم والتطور فى أتجاه أحلال الشكل الجديد محل القديم أى أن يكون السلام سلاما حقيقيا وليس مجرد وقف للقتال فالصداقة التى لم تنشأ أفضل من الصداقة التى تنشأ وتتحطم . وقد مددتم لنا يد الصداقة ولن يتحمل أى منا أن تتحطم ، فلا بد أذن من المحاولة الجادة ، على الأقل لايجاد هذه الصداقة أصلا قبل ، قبل ان نفكر فى هدمها . فلقد ادركنا

معا ان الطريق صعب وأن تغيير الوعي من حالة النفي والمعاداة للآخر الى حالة التأكيد له ومد يد الصداقة ليس باليسير . ولكن ،لابد أن نبدأ ولابد أن يبدأه بعض الناس . والبداية صعبة وقد تتطلب من صاحبها المجازفة بمخالفة التيار السائد .

وقد بادرنا وبعوناكم بلا استئذان من حكومتنا وبادرتم وقبلتم (أو بعضكم) دون أستئذان من حكومتكم وقدرنا ذلك . وقدرناه أكثر حينما تعثرت العلاقات بين الحكومتين ولكنكم أستمررتم فى قبول الدعوة وقدرنا أن التعثر لم يتوقف عند الحكومتين بل عند الشعبين . وعلا صوت المتطرفين من كل جانب ،وكأنهم يعرقلون مساعي حكوماتهم فى شكل تأييدها فى التعثر مع القاء اللوم على الطرف الآخر ، العدو الخارجى.وعادت النغمة القديمة التى كانت تعضد وجود حالة الحرب وهى أن تخفى الجبهات الداخلية خلافاتها بتحويل عدائها نحو آخر خارجى .

" قدرنا كل هذه الضغوط لاننا نحن أيضا نعيشها فلقد كنا لتونا فى مظاهرة من عشرين الف نسمة نطالب بالسلام الآن وأسقاط حكومة بيجين التى تعرقل عملية السلام . كنا أقلية ولانملك قوة الضجيج أوالعنف مثل الجماعات الدينية المتطرفة التى تؤيد بيجين ويؤيدها . ولكن قوتنا مستمدة من أننا نمثل الضمير والرؤية المستقبلية . فاذا كنا ننادى بالسلام الآن فلأننا ،أولا : نعلم أنه ليس موجودا الآن وبالتالى نسير ضد التيار . وثانيا : نعلم أنه الأصلح فى الأمد الطويل وسوف تزداد الأصوات المناصرة لنا مع مرور الوقت . ولن نستمر أقلية ضدالتيار بل سنقود التيار الجديد .

ولأننا أقلية طليعية هادئة الصوت يسهل أخمادنا فأننا نعاني الآن في سبيل سلام الغد . ولكن الذى يخفف معاناتنا هو يقيننا أن هناك من غيرنا من يتعدون للمناداة بما ننادى به وأننا وأن كنا وحدنا الآن فأن معنا الكثيرين في الغد والآخرين هناك عندكم .

اننا نريد أن نرفع من روح من يريدون أن يؤيدونا بأن نقول لهم أن هناك من يؤيدوننا غير المكان مثلما يؤيدوننا عبر الزمان ـ هناك الآن في مصر وهنا غدا بيننا في الأجيال القادمة .ودعوناكم لكى تشاهدوا ذلك بعيونكم دعوناك كمصرى عربى فلسطينى وليس كمصرى مسلوب من أرتباطه العضوى بالعرب وبالفلسطينيين . دعوناك لتزور اسرائيل نعم ،ولكن ايضا لتزور أرض فلسطين لتتعرف أن بنى اسرائيل من بنى آدم بل من بنى أبراهيم أبى العرب واليهود على السواء ،ولتتعرف على أخوانك العرب في اسرائيل . وكان أملنا أن يكون في ذلك التقارب الملموس بينكما تأكيد لأخواننا أنه لاسلام مع مصر الا في اطار سلام مع العرب . وبداية السلام مع العرب ،مثلما كان مع مصر هى في ، وقف القتال معهم ،في أراضيهم في فلسطين ،أيذانا ببدء الحوار . وهنا اسمح لى ان اوجه لك غضبى كصديق لأنى اعرف أنك سوف تتحمله . وخاصة أنك أعطيتني المبرر ؟ فقد كنت حتى ذلك الوقت أوجه غضبى نحو من يغضبون منك من ابناء شعبى ،ويتهمونك أنك لاتريد السلام حقا . وأن المسألة لعبة سياسية لاسترداد سيناء والاستراحة من أعباء الحرب . وانك لاتريد السلام بمعناه الحقيقى . كنت أغضب منهم وأقول لهم انهم هم الذين لايريدون السلام وأنهم لايقدرون ظروفك ويتعجلون الأمور فيتذرعون بها للعودة الى النمط القديم ـ ان العدو خارجنا هناك يجب ان يواجهوه بدلا من ان يواجهوا العدو الداخلى .

لقد أطلت وظهرت كأنك تماطل وتؤجل وتتهرب من قبول الدعوة بحجة أن الضغوط شديدة عليك تشدك للأنزلاق فى النمط القديم ،تحت دعوى الموقف القومى الذى يعبر عن الأحتجاج على مايحدث لأخوانك العرب داخل اسرائيل وبالذات فى الضفة الغربية وغزة . وجدت نفسى أقدر موقفك القومى الذى يعبر عن الاحتجاج على مايحدث لأخوانك العرب داخل اسرائيل وبالذات فى الضفة الغربية وغزة . وجدت نفسى اقدر موقفك القومى ثم أكتشفت أنه ليس لدى من يقدر موقفى وأنا أكافح وحدي من أجل السلام – ضد حكومتى وضد القطاعات العالية الصوت من شعبى والتى لاتمثل ضميره ، أريد ان أقول لك أنك خذلتنى وخيبت أملى " .

ويجيب الصديق : " بل خذلت نفسى . فأنى حينما لا أنادى بالسلام ألا بشرط أن يتحقق ذلك السلام فانى لا أفعل الا أن أكون تابعا مسيرا . أننى أقول بموقفى هذا أننى لا أنادى بالسلام حينما يكف عن مناصبتى العداء ، أى حين يحقق السلام . ولن أنسى أن الدعوة للسلام عندئذ سوف تفقد معناها . فمامعنى أن أنادى بالسلام الا حينما يوجد السلام ؟

"وخذلتك بأن تركتك تناضل وحدك من أجل السلام حتى تحققه وتفدلى البساط الاحمر لأشكرك على مجهوداتك وأجنى الثمار بلا جهد منى ولامخاطرة . وكأننى اكتفيت بما قام به قائدى من جهد ومخاطرة عندما خطا خطوة مبدعة جريئة بأن حضر اليكم بلا أتفاق على شروط مسبقة ولكن معلنا مطالبنا وتاركا باب الحوار المتحضر مفتوحا للقاء . وأكدت لك ماكنت تشك فيه ، أن السلام مجرد لعبة سياسية وأتفاق بين حكومتين .. وبالتالى اذا تغيرت الحكومة سوف يتغير وضع السلام . أنه أفتراض قائم على اعجابك بقيادة حكومتى مع قبولك عدم أعجابى بقيـ

حكومتك . وأصبحت المعادلة المخيفة بالنسبة لك أن السلام مع مصر هو سلام بفضل حكومتها وتعثر السلام فى اسرائيل هو بسبب حكومتها . تستخلص النتيجة أنه اذا غيرت حكومة مصر رأيها ، أو تغيرت هى فسوف ينهار السلام . وأيدناك بأن أكدنا بدورنا أنه لو تغيرت حكومة بيجين فسوف يتيسر السلام .. أن اسقاط حكومة بيجين أو عدمه مسألة داخلية تخصك ولادخل لى بها ، فربما بدت كمخرج مغر ، وعذر لفشلنا فى تحريك السلام ، ولكنها ليست القضية الرئيسية لأن الحقيقة أعمق من ذلك وأكثر تشعبا . فلا الحرب ولا السلام أمور من الضعف بما يجعلها تخضع لقرارات أو مواقف فردية قيادية . ولكن لها جذور أعميقة ومتشعبة فى المجتمعات .

وهنا يأتى دورى ودورك : أن نبحث ونسأل ونتحاور الى أبعد الحدود ، دون مجاملة أو حياء ، أن يواجه بعضنا البعض بأخطائه ويعبر عن آلامه بلا حواجز أو مداراة . قد أقول لك يا أخى أنى عربى . وأن سأفقد اتزانى حينما بترت ساقا بسام الشكعة ، وأن قلبى يدمى كلما أسمع عن حادث أرهاب مضاد تقوم به حكومة منظمة ضد شعب أعزل ، مهما تشبث ببندقية أو قنبلة هنا أو هناك بين حين وآخر . سوف تقول لى أن ذكرى الملايين من قومك الذين ماتوا بلا ذنب تجعلك ، بعد أن ذقت طعم القوة ، تبالغ فى رد فعلك عند كل طلقة توجه نحوك حتى ولو كانت " فشنك " . سوف أذكرك أنك منذ ثلاثين عاما كنت تعى نفسك كشعب بلا أرض ، وأنك حملت معك ذلك الوعى ونقلته من جيل الى جيل عبر آلاف السنين " وعليه فكيف تنسى أن الأرض التى حصلت عليها كان لها شعب أصبح منذ ثلاثين عاما بلا أرض وكيف تتوقع أن ينسى شعب ذكرى لم يمض عليها الا ثلاثون عاما بينما أنت تتشبث

...

بذكرى ثلاثة آلاف عام . وسوف تقول لي أن الذكرى تغيرت ونميت على مدى ثلاثة آلاف عام من لأضطهاد ومما جعل من الذكرى حلما ، فلما تحقق لم تصدق نفسك وبالغت في التصديق أن الذكرى حقيقة وأن الماضي قد عاد ولذلك أصبحت تخشى من يتذكر ويحلم خوفا من أن يكون في تحقيقه لحلمه ذلك نفي لحلمك . ثم أقول لك كيف أنه ما دام من حقك أن تستعيد الماضي وتحقق الحلم فتعترف ضمنيا أنه من حق الآخر أن يفعل نفس الشيء ، أي تعترف أن للفلسطينيين حقا .. فتقول أنه لو أعطيتهم هذا الحق الذي سبق أن اخذته لنفسك فان ذلك يعني أنك تمهد لنفي وجودك وأنه من حقك أن توجد . فأقول : فلتكن دولة تجمع بينكما ، وتقول ولكنها سوف تفقدني هويتي اليهودية . ثم كيف تتوقعون من أن تكون لنا دولة علمانية ديمقراطية يتساوى فيها المواطنون بينما أنتم العرب ، بل المصريين ، منقسمون فيما بينكم . هل توجد مساواة بين المصري والفلسطيني العاملين في الدول العربية وبين أخيهما العربي ، أم هي علاقة أجير بمالك ؟ بل هل توجد مساواة بين الفئات المختلفة بين أبناء الوطن الواحد - الماروني والسني والعلوي والشيعي والغني والفقير ؟

وهكذا يبرز الصراع بيننا الى الضوء بدلا من أن يختفي وراء دوي البنادق أو سكون الجفاء والخصام ويتحول الصراع الى الحوار . وحينما نكتشف مصادر الصراع بداخلنا فسنكتشف أننا لانمارس المساواة التي نطالبكم بها ليس فقط بين مواطنينا في الأمة العربية الواحدة بل في الوطن الواحد .

أننا في مواجهتكم وقد خرجتم لتوكم من تجربة زراعة الصحاري وأستثمار البحار والشمس والرمال ، قد نترهل ونصبح عرضة للاستغلال ويعود الصراع .

فليعد الصراع إذن . ولكنه في حالة حوارنا قد يتحول الى صراع من نوعية أخرى قد تعود بالفائدة المتبادلة بدلا من الخسارة المتبادلة . قد يعود صراعا بين قوى الأنتاج وقوى الكسل والترهل . أو صراعا بين الأنسان والطبيعة بغية أستثمارها لتوفر له الحياة الكريمة .

أن الحوار الذى يتم بيننا مازال حوار الصمت من قبل المتكلمين من جانب ، والصفقات السريعة الربح من قبل الساكتين من التجار من جانب آخر . بل أن هذا النوع من الحوار ليس بجديد وليس بمنعدم . فمن منا لايعلم بنشاط المهربين والتجار وأصحاب البنوك بل من منا لايعلم أن هذا النشاط وهذا النوع من الحوار هو الدائر بين اسرائيل والدول العربية قبل أن يكون بينها وبين مصر . هذا بينما نحن نعلن فتح باب الحوار ولكن لانمارسه ونعلن تأجيل التعامل الأقتصادى أو التطبيع بينما نمارسه .

لم يعد يجدى أن نتخاصم لأننا لانتفق ، مستبدلين دوام الأستمرار فى الخصام بضخم من عدم الأتفاق . لم يعد يعقل أن نقول لابد أن نتفق أولا لكى نتحاور لأننا لكى نتفق لابد أن نتحاور . وبادمنا مختلفين فلتكن نقطة البداية فى حوارنا أن نتفق على قبول الأختلاف .

ولنختلف ونعلن أختلافنا ونواجه بعضنا البعض به مهما كان مؤلما مادام هناك حد أدنى من الأتفاق حتى ولو كان هذا الحد أن نختلف . ولكن الخصام هو لغة الطفل الذى لم يتعلم الكلام أو الأستماع ، أى لم يتعلم الحوار .

فلنتحاور أذن وليكن هذا الحوار بالكلمة المكتوبة على صفحات تصل الى الطرفين من البداية فلتعبروا من

خلال قنواتكم . ولنتخاطب وجها لوجه ونتبادل الرأى . ولنتحمل معا ان يرى الفرد نفســــــه من خلال عيون الآخـــــــريـــن .

ما أيسر ان اقول ان عدوى هناك فى الخارج ،وان آلامى
مصدرها عنده ،ولولاه لما كان عندى مشاكل .ما أيسر ان
اتعامى عن عيوبى وان ألصقها بعدوى . واقول انه هو الشرير
ولست أنا . ولكن ما هو يسير ومغرٍ على التصديق ليس
بالضرورة حقيقيا . فالحقيقة ليس فيها خير او شر . فالخير
والشر قيم نضفيها نحن على ما نفضله او لانفضله . والحقيقة
ان الخير والشر فى كل مكان وان توزيعه ليس قاصرا على
ان يكون الخير طرفى والشر طرف الآخر ولاالعكس صحيح .

وفى حالة الاقتتال يصير التوزيع واضحا ،بل ومن الضرورى
ان يكون كذلك . فلن يكون بوسعى ان اقاتل خصمى بشراسة
ولدى ذرة من الشك فى حقى فى مواجهة خطئه . والتقاتل
يهدف الى ان ينفى الطرف الطرف الآخر تماما . فما دمت انا
الخير،والخير لابد وان ينتصر،فلابد لى ان انتصر على خصمى
واقضى عليه تماما . ولكن الواقع مرة اخرى لاينتهى بمثل
هذه النهاية المريحة . فاما لاانجح فى القضاء على خصمى
تماما ،او اذا نجحت فسرعان ما اكتشف بل اصطنع ،خصما آخر
وفى هذه الحالة فانا استمر فى الاستماتة فى التقاتل لأننى
اعلم اننى اما أن اقتل او ان أُقتل . وهى حالة رعب وتأهب
أن تحملتها حينا من الدهر فلن اتحملها ابد الدهر .

وهنا تظهر الدعوة للسلام . حين يتيقن الطرفان ان كل منهما على حق وعلى باطل،وفيه الخير وفيه الشر، انها لحظة عسيرة ان يحول الانسان نظرته الى داخله ليرى فيه ماكان يظن انه موزع بين داخله وخارجه . اى ان يرى الخير والشر بداخله حيث لم يكن قد راى الا الخير بداخله بينما الشر خارجه . اذا لم اكن على حق تماما واتضح ان بى شرا فانى لابد وان اغير من نفسى واقومها،وكونى اقوم نفسى لهو بدوره اعتراف ضمنى انى [illegible] خطىء وبى قصور . كلاهما معاناة : معاناة ان اقوم نفسى ومعاناة ان اعترف بخطئى .

هذه هى معاناة السلام وجهاده . وهى معاناة لاتقل فى كمها ،وان اختلفت فى كيفها،عن معاناة القتال . فى القتال اكون واثقا ومؤمنا ومنفعلا ومؤكدا لذاتى،ولكنى فى المقابل اعى ان خصمى بدوره يبادلنى ذات الشعور وانه يحتمل ان ينتصر. فاعيش مشاعرى الايجابية ،انا [illegible] خلفها سلبية الخوف من الهزيمة . بينما فى السلام اخطىء نفسى واشك واتردد واخجل من اخطائى . ولكن فى المقابل اشعر برضاء التقويم والاصلاح والسير الى الامام فى الخط الصواب . فى الحالتين معاناة مختلفة ولكن تصحبها ايضا راحتها المختلفة .

واذا كان الخيار صعبا بين النوعين من المعاناة ، فالتاريخ بحركته يعاوننا على حسم الاختيار فى لحظة ما من مساره . فتوتر الاقتتال ومايصاحبه من مشاعر ايجابية له عمر، ولابد وان يأتى نقيضه ليحل محله ،وهو استرخاء السلام . وهذه الخطوة نحو الاسترخاء الذى يوفره لنا السلام انما هى خطوة نحو معاناة جديدة لانعلم حقيقة حجمها .

هكذا استقبلنا خطوات السلام التى تمت بين مصر واسرائيل

لقد كانت تصاحبنا مشاعر النشوة بالاسترخاء من توتر الحرب ،ومن مذلة الحاجة الى دعم الدول العربية حتى نقوم بدور الشرطى الحامى للعروبة من خطر الصهيونية . نضيف الى ذلك ان تعاملنا مع الدول العربية بتصدير الخبرة التكنية والايدى العاملة نظير اجر يبدو عاليا بالمقارنة مع ما نقدمه نحن لابنائنا ،وقد وفرلنا درجة من الرخاء الظاهرى الذى جعلنا نسعى للاسترخاء والذود عن القتال . لهذا رحبنا بالسلام . ورأينا فيه تحقيقا لذلك الاسترخاء الذى ذقنا طعمه بعد مرارة توتر القتال .

ومن الطبيعى ان نكتشف ان السلام ليس كما يبدو انتهاء لحالة المعاناة التى كنا نعانيها، ولكنه انتقال الى حالة جديدة من المعاناة .

لقد اكتشف كل من الطرفين ان السلام معاناة من نوع جديد . وتسرعت القوى داخل كل طرف لم يتحمل معاناة السلام بان تغرى بالحلول اليسيرة الواضحة . والتى ترتبط بالموقف القتالى ان هناك حق واضح طرفى وباطل واضح فى الطرف الآخر . هى ذات القوى التى لاتريد أن تتحمل مواجهة الصراع الداخلى .

لقد واجهت اسرائيل اول ماواجهت من مشكلات السلام مشكلة التعايش مع سكانها الفلسطينين : هل تتعايش معهم فى اطار دولة فلسطينية منفصلة بادئة بشكل من الحكم الذاتى . ام هل تتعايش معهم كمواطنين فى دولتهم ولكن بهوية مناقضة للهوية اليهودية ؟ ولكن وراء هذه المشكلة مشكلة اخرى داخل اسرائيل ذاتها اذا ماحلت هذه المشكلة : فهناك يهود عرب ويهود غربيون وسيفارديم واشكنازيم: كيف سيكون التعايش بينهما ؟ ومن الايسر بالطبع اخفاء مثل هذا الصراع طالما كان هناك صراع خارجى يضع كل اليهود فى بوتقة واحدة فى تصارعهم مع غيراليهود

وهم الفلسطينيون . ان اثارة مشكلة الفلسطينين بتحويلهم الى عدو خارجى ومصدر للخطر على اسرائيل ككل ،يوحد الصفوف الداخلية ويحول الصراع الى الخارج . فوق كل ذلك فانه يضع مصر فى موقع حرج : اذا كفت يدها عن المشكلة فقدت مكانتها بين الدول العربية كمدافعة عن العروبة . واذا دخلت فبانها لابد وانتدخل كطرف منحاز للفلسطينين وبالتالى تتحول هى الاخرى الى عدو خارجى تواجه اسرائيل بحدة الصراع . ولكن مثل هذا التحول يعد المشكلة الى حيث بدأت وهو حالة الصراع بين مصر واسرائيل الذى سئمنه كل من الطرفين ،ورحبا بالخروج منه .

ولكن هناك صعوبة فى العودة اليه . فقد كانت اسرائيل موحدة ومستميته فى قتالها مع مصر لاعتقادها ان مصر لن تبادر بالسلم ولن تقبله . وبالتالى فلم يكن امام اسرائيل الا ان تقاتل بشراسة . ولكن هذا الاعتقاد اهتز بلا رجعة بفعل المبادرة .ولن يصدق الاسرائيليون بعد ذلك اى حاكم يسعى لتجنيدهم لقتال مصر بنفس الشراسة التى سبق ان قاتلوها بها . وحتى لو افترضنا امكانية ذلك . فهم يعلمون جيدا ان النصر مرة او اثنين او عشرة او مائة مرة ،لن تفنى مصر التى صمدت ككيان على مدى آلاف السنين بينما لاتحتاج اسرائيل الا لهزيمة واحدة لتنتهى . ولذلك فمهما اقتنعوا بفائدة القتال فى الامد القصير فانهم يعلمون ان مصلحتهم فى الامد الطويل هى فى السلام . لقد احتاج ميلاد اسرائيل الى مساندة الدول الكبرى ولكن بقاءها فى المنطقة لن يضمنه الا مساندة مشابهة من دول المنطقة وعلى رأسها مصر. ومصر لن تعطى مثل هذا الضمان طالما هى فى حالة قتال . فحالة القتال هى أن اكون أو لا اكون .

وهناك قوى داخل اسرائيل بعيدة النظر وتسعى للسلام

من منطلق مصلحة اسرائيل ذاتها . وهناك قوى تخشى تحدى السلام وتستسهل العودة الى الحال السابق . حين كانت مشاكل اسرائيل الداخلية مؤجلة لوجود حالة الحرب. فالاتجاهان يتصارعان ويتجاذبان القرار الاسرائيلى الذى يخطو خطوة نحو السلام ثم يسعى لمحو آثارها . وان كان بالقاء التبعية على الطرف الآخر اى مصر .

والحال كذلك من جانب مصر . فالاسترخاء الخارجى قد اظهر التناقضات الداخلية : على مستوى بين مصروبقية الامة العربية . فان عجز مصر عن الدفاع عن العروبة الممثلة فى المواطنين الفلسطينيين تحت السيطرة الاسرائيلية يضعف مركزها امام الامة العربية. وهومركز ضعيف اصلا بفضل ذلك المصدر الاقتصادى التى توفره تلك الدول من خلال اجور العاملين المصريين فى الدول العربية . فالدول العربية لاتستثمر اموالها فى مصر ولاتعاونها فى قدرتها الانتاجية، بل على العكس تساهم فى التضخم وزيادة الاستهلاك وتستنزف طاقتها البشرية العاملة بتأجيرها دون ان توفر لها حق المواطنة العربية . بينما تستثمر اموالها فى البنوك الغربية التى تقوم بدورها بدعم اسرائيل ذاتها . ومصر لاتملك ان تتخلى عن القضية الفلسطينية او تحقق السلام مع اسرائيل على حساب فلسطين . وعليه فليس ايسر على اسرائيل من ان تدفع مصر الى مثل هذا الموقف المستحيل وبفضل ذلك نستطيع ان نلقى بتبعية فشل السلام عليها. هذه هى قوة الجذب التى تجعل مصر تستسهل العودة الى حالة العداء مع اسرائيل . فانمثل هذا الموقف يعيد الصف العربى ويعيد الى مصر مركزها فى الامة العربية مهما كان ضعيفا فى الاصل . الا انه موقف يخفى ويؤجل ذلك الجانب الاخر من الصراع الذى اشرنا اليه وهو بين مصر والامة العربية ،وهو صراع الأجير بالمؤجر ،والمستغل بالمستغل.

وتستطيع الدول العربية ان تؤجل بدورها ذلك الصراع بالعودة الى شكل من اشكال الدعم السطحى واللفظى لمصر. وهنا تأتى القوى المضادة التى تسعى الى دعم السلام فهى تعلم ان مثل هذا الدعم اللفظى والمادى المحدود من قبل الدول العربية ،بل هو دعم تكاد تتوازن محاسنه مع عيوبه ،ولن يخرجها من أزمتها الخارجية مع اسرائيل بالاقتتال معها او يدعم قدرتها الانتاجية وتجاوز دور الاجير فى علاقتها مع الدول العربية .

بل ترى فى سلامها مع اسرائيل فرصة لتوجيه طاقتها نحو ذلك التدعيم لقدرتها الانتاجية . اذ ان تذوب الاموال [illegible] العربية داخل مصر سوف يفرض هذا الاتجاه ،مثلما فرضه على اسرائيل . وسيحتم على مصر ان تقوى سواعدها خاصة اذا وجدت فى القدوة الاسرائيلية مصدرا للتحدى.

وفوق كل هذا فان تأكيد مصر لنية السلام سوف يسحب من اسرائيل عذرها الرئيسى فى تمسكها بموقف المعادية للفلسطينين لانها تشك ان مصر سوف تبقى على موقفها المسالم ،مماسيعيد للفلسطينين ذلك السند القوى الخارجى الذى يجعل منهم قوة مجاورة بل متداخلة مهددة لكيانهم. فالاعتقاد فى اسرائيل ان السلام مع مصر ليس الا سلاما مع حكومتها وبالتالى موقوت ،بينما الشعب الباقى غير مرحب به . ان مثل هذا الاعتقاد يغذى القوى المعارضة للسلام فى اسرائيل ويجعلها تبحث عن عدو خارجى مرة اخرى وليبدأ بالفلسطينين مستدرجة معهم المصريين وبالتالى باقى العرب . وتعود اسرائيل الى موقفها الاول للدولة المتحدة فى مواجهة حصارمن الاعداء الذين ينوون القضاء عليها.

لاشك ان الموقف المتشدد الذى يقفه المفاوض المصرى فى تعضيده للقضية الفلسطينية هو الموقف الوحيد الذى يضمن ان يكون السلام شاملا ودائما بالمنطقة وليس مجرد سلام

موقوت باتفاق حكومتين . ولكن مثل هذا الموقف لايعاونه الموقف الشعبى المشابه ،بل العكس . اذ ان مايجعل اسرائيل تتشدد فى رفضها لحقوق الفلسطينين هو ذلك الشك فى نية الشعب المصرى فى السلام . وانمثل هذا التشدد وان كان يستوجب تشددا مشابها من قبل المفاوض المصرى ،فانه على العكس يستوجب موقفا مناقضا على المستوى الشعبى .

المطلوب ان يبادر الشعب المصرى بمد يد السلام للشعب فى اسرائيل موءكدا فى ذات الوقت انه سلام يشمل سكان المنطقة من فلسطينين سواء كأفراد اوكشعب له حق فى أمة وفى ارض ،وليس سلاما على حسابهم . انه يعطى الاسرائيليين الطمأنينة التى تجعلهم لايتشبثون بموقف العداء تجاه الفلسطينين ،كمايعطى الفلسطينين الطمأنينة ان السلام لايعنى تخلى الشعب المصرى عن قضيتهم .

اما الموقف الشعبى الحالى فهو يعبر عن حيرة وتردد بين الاقبال على السلام وبين مشاركة حكومته التشدد ومثل هذا الموقف المتردد لايفعل الا ان يغذى الموقفالمعارض للسلام فى اسرائيل .

ان الموقف الايجابى الشعبى المطلوب لهو بمثابة معركة سلمية من اجل السلام ،ليس فيه استسلام او تخاذل بل سعى ايجابى لترسيخ السلام بكل جوانبه . انه تعبير عن اصرار على السلام ولكنه مصحوب بدوره باصرار على الحق والعدل . كما يشمل مواجهة العدو والصديق على السواء باخطائه ،والأهم من ذلك مواجهة الذات . فيترتب عليه سعى جاد للاصلاح من الداخل بدلا من القاء تبعيه مشاكلنا على عدو خارجى.

ان مثل هذا " الهجوم" السلمى على اسرائيل ،هذا الجهاد ،يتطلب صفات هى التى يتسم بها الجندى المقاتل

من جانب ، او التاجر الذى ينظر الى المصلحة المادية المباشرة والفورية من جانب آخر. وهاتان الفئتان من الشعب الصرى هما التى توقفت عندهم خطوط الاتصال مع الشعب فى اسرائيل متجنبا الحكام من الجانبين . ولذلك فهما ليسا مؤهلان وحدهما حاليا للقيام بمثل هذه المهمة الصعبة . "

الصفات المطلوبة فى مثل هذه الطلائع هى الوعى والقدرة على الحوار المنطقى المتجاوز للتعصب والانانية والقدرة على الدفاع عن مصالح الذات بالحد الادنى من الاعتداء على مصالح الغير . ان مثل هذه الصفات تتوفر لدى المثقف المصرى . ولذا فان عبء مسئولية القيام بمثل هذه المبادرة يقع على اكتافه . لقد كان المثقف المصرى المتنور – ناهيك عن مثيله الفلسطينى – اول من فتح قنوات الحوار مع مثيله الاسرائيلى ،حتى وقت ان كانت النيران تتواصل بين الخصمين،ثم توقف المثقف المصرى عن ذلك فور ماتحملت حكومته مثل هذا العبء .فالموقف التقليدى للمثقف هو الايكون تابعا ،ورد الفعل التلقائى له فى مثل هذه الحالات ان ينافى ماتقوم به حكومته . وعليه فأنه فى مواجهة الحوار الحكومى يتخذ موقف الخصام الشعبى من جانبه . وهو خلافى ومنافى للاستجابه العقلانية. وعلى اية حال اذا كان الامر كذلك فان الموقف الحكومى المتشدد يلزم عليه موقفا شعبيا مختلفا . واذا لم يكن كذلك فان مثل هذا الموقف الشعبى " الهجومى السلمى" يعضد موقف حكومته المتشدد .

فهل يتحمل المثقف المصرى مسئوليته فى الاعداد لمثل هذه " الحملة السلمية " بمايجعلها تعودعلى بلده بالفائدة المرجوة ؟

شعب غـــــزة
شبل جريــــح فى زنزانـة

" السبع الجريح يبدو ساكنا لايتحرك كأن الجبار قـــد أنهزم وأنتهى فما بال الأمر وهو حبيس زانزانـــة أو مابال الامر وهو شبل صغير لم يتمرس بعد فى فـن القتال ؟ ولكن السكون له حدود ،والسبع الساكن ينتظـر حتى تأتى اللحظة التى ينقض فيها على جارحه ،حتى لـو كان فى أنقضاضه هذا ضياع آخر نفس يملكه ،فيقتلـه ويموت معه أو قد ينتظر حتى يلتئم جرحه ويقوى فينقـض قاتلا بلا أنتحار ،واذا كان الجارح هو حارس الزنزانـة كفاه حبس الاسد دون قتله ،فيقذف له ببعض الطعام ليبقيه حيا ،ولكنه يحبس حركته ليبقيه ضعيفا وينسيه الكر والفر والسعى وراء الطعام بسواعده وأظافره وأنيابه ،ولعلـه عندئذ يستطيع أن يجعل منه سبعا فى سيرك أو فى حديقـة الحيوان .

هكذا الشعب فى غزة الذى رأى الحراس حوله على مر الزمان وأن كانت الوجوه قد تغيرت ،فتارة كان تركيا عثمانيـا وتارة بريطانيا ثم عسكريا مصريا ثم أسرائيليا ثـم مصريا ثم اسرائيليا.ثم يلوح له الآن أحتمال أن يكـون مصرياواسرائيليا معا . ورأى زنزانته تتقلص حتى أصبحت شريطا يوازى البحر بل ينفصل عن البحر بذات بقواعـد الحراس ،وينفصل عن الأرض ذاتها بما فيها من موارد طبيعية يحجر عليها الحراس بل وجد جسده قد تفسخت أواصره حـتى تناثرت وصارت الأنياب والأظافر فى الاردن حيث قلعت ثم فى تل الزعتر وجنوب لبنان حيث تشرخت ،وصار فمه بلا أسنـان يرضع النفط المائل من ثدى الدول العربية النفطية فيسيـل

اغلبه لايتناثر فى مختلف البقاع ويحترق فى فرقعات
البارود الذى يذهب اغلبها فشنك ويصيب بعضها اطراف
الحراس فيموت بعض الفقراء من اليهود هنا وهناك ،بينما
ترتد اليه بعض الشظايا مثلما ارتدت فى اسلحة ١٩٤٨ الفاسدة
على اصحابها بينما قد يتبخر البعض الآخر او يذوب حيثما
كان كجزء من الرأسمالية العالمية التى لافرق فيها بين عربى
و اعجمى او يهودى او المانى الا بما ملكت ايمانهم من
اموال • وصارت باطنة فى الضفة الغربية لنهر الاردن حيث
ازدادت كسلا واسترخاء وسواعده حبيسة • ولعل له اصابع
داخل اسرائيل ذاتها تتعلم الحرف المختلفة • حتى ان لم
تكن من تقاليد الاسود • بل ان حواسه ذاتها انفصلت عن
جسده فهو يسمع برامج تذاع من مصر او غيرها من الجيران
العرب ،ويتلقى العلم غالبا فى مصر •
لقد اقامت اسرائيل متحفا يصور قصة اليهود فى الشتات على
مر الزمان بناء على ملحمة شعرية كتبها شاعر • وكيف
ان الشتات لم يقض عليهم بل زادهم تمسكا بالبقاء والحياة
ووصل تشتتهم الى ذروته فى سيطرة العقلية النازية ،لا على
المانيا فقط بل على العالم الغربى اجمعه ،فالنازيون لاذنب
لهم الا انهم تولوا وظيفة "عشماوى" منفذ حكم الاعدام الذى
اصدره الغرب كله على اقلياته والمقلمة الاظافر ،وحينما
وصل تشتتهم الى ذروته عندئذ زاد اصرارهم على البقاء
وتحولوا الى مذهب قاتليهم ،فجمعوا شملهم لتكون لهم
دولة قومية تتزين بكهنوت يصبغها بقيمة سماوية لتخفى
وراءها حقيقة طبيعة الانظمة الحضارية الغربية والقائمة
على تغطية الاظافر والانياب بالقفازات الناعمة • وفى خضم
النشوة ببعث الحياة ،وافلاتهم من الموت واندماجهم مع الغرب
الذى شتتهم اصلا نسوا ان العقلية الغربية مازالت تهيمن
عليهم بل ويهيمنون بواسطتها ،وانها بطبيعتها تحتاج الى

عريم . وأن الغرب في حاجة الى يهود يشتم ويضحى بهـــم متفائلا أن الله نفسه الذى أصدر أمر التضحية لنبيه ابراهيم قد سحب الأمر فى آخر لحظة واستبدل الكبش بالانسان فيهم بذبح اسحق فترة حينما أنهال على اليهود . حتى أكتشف أنه من الافضل له أن يبقى على اسحاق ويضحى باسماعيـــل فالتفت الى العرب وهكذا أصبح عرب فلسطين ،بنو اسماعيـــل هم الفدية الجديدة وهم الأبطال الجدد لمأساة الشتات .-

لقد أكد اليهود بملحمتهم ومأساتهم ماسبق أن اكـــده المصريون فى تصويرهم لقصة أوزيريس . وفى مأساة أخناتون: فالحق مهما تقطعت أواصره ،ومهما تشتت أطرافه لابد أن يعود . والمسيح مهما أعتقدنا أننا صلبناه وازنـــا ذلك باعتقاد مضاد أنه أنما شبه لهم ،وأن يومه آت لاريب فيه ولابد أن يعود ،فالحق أمل ننتظره ،والجنه هدف نسـعى اليه . لأن الأرض لكونها أرضا لاتعلو فيها كلمة الحـــق دوما دون أن يموت أمل سكانها فى البحث عنها وأنتظارها فالمهدى المنتظر بطبيعته منتظر ،أى غير موجود الآن. وهو كجودوه فى مسرحية صمويل بكيت ـ دائما منتظر .

- واليهود أصحاب الملحمة يعلمون مامعنى أن يكون الانسان مظلوما ومشتتا ،ويعلمون أن المظلوم صاحب الحـــق يصر على الحياة ويتمسك بها مهما طال الزمن وتجبر . يعلمون ويتذكرون . ولكن الذكرى اليمة والسبيل الى قتلها مـــع أبقائها ،هو بتحنيطها ووضعها فى متحف ،كما فى متحـــف الدياسبورا بتل أبيب . أنها مجرد ذكرى وتهدف الـــى تذكير اليهود بالا يعودوا مشتتين مرة أخرى والا يكونـــوا تحت رحمة دولة قوية كأقلية فيها . ولكن كحليف وكنـــد بل أن يكونوا هم هذه الدولة القوية . وبذكر السياح مـــن أبناء الغرب بذنبهم حتى يستمر تكفيرهم عنه .

الذكرى المحنطة محكومة ويمكن استخدامها والسيطرة عليهـــا ويمكن اغلاق المتحف او اظلامه او غض البصر عنه بل يمكـــن

النظر اليه ودخوله الى مايخالفه وطمأنة النفس أن الشتات لم يكن الا حلما . كما يحدث عندما يستيقظ المرء من حلم مزعج فيتذكره ويتنفس الصعداء ويقول انه مجرد حلم ولاداعى للخوف أو القلق . أما المتحف الحى فكيف تجنبه ؟ والمتحف الحى هو ذلك الشتات الفلسطينى الذى أصبح اليوم مجاورا ملاصقا بل متداخلا معهم . الفلسطينى فى اسرائيل ذاتها بل أنه أصبح نمطا لهوية جديدة صعب تفهمها وهى أنه اسرائيلى عربى ؟ كيف ؟ اليس هذا كمن يقول هذا لونه أبيض أسود ؟ ولكن حقيقة تلك الظاهرة : أن الفلسطينى داخل اسرائيل يعرف هويته هكذا . وهو يتعجب حينما يأتى لزيارة مصر ويعلن عن هويته هذه أن يجد الارتباك على وجه السائل . وهناك الفلسطينى فى الضفة الغربية الذى ينظر اليه الاسرائيلى على أنه مجرد أردنى ولكن التسمية تختلف ،ولامانع من تغييرها الى فلسطينى مادام الجوهر أن يكون أردنيا وحكومته فى عمان وملكه من الأسرة الهاشمية مادام بقى النظام ملكيا .. وهناك الفلسطينى فى قطاع غزة . وصحيح أنه كان خاضعا للقانون المصرى ولكنه كان قانونا عسكريا لايرأسه ملك هاشمى ولاشركسى بل ولا رئيس جمهورية مصرى ولكن حاكم عسكرى . وهذا يصعب تغيير اسمه . فقد فرضت عليه الفلسطينية ولكن فى داخل حوائط زنزانة أسمها القطاع . واذا هرب منها لن يجد من يحميه فهو لاشىء فلسطينى الا اذا تجنس بما تجنس به حيثما كان وذاب فى موطنه الجديد .. وهناك فى الشتات يخير بين أن تفرض عليه الفلسطينية أو يذوب فى غيرها . فحتى الدول العربية الشقيقة الحبيبة لم تقبل أن تذيبه فيها ففرضت عليه الفلسطينية .

وهكذا عادت ملحمة اليهود فى الشتات ولكن لطالما

فلسطينون ،وأستيقظت الموميا ءات من متاحف الديا سبورا وخرجت من أسوارها وعلا صراخها وأنينها وزئيرها ولكن باللهجة الفلسطينية العربية . عادت حتى بفصلها الأخير حينما هم اليهودى المقهور وحمل السلاح وأصر على بناء القلعة التى يحتمى فيها ويجعلها ملاذا لأخيه المشتت اذا ما لفظه محيطه الذى ظن أنه ذاب فيه . عادت حينما أيقن الفلسطينيون أنه لا أمل لهم الا اعادة بناء سواعدهم وتربية أظافرهم وانيابهم فبدأت حركة فتح أولى عملياتها المستقلة منذ خمسة عشر عاما وأستمرت فعالة مصرة على الحياة حتى بعد أن ركعت الجيوش العربية فى ١٩٦٧ .

هذا هو الفصل الأخير الذى يصعب على اسرائيل أن تراه فالملحمة لا تحتمل أن يخرج فى نهايتها أكثر من البطل . والبطل من وجهة نظرهم هو اليهودى الذى صمد فى وجه القهر النازى الغربى والمغلف اليوم بالأعتذار الأوربى الأمريكى . فهو يصمد فى وجه هؤلاء جميعا بل يملى ارادته عليهم وحتى وهم يعتذرون ويغدقون عليه بالحسنات . فقد صدق المثل" ادينى حسنة وأنا سيدك" ولكن حتى الحسنة يصمد فى وجهها الاسرائيلى ويصر على بناء نفسه بسواعده بأن ينتج ،حتى اسلحته الخفيفة والثقيلة على السواء بل ربما الذرية .

يصعب على الاسرائيلى أن يفهم أن هناك بطلا غيره ممثلا فى المقاومة الفلسطينية كما بدأت بحركة فتح وتطورت لتصبح منظمة التحرير ولكن الصعوبة فى الفهم لم تكن لديهم وحدهم فقد شاركهم فيها العرب أجمعون فالعرب الأثرياء الذين يتعجلون الجنة على الأرض دون عناء العمل والبناء فيستوردونها جنة مزيفة يقلقهم ايضا وجود مقاومة ويقلقهم وجود ابطال . ولذلك اتفق

الطرفـــــــان : أن يرى الاسرائيلي المقاومة الفلسطينية على أنها مجرد أعمال ارهابية متناثرة لاتؤيدهــــا غالبية الفلسطينين وبالتالي لاتدخل ضمن فصول الملحمـــة وتفرغ من محتواها البطولي. وأما العرب فقد اتفقوا ان تتحول المقاومة الفلسطينية الى مقاومة الفاظ وشعارات فقــد قلموا أظافرها في أيلول الاسود وفي تل الزعتر . ولـم تبرىء مصر من دم المقاومة الفلسطينية الا أنه تصــادف أن مناخها لايسمح باقامة قواعد لها فيها علاوة علـى أن نظام حكمها المستقر المهيمن لايطيق أن تكون هنــاك دويلات داخل الدولة .

وهذه هي مأساة اليوم وحجر العثرة في طريق تحريـر الأنسان في المنطقة سواء كان الأنسان يهوديا أو عربيـا فالأسرائيلي يتعامى عن كون الفلسطيني مثله عاش قصة شتات ثم حلم بالعودة ،ثم بطولة سبع ولكنه جريح وحبيس زنزانة والفلسطيني بالضرورة ووسط آلامه ومعاناتــه لايملك مؤقتا القدرة على فهم مأساة اليهودي ولايرى فيـه الا مستعمرا غاشما وعميلا للرأسمالية والأستعمار الغربـى ويتوقف الحوار ،ويتعثر الحل ،ويستمر السبع الجريح فـى أنتظار لحظة الوثوب او لحظة القتل أو لحظة الأنتحـار ويتحول النور الى ظلام والبداية بالأنجليزية تعنى " بجين" الى نهاية .

واذا كان للانسان أن يتحرر من عبوديته لتكرار مآسيه أو ما يسميه فرويد باجبار التكرار والذى يعبــر عــن غريزة الموت أو الثاناتوس فى الأنســان فلابد من كسر الحلقة المفرغة فى مكان ما ،ومن اليسـير أن نلقى باللعبة على الطرف الآخر ونقول ان علـى الأسرائيليين أن يعترفوا بهذا وذاك . ولكن مخاطبـة الاسرائيليين عن طريق الاعلام المصرى عقيم فالاعلام المصرى

يصل الى المتخصصين فقط داخل اسرائيل ولايصل الى عامة الشعب بل لايصل الى الفلسطينين العرب . ولكى تكون مخاطبتنا للاسرائيليين فعالة فلامفر من أن تكون مباشرة وبالمواجهة : باللقاء معهم وبالكتابة فى صحفهم أن أمكن . وهوما يجب أن يبدأ به التطبيع . اذ ليس التطبيع أن نتبادل السياحة والتجارة او الاستغلال المتبادل ولكن أن نبدأ بالحوار والمصارحة بل التعارك بالألفاظ وتصفية ما فى النفوس .

ومن جانب آخر نستطيع أن نخاطب الشعب الفلسطينى مباشرة ،ولكن الشعب الفلسطينى بدوره لايصله الأعلام المصرى فهو كالأبن الغاضب من أمه التى يحبها ويدير لها ظهره . وهو خصام يجب أن نفهمه ونتقبله دون أن نغضب منه أو نرد عليه بالمثل فكيف للأم أن تتبرأ من أبنها او للأخ من أخيه ؟ واذا كان التمثيل الرسمى للشعب الفلسطينى المجسد فى منظمة التحرير فى حالة خصام مؤقت بل ظاهرى مع التمثيل الرسمى للشعب المصرى فيجب الا يقف ذلك عقبة فى الأتصال الشعبى بين الأشقاء فالشعب الفلسطينى وبالذات فى غزة تربطه بمصر روابط لايمكن فصمها . أنها روابط لايمكن فصمها . أنها روابط تكاد تصل الى التلاحم الذى عبر عنه أحدهم بقوله بلهجة مصرية أنا مصرى أسكن فى قطاع غزة وهى لاتختلف عن تعبير الفلاح المصرى خاصة من أبناء الشرقية الذى يقول أنا عربى من الشام (أى فلسطينى) أسكن فى قرية المشاعلة ،أو المثقف المصرى الذى يقول أنا فلسطينى يعنى أنه يرمز لكونه يقف مع المظلوم الذى يقاوم الظلم ببطولة .

واذا كان الشعب الفلسطينى المشتت توجد أغلبيته داخل أراض محتلة واذا كان الأتصال بهذه الاراضى ممكنا بل مطلوبا على المستوى الرسمى باسم التطبيع فما الذى يمنع

المناضل المصرى من أجل تحرير الأنسان أن يمد يـــده مباشرة الى أخيه هناك لقد قالها أحدهم بصراحـــة وبدون رغبة فى اخفاء أسمه ، وهو الشقيق محمدوتدمن قرية جات باسرائيل . وقالها كرسالة تبلغ لأشقائه المثقفين العرب فى مصر : أن الحوار ممكن تحت وابـــل الرصاص وبدأ فى الفالوجا منذ أكثر من ثلاثين عامـــا وأشترك فيه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .والدفـــاع عن القضية يتطلب العلم بها وأشتراك أصحاب الشأن فيه وأصحاب الشأن فلسطينيون عرب مشتتون فى الضفة وغـــزة وبعضهم على الحدود وبعضهم ذائب عبر الحدود . والاسد الجريح فى الزنزانه له حق الأشتراك فى الحوار ،وكفانا وصاية وكفانا تحديد مصيرنا بواسطة غيرنا حتى لـــو كان الغير شقيقا عربيا بل شقيقا فلسطينيا فللجميـــع صوت وأصوات يجب أن تسمع .

أما الأحتلال وأما اسرائيل فهذا واقع لابد مـــن من التعامل معه ،والتعامل يشمل الرفض والرغبة فـــى التغيير مع القبول . ولكنه لايقتصر على عنصر دون آخر. فالرفض أو الخصام ليس تعاملا . ولكن هذا وذاك فى أطار تغيير مستمر يشكل تعاملا . والاسرائيليون بشر مثلنـــا منهم الخير ومنهم الشرير والخصام معهم قد ينمى الشـــر بدلا من أن يقتلعه .فمعاناتهم من الخصام على مـــر الزمان جعلتهم يتشككون ويخافون على أمنهم بما يجعلهم يميلون لأتخاذ الموقف الدفاعى ،وأفضل الدفاع عندهـــم هو مايبدأ بالهجوم . وواجبنا للتغلب على ذلك هو أن نزيل جذ ور الشك ونفتح باب الحوار . فالمطلوب تحريرهــــو الأنسان من العبودية والأنسان ليس عنصرا دون عنصـــر ولكن الأنسان المستعبد قد يكون يهوديا مثلما قد يكون فلسطينيـــا أو عربيـــا .

والفلسطينى لايضيره أن ينشأ الحوار بين أخيه المصرى والأسرائيلى ،ولكنه يتضرر من أن يتم الأتفاق فوق رأسه وبوصاية مفروضة عليه من أحد أيا كان .
والحوار المطلوب كخطوة أولى نحو الحوار الشامل ،هو ذلك الذى فقدت منه حلقة ،وهو الحوار الشعبى المصرى الفلسطينى البعيد عن الحكومات مصرية كانت أو اسرائيلية ثم حوار آخر تدخل فيه الحكومات وهو أستمرار لما هو موجود ،فهناك حوار مفروض بفعل واقع الأحتلال بين السلطات الاسرائيلية والفلسطينين وان كان الصوت الغالب فيه هو صوت القهر أو الصمت . بينما هناك حوار ناقص بين الشعب فى غزة وبين الحكومة فى مصر ويزداد صمتا للخلط الذى يجعلنا نرد على مواقف الحكومات العربية المقاطعة لمصر وبين شعب فلسطين فنعاقبهم على ما أقترفته الحكومات وهناك عقاب قد نزل بهم لم يختلف أحد حول مدى أيلامه لهم : وهو ذلك المنع للطلاب الفلسطينين من استكمال تعليمهم فى مصر ،وبالتحديد فى جامعاتها اذ أن تمسكهم بالمناهج المصرية حتى يومنا هذا ،بما فى ذلك الجامعة الأسلامية الحديثة النشأة التى لم تستكمل بعد ،وأرتباطها بمناهج الأزهر جعل متنفسهم العلمى الوحيد هو مصر . ومصر [illegible] قد أغلقت الأبواب وجوع الفلسطينى الى العلم يفوق [illegible] الى المأكل والملبس بل هو رمز الحرية والعزة [illegible]ذى تبقى لهم بعد طيلة هذه السنوات من الأحتلال أنهم يطلبون أن يعاد فتح أبواب الجامعات المصرية لهم ،وأن يستكمل طلاب الجامعة الأسلامية بقية سنوات الدراسة فى الازهر الشريف ،والاتقتصر زيارات المصريين لهم على الزيارات العائلية ولكن أن تكون زيارات شعبية أخوية وان كان الخصام المتبادل على المستوى الرسمى يجعلهم فى حرج من التعامل على هذا المستوى . وهم لايجدون تناقضا بين ان يكون المصرى صديقا

لهم وصديقا لمن فى اسرائيل يؤيد حقوقهم . فالمنطق الطفلى الذى لايرى التدرج بين النقائض ويستطيع أن يميز بين الأبيض والأسود ودرجات الرمادى بينهما لايبرر وضع الأسرائيليين فى سلة واحدة ،فهناك فى اسرائيل أخوة لهم من الاسرائيليين العرب وأخوة من الاسرائيليين اليهود ،الذين يؤمنون وينادون بحق الأنسان والمتمثل فى حق الأنسان الفلسطينى المظلوم وهم فى سعيهم للتحرير يهدفون الى تحرير الأنسان من عبوديته للعنصرية أيا كانت ،فيلتقون مع كل أنسان مهما كان عنصره بما فى ذلك الاسرائيلى .

مهلا للتطبيع وأهلا بالحوار

تطبيع العلاقات مع اسرائيل سلاح ذو حدين : فهو من جانب يحقق لأسرائيل درجة من الأمن والاستقرار فى تحييد مصر واخراجها من الساحة العربية ومن جانب آخر يحقق لمصر نفس الهدف معكوسا وهو توفير الأمن والاستقرار مع جبهتها الشمالية الشرقية واخراج اسرائيل من أرتباطها الحميم بالمعسكر الغربى وخاصة الولايات المتحدة وما بها من امكانيات مساندة من اليهود . اذ أن هؤلاء يتكلفون العناء لتقديم الدعم لاسرائيل طالما هى مهددة بالحصار العربى والقوة العسكرية المصرية . والتطبيع يعفيهم جزئيا من هذا الألتزام بأن يوفر لاسرائيل أمكانية الاستقلال عن الغرب من خلال ارتباطها بدول المنطقة وأولها مصر . ولذلك فاننا نجد مقاومة داخلية فى كل من مصر واسرائيل لنجاح التطبيع بل لنجاح السلم أصلا . فلامصر تريد أن تكون معزولة عن العرب ولا اسرائيل تريد أن تكون معزولة عن دعمها اليهودى العالمى والأمريكى .

الا أن الرغبة فى أبقاء روابط الأعتماد المتبادل على الجانبين مصر على العرب واسرائيل على الغرب ،لاتعنى أن هذه الروابط سوف تبقى اذ أن هناك قوى طبيعية تعمل ضد أستمرار هذه الروابط فالعرب قد سئموا منذ مدة دعم مصر ،وصار ذلك واضحا منذ أول يوم فى حرب أكتوبر حينما تخلى النظام الليبى عن مصر ثم تبعه السورى،وكانا من أكثر النظم العربية أرتباطا بمصر . ولم تفت الفرصة بقية الدول العربية للأنضمام لهذا التكتل العازل لمصر وخاصة حينما وجدت مبررا فى خطوات السلام المصرى الاسرائيلى وعلى الجانب الآخر،فقد بات واضحا لامريكا أن العائد من دعم اسرائيل لم يعد موجبا وأن اسرائيل ليست بالضرورة

هى الحامية الأولى للمصالح النفطية الأمريكية فى المنطقة كما أن أستقرار اليهود فى أمريكا والغرب جعل وجود اسرائيل كدولة يلوذون اليها فى حالة عودة موجة المعاداة للسامية أمرا مستبعدا وأن اسرائيل لم تعد الا رمزا للكبرياء والاعتزاز فقط وليست لها قيمة مادية كملاذ من الاضطهاد لقد تجاوز العالم المتحضر فيما يبدو الحاجة الى تحويل أقلياته الى أكباش فداء موضوع للأضطهاد والقهر .

والأرجح أن القوى المدعمة للاستقلال وفك روابط الاعتماد هى التى تتقدم رغم جاذبية النكوص الى الحالة الأعتمادية . وعليه فيكون على كل من مصر و اسرائيل أن تبحثا عن مصالحهما الذاتية حتى لو كان فى ذلك بوادر خلاف مع حلفائهما ومدعميهما السابقين وهم . العرب على الجانب المصرى والاميريكيون على الجانب الاسرائيلى .

الا أن المشكلة الحالية والتى قد تكون أحد العناصر الهامة فى تعثرهما لبحث نقط التقاطع فى المصالح بين مصر واسرائيل أن الطرفين لم يحققا بعد الدرجة الكافية من الثقة المتبادلة التى تجعلهما يجدان مصالح مشتركة مباشرة تتناقض مع الأطراف الأخرى بل أنهما قد اغفلا الحياد وانحازا فى اتجاه طرف دون الآخر بل على حسابه وهو الطرف الامريكى على حساب الطرف العربى . فالتنسيق مع أمريكا تنسيق كامل ومفصل بينما يكاد يكون اغفال الطرف العربية كاملا ولم يعد يربط بين مصر واسرائيل من جانب والدول العربية من جانب آخر غير امريكا ، وان كان هذا لا ينطبق على المستوى الشعبى حيث نجد الروابط المصرية العربية على

هيئة الثلاث ملايين من العمال المصريين المتناثرين فى

الأمة العربية . بينما نرى الروابط الشعبية على المستوى
الاسرائيلى العربى من خلال الاتصال المباشر
بين الشعب العربى الفلسطينى سواء داخل اسرائيل نفسها
(حوالى ستمائة الف) فى فى الضفة الغربية (حوالى مليون)
وغزة (حوالى خمسمائة الف) ولكن ما نشير اليه هو
التنسيق الحكومى، فالقيادات الفلسطينية الممثلة فى
منظمة التحرير فى حالة خصام مطلق مع النظام الاسرائيلى
وان كانت لا تخفى اتصالها بالاتجاهات الانسانية
واليسارية داخل اسرائيل، وكذلك من فى حالة خصام مطلق
ظاهريا على الاقل، مع النظام المصرى، رغم أنها لا تخفى
رغبتها فى ابقاء الروابط الشعبية مع مصر ومن أهمها
ابقاء قنوات التعليم الجامعى مفتوحة بين طلاب فلسطين
وبالتحديد غزة وبين الجامعات المصرية ونرى كذلك الحكومات
العربية فى حالة خصام مطلق مع كل النظامين المصرى
والاسرائيلى رغم قيام التطبيع التجارى مع اسرائيل
على هيئة استيراد العرب للمنتجات الزراعية من
اسرائيل عن طريق الاردن، ومع مصر على هيئة استخدام
العمالة المصرية . ولعل مصدر هذا التفكك والخصام يرجع
جزئيا الى وجود الاتحاد السوفيتى كأحدى القوتين العالميتين
التى تريد ان تأخذ نصيبها فى السيطرة على المنطقة
فتغذى اطرافا ضد اطراف وبالتنسيق او الوفاق مع الولايات
المتحدة . ولكن القاء تبعة التفكك والضعف العربى على
القوى العالمية ، امريكية كانت أو سوفيتية ، أمر يسير
بل ويعفى العرب من مسئوليتهم وما آلوا اليه ، والواقع فأن عليهم ان
يحثوا فى داخلهم عن دورهم فيما وصلوا اليه من تفكك وضعف
وصراع . وهنا تبرز الصراعات المحلية على السطح بأبعادها
المختلفة ومنها مثلا التناقض بين المال النفطى والممثل
فى الدول المنتجة للبترول والمستوردة للعمالة والحضارة

بين العمالة الضائعة والصانعة للحضارة المنتجة والممثلة في الدول المزدحمة بالسكان والعمالة بما يفوق احتمال أرضها كمثله أو الدول التي بلا أرض أصلا كفلسطين، وهناك بعد آخر للصراع في المنطقة وهو التنافس على زعامتها، فهناك العراق على الجانب الشرقي الذي أصبح يملك فوق الحضارة نفطا وأرضا وقدرة على استيعاب العمالة (وبالمناسبة فان أكرم وضع للعمالة المصرية هي ماتوفره العراق بالمقارنة مع غيرها من الدول النفطية) . بينما تتمركز مصر في الوسط جغرافيا وتملك من القوة الانتاجية والعسكرية والحضارية مايجعلها أهلا للقيادة، ولكن ينقصها البترول، وعلى الجانب الآخر نجد الجزائر بقوتها العسكرية والنفطية تواجه المغرب بتراثه الحضاري وبنيانه المتماسك بالاضافة الى قوته العسكرية المنظمة . أما ليبيا فهي تملك من الطموح والمثالية والمال والسلاح مالاتستطيع أن تنفذه بامكانيتها البشرية المحدودة، فاذا أضفنا الدائرة الاسلامية الى المنطقة فسوف نجد أن ايران قد بزغت فجأة كأمل لقيام بداية الثورة الاسلامية التي تنتشر شعلتها عبر شعوب المنطقة فتوحدها، الا أن الاندفاع الشبابي الذي غلب عليها جعلها تتحول الى قوة متفككة من الحراس بدلا من أن تكون قوة موحدة للعالم الاسلامي، واختارت أن تحارب أمريكا بالاستيلاء على خمسين مواطنا أمريكيا ابرياء بدلا من الاستيلاء على دول الخليج والجزيرة العربية، أو بتعبير أكثر انسانية من توحيد ما تحت راية الثورة الاسلامية، بل ان حالها اصبح يغري العراق بالتهامها، وهو منافستها في حلم السيطرة على دول الخليج والجزيرة العربية والمشرق العربي بالمملكة بما فيه سوريا والأردن . وذلك كبديل للزعامة الأيرانية للأمة الاسلامية أو الزعامة المصرية للأمة العربية الشاملة .

أى عوامل المنافسة والصراع الكامن والظاهر بين دول المنطقة يجعل حلم توحيدها وتنسيق قواها أمرا مستبعدا فى القريب العاجل • ولكننا اذا رجعنا سنوات للوراء فسوف نجد كيف كان احتمال السلام المصرى الاسرائيلى ذاته حلما بعيد المنال وما كان مستحيلا بالامس صار واقعا اليوم وعليه فما يبدو مستحيلا اليوم قد يكون ممكنا وميسرا فى الغد القريب وهل هناك مايمنع طرح الأصلاح كبديل ممكن ووضع أسس للتنبؤ بالمستقبل أستعدادا لاستخدام قوى التاريخ بدلا من الأنجراف مع تيارها أو التخلف عنها •

ولعلنا لو بدأنا بتصنيف دول المنطقة الى دول لم تذق ثمن الحرب الحديثة بعد ومازالت تتحدث عن الحرب بقيم الفروسية والبطولة بدلا من منظورها الحديث هو الدمار والضياع وتبديد الموارد • وفى ذات الوقت لاتزال اعجز من أن تخوض حربا حديثة فعالة مع عدو له وزن ،أو بشكل يخل بموازين القوى فى المنطقة • هناك لدول امتلكت من القوة العسكرية مايجعلها تجازف بالحرب كحل ممكن للصراعات والمثل الحالى لها هو مايدور بين العراق وايران وما يمكن أن يدور بين الجزائر والمغرب ثم المستوى الثالث والذى وصلت اليه الدول العربية عامة وهو مرحلة مابعد الحرب والاقتناع بامكانية حل الصراعات بوسائل غير حربية مع الاحتفاظ بالقوة العسكرية مع الاحتفاظ بالقوة العسكرية كقوة رادعة ومانعة للحرب وهذه هى المرحلة التى وصلت اليها كل من مصر واسرائيل •

وفى ضوء هذا التصنيف فانه من الممكن أن نتصور أن تنتقل كل من العراق وايران قريبا الى حالة مابعد الحرب وأن يبدأ الصلح بينهما بالوسائل السلمية وربما بوساطة

او قرض من الولايات المتحدة . وهو يكاد يشبه ماتم بين مصر واسرائيل . ولعلنا نستطيع ان نحلم ببداية مرحلة جديدة يمكن بواسطتها نشوء لغة للحوار بين هؤلاء الاطراف جميعا وتكون هذه النقطة هى بداية التعاون المحلى لحل الصراعات بدلا من الخصام او الاعتماد على وساطة امريكا .

ان الوسيط بطبيعته لابد وان يتقاضى عمولة عن دوره وهى عمولة يتقاضاها رغم انه اقل الاطراف خسارة فى التنازلات المتبادلة وبالتالى هى عمولة تفوق فى قيمتها حجم الدور الذى يقوم به ، وهى بالضرورة تستقطع من الطرفين المتصارعين .

ان السلام المصرى الاسرائيلى وان كان فى ظاهره مؤيدا ان لم يكن مدفوعا بالوساطة الامريكية ، الا أنه على جانب آخر يمثل مصلحة مباشرة، وملموسة للطرفين المتصارعين واذا كان هناك ماتأخذه امريكا على مصر فهو ليس ان مصر سعت الى السلام ولكن أنها بادرت به بارادة مستقلة اى أنها فعلت ماتريده امريكا ولكن بدون أمر او إذن منها ،وهو الأمر الذى يقلل من وزن امريكا كوسيط يتلقى عمولته فى مفاوضات السلام .

ولذلك فأن دول المنطقة سوف تكتشف ضرورة أن تبادر هى بحل صراعاتها بمبادراتها المحلية صادقة فى هذا من مراعاة مصالحها الذاتية دون الاعتماد على الوساطة الخارجية أمريكية كانت او أوروبية أو سوفيتية .

ولعل التجربة المصرية الاسرائيلية تمثل بداية لهذا الاتجاه . فهى تتأرجح بين الاعتماد على الوساطه الامريكية وبين الاتصال المباشر بين الطرفين . وفى هذه الحالة فأن نجاحها يمكن أن يكون نمطا يسير عليه حل بقية الصراعات فى المنطقة واكثرها عجلة الصراع العراقى الايرانى على

جانب والخلاف المصرى الفلسطينى على الجانب آخر . اذ أن حل هذه الصراعات قد يمثل نقطة بداية للتنسيق بين القوى المحلية فى المنطقة التى يمكنها بالتالى أن توحد اعضاءها وتنسق خلافاتهم وتجد نقط الالتقاء فى المصالح التى توحدهم فى مواجهة القوى العالمية الغربية أو الشمالية أى امريكا والاتحاد السوفيتى وأوروبا . وذلك كبديل للوضع الحالى الذى يجعل دول المنطقة تتسابق على الارتماء فى أحضان هذه أو تلك من القوى العالمية . وبهذا تصبح المنطقة فعلا قوة عالمية نداً لغيرها وليست تابعاً أو ضحية .

وقد يتبادر الى الذهن كيف يمكن أن تتقاطع المصالح بين قوى بينها من الأختلاف والتصارع كما بين مصر وأسرائيل وفلسطين وايران والعراق . ولكن نظرة سطحية الى خريطة أوروبا بل الى خريطة يوغسلافيا سوف تبدد ذلك الشك . فالذى يحكم التحالف الدولى ليس هو الأنتماء العنصرى أو الدينى أو التاريخى فحسب ولكن وجود أساس منطقى عصرى يضع المصالح الملموسة للقوى المعنية فوق كل أعتبار .

فالتحدى الذى يواجهنا اليوم هو أمكانية اقامة مثل هذا الحوار العاقل بين الاعداء والاصدقاء على السواء، والمهم أن يبدأ الحوار حيث يوجد الاحتكاك الذى يحتم ضرورة البحث عن حل للصراع الحاد . ومناطق الصراع الحاد التى تواجهنا اليوم هى بالتحديد فى الساحة المصرية الفلسطينية الاسرائيلية . وهو الحوار الذى يتوفر للمثقفين المتنورين على جميع الجوانب .

والذى يمنع حدوث مثل هذا الحوار على الجانب المصرى عدة عوامل، فهناك العوامل السياسية التى تعكس تعثر المفاوضات الرسمية حول الحكم الذاتى بين كل من مصر واسرائيل والمثقف المصرى المتوسط والذى لايريد ان يجازف بمعارضة

حكومته رغم الضمانات الديمقراطية ورغم غياب المفعول الملموس فقوانين العيب وغيرها من القوانين التى قد تبدو وكأنها ارتداد عن الخط الديمقراطى ،هذا المثقف يتردد فى أتخاذ خطوة فى أتجاه الحوار فى الوقت الذى تعلن حكومته أنقطاع المفاوضات أو تعثرها .بينما يجد المثقف الذى يعارض الحكومة ،اصلا فى مقاطعته تعبيراً عن موقفه المعارض فى أطار غير مباشر، فهو يوجه معارضته الداخلية الى الخارج متمثلة فى معارضته لخطوة السلام أصلا . بينما نرى من يؤمن بخطوة السلام من حيث المبدأ ولكنه يخشى أن يكون سلاما ناقصا لايفتح بابا للحل الشامل الذى يشمل الأطراف الفلسطينية والعربية فيجد نفسه فى حالة تشتت للولاء بين عروبته ومصريته . وختاما فهناك الدوافع النفعية المادية وهى أن الذى يقبل بالحوار يعرض نفسه للمقاطعة العربية . ولما كان التعاقد بين الدول العربية ومصر يتم على أساس فردى وبالحد الأدنى من الرعاية الحكومية أو النقابية من جانب مصر فأنه من الممكن تخويف " السايبة بضرب المربوطة " .

الا أن هناك فائدة وطنية وقومية ملحة للبدء فى مثل هذا الحوار : أن الشارع الاسرائيلى يكاد يكون معزولا عن مثيله المصرى ،وأتصاله الرئيس بمصر يتم من خلال تمثيلها الرسمى وأعلامها ،علاوة على اللقاءات التى تتم بشكل غير منظم بين السياح الذين يتوافدون على مصر من اسرائيل .
والشارع الاسرائيلى يدرك النية الصادقة من قبل القيادة السياسية المصرية فيما يتعلق بجدية الرغبة فى السلام ولكن يقلقه ان الأعلام وأقلام المثقفين لاتعبر عن موقف موازٍ .ولهذا يخشى بشدة أن يكون السلام مجرد خطوة تكتيكية مؤقتة هدفها استرجاع سيناء وفض يد مصر من القضية الفلسطينية .وعلى هذا ليصبح التأثير فى الشارع الاسرائيلى قاصراً على القوى المحافظة والتى تجد التعبير الفاضح لها من خلال جماعة جوش ايمونيم

المتطرفة . وأما الحركات المعتدلة والقوى المستنيرة والتى تصب فى حركة السلام الآن أو شالوم آخشاف فتتمتع بشعبية ورغم أنها تفتقد الحجة القوية التى تقنع الجمهور بها الدرجة كافية بجدية وضرورة السلام . والذي يضعف هذه الحركة هو غياب المثقف المصرى عن الشارع الاسرائيلى حيث يمكن أن يجسد رغبة الشعب المصرى فى السلام العادل والأسس الرئيسية لهذه العدالة فى صورة حل القضية الفلسطينية فالمثقف المصرى المطلوب هو من هذا الصنف الواعى بأبعاد القضية مصريا وفلسطينيا وعربيا والذى ينطلق من نقطة ضرورة البحث عن حلول قابلة للتطبيق وليس من نقطة تبادل الأدانة والتهم حول من المسئول عن تعثر خطوات السلام .

وهناك على الجانب الفلسطينى واقع لابد من مواجهته وهو أن المقاومة الفلسطينية المستديمة تكمن فى هؤلاء الفلسطينيين الذين بقوا داخل الأرض المحتلة . واذا كان الاحتلال قد جردهم من السلاح النارى فلعلهم بصدد اكتشاف سلاح آخر أكثر نفعا فى ضوء الأنظمة البوليسية الحديثة . وسلاح المقاومة اللاعنيفة ومبدأ الثورة من أجل وليس مجرد الثورة ضد : من أجل تحرير الانسان من الظلم وليس ضد الظلم فى حد ذاته وفى هذه الحالة سوف تجد الثورة حلفاءها داخل الصفوف الأسرائيلية ذاتها بجوارها بدلا من الأعتماد على قوة خارجية سواء كانت عربية أو عالمية . ولذلك فأن الرغبة فى الدفاع عن قضيتهم يجب أن تتطور الى درجة أرقى فى التعامل . فبدلا من أن يكون التعامل بين منقذ عربى ومحتل اسرائيلى ومقهور فلسطينى يكون التعامل بين أنداد . والتعامل الذى يتطلب الحوار . والحوار مع الفلسطينين داخل الارض المحتلة متعثر . ويعثره من الجانب المصرى الموقف المقاطع لاسرائيل شعبيا والدول العربية (بما فيها فلسطين) رسميا . وهو موقف يضع العدو والصديق داخل هذه الحدود .

وخارجها في سلة واحدة .

ان عرب اسرائيل قد سبقوا بمراحل وأجروا مثل هذا الحوار مع يهود اسرائيل بل أشتركوا في مؤسسات لتنظيم ذلك الحوار مثل مركز الدراسات العربية اليهودية (جبعات حبيبة) وكذلك فان عرب الضفة وغزة مازالوا يترددون على باب الحوار معهم (كما حدث في الندوة التي اقامتها دار" نيو آوت لوك") بينما يقتصر حوار منظمة التحرير على ممثلي المنظمات الأسرائيلية الواضحة التعاطف مع قضيتهم. في حين ان هذه الخطوات في الحوار قد تمت جميعها فبالرغم من ذلك مازال المثقف المصري متخلفا عن الركب ومتشبثا بالوسائل البدائية في التحاور بالخصام والمقاطعة عاجزا عن اغتنام فرصة فتح الحدود بين مصر واسرائيل للأشتراك في مثل ذلك الحوار. والقضية ليست قضية تطبيع من عدمه فهذا أمر يحتاج الى اعداد طويل وتمهل ولكن القضية أن يستطيع المثقف المصري أن يواجه تحدي الحوار الحضاري بدلا من الأكتفاء بالمناداة بالمقاتلة حتى آخر قطرة في دم الشباب المصري . ولعله مما يلفت النظر ان العسكريين من أكثر الناس قدرة ورغبة في الحوار على الجانبين المصري والاسرائيلي هم أولئك الذين حققوا النجاح والبطولة في القتال . فالشجاعة أن يتمكن الأنسان من الدخول في القتال حينما يتطلب الامر ذلك ومن الدخول في الحوار السلمي المتحضر حين يأتي وقته .

فأهلا اذا بالحوار ،ولكن مهلا للتطبيع .

بارانويا

شخص أحضرته أسرته رغما عنه لانه يتصرف حسب أعتقادات وهمية خاطئة مؤداها أنه مبعوث العناية الآلهية وأنه يتلقى الوحى الذى يأمره بالدعوة . وبطبيعة الحال فأنه لايجد من يصدقه بل يجد الناس تسخر منه ولذلك فهو ينسحب من المجتمع ويناصبه العداء . فهؤلاء الناس لايفهمونه ، بل هم ضده ويحقدون عليه ويدبرون له المؤمرات . أنهم يتهامسون ويشيرون اليه . لقد أنسحب الى منزله وترك عمله . ولم يغير ذلك من الأمر شيئا . اذ أتضح أن المؤمرات تطله حتى وهو منغلق على نفسه . فها هى الأذاعة توجه برامجها ضده : أخذ يتجنب الأذاعة . ولكن المؤامرات تستمر . فهناك موجات لاسلكية توجه ضده وتراقبه كالرادار وتؤثر على تفكيره وأحاسيسه .

أنه لم يعد قادرا على العمل أو على الحب (أى تكوين علاقات طيبة مع الغير) . ولذلك فقد سئمت الأسرة أمره وأحضرته لكى تضعه فى رعاية المجتمع بأحدى المستشفيات المعزولة .

هذه قصة فى ختامها . وهى مع الأسف ماحدث حينما نترك المرض يتفاقم دون تشخيص مبكر ورعاية . ولكن الحكمة التى نخرج بها من تلك القصة تأتى حينما نتتبع خيوطها لنعرف بدايتها ولنتعرف على جوهرها . فالمرض العقلى فى النهاية هو عبارة عن كاريكاتور أو صورة مشوهة لما هو موجود فى تفكيرنا وسلوكنا اليومى .

مريض البارانويا الذى وصفناه أنما يقول بوضوح ما علمتنا التنشئة أن نخفيه . أنه يقول فى جوهر الأمر أنه مفضل عن العالمين . وأنه يستحق الرعاية دون مقابل

انه لايريد أن يبذل جهداً ليؤكد بواسطته قيمته وتقديره لذاته ولا أحقيته للرعاية والحب . ولكنه يعتقد ذلك ويعلن أعتقاده هذا على الملأ، ويفترض أن مايعتقده هو يجب أن يعتقده كل الناس . أنه لايستمع الا الى نفسه .

من منا لايخفى بداخله هذا الأعتقاد؟ فقد كنا جميعا فى يوم ما نتربع على عرش حضن الأمومة . كنا نعى أننا مفضلون على كل ماعدانا . بل مفضلون على ذات الام التى ترعانا . فالأم فى الأغلب تفضل أن تضحى بحياتها من أجل أن يبقى طفلها . فهى تفقد الجير من عظامها وتمرض بمرض لين العظام لكى تنشأ عظام جنينها والطفل الرضيع يعلم ذلك بجسده . فهو يعلم أنه لو بكى فسوف تهرع اليه أمه خادمة ، مفضله خدمته على أية متعة أخرى فى متناولها . قد لانتذكر هذه الخبرة الأولية بوعينا أو بعقلنا ، ولكن من المستحيل أن ننسى هذه الخبرة الوجدانية على مستوى أحاسيسنا البدائية . فقد تعلمنا ان ننساها بمعنى التوقف عن البوح بها والتصرف على أساس صحتها . وذلك نبعا من أكتشافنا أنه لكى نعيش مع الآخرين فلابد من التنازل عن ذلك الأعتقاد، اذ لو أصر كل فرد فى الجماعة التى ننتمى اليها أنه هو المفضل وأن الآخرين لابد وأن يدوروا فى فلكه ، فسوف يودى ذلك الى تناطح وتصارع بين الأفراد ينتهى بأن تنهار الجماعة . ولما كان الأنسان يتميز عن غيره من الكائنات الحية بقدرته الهائلة على التعاون الجماعى، فقد صاحبت هذه القدرة أيضا القدرة على أخفاء النزعة الفردية لتفضيل الذات .

الا أن الأخفاء لايعنى الأختفاء . فالأنسان يسعى الى أخفاء فرديته وحبه لذاته دونا عن الآخرين لأنه

يملك من الذكاء وبعد النظر مايجعله يعرف أن مثل ذلك الاخفاء هو فى الأمد الطويل أضمن طريق لأبقاء ذاته.
وأنه اذا تمكن من تحقيق التعاون الجماعى فأن ذلك سوف يضمن له بطريقة أفضل وجوده الذاتى . ولكن هذا المنطق وبعد النظر لايعنى أن الرغبة فى الأستمتاع بذلك الاحساس البداشى أنه المفضل دون العالمين قد أختفت ان الرغبة موجودة . والأحساس موجود . وكل ما أختفى هو الأفصاح والتعبير العلنى . والأختفاء درجات . فمنا من يخفى الأحساس والرغبة عن وعيه ، وأن كان هذا لايعنى الأختفاء على مستوى اللاوعى أو السلوك التلقائى أو الاحلام.
ومنا من يخفى الرغبة على مستوى السلوك الأرادى بمعنى أنه يعى الرغبة ولكنه يتحكم فى سلوكه بما يجعله لايعبر عنها ومنا - مثل مريضنا - من لايخفى الرغبة ويتصرف على أساس وجودها ولايعترف بغيرها بدرجة تجعله يدخل فى تناطح مباشر مع المجتمع المحيط به .

وباختصار فأننا جميعا نملك الأستعداد للبارانويا او قل أننا جميعا نعانى بشكل مصغر أو آخر من أشكال البارانويا . ولذا فليس منا من هو بلا خطيئة حتى نرجمها بحجر . والأجدر بنا أن نحاول أن نتفهمها ، بدلا من أن نعجب لها ونسخر منها ونستخدمها كوسيلة للشباب . فاذا ما أختلف عنا صاحب رأى قلنا عنه مجنون . واذا كان الرسل والأنبياء قد تم ختمهم ، فنتذكر التاريخ أنه قلما جاء نبى ولم يشر اليه بالجنون . وعلى ذلك فيجب أن نفكر مرارا حينما نجد بلتصرار أن نستخدم الجنون كتهمة وسبة . فقد يكون المجنون هذا سلالة نبى أو بديلا مريا له بل لعليه رجل صالح أو فنان مبدع أو عبقرى مبادر .

البارانويا والمجتمع :

اذا كنا جميعا نملك الأستعداد للبارانويا ،فلعل هناك مكان فى المجتمع لكل من يعانى من درجة أو أخرى من درجات البارانويا . فالذى لايعانى من درجة كافية من البارانويا قد يميل لأن يزدرى نفسه وينكر حقه فى الوجود ويعتقد أنه أقل من غيره . فنجده تابعا وخاضعا . وقد يكون وراء هذا الأعلان لدونيته احساس مناقض بالعظمة ولكنه محبط ،أى احساس بأنه فعلا أفضل القوم ولكنه أحبط فى محاولاته لتحقيق ذلك فأخفاه بابراز نقيضه . فكثيرا مانجد أن الأنسان الخاضع ما هو الا طاغية قد تراجع ولعله ينتظر اللحظة المناسبة للأنقضاض فى محاولة لقوم سيدهم .

وبطبيعة الحال هناك العكس أى الذى يميل الى تأكيد ذاته وأعلان أحساسه بالأفضلية على الآخرين . وهذا النمط قد يجد من يؤكد له هذا الاحساس فى الأشخاص من ذوى النمط السابق . فالسيد سيد لان هناك من يؤكد له ذلك . وقيصر ذئب لأن هناك من الرومان من يؤكد له أنه خروف ونابليون له جوزفين وعنترله عبلة . والراكب له مركوب والزعيم له تابع .

كلاهما وجهان لعملة واحدة : الذى يعتقد أنه عظيم والذى يعتقد أنه دنىء ،وكلاهما يكمل الآخر ولكن التكامل ينفى التشابه .فكلاهما يرى الآخر مختلفا عنه بل مناقضا له . ولذا فكلاهما يشعر بالوحدة وانعدام الندية وغياب الحوار . والوحيد خائف ،لأنه يعلم أن الآخر يعد له العدة ليجهز عليه .

فهو وأن كان سيدا يعلم أن العبد يضمر له الكره وينتظر اللحظة المناسبة لينقض عليه ويحل محله .

مثل هذا المجتمع الذى يتشكل اساسا من التكامل

لا التشابه.وبمثل هذا المجتمع يكون غالبا ضعيف البنية غير متماسك ،ويسهل الانقضاض عليه من الخارج . وهو يرد على الانقضاض بانقضاض مضاد أو انقضاض وقائى وينتهى به الأمر لأن يكون فى علاقته مع ذلك الذى تصارع معه اما سيدا او مسودا . فهو لايعرف الندية فى داخله. وبالتالى لايعرفها فى علاقته مع الخارج .

تفاقم البارانويا فى المجتمع :

فى كل مجتمع قيمة يتكالب عليها الناس . قد تكون الملكية أو السلطة أو الأحترام . ولأن التكالب يعنى أن يسبق البعض البعض . فالنتيجه أننا نجد فى كل مجتمع قلة تحصل على أكبر قدر من القيمة ،وكثرة تحصل على نصيب أقل من القيمة . فالقلة تسمى الصفوة والكثرة تسمى الجمهور وتمثل الصفوة التى تحصل على القدر الأكبر من القيمة حالة البارانويا ،حالة الأحساس بالأفضلية . وعلى الجانب الآخر فأن الجمهور تظهر فيه البارانويا المعكوسة وهى الاحساس بالدونية. ويزداد التناقض بين الطرفين والوحدة المتبادلة ينبع منها الخوف المتبادل .وتتدهور العلاقة مبتعدة عن مفهوم الندية لضعف التماسك الذى يحافظ على بنيان المجتمع ويزداد الأغراء الخارجى بالأنقضاض عليه .

والصفوة هى المسئولة وهى الواجهة الخارجية المجتمع . ولذلك تسعى الى درء العدوان خارجى باقتصاصه (بيدى لا بيد عمرو). أنها تدعو المعتدى وترحب به كوسيلة متبقية لقهره . ويبدو للجمهور أنها قد توحدت مع المعتدى الخارجى ووضعت يدها فى يده . ويزداد عدوانه تجاه الأثنين معا . ويتهدد البنيان الداخلى .وتسعى الصفوة المسئولة جاهدة للحفاظ على البنيان الداخلى . ومن وسائلها الأنكار: أن تؤكد لنفسها أنه لايوجد عدوان فى فى الداخل . وان اى مظاهر عدوانية ماهى الا حالات شاذة

لعلها أنحرافات أخلاقية أو مرضية. لعلها مجموعة من الحاقدين أو الملحدين .

ويخف التناقض بالفعل ولكن وقتيا. ويمكن تجنب رؤية التناقض عند تجسيده على هيئة هؤلاء المنحرفين ثم عزله ويبدأ الحوار من جديد. وهنا يتضح ان التناقض قد أخذ شكلا جديدا آخر . لقد أختفى اللصوص والشواذ والمنحرفون ولكن التناقض بين الصفوة والجمهور مازال موجودا . ومرة أخرى قد تلجأ الصفوة لنفس الحيلة . لاتناقض مع الجمهور. ولكن التناقض مع قلة ،مع مجموعة بعينها ،وربما مع بعض أفراد .

ولكن الى متى يمكن استخدام الأنكار؟ والتجنب والتغافل عن الحقيقة، فإن طبيعة الأمور أن تكون الحياة صراعا بين متناقضات . وأن الصراع داخل المجتمع بين صفوة وجمهور . وخارج المجتمع بين حلفاء الصفوة وأعدائها وسط الجمهور . وأن الخيار لنا ليس بين الصراع أو السلام ولكن بين أن نعى الصراع ونتعامل معه بالعقل والحكمة أملا فى أن ننقله من حالة الصراع البدائى البدائى حيث البدائل بين قاتل ومقتول الى صراع أرقى يعود بشىء من المكسب على الطرفين . أى بدمج الصراع مع السلام والسلام مع الصراع ،أو تجاوز تلك المتناقضات الوهمية التى يبتدعها العقل ،والتعامل مع الواقع كما هو وليس كما نعقلنه .فالخيار اذا ليس بين نقيضين ولكن بين أن نعى أن التناقض حتمى ولكنه وهمى فنتقبل الصراع والسلام معا ،أو لانعى فندخل أطرافا فى صراع وهمى .

وبالتأكيد ليس حل الصراع بانكار وجوده ،أو بتجسيده على هيئة أعداء محددين يمكن عزلهم وتجنبهم .

البارانويا والصراع العربى الأسرائيلى :

اسرائيل هى حيث يعتقد الناس أنهم أفضل من غيرهم وأنهم شعب الله المختار . وأن الآخرين يناصبونهم العداء واذا لم توجد هذه الظروف أنتفى تعريف اسرائيل نفسها ولذا وجدت اسرائيل نفسها وسط الأمة العربية فى زمننا هذا . فهى جسم غريب تكون أساسا مما تبقى بعد أن فشل الغرب فى التخلص من فئة منه كما كان يأمل هتلر . أنها تتكون من ضحايا الغرب . ولكنها فى النهاية من الغرب .وفى مواجهة العرب فهى الجندى الغربى المقدام الذى رضى أن يبقى وسط العرب بعد أن تمكن العرب من طرد الغرب وبالذات فى الجزائر حيث كاد الغرب أن يستوطن . أنه أيضا الضحية الذى يتمكن الغرب بواسطته من التكفير عن ذنبه وهو أنه ظالم ومستبد . فهو يكفر بأن يغدق على اسرائيل . ولكنه فى ذات الوقت يعلم أن فى أغداقه هذا أكثر من تكفير. فهو يقوى حليفه ويدفع أجر الجندى المقدام الذى وقف فى الصفوف الاولى فى الصراع مع العرب . أنه ينتقم من العرب ويسعى لأخضاعهم أو اطالة خضوعهم الذين ظنوا أنهم تجاوزوه .

أنه يغذى البارانويا فى اسرائيل بأن يؤكد لها أنها بطله المقدام ،أنها داود "شجاع فى مواجهة العملاق جوليات. أنها قلعة الديمقراطية والتصنيع والحضارة وسط الظلام .

وتسعى مصر صادقة لكسر هذه العقدة . فالبارانويا ليس لها خاتمة الا بأن يكون صاحبها أما قاتلا أو مقتولا. ومصر بملايينها الأربعين وبعشرات القرون من التاريخ تعلم أن وجودها راسخ . وأنه مهما حاولت اسرائيل قتلها فلن تموت . مصر تعلم أنها باقية . مصر قوية بشقتها مهما أضعفها الجوع والقهر مؤقتا .وقد استطاعت مصر من هذا الاحساس الراسخ ان تقول

بالقوة أستطاعت مصر أن تقول لاسرائيل : اذا كنت مصممة على الوجود بيننا فلتتواجدى بيننا . وتفاجأ اسرائيل. لأنها بالتعريف تعى وجودها من منطلق الوجود ضد وليس الوجود مع . أن وجودها هو مايتأكد بفعل الصراع والحصار بالعداء . وفك مصر الحصار يتنافى مع هذا التصور الأساسى للذات . وتجد اسرائيل نفسها فى مأزق : أن عليها أن تعيش فى سلام مع جيرانها . فترتبك لفترة . ولكن الطبع يغلب التطبع . وتسعى اسرائيل جاهدة لعرقلة مساعى السلام بقدر الأمكان ولكن مصر لاتهتز ولاتقع فى الفخ . فلا تجد الا أن تستدير شرقا لتضرب فى لبنان ثم فى سوريا ثم العراق . أما الأردن والسعودية فلا عجل وخاصة أنهما فى حماية أو تحت سيطرة السيد الامريكى الغربى المشترك .

وجميع الأفراد فى اسرائيل يحلمون بالسلام ويتمنون السلام ،ويقدرون خطوة مصر . ولكن الكل لايساوى مجموع الجزئيات بل ان له صفات خاصة ومميزة وأضافية . واسرائيل كمجموعة لاتساوى جمع الأفراد الاسرائيليين . اسرائيل كمجموعة هى ذلك الخوف من الأندثار والأختفاء والشعور بالضعف الذى يأخذ شكل الغطرسة والغرور والرغبة فى السيطرة على كل قريب بل كل بعيد .

وماذا بعد ذلك ؟ هل تعود الأمور الى ماكانت عليه ؟ بارانويا ؟ فتختفى الصراع الداخلى بين الصفوة والجمهور فى مصر ،والصراع الداخلى العربى بين الصفوة النفطالية والجمهور العامل من مصر وفلسطين والسودان وغيرهم ،ليحل محله بارانويا أخرى : صراع مع عدو خارجى نوجه نحوه عدائنا . هذا هو الطريق الأيسر . والصفوة فى المنطقة العربية (النفطالية) وفى مصر تفضل ذلك .

ولكن هناك خطورة الحلول البارانوية . وهى أن الأسباب

الأصلية للصراع تبقى رغم حيل الأنكار وتحويل العدوان .
ومن أهم تلك الأسباب ـ عدالة التوزيع الداخلى بين الصفوة والجمهور على النطاق المصرى والعربى ـ الفجوة الضخمة بين العالم الشمالى (بشقيه السوفيتى والأمريكى وبينهما أوروبا) والعالم الثالث النامى . فالعدو المشترك الأكبر لمصر ليس اللصوص ولا الملحدين ولا العرب ، وكذلك العدو المشترك للعرب ليس مصر ، والعدو المشترك لهم جميعا ليس حتى اسرائيل فى حد ذاتها . ولكن العدو الحقيقى والأكبر هو ذلك التحالف الخفى بين العمالقة فى الشمال الذى يخشى ميلاد عملاق ينافسه فى هذه المنطقة . وذلك العملاق هو الأمة التى يمكن أن تنشأ بفعل الدوافع الطبيعية لميلادها ـ العروبة والأسلام من جانب ، والتناقض بينها ، كممثلة على المستوى العالمى للجمهور ، مع الصفوة العالمية الغربية من جانب آخر .

البارانويا أن نجسد العدوان فى كيان محدد وهمى وغالبا ، بغية تجنبه أو عزله . وأن نقول أن هذا هو العدو . والسليم أن نواجه حقيقة الصراع على كل المستويات ـ داخليا وخارجيا . وأن نتمكن من تحديد الأولويات : من نوجه نحوه صراعنا قبل من ؟ وكيف نضرب أكثر من عصفور بحجر ؟ الصفوة المصرية ؟ الصفوة العربية ؟ الصفوة الاسرائيلية ؟ الصفوة الغربية ؟ الصفوة أينما كانت ؟ أم نضرب الجمهور ؟

فى الصراع طرفين : أحدهما غالب ومعتدى ومضح والآخر مغلوب ومعتدى عليه وضحية . وخارج الصراع حكم . الا ان الحكم العادل ينحاز الى الطرف الثاني حتى يتساوى مع الاول . وأغلبنا يفضل هذا الدور . ولكن ما دامت الحياة صراعا فلامفر من أن نكون طرفا . وفى هذه الحالة تفضل الأول . اذ من المؤلم أن يكون المرء ضحية .

ومع ذلك فكثيرا مايختار المرء هذا الدور ، أن يكون ضحية . فالضحية تمتاز بأنها تجتذب انحياز العدالة . بل كثيرا ماتأخذ العدالة فى يدها لتنتقم مباشرة من غريمها حتى تنقلب الأمور ويصبح المضحى ضحية والضحيةمضحيا . ولعل التوليفة المغربيةان يدعى المرء أنه ضحية بينما يمارس عملا للتضحية بغيره . أنا لاأعتدى بل ادفع العدوان وأحقق العدالة .

وعقيدة اليهود أنهم كانوا أول ضحية حينما قدم اسحق رقبته الى أبيه ابراهيم عليه السلام . بينما عقيدة العرب انهم اول ضحية بناء على أن الذى قدم رقبته هو اسماعيل. واذا كان الأمر قد حسم عمليا بأن افتدى الله الأبن بالكبش الا ان الخلاف مازال قائما ،والعقيدة اذا لم تلائم الواقع تتحول الى عقدة نفسية . فكل من العرب واليهود حتى يومنا هذا فى موقع المنافسة على دور الضحية فالذى يدعى الصفةلنفسه سوف يكسب العدالة فى صفه ، بل يأخذها فى يده ويبادر بالعدوان .

من معالم اسرائيل اليوم متحف الهولوكاست الذى يصور اشكال التعذيب والأبادة التى تعرض لها اليهود . ومازال الدعم الغربى لاسرائيل يعتمد الى حد كبير على اثارة عقدة الذنب لما اقترفه العالم الغربى فى حق اليهود .

بدلا من الذهب عن اللذة الفورية والحسية .فالواقع يلفظ المثقف ،يفصله وينفصل عنه . ومادام منفصلا عن الواقع فلا اقل من ان يخفف من ألمه بأن يبرر انفصاله .فهو منفصل لأنه سباق . وهوعاجز لأن الواقع ظالم .والمهم انيكون الخطأهناك خارجه .ومادام لاينال العنب فليقل عنه انه مر .

قد يسعى لأن يتمسك بجموده فيقول انّ الواقع الحالى ردة . بينما موقفه الجامد هو عين التقدم . ومادام الماضى، الذى يتمسك به متجمدا ،ثورة ،فلابد ان يكون الواقع ،الذى ينفصل عنه عاجزا ،ثورة مضادة . انه ينسى ان الثورة تغيير وتطوير وتجاوز للواقع ،وليس استعادة الامس الذى كانَ تطورا لأمس الأول وثورة عليه فى حينه ،ليجعل من الامس غدا .والغد جديد. ولابد له من فكر جديد ومبدع وخلاق. والمثقف الذى اصابه الجمود لايريد معاناة الابداع . ولذلك لايجد امامه الا أن يقتل الابداع . فظهور الابداع فى غيره يذكره بأن الابداع فيه قد مات . والقتل عنده أفضل من الموت .

كان المثقفين يتوانسوان فى رفض الواقع . الى ان أخذ الواقع يصدمهم ويفككهم . اذ فى تصادمهم العاجز مع الواقع تفتيت لهم دون ما تأثير على الواقع . وهنا يزدادالعجز ويزداد الاحباط . ويستمر البحث عن تخفيف له . ومادام الواقع أعتى من ان يتأثر بهم فلامانع من بديل رمزى له. ومادام العدوان لاينفذ الى الخارج فلا مانع من تحويله للداخل .وينقسم المثقفون على بعضهم . بعدأن كانوا متحدين فى اتهام الواقع وادانته، تفككوا ووجهوا الاتهامات لبعضهم . افرزوا منهم الخائن والعميل والمبرر للواقع . أدانوه بأضفاء الاسماء الرذيلة عليه ثم رجموه بحجر. حولوه الى كبش وافتدوه . وقدموا الفدية الى .. ذاتالواقع

الذين عجزوا عن تغييره .

وهنا التحذير: ان موت الفدية قد ينفس عن غضبهم ويحيد غضب الواقع عنهم ونحو غيرهم . وينال لهم بعض الرضاء وخاصة "النفطمالى" العربى . ولكن الى حين . فالأزمة تعود . لأن الواقع يتغير. والمثقف عليه ان يلاحقه ويسبقه ويؤثر فيه . . الا تأثربه وصار ضحيته ، او تمادى هو فى عملية التفدية الى ان قضى على نفسه .

ان المثقف الذى يرفض الواقع المصرى ارضاءا للواقع العربى وظنا منه انه يدعو الى ثورة او تقدم بينما هو لايفعل سوى ان يحلم بأمس أفل ، سرعان ما يواجه الحقيقة المرة ، أنه لم يعد يخدم الا رجعية عربية تفوق مايظنه رجعية أو ردة فى واقعه . وينطبق ذلك على الرجعية المكشوفة او المتخفية فى شياب تقدمية . فالمشكلة تفرض نفسها وتلح وحلها ليس بيسير ولاجاهز . فهو الابداع والخلق . وهو أن يبحث عن الجديد الذى يتجاوز واقع اليوم ، ويستطيع ان يرى فى اليوم ماهو تجاوز للأمس . انه الأمل مع النظرة الواقعية بكل مافيها من مشاكل ومساوىء . مزيج من تفاؤل الاحساس مع تشاؤم الادراك . والجديد غريب وشاذ ومخيف . ومثلما يطلب المثقف من الواقع ان يتحمله ويستمع اليه فعليه ان يتحمل اخاه ويستمع اليه وان يحذر من افتداءه . ولعل بذلك يتحمل الجديد فى نفسه ، ويمهد لميلاده . فعلاج الموت هو الميلاد الجديد . والميلاد له آلامه . وعلاج القتل هو الانجاب والانجاب أيضا له آلامه .

الدولة هنا لايصح لها الحياد . فالحياد فى معركة بين قوى وضعيف لهو انحياز للقوى . الدولة مسئوليتها العدالة والنظام ومسئوليتها فى هذه الحالة ان ترعى المثقف ، وبالتحديد ان ترعى المثقف الناشىء المبدع المجدد . المثقف يتصارع مع الواقع الذى أله الذهب . والمثقف المبدع يتصارع مع الواقع ومع

القديم على الســــــواء .

الدولة فى حاجة الى المثقف .والمثقف فى حاجة الى دعـــــم .
والدعم فى حاجة الى مال .والمال بيد من يكدسه . ومن يكدسه
يفتدى المثقف له . فعلى الدولة ان تحمى نفسها ،بأن تمارس
دورها فى العدالة ،بأن تنحاز للطرف الاضعف ،بأن ترعـــــــى
المثقف ،وتوزع المال المكـــــــدس .

هناك قاعدة نفسية تقرر: ان الافراط في الشيء يعني محاولة اخفاء نقيضه. أى اذا افرط الأنسان فى الأحساس بالعظمة فأنه غالبا مايخفى احساسا بالدونية؛ وكذلك العكس.
كان اليهود من أوائل الموحدين الذين اتبعوا الرسل وسط عالم يغلب عليه القصور فى الايمان. فكانوا يشعرون بالعظمة وأنهم شعب الله المختار. فكان من الطبيعى ان يكون الرد على ذلك من قبل الآخرين هو ادانتهم والحط من شأنهم واضطهادهم. فكان عليهم ان يضاعفوا الجهد لكى يؤكدوا ايمانهم بأنفسهم، بأنهم المختارون وان غيرهم الضالون. فكان عليهم ان يهادنوا الآخرين ويقبلوا ظاهريا بالأدانة والاهانة والاضطهاد.

ولكن للألم حدوداً والشعور بالدونية مؤلم. وجاء يومهم حين استطاعوا أن يقتطفوا ثمار جهدهم بأن يتجمعوا وسط قوم أهلتهم القرون الحديثة لتبادل الأدوار معهم بأن يقوم العرب الفلسطينيون بالذات بدور المضطهد المدان بما يسمح لليهود بالقيام بدور المتعاظم. ووصل التبادل الى ذروته فى ١٩٦٧ حينما بلغ الاعتقاد آنذاك أن جيشهم لايقهر وان العرب لن تقوم لهم قائمة وأنه لايوجد شيء اسمه فلسطين. واصبح التمادى فى التناقض بين التعاظم والتهاون عائقا جوهريا لامكانية الحوار. وحتى لو كان التناقض بين ناموسة واسدفنا له ثمنا. و كان الثمن أن يعود الصراع بشكل ما، والصراع فى المنطقة يعنى ان يحترق البترول ويموت العالم الاوروبى بردا او يقبل بأن يتحكم فى مدفأته غير أمريكا وكان لابد من ضربة علاجية للطرفين تزيل قدرا من الاحساس بالدونية لدى العرب وقدرا من الأحساس بالعظمة لدى اليهود. وكانت حرب ١٩٧٣ وأصبح الحوار ممكنا وانقذ

البترول من الاحتراق او الاحتماء بغير امريكــا .

الا ان العالم الثالث ، والشرق الأوسط بالذات ، لايسير تماما بقوانين المنطق . وتزدهر فيه الدوافع الذاتية .العقائد تكاد تغلب على المصالح . والعقد تلون العقائد ، والعقدة الكبيــرة هنا هى ذلك الشعور المفرط لدى اليهود بالعظمة ، والذى نشأ حديثا كرد فعل لشعورمناقض قديم بالدونية والاضطهاد مقابـل شعور مفرط آخر بالعظمة لدى العرب قديما ولكن أغشى عليه حديثا شعور حديث بالدونية والاضطهاد .

والمنطق أن يستمرالحوار وتبحث الاطراف المتصارعة عــن نقاط التقاطع لتحقيق أكبر قدر من المصالح .ولكن اللامنطـق ان تستمر العقد أولا ثم المعتقدات وبعدها المصالح .والعقـدة التى تلح وتطلب التأكيد هى تلك التى تؤكد لليهود ذلــك الشعور بالعظمة بأنهم يستطيعون ان يضربوا حيثما يشــاءون . ووقتما يشاءون وكيفما يشاءون وأن من حولهم عاجزون حتى انها تصورلهم ان السلام الذى عرض عليهم لابد من تشويهه وتفريغه مــن محتواه العاقل . وجعله وكأنه تعبير عن العجز والدونيــة . لم تكن ضربة ١٩٧٣ العلاجيــة كافية والعقل الذى كاد ينتصـر فى ١٩٧٧ لم يصمد والعقد فى حاجة الى صدمات للأفاقة .

وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . ان ضربــة ١٩٨١ للمفاعل الذرى العربى بالعراق فيه عنصر افاقة وعلاج، حتــى وان كان الدافع اليها تأكيد عقدة،والافاقة ان السلام فــى المنطقة لايتجزأ . وان السلام مع مصر بشرط ضرب العرب خدعة وكذلك ان مقاتلة العرب لاسرائيل بدون مصر أيضا خدعــة بل دعوة واستفزاز لعدوان اسرائيل عليهم .

فالعلاج ان نؤكد لجميع الأطراف ان مصر لاتقبل العزلــة بل انها على المستوى الشعبى اقل عزلة اليوم من أى يوم مضى. فالعظمة الحقيقية غير المبنية على الافراط القائم على اجترار الماضى ليست فى الشعارات او فى المبادىء البراقة ولكن فــى

القدرة على التنسيق الفعلى بين الأطراف حتى ولو بدت متصارعة.

ان مثل هذا الحوار بين الأطراف العربية لهو أبلغ رد على القوة المسلحة التى لم يعد لاسرائيل غيرها تستند اليه لتبرير عظمتها الظاهرة واخفاء عجزها الكامن.

انهما حضارتان تتصارعان فى المنطقة: احداهما تقول ان القوة المسلحة هى الوسيلة المثلى لحل الصراعات وان الافراط فى العظمة هو خير وسيلة للتغلب على الدونية. والاخرى تقول ان الحوار والتعاون هما الوسيلة العظلى. الأولى هى اسرائيل بعلاقاتها الحالية مع العرب والثانية هى مصر من خلال علاقاتها الممكنة مع جميع اطراف المنطقة فهل تستطيع مصر أن توسع قنوات الحوار مع اطراف المنطقة وكيف؟

توجد التركيبة المتشككة كموقف نفس حين يعتقد المــــرء أنه مضطهد يعني أن الآخرين ينظرون اليه نظرة سلبية تحمـــل معنى الاحتقار . الا أن الشعور بالدونية مؤلم ولذلك يلجـأ المرء الى محاولة تخفيفه بأن ينظر الى نفسه بتقديـــــر مفرط في الايجاب . أي أنه يعتقد في عظمته . فهو يشعـــر أنه عظيم ولذلك فهو يضطهد . ويخفي ذلك شعوره بالدونية .

وهذه التركيبة هي طبيعة وجود الشخص المتشكك . ولذلـــك فهو لايتأكد من وجوده الا حينما يجد أن الآخرين فعــــلا يضطهدونه . الأمر الذي يؤكد له احساسه بالعظمة . أنــــه يسعى دوما لتحقيق هذا الشكل للوجود . فهو لايصدق أنــــه مضطهد . ويبحث دوما عن الأدلة في الواقع التي تؤكد لــــه احساسه . وقد يجد بعض العلامات فيفسرها حسب نظرتــــه . ويتصرف بناءا عليها . فيأخذ موقفا عدائيا من محيطــه أنه يتشكك ويتجنب وينفر وقد يبادر بالعدوان .فالعــدوان في نظره ليس الا دفاعا عن النفـس .

وهناك استجابتان ممكنتان في هذه الحالة : الاستجابـــــة الآلية برد الفعل . وهو أنه مادام هذا الشخص يشك فـــــي ويكرهني ويخافني فأني بالتالي سوف أتجنبه وأبادله الشـــك والكراهية والخوف . الا أن هذه الاستجابة هي التي تبقـــــي التركيبة المتشككة على ماهي عليه ،بل تزيدها شـــــــدة ويتصاعد الموقف المتشكك ويزداد الخوف والشك المتبادل تعقيدا الامر الذي يؤدي الى التصادم بين الشخص وبيئته .وقد يحـــدث التصادم حينما يعتدي المتشكك على آخر بلاوجه حـــــق . فيستثير الآخرين الذين يلتفون حول المعتدى عليه (فكـــل يريد أن يؤمن نفسه) . ويتم الانقضاض على المتشكك وعندئـذ

قد يتيقن ان الحلقة قد ضاقت حوله فيلجأ الى عمل عنيف قد يقتل فيه أو يموت . وحتى فى هذه الحالة فلو ان كان المتشكك قد مات الا ان مشكلة الشك والتعامل معها لم تحل، ولذا لابد من الحل الآخر .

والحل الآخر هو الاستجابة الحرة الارادية بالفعل لا برد الفعل . والفعل يقوم على أساس محاولة كسر الأعتقاد لدى المتشكك الذى لايصدق أن أحدا يمكن أن يؤتمن . فيفسر الائتمان على أنه ضعف والسلام على أنه استسلام . ولذلك فلابد وأن تكون يد الأمن موزونة بيد أخرى قوية لاتهدد ولكن تطمئن أنها لن تسمح بالعدوان . أنها "المصافحة القوية التى تعبر عن الثقة المصحوبة بالقوة

هكذا كانت مبادرة السلم بالنسبة لاسرائيل . فقد نبعت مبادرة السلم من موقف قوة . قوة كان مصدرها جزئيا فى النصر العسكرى الذى حققته القوات المصرية بعبورها سد الشعور بالهزيمة وبكسرها لوهم الحدود الآمنة ، والنصر السياسى والاقتصادى الذى نجح فى جمع الشعب المصرى والشعوب العربية بل وأغلبية دول العالم للوقوف يدا واحدة مع مصر فى مطالبتها بالسلام المبنى على العدل لا القهر العسكرى . وكان المصدر الآخر لهذه القوة هو ذلك الاحساس غير المعلن والراسخ فى وجدان الشعب المصرى أنه وجد منذ آلاف السنين وسوف يبقى رغما عن الجبروت والعدوان . وأنه العمود الراسخ لبنيان المنطقة والشعلة الحضارية القائدة لها وانه كفء للتعامل مع أى عدو دون أن يخشى الخضوع له .

ولكن مصر يد ولايمكن أن تصفق وحدها ، بل لابد من يدها الآخرى العربية تتناسق معها لتصفق . واذا كانت اليد العربية ، بلا وعى منها ، بأمل ان تكون هى اليد القوية التى توازن يد السلم ، فقد اختلط الأمر وظنت أن القوة هى فى مظهرها الضوضائى والتهديدى . لقد نسيت

أن الموقف المتشكك يتعضد بالتهديد الأجوف الذى يوفر له مبررا العدوان . والحقيقة البديهية أن القوى لايهدد . ولذلك استمرت اسرائيل فى استفزاز كل من حولها ، لكى تحقق ماتريده من تهديد من قبل من لايملك الضرب حتى تضربه والطمأنة من قبل من يملك حتى تسالمه .

وقد يكون من المغرى أن يتخذ من مثل هذه المواقف — ابتداء من ضرب فلسطين العربية داخل حدود لبنان الى ضرب المفاعل الذرى العربى داخل حدود العراق — مبررا للعودة الى رد الفعل الآلى . ولكن الذى يستحق البحث هو كيفية تطوير الفعل بحيث يدعم ما قد أتى من مكاسب من جراء الفعل السابق ، أى المبادرة ، ويتجنب المخاسر . ولعل المؤشرات تتجه نحو الاستمرار فيما بدأت مصر فعلا فيه وهو الحد من التوتر فى علاقاتها العربية استعدادا لفتح قنوات الاتصال مع بقية الأطراف أو بالأصح تدعيمها . فلا تستجيب للمواقف الرافضة العربية برد الفعل ، فاذا كانت هذه تعالج عزلة مصر التى توعزها الى كامب دافيد بأن تزيدها عزلة ورد الفعل ان ترد مصر العزلة بالعزلة ، فلعل الفعل المطلوب هو اقتحام جدار العزلة بالعناق القوى ، والتآزر الذى يحقق القوة لعلها مبادرة داخلية عربيا ومصريا ، توفر المناخ للتعددية التى لاتتنافى مع الحد الأدنى للقاء وهكذا تكون اليد الأخرى قوية ، فتدعم "يد الآمنة ، لتحقق بالتعارض معها التصفيق .

المفاعل الذرى يضرب فى بغداد ولكن الطعنة تنفذ اكثر ما تنفذ الى قلب مصر. القصف ينزل على الفلسطينين فى لبنان ولكن الألم يعصر اكثر مايعصر فى جسد مصر. المستوطنات تقام فى الضفة وغزة ، واحزاب رسمية داخل اسرائيل تطالب بالتمسك بما تبقى من سيناء . وعلى الجانب الآخر يتزايد رد الفعل شعبيا وحكوميا ضد اسرائيل . وكأن كل هذه مسامير تدق فى نعش السلام العسكرى والسياسى الذى بادرت به مصر وتورطت ولهثت وراءه اسرائيل وانزعجت له اغلب الدول العربية ، والمقاتلون بدماء غيرهم . فهل صحيح ان السلام قد مات ، وأننا نتراجع عنه لنعود الى دق الطبول وتكديس السلاح وخفض كل صوت لايتناغم مع صوت " المعركة " ؟

وتتوقف الاجابة على طبيعة المقصود بالسلام . فاذا كان السلام يعنى النفى المطلق للصراع واخفاء الخلافات والعيش فى "التبات والنبات" فأن مثل هذا السلام لم يولد أصلا حتى يموت . اذ لايوجد على ظهر هذه الدنيا حالة من الانعدام التام للصراع التى هى طبيعة الجنة والتى لاوجود لها فى حياتنا الدنيا . واذا كان السلام من جانب آخر يعنى النفى الجزئى للصراع بأن تحول تصارعنا من موضوع الى موضوع آخر كأن نسالم اسرائيل مقابل الدخول فى صراع مع الدول العربية فأن هذا ايضا لم يولد أصلا حتى يموت .

ان مثل هذه المواقف تجاه الصراع والسلام انما تعبر عن وعى قاصر. اذ أن الانسان فى نموه يمر بمثل هذه المراحل فى الوعى . فالطفل الوليد تداهمه الانفعالات العنيفة بشكل غير محدد او محكوم . فهو شديد الغضب من أمه اذا لم تعطه ثديها بعد ،ولكنه فى ذات الوقت شديد السعادة بها لأنه ينتظر منها ذلك الثدى . أنه يكرهها

ويحبها فى ذات اللحظة او فى لحظات سريعة التتالى .وهذا حال مؤلم ومربك ولايوفر له الأمان والاستقرار. اذا فكيف له ان يعيش اذا لم ينجح فعلا فى التعبير عن غضبه العنيف بأن ينفى ثدى امه تماما؟ وعليه فأن الطفل الوليد يتعلم كيف يغلب الجانب الايجابى ، أن يحب ثدى امه ويحميه من غضبه العارم ، فلايعضه او يخنقه أو ينهشه بأظافره. انه يكبح غضبه وينفيه . ولكنه لم يتعلم كيف يتحكم فيه تماما او يعبر عنه بطرق غير هدامة . ولذلك فأن غضبه يتراكم حتى ينفجر مرة أخرى فى لحظة تالية .وبعد أن كان يعيش المشاعر المتناقضة اصبح يفصلها زمنيا فيتبادل الحب مع الكره .ففى لحظة يحب بشدة وفى لحظة اخرى يكره بعنف وصار يميز بين المشاعر الايجابية والسلبية ويعزلها عن بعضها.

ان مثل هذه التركيبة فى الوعى تبقى معنا الى حد ما. وبالقدر الذى تسيطر فيه علينا فى رشدنا فأنها تحكم ايضا نظرتنا للعالم . اذ بمثل هذه التركيبة نستمر فى التعامل مع الآخرين ، سواء على المستوى الفردى او الجماعى وكأنهم مصب للمشاعر المتطرفة . فنحن نكره بشدة ونحب بشده .فقد كانت اسرائيل بالنسبة لنا العدو المطلق والمسئول بالتالى عن الدمار والفقر والقمع الذى نعيشه داخليا. فكل مشاكلنا يمكن ارجاعها او ارجاع عدم حلنا لها الى المعركة مع اسرائيل . فاذا ماجاء تحول فى مثل هذه العلاقة تصورنا ،بمنطق الطفل الوليد ان البديل هو السلام المطلق والعيش فى "التبات والنبات ".وهو تصور يعكس حالة الوعى القاصر اكثر مما هو يعكس واقع الأمر.ولذا فمن المحتم ان يتحطم على صخرة الواقع . وأن نصاب بخيبة الأمل ان السلام قد مات ،ويكون البديل للسلام المطلق هذا هو نقيضه وهو الصراع المطلق .

هذه هى الأطروحة الأولى فى نمو الوعى الانسانى : أن تكون

الأشياء مطلقة أومتطرفة ومختلطة ببعضها ،حرب و سلام كره وحب . وبما أنها اطروحة لاتتماشى مع الواقع ولاتعاون الطفل على التعايش مع بيئته فلابد وأن تتطور. وينتقل الطفل الى حيلة جديدة يتعامل بواسطتها مع مشاعره المتطرفة . أنه يلجأالى حيلة الشق والاسقاط .

يشق الطفل موضوع مشاعره الى شخصيتين يتخيلهما . الأول طيب ويوجه تجاهه كل المشاعر الايجابية كما أنه يتلقاها منه . والثانى شرير ويوجه تجاهه كل المشاعر السلبية كما أنه يتلقاها منه . وهو يسقط ذلك الجانب من مشاعره الذى ينكره فى نفسه على موضوعه فيعزوها اليه. فاذا كان يتعامل مع الأم الطيبة وينكر مشاعره السلبية هذه تجاهها .فلعله يسقط مشاعره السلبية هذه تجاه الام الشريرة ، ويعتقد أن هذه الأخيرة هى التى تضمر له الكره وليس هو الذى يكرهها . وقد تكون هذه الأم الشريرة هى ذات أمه ولكن فى لحظات محدودة ومعزولة ولكنها فى الأغلب تكون شخص آخر بدءا من الأب الى الشغالة الى " أم الغول" او الجنيه" .

ان واقع الأمر أن الأم الحقيقية تملك كلا من الجانبين الطيب والشرير . ولكن الطفل وهو الذى لايتحمل ان يعبر عن الجانبين لما بينهما من تناقض وصراع نابع من كونهما متطرفين ، وهو يفضل ان يفصل موضوع مثلما يفصل مشاعره. هناك أم جيده وأم سيئة ،أم طيبة وأم شريرة . ونظرا لأن مثل هذه الحيل من الشق والاسقاط لاتتلاءم مع الواقع هى الأخرى ، فأن الصدام مع الواقع حتمى أيضا. ولابد للطفل ان يطور وعيه بين الاطروحة الاولى والثانية فى طريق جماع للأطروحة بأن يجمع بين النقيضين ويتجاوزهما .

الا أننا لاننجح جميعا وتماما فى مثل هذا التطور وكل منا تبقى معه بعض المتخلفات من حالة الوعى هذه .

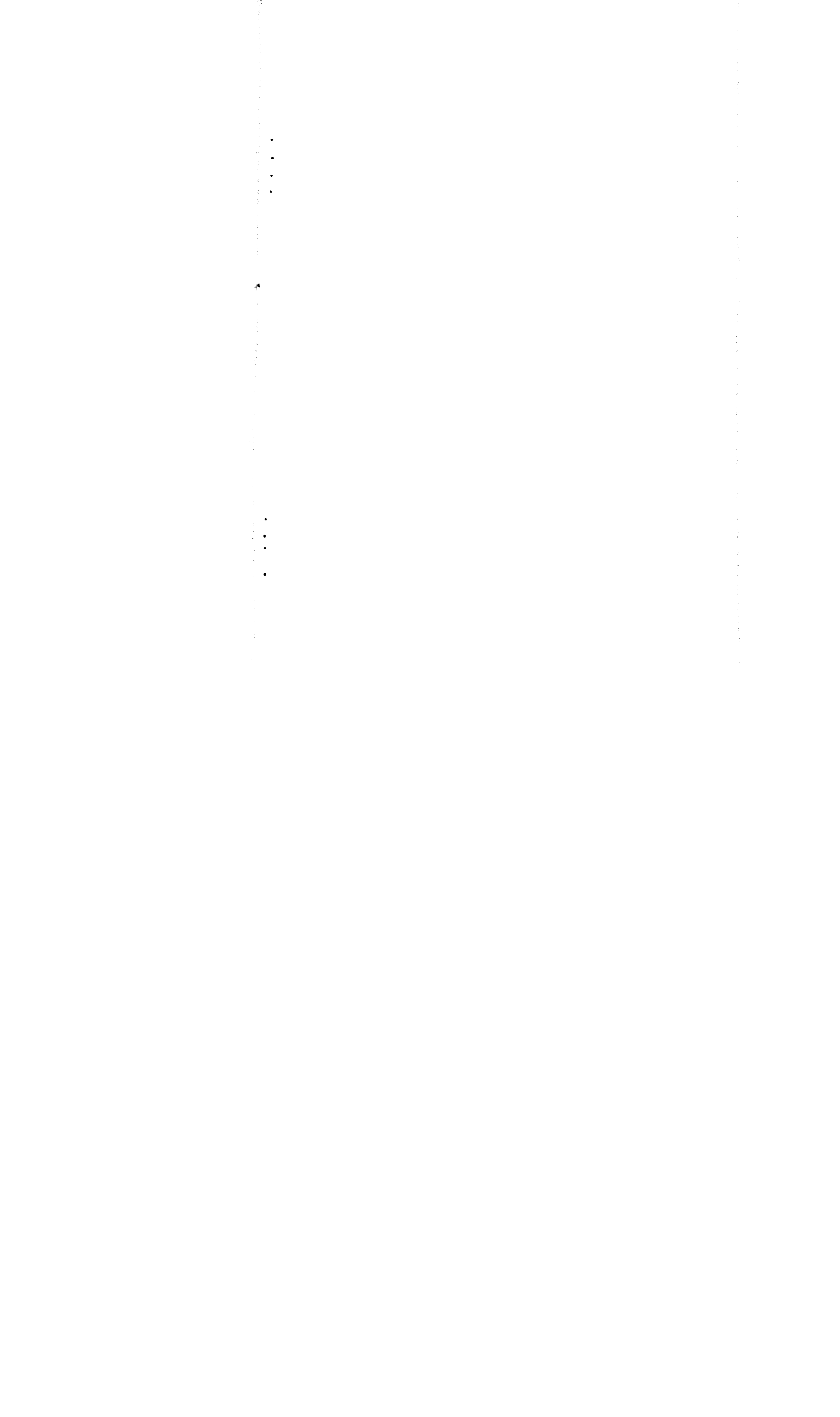
وتحكم نظرتنا للأمور بدءا من علاقاتنا الفردية الى علاقاتنا الجماعية بمافيها رؤانا السياسية . اننا ننظر للآخر السياسى بدرجات متفاوتة من نفس المنظار . اننا نقسم العالم حولنا الى دول جيدة معنا ودول سيئة ضدنا كان هذا التقسيم ينطبق لفترة ما على كون السوفييت يمثلون الخير بينما الغرب هو الشر . ثم انقلبت الاوضاع بعد ذلك بحيث اصبح الغرب هو الخير والسوفييت هم الشر .

وبنفس المنطق فقد كانت اسرائيل هى مصدر كل الشر بينما الدول العربية المجاورة هى مصدر كل الخير فهى الأمل فى ان ننتقل بالوحدة من حالة الدويلات المتفككة والمتصارعة والمصروعة بواسطة غيرها الى أمة قوية ومتماسكة . وهى الأمل ان ننتقل من حالة الفقر والتخلف الى الرفاهية والتقدم . ولايقف فى طريقنا الا ذلك الشرير اسرائيل

ان هذا الشق المصرى للطرف الآخر الى طرف جيد وهو العرب وطرف سيىء وهو اسرائيل لهو بشكل ما تعبير عن حالة الوعى القاصرة والتى تمثل مع هذا خطوة الى الأمام عن حالة الوعى السابقة لها . الا أنه ،كما اشرنا ، وبالقدر الذى يعكس ذلك قصور فى الرؤية فهو لايتناسب مع الواقع . فالواقع أخذ يملى علينا قوانينه وصفاته والتى لاتطابق بالضرورة ما نتخيله عنه . فلا الخير كله مجسد فى العرب ولا الشر كله مجسد فى اسرائيل .

ومن هذا المنطلق ،أى مواجهتنا لهذا الواقع يمكن ان نرى السلام وكأنه مجرد بديل للأدوار بين الطرفين .السلام بهذا المعنى يفهم على أن اسرائيل الشريرة اصبحت طيبة والعرب الطيبين اصبحوا اشرارا. ومثل هذا المفهوم للسلام ايضا لم يولد حتى يموت .

والنقلة التالية فى الوعى الانسانى والتى تقربنا من رؤية الاشياء كما هى وليس كما نتصورها او نتمناها تحدث حينما ينضج الطفل بأن يتحكم فى مشاعره المتطرفة بحيث لايتأرجح



بما يمنعها من الذوبان فى الكيان الكبير. وهو الأمر الواضح فى حالة امريكا واسرائيل واقل وضوحا فى حالة امريكا والسعودية مثلا وأقل بكثير فى حالة امريكا ومصر. وذلك لأن ذوبان اسرائيل فى الكيان الكبير أمر وان كان ممكنا فهو حتمى فى الأمد الطويل الا انه مستبعد فى القريب العاجل. وأما ذوبان السعودية مثلا فهو وان كان ممكنا ومطلوبا لفظيا الا ان مثل هذا الذوبان سيفقدها ما تتمتع به من مزايا الاستحواذ والانفراد بما تملكه من ثروة سائلة، وحتى وان كان سيعود عليها فى الأمد الطويل بثروة التطعيم البشرى بالمواطنين العاملين والمتعلمين من الدول المجاورة. أما ذوبان مصر فى المنطقة العربية فلعله أقلهم استحالة نظرا لما سوف يعود على مصر من فوائد فى الأمد القصير، ورغم عيوب احتمال تعريضها للعدوى ببعض المظاهر السلبية التى تكبل الدول العربية مثل النزعة الاستهلاكية الاستيرادية والقبلية والقحط الفكرى والثقافى المصاحب لذلك.

ومن هنا فأن الخطورة الحقيقية على الدول الكبرى هى من مصر التى تملك القدرة والدافع على تجميع اشتات المنطقة وتوحيدها. اما اسرائيل فهى شديدة الارتباط بأمريكا وامكانية استقلالها عنها محدودة. و كذلك فهى تخدم الاتحاد السوفييتى بأن توجد له المبرر لوجوده فى المنطقة. فهو يمد المنطقة بالأسلحة والتحالفات والقواعد غالبا بأسم الحماية من اسرائيل. وبالتالى فهى لاتمثل قوة موحدة للمنطقة اما السعودية فهى لاتملك الا الامكانية المالية لأستمالة دول المنطقة أو الضغط عليها. ولكنها لاتملك المقومات الحضارية التى تجعلها توحدها وتقودها بل حتى تسيطر عليها بغير المال (مثلا عسكريا).

واذا كانت الايديولوجية الوحيدة التى تستطيع ان تدعيها السعودية كوسيلة للسيطرة على المنطقة هى

"الاسلام" ، فأن هذه الايدويولوجية قد افرغت تماما من محتواها بفضل الممارسات بأسمها فى السعودية ذاتها علاوة على تجربة ثورة ايران التى انتحلت لنفسها هذه الصفة أى "الاسلام" . بل ان الازهر فى مصر على كل عجزه عن الهاب المشاعر وتنوير العقول الاسلامية محليا أو عربيا لهو اكبر صدقا عن الدعوة الأسلامية التى تتبناها السعودية .

فاذا كانت اسرائيل هى القوة العسكرية الغالبة فى المنطقة واذا كانت هى تمثل عنصر التحوصل الذى يقاوم الذوبان فيها ، فمن السهل ان نتخيل دور اسرائيل فى مقاومة أى دعوى لتوحيد المنطقة . بل ان المنطق الوحيد المتاح لها هو ابقاء المنطقة مفتتة مع السيطرة على جزئياتها بالقوة العسكرية . فهذا هو المنطق العسكرى الحربى والخالى من الرؤية السياسية ناهيك عن الرؤية الأيديولوجية . ان طبيعة اسرائيل لهى الضمان الأقوى من أى حلف معلن او خفى يربطها مع الغرب بل ومع الشمال الغربى (أى الاتحاد السوفييتى واوروبا بالأضافة الى أمريكا) . فهى طبيعة الجسم الغريب الذى يحمى وجوده بالجدار السميك والمحصن بالسلاح . بينما حصن السعودية اشبه بجدار الخزنة التى يخشى على مابداخلها من ثروات . وفى كلتا الحالتين هناك مقاومة للذوبان وللتفاعل .

يمكننا اذن ان ننظر الى طبيعة التحول الكيفى الذى طرأ على العلاقات بالمنطقة بواسطة السلام . فكما ذكرنا أن ماحدث هو تطور طبيعى ويمكن فهمه ضمن سلسلة العلاقات بين اطراف المنطقة . فهو كأمتداد كمى لماسبقه يمثل استمرار السعى الى السيطرة على المنطقة وابقائها مفتتة . فالصراعات العربية على اشدها ، وأغلبها يجد التبرير فى خطوة مصر المنفردة وانها هى التى خرجت عن خط العروبة . وعلى هذا يمكن اعتباره مجرد وسيلة لعزل مصر عن اسرائيل بحاجز صحراوى كبير يمنع تهديدها عسكريا . الامر الذى يسمح لأسرائيل بالانفراد بتسليط نفوذها على المشرق العربى

بالقوة العسكرية .

وعلى ذلك يمكن اعتبار السلام مجرد حلقة بلومناورة سياسية ويفرغ بالتالى من محتواه الايديولوجى. وهذه النظرة تمثل جانبا من الحقيقة وان كان ليس الحقيقة كلها . والجانب الآخر هو ان هناك تحول حضارى يحدث فى العالم وينعكس ويتجسد فى المنطقة وبان هذا التحول فحواه ان الأنسان فى حاجة الى أن يعيد انتماءاته التى يبنى عليها هويته. فهو على وشك الخروج من حالة كان يواجه التهديد من خطر سيطرة مجتمعات على مجتمعات الى حالة يشعر فيها بالتهديد يأتيه من ذات الخادم الذى ظن أن سخره وسيطر عليه تماما وهو الارض الذى يحيا عليها والطبيعة الذى هو جزء منها . فهو مهدد بالجوع والبرد والمرض مرة أخرى بفضل سيطرته الجزئية على الطبيعة التى جعلته يتكاثر كالخراف التى يزيد عددها لدرجة تجعلها تهلك مراعيها حتى تموت من الجوع والمرض وفى تكاثره أخذ يستهلك الطاقة والتربة والخضرة بل والماء والهواء لدرجة جعلته مهددا بنفاذها.

الانسان يتيقن ان طاقته تضيع فى قتل أخيه أو الدفاع عن نفسه ضد مثل هذا القتل ، بينما الأمر يستدعى تكتيل الطاقات من أجل ان يحيا الجميع .

واذا كانت دول الغرب قد نضجت بما يكفى ان تمتنع هى عن الدخول فى عملية القتل المتبادل بينها فانها لم تصل بعد الى درجة النضج التى تسمح لها بالحفاظ على غيرها من دول العالم الثالث . فهى بين أن تقتلها مباشرة أو بواسطة تصدير الأسلحة والقيم والمفاهيم التى تجعلها أى دول العالم الثالث تقوم بهذه الادوار فيما بينها .

ومن هنا فأن مبادرة دول العالم الثالث بحل النزاعات بينها بوسائل غير تدميرية لهو بمثابة نقلة كيفية فى العلاقات بين المجتمعات . فهو اعلان عن الرفض للأستمرار فى القيام بدور مستهلك السلاح الفانى او حقل التجارب له

ولابدور الاقتتال الداخلى بينها ناسين الطرف الأكبر فى قطبى الصراع وهو الطبيعة فى مقابل الأنسان ، والدول الشمالية الغربية فى مقابل دول العالم الثالث ، اكثر مما هو بين دول العالم الثالث نفسها .

" واذا كانت أسرائيل ككيان تمثل من جانب استمرارها للعبة الدول الكبرى فى السيطرة على المنطقة وتقسيمها وتفتيتها ، واذا كان رد الفعل العربى هو الذى يساهم فى ابقاء هذا الدور ، فأن الخطوة المصرية هى التى تستطيع أن تكسر هذه الحلقة . وذلك بأن تقدم لاسرائيل نمطا بديلا للتعامل مع جيرانها غير السيطرة العسكرية . ومن خلال هذا النمط تتحول اسرائيل من كيان مصطنع وغريب عن المنطقة الى كيان بشرى ، وان كان متميزا بيهوديته او غير ذلك من الصفات التى يود إن يبقى عليها ، يستطيع ان يذوب فى المنطقة . فالسلام هو الذى سوف يسمح بمثل هذا التحول الداخلى وليس الاستمرار فى الحصار والتهديد بالحرب .

وان ما تقدمه مصر أيضا لهو نمط يصلح للمنطقة . فهى طريقة تحل بواسطتها كثيرا من الصراعات المحلية بدلا من أن توظف هذه الصراعات لزيادة سيطرة الدول الكبرى عليها . فالحرب الايرانية العراقية مثلا لم تضف الى استقلال هاتين الدولتين عن الدول الكبرى بل العكس تماما . فكل منها يشترى السلاح الذى هو فى النهاية يأتى من تلك الدول بل وبعضه بوساطة اسرائيل ذاتها .

أما على المستوى الداخلى فقد بات واضحا ان الوسائل العنيفة فى احداث التغيير الاجتماعى ليس لها مبرر او ضرورة . فلا الثورة فى ايران او الحرب الأهلية فى لبنان تمثل نمطا يمكن الاقتداء به بغية التنمية والتطور . وكذلك القمع الشاهنشاهى والتفكك اللبنانى يمثلان نمطا من العنف الذى يولد العنف المضاد والذى تلاه فى هيئة الثورة الايرانية (التى

توشك أن تتحول الىحرب أهلية)والحرب الأهلية اللبنانيـــة (التى كادت تتحول الىثورة) .فالقمع عنف وردالفعلهـــن ثورات وحروب أهلية عنف مضاد وكلاهما ثمنه باهظ .

ان الذى تقدمه مصر بالسلام ليس مجردعمل سياســـى خارجى ولكنه أيضا استجابة لحاجة داخلية التى تقديم نموذج آخر للتحول الاجتماعى لايعود بنا الى قمع مابعـــد ١٩٥٢ ولا الى تسيب ماقبل ١٩٥٢ . واذا كان من مخاطر أ ى تحول ان يصطحب معه عيوب ومضاعفات كل من الجديـــد والقديم فأن الجانب الآخريتوقف على مدى وعيناوارادتنـا فى اختيار تنمية المزايا والمحاسن . فقد يبدو أننا نجمع بين فساد ماقبل ١٩٥٢ وقمع مابعد ١٩٥٢ ، ولكن الـــذى لابد من دعمه هو ذلك الاتجاه الذى لايتراجع عن ماتم اجتيازه فىمراحل سابقة من حرية وعدالة اجتماعيـــة .

السلام الأيجابى او اللاعنف الثورى اذا هو ذلك التمسك بتحقيق اهدافنا بالوسائل السلمية . ان نتمسك بالحريـــات التى اكتسبناها ونزيد منها دون انزلاق فىالفساد والتسيب وان نحافظ على العدالة الاجتماعية التى سبق أن حققناهـــا دون عودة للقهر والانزلق فى المغامرات العسكرية الخارجية لنكون بمثابة الحارس الاجير لملاك المال النفطى المتخمين.

فاذا ماحققنا تلك الأهداف وقدمنا للمنطقة نمطـــا للتعامل داخلياوخارجيا يجعل اطرافها تفضل السير معنـــا على هداه على تستمر فى كياناتها المصطنعة والمنفصلـــة والقابلة للسيطرة العسكرية والمالية لغيرها .

ان تحدى السلام هو فى قدرتنا على تنمية انفسنـــا داخليا . ومواجهة العدو الخارجى بحجمه الطبيعـــىدون تطرف فى ادانته او أمل فى منقذ نتطرف فى الاستعانـــة به . الشر والخير يوجد فى جميع الأطراف . والصراع هـــو بيننا وبين جميع الأطراف بدرجات متفاوتة بل هو صـــراع مع أنفسنا أيضا . نحن نتصالح مع الطبيعة متحالفين مـــع

الجميع ٠ونتصارع مع الدول الكبرى متحالفين مع العالم الثالث ونتصارع مع احدى الدول الكبرى متحالفين مع الأخرى ٠ونتصارع مع اسرائيل ومع العرب على السواء وخاصة بالقدر الذين يمثلون فيه تغلغل هذه الدول الكبرى ٠ ومادامت هناك نقاط تقاطع حتى مع ألد الأعداء ، فأن الصراع يمكن ان يتحول لصالح أى طرفين اذا مانجحنا فى البحث عن تلك النقط وتقويتها. بدلا من تأكيد الخلاف والاصرار على النفى الكامل للطرف الآخر كأن نقتله أو نقاتله ٠

السلام الايجابى يعنى تأكيد الذات دون ان يساوى ذلك النفى القطعى للآخر ٠ انه اعتراف بانسانية الآخر وحقه فى الوجود المماثل لوجودى ٠ السلام بهذا المعنى عقيدة وموقف انسانى وليس مجرد سياسة أو تكتيك ٠ قد تلتقى العقيدة مع التكتيك لفترة ٠ ولكن العقيدة تمتاز بأنها تحيا وتستمر بينما يتغير التكتيك من يوم الى يوم ٠ فاذا كانت اسرائيل كمؤسسة قد طعنت السلام فأنما وجهت الطعنات الى فرص قبولها فى المنطقة كعضو مشاركتها يساهم فى توحيدها وتقويتها ٠ فأبقت وجودها متعلقا بقوة عسكرية لاديمومة لها الا بالقدر الذى تخدم به أغراض الدول الكبرى فى ابقاء المنطقة مفتتة وضعيفة ٠ انها تحجم دورها فى المنطقة بدور الحارس الذى يحمى الدول الكبرى من ميلاد أمة قوية فى المنطقة تقف مستقلة فى وجهها ٠ انها تقدم نمط السيطرة العسكرية لا التغلغل الحضارى والايديولوجى ٠فهل فى سلام مصر بديل حضارى وايديولوجى يجذب دول المنطقة ؟

اللاعنف الثورى أو السلام الايجابى
مولود جديد مهدد بالموت فى المهد

" أما أنا ياحكيم فمناضل بالبندقية علاوة على الكلمة .
أقاتل منذ كنت طفلا رأى أقرب أصدقاء الطفولة يقتل
فى عدوان ١٩٥٦ . لم أترك من يومها فرصة الا حملت
السلاح أو القلم دون هوادة . والآن بعد أعلان السلام
مازلت أناضل ، من أجل نفس الاهداف ، من أجل تحرير
الأنسان فى كل مكان ، وتحقيق السلام ، ولكن الوسيلة هذه
المرة هى بواسطة السلام ، السلام الايجابى او اللاعنف الثورى
أناضل بالقلم والحبر وليس بالرصاص والدم .
"لقد جئتك اليوم لانى انزف فى معركة السلام اكثر
مما نزفت فى معركة السلاح . ولان الذى يطعننى لم يعد
فقط ذاك العدو الذى طالما لم أتصور غيره عدوا ، ولكن
يشترك معه صديق من داخل وطنى ومن داخل أمتى العربية .
لقد طعننى وأنا أنادى بالسلام والطاعن هو عدو السلام
فى كل مكان .
لقد قضيت سنوات كفاحى فى الدفاع عن وطن متماسك أمام
عدو خارجى . فانشغلت عن بناء نفسى . ومرت السنون
وأنا لم أستقر فى منزل ومع أسرة . فقد كان انشغالى بالقضية
يلهينى عن احتياجاتى الفورية . فأجلت وأجلت . حتى
جاءت خطوة السلام ، ورأيت فيها فرصتى أن التفت
الى أمورى وان ابنى نفسى . ولكنى اكتشفت ان طول الوقت
الذى قضيته فى القتال دفاعا عن وطنى أمام العدو الخارجى
جعلنى بلا حيلة فيما يتعلق ببناء نفسى ، فكل ما اكتسبته
من نضالى هو القدرة على أستخدام السلاح حينما كان القتال
بالسلاح ، علاوة على القدرة على استخدام القلم .
فقد كنت أدرس وأقرأ وأكتب عن ذلك العدو الخارجى بناء
على المبدأ القتالى القائل أعرف عدوك . أعرف الناس بيبه

واحمسهم للأستعداد لمواجهته وتوحيد الصفوف أمامه .
كانت كلمتى مطلوبة ومسموعة .وكان هذا يغنينى عن
لمى آخر. وحينما أعلن بدء السلام ايقنت انه قد آن
الآوان لأن ابدأفى بناء نفسى .وحين لم اكن املك
غير قدرتى على استخدام البندقية والقلم ،تركت
الأولى (البندقية) جانبا وكرست الثانى (قلمى) ،دفاعا
عن السلام ودعوة للبناء والألتفات الى الداخل - ودورى فى
السلم استمرار لدورى السابق مع الفارق، أن هدف المعرفة
لم يعد مجرد عدو ولكن طرفا آخر فى أتفاق سلام - كان
لابد أن أكتب من ذلك الذى كنت دائما افترضه عدوا مطلقا
ولكن من منطلق اكثر موضوعية . فالعدو بالتعريف هو
الشر والرذيلة . أما طرف العلاقة السلمية فهو غير ذلك
فهو بشر له رذائله وفضائله . ولكى أصفه فلابد
أن اصفه بجانبيه . بل لابد أن أولى عناية خاصة بفضائله
فقد صورنا بمافيه الكفاية ذلك الجانب الرذيل . ولكى
نقترب من الموضوعية فلابد من البدء بتغليب الجانب
الفاضل حتى نعود الى وصف الصورة بجانبيها الفاضل
والرذيل .

" وكان ذلك يتطلب منى جهادا داخليا . فبعد ان كان يكفينى
اعتبار عدوى تجسيد للشر والرذيلة معفيا بذلك نفسى
من رؤية رذائلها اصبح الآن لزاما على أن
أراه وإياى بشيئين الكل منا له فضائله
ورذائله .

" ولعل دراستى العلمية الجادة لعدوى فى مرحلة القتال
هى التى أهلتنى للتعرف عليه كبشر ،فالدراسة الجادة
تتطلب درجة من الموضوعية . حتى انى تمكنت من أن اترجم
رؤيتى الموضوعية الى رؤية منتقاه تركز على عيوب العدو
بهدف شحذ الهمم فى مواجهته ،فقد كنت ارى بينى وبين



كان على ان ابنى نفسى . ولما كنت اعمل لذلك ثــم
اجد اننى لا ابنى الا لغيرى ازددت الما وغضبا. ان عملى
كما هو ، واجرى كما هو ، ولكن قيمته تنخفض فــى
ذات الوقت الذى ارى فيه غيرى ينمو . انا اعمل وابنــى
وهو ينمو وربما زاد الرخاء فى مجمله ولكن الحصيلــة
مــن جانبى بالسالب . فانا ازداد فقرا لان الاسعــار
ترتفع والقيمة الشرائية لدخلى تنخفض ، ولهذا اصــرخ
واسال . ولكن لاننى تخصصت فى الكتابة عن العدو ، وهــذا
قد اصبح اليوم طرفا فى اتفاق سلام ولكنه لم يصر بعــد
صديقا فقد كان صراخى لايجد مخرجا الا من خلاله . فوجدتنــى
أكتب عن فضائل العدو كوسيلتى الباقية للصراخ مما اعانــى
منه داخليا . كنت اقول مثلا انه رغم المعارك فان الاصوات
عندهم لم تخفت تحت شعار " لاصوت يعلو فوق صــوت
المعركة " فالاحــزاب المتعددة والصحف المستقلة لديهم هى
السائدة وتفوق فى توزيعها بمراحل توزيع صحف الاحــزاب
سواء كانت احزاب المعارضة او الحكومة ، والصحافة بالفعــل
سلطة مستقلة ، والمؤسسات الاخرى تمارس ايضا وجودهــا
المستقل . فكثيرا ماكان القضاء يحكم الحكومة ولصــالح
المواطنين من العرب . اى اننى وجدتنى ابرز عيوب ونواقص
تجربتنا الديمقراطية من خلال ابراز محاسن ديمقراطيــة
الاخر . ومع ذلك لم اكف عن ابراز عيوب ديمقراطيــة
الآخر كان ابين كيف انها فى جوهرها ديمقراطيــة تقتصر
على اليهود ومصالحهم اساسا ، وكيف تمكن اليهود من خــلال
القانون وبدون اللجوء الى البطش الواضح ان يفرضوا مايريدون
على العرب ، اى يبطشون بهم ولكن باسم القانون . فهنــاك
قوانين الطوارىء والحكم العسكرى التى تطبق على الاراضــى
المحتلة فى الضفة وغزة . وهناك قوانين الملكية العامــة

للأراضى والمياه التى تسمح لهم بسلب البدو أراضيهم لانهم لايحوزون أوراق التمليك وهناك القوانين التى تصدر فى صحف عبرية لايقرؤها البدو ثم يفاجاون بتطبيقها.
وفعلت نفس الشىء فى الجانب الأقتصادى فها هى ذى دولة محدودة الموارد ومحاصرة بالمقاطعة العربية منذ ٢٠ عاما ومع ذلك حققت درجة لابأس بها من الأنتاجية فقد نمت بفضل التحدى والحصار . فهناك مثلا صناعة الطائرات التى أنشئت حينما امتنعت فرنسا عن تصدير قطع الغيار البادىء فى حرب ١٩٦٧ . وكأنى أقول لنا : لماذا لاننتج ولانصنع ولانزرع رغم مايتوفر لنا من أمكانيات بشرية وطبيعية كمياه النيل والأرض الخصبة والنفط والمناجم والشواطىء والبحيرات ورغم أن المقاطعة العربية لا تطبق علينا كاملة .

فقد كان غرضى للآخرين ومجاورته وكأنه استمرار لمعركتى وصراعى معه فى حين تقتضى الموضوعية ابراز كل الفضائل والرذائل على حد سواء وكنت انقده فيما يجعله يواجه أخطاءه ويعمل على تحسينها فى ذات الوقت الذى كنت أضع لنفسى فيه التحدى لأواجه أخطائى وأسعى الى تحسينها .والفرق بين التصارع الحربى والتصارع السلمى أن الاول غالبا مايحقق الدمار المتبادل بينما يعود الثانى بالفائدة على الطرفين . وتعلمت كالمصارع اليابانى كيف أستغل قوة الطرف الآخر لصالحى بدلا من الدخول فى تناطح مباشر معها .وكيف اجد نقط الالتقاء بدلا من التعثر عند نقط الأختلاف .

فعلق الحكيم قائلا: لا.. ان مثلك كمثل جحا حينما فقد مفتاح بيته أمام بيته واخذ يبحث عنه فى مكان آخر بجوار فانوس ،لمجرد أن هناك ضوءا اكثر . أنك فقدت شيئا فى بيتك واخذت تبحث عنه فى مكان آخر لمجرد أن هناك ضوءا أكثر .

فأستطرد صاحبنا : بل ان هذه هى محاولتى الثانية فالأولى كانت عندما بحثت تحت ضوء النفط المشتعل وذهبت الى دول النفط للعمل والبحث هناك . ولكنى اكتشفت أن الدخان الصادر من اشعال النفط كثيف لدرجة حجبت الضوء . خمدت الى بيتى . لقد اكتشفت ان الكلمة الحرة التى كنت اريد ان اعبر بها لم تكن الا زينه وواجهة للديمقراطية ، وهى فى جوهرها حزينة وموجهة .. وهكذا ذهبت أنا حجا المصرى – فى رحلة ثانية الى هنا ، الى القدس ، لأبحث عن مفتاح بيتى الضائع حيث يوجد الضوء المولد من الطاقة الشمسية وغير الملوث بدخان احتراق النفط ، وبدأت الحوار مع آخر ، وهو الحوار الذى حتم على أن أعود الى بيتى لأواجه عيوبى عارية .

واجهت عيوبى كعربى . وأعدت النظر فى العلاقة بين مصريتى وعروبتى واكتشفت مدى التناقض بينهما . بل اكتشفت أنه ليس بجديد .. [illegible] جذوراتاريخية ترجع [illegible] حينما كانت مصر ذات الوادى النيلى مطمعا للغزاة من البادية . وكأنه صراع تمليه الجغرافيا والصراع الازلى بين الوادى والبادية . يالعبقرية المكان !! ثم بدأت في مواجهة عيوبى كمصرى وواجهت تناقضاتى الداخلية – عبقرية المكان مرة أخرى – بين الريف والمدينة بين الزراع والتجار ، بين الأنتاج والأستهلاك بين الفقراء والاثرياء ، وبطبيعتى ككاتب وكمثقف وجدتنى ادافع عن الطرف الاضعف وأدعو الى الأنصاف والعدالة ، وبالطبع الى الحرية التى تسمح لى ان استمر فى دعوتى .

وعندئذ اكتشفت ان هذه السلعة التى اقدمها هنا ايضا غير مطلوبة على الاقل من منظور احد الجوانب الثقافية الوجدانية التى نشترك فيها مع كل الاطراف . اقصد اننا نريد السلام ولا نريده ، مثلما يريدونه هم ايضا ولا يريدونه فى نفس الآن .

فمثلنا كمثل المريض الذى يذهب الى الطبيب ليفتح "دملا" فاذا ما اقترب منه بالمشرط رفض وقاوم العلاج ورفضه . ولقد قوبل ما اقدمه بالرفض من هذا المنظور السلبى والذى لا يعم المجتمع كله بأى حال من الاحوال كما أنه لا يقتصر على مجتمعنا العربى او المصرى فقد وكأننا لانريد من السلام الا أمنا فيه وهو الأسترخاء لاالرخاء ، والترهل لاالتأهب ، والكسالة لاالبسالة والتعامى عن الرذائل لاالتعامل .

أننا لانريد الحوار الحقيقى مع الآخر حيث تتم المواجهة بالعيون ولكننا نريد أن نعود الى الحوار الأصم ، نريد ان نستمر فى الهجوم اللفظى على الآخر ونتبين رذائله وأن نبتعد عن التعامل الندى الأنسانى ، حيث نواجه رذائلنا فى ذات الوقت الذى نتبين فيه محاسن الآخر . ومن هذا المنظور أيضا فاننا لانريد من السلام الا الأتفاقية الرسمية التى تعود بواسطتها الينا أرضنا المحتلة بسيناء . ثم نريد أتفاقية رسمية أخرى تعيد الينا الأرض الفلسطينية المحتلة فى الضفة الغربية بما فيها القدس وغزة ، مثلما لايريدون هم منها الا أن تقنن لهم الأستيلاء على الأرض وحرمان الفلسطينيين من وطن . نريد أن تنوب عنا حكومتنا فى تحقيق تلك المكاسب ونحن نيام لانساهم فى معركة السلم بموقفنا السلبى المعارض . فنحن نخشى الحوار مع الآخر ونخشى مواجهته ولكن نسمى خوفنا مقاطعة وأحتجاجا وموقفا بل بطولة . وبهذا نضع العربة أمام الحصان ، أو البيضة قبل الفرخة ، فنقول أننا ممتنعون عن تحقيق السلام الى أن يتحقق السلام ، أى أننا ممتنعون عن الحوار مادام الآخر شيطانا ورذيلا وقبيحا . وننسى أن الحوار يبدأ حينما نكف عن تلك الادانة المطلقة التى تجعل من الطرف الآخر شيطانا مطلقا وتجعل من طرفنا ملاكا مطلقا . فلا يوجد الحوار الا بين بشر . فالشيطان لايتحاور ولكنه وسواس خناس يوسوس فى صدور الناس

أما بينه والملائكة فليس إلا الخصام التام . فهو لايستطيع أن يوسوس فى صدورهم أصلا ناهيك عن الحوار . ولكن البشر يستطيعون الحوار . بل أنهم مفضلون عند الله لهذه القدرة على الطاعة والعصيان ، وعلى الشك والأيمان والله يفضل من يؤمن وهو قادر على الشك ومن يطيع وهو قادر على العصيان .. فالملائكة لاتستطيع العصيان والشياطين لاتستطيع الطاعة .

"نعم ان قلمى هو سلعتى التى لا املك غيرها ، واما ... متى الحرة. وقدرتى على أجراء الحوار فلم تعد سلعة مطلوبة وليس لها سوق ، لافى القطاع الخاص السياسى ولافى القطاع العام السياسى . فلكى يستطيع القطاع الخاص أن يبيع فأنه يميل الى ... عة المعارضة والرأى المخالف .. فلهذا يعجز عن الحوار . والقطاع العام بدوره لايكاد يبيع الا الموافقة ، ولهذا أيضا يعجز عن الحوار .

ولأن سلعتى غير مطلوبة لاهنا ولا هناك أجدنى أعمل بلا أجر لا ماديا ولا معنويا . فعلى بلا قيمة . ولذلك أستيقظت فى القيم الدنيا . أريد منزلا وأسرة وأستقرارا مادام الأمر كذلك ، ومادام الشعار هو التنمية لاالتحرير فالألم شمل نفسى أولا، فما الذى يربطنى بالوطن ؟ أليس الوطن هو حيث توجد الأسرة والممتلكات أو المال والبنون ؟ انى أبحث عن مفتاح بيتى الضائع .. مفتاح الشقة التى تتطلب مالا لا أستطيع أن أدخره من مرتبى الحالى . وحقا أن المفتاح الضائع هنا ولكن الضوء هناك أكثر . والضوء هو حيث يوجد النفط . أما الدخان فلاأحمله . ومادام الأمر ظلا مافى ظلام فبم يضيرنى قليل من الدخان ؟ ومادام المجتمع يخشى الحوار ويخشى السلام فلأذهب الى حيث المقاطعة معلنة وصريحة فلا أجدنى حائرا بين دعوة معلنة للسلام وسلوك ضمنى يخشى السلام . فدعوتى للسلام والحوار دعوة غير مطلوبة من ذلك

المنظور الذى أشرت اليه . والمطلـــــوب سلام رسمى وحوار
رسمى . وبما انى لا أملك منصبا رسميا فيمكننى أن
أختفى من خشبة المسرح بهدوء وأن اذهب حيث أنمـــى
نفسى .

وداعا يا أخى الحكيم ! لم يعد لدى ما أشكـــــوه
لـــــك وسوف اتركك تشكو انت من الوحدة والعزلـــــة
فانت ايضا تبيع سلعة غير مطلوبة . وأنت تؤذن فــى
مالطة . كان الله معك .

فيجيبه الحكيم : بل الى اللقاء وليس الوداع . فحتى
لو تركتنى فلن أتركك فسوف يصحبك صوتى اينمــــــا
ذهبت ليقول لك أننى معك وأننى لست وحدى لأننـــــى
معك . وأنك بالتالى لست وحدك . وأنك مسئول حتى لـــو
لم تتربع على مقعد رسمى . فأنت صاحب كلمة وصاحـــب
قلم ، ومهما كانت سلعتك غيـــر مطلوبة اليوم فلسوف تظهر
هذا الوقت الذى يظل فيه طلاب اللذة الفورية والحلـــــــول
الغيرية نياما فـــى بلهيــــــة ، لا يستمعون الى الكلمة
التى تنبههم وتوقظهم . ولكن الذى لا يستيقظ بالكلمـــة
عليه أن يتحمل الالفـــاظ بصوت انفجار أو بجـــــردل
من الماء البارد . وعندئذ سوف يبحث عن صاحب الكلمة .

ولكن الذى أخشى عليك منه هو أنك صاحب كلمة حـــرة
والكلمة الحرة لا تباع . وأنت تذهب الى حيث العقائديـــة
النفطية اذ يمكن أن يشترى كل شىء بما فى ذلك الكلمة الحرة وأخشى
أن تخير أخيـــــرا بين المال النفطى والكلمة الحرة . فاذا
ترددت فسوف تفقد الأثنين معا وإذا حسمت الامر لصالـــح
أحدهما فقد فقدت الآخر . وعلى أية حال فسوف تجـــد
الباب مفتوحا دائما فى مصر ولكن بلا بساط احمـــــر
وعليك ان تخترق طريقك الى الداخل . وإذا كنت تجـــــد
صعوبة فى ذلك اليوم فالارجح انك سوف تجد نفـــــــس

الصعوبة غدا . ولعل ذلك يجعلك تتروى فى اعلان موقف اليأس وان تعيد المحاولة .

وأعلم أنك حاولت مع أكثر من جهة وأكثر من مسئول ووجدت الاستجابة الوراثية أى بالابتسام ليس الا لم توجد المشكلة مشكلة فرده ولذا فليس هناك مسئول يستطيع ان يحلها بمفرده .. بل لابد من سعى المجتمع ككل . اذ أن ما تمثله هم المثقفون المقاتلون الذين يدافعون عن السلام من موقع قوة ، وايمانا بمبدأ ليس كمجرد مناورة ، وبهدف الرخاء والتأهب لابهدف الاسترخاء والترهل . أنك تعبر عن اتجاه اللا عنف الثورى ، أو السلام الايجابى والذى جسده غاندى خير تجسيد فى الهند ، مصطفى كامل فى مصر . وهذا مولود جديد أو بالاصح يعاد ميلاده فى مصر ، والمولود الجديد فى حاجة الى رعاية . والذى لابد أن يبادر برعايته هو ذات الذى يقدر على اعادة دفن موميا وات الموتى بعد النبش فى قبورهم . لقد اعدنا عبد الناصر الى قبره بعد ان نبشنا فيه ، وسوف نعيد الجامعة العربية فور ملتشبع نبشا فى قبرها . مات الملك يحيا الملك ! مات القديم ولابد للجديد أن يحيا .

أن تركك للساحة الآن بمثابة اعلان عن وفاة المولود الجديد فى المهد . بينما الذى يحتاج الدفن هو القديم . المواقف المومياثية التى إخرجت الى الدنيا بلا وظيفة الا الفرجة .

أنك فى حاجة الى رعاية اذ لايمكن ان تترعرع فى ظل الظروف الطبيعية . ومثلما احتاج دفن الاموات الى قرار أو توصية من القيادة ، فأن قرار رعاية المولود الجديد - اللاعنف الثورى أو السلام الايجابى - لابد ان يأتى من القيادة الممثلة للمجتمع كله والتى تحتوى جميع اطرافه وتناقضاته الوجدانية دون انحياز لجانب أو آخر ، ومتجاوزة كل الصراعات .

المؤلفة ليزلى هيزلتن أخصائية نفسية تحولت الى الصحافة والتأليف . وهى يهودية بريطانية تحولت الى اسرائيلية ثم الى مواطنة امريكية . وقضت عاما فى الصحراء بين النقب وسيناء (قبل عودتها الى السيادة المصرية) .
لقد كانت تهدف الى وصف الصحراء ولكن افتتانها بها جعلها تتحدث باسم الصحراء : لاعنها . اذ بعد أن كانت تهدف برحلتها الى القاء سلسلة من المحاضرات فى علم النفس تلقيها فى الجامعة بالنقب ، أى رحلة بدأتها كمهنية متخصصة ،وجدت تأثير الصحراء قد أحدث فيها تحولا وجدانيا .
فالعقلية المهنية المتخصصة تنظر الى الأشياء من منظور محدد ولاتراها شاملة . فعالم الجيولوجيامثلا يرى الصحراء كمجموعة من التكوينات الطبيعية من رمال وصخور . وعالم البيولوجيا يرى فيها نباتات وحيوانات . أما عالم النفس فلعله يرى فيها سلوك ووعى سكانها القليلين من بدو رحل أو تجمعات سكانية فى القرى المتناثرة .

الا أن عالم النفس يأخذ اكثر من غيره موضوع علمه حيثما ذهب . وهو نفسه ،بل أنه لايستطيع أن يفصل بين أداة العلم ،أى نفسه ،وبين موضوع علمه . ومن أهم آثار الفلسفة الوجودية فى علم النفس أن النفس هى الأخرى لايمكن أن تنفصل عن موضوعها ،فهى "نفس ـ فى ـ العالم" أو بالتعبير الألمانى " دا زاين " Da Sein

ولعل هذا التأثير الفلسفى فى علم النفس يعكس بدوره النقلة التى عاشتها المؤلفة من الموقف المتخصص الذى ينظر الى المواضيع الخارجية كانها مواضيع " هناك " لا علاقة لها بالمشاهد ويمكن وصفها [illegible] ،الى الموقف الشمولى

الذى يرى المواضيع الخارجية مرتبطة فى طبيعتها بما يضفيه عليها المشاهد من صفات وهى صفات ترتبط بدورها بعضها ببعض .

فالصحراء ليست مجرد رمال وصخور ، ولا مجرد نباتات وحيوانات . ولا مجرد موضوع خارجى هناك . بل هى كل هذا فى صورة واحدة متكاملة . وهى فوق كل هذا حالة وجدانية داخلية : لعلها مواجهة الانسان لوحدته وعزلته فى خلفية من اللامحدود والابدى . انها مواجهة بين الحياة فى بحثها عن الاستمرار والابدية وقسوة الموت .

ولعلها لم تكن صدفة أن الأديان السماوية التوحيدية نبعت من الصحراء .. صحراء هذه المنطقة بالذات . بل انها نبعت بعد أن انعزل كل من أنبيائها - موسى وعيسى ومحمد (عليهم السلام) - لمدة أربعين يوما فى أحضانها بعيدا عن ضجيج البشر . الصحراء تذكر الأنسان بمحدوديته فى الزمان والمكان ، وتجعله يرى بالمقارنة ما هو لامحدود ولانهائى فى الزمان والمكان وهو الأله الواحد .

لقد بدأت المؤلفة رحلتها وهى تعبد وثنا من ضمن الأوثان ، أو ترى الأشياء من منظور دون غيره ، وهو منظور تخصص علم النفس . ثم أفاقتها صدمة الصحراء لتكتشف انه اذا كان وثنها الها كما كانت تعتقد ، فكل عابد لكل وثن آخر يعتقد بدوره أن وثنه آله .

واذا كانت كل هذه القلوب المؤمنة بألوهية أوثانها موجودة ، وآلهتها بالتالى موجودة ، وكل آله بالضرورة نفى لاى آله آخر . فهناك نقطة يتيقن فيها المؤمن أنه لاتوجد آلهة البتة . فيفقد أيمانه ويواجه وحدته بكل قسوتها وبرودها . ولكن مواجهته لهذه الوحدة هى شكل يتطلب

أرضية تبرره ،والأرضية هي تلك الخبرة المناقضة للوحدة والعزلة ،وهى أنه جزء من وجود أكبر لاحدود لــــه ولانهاية ،وذلك الوجود هو الآله الواحد الأحد .

فالمؤلفة لاتعلن هذا التحول صراحة ولكنها تعيشـــه وتعبر عنه من خلال كتابها . فقد وصفت الصحراء، أو على حد تعبيرها ،تركت الصحراء تعبر عن نفســـها من خلال قلمها الذى عبر بدوره عن وجدانها .

وقامت بهذا الوصف وهى مسلحة بخلفية مهنيـــــة دربت فكرها على الوضوح والتسلسل المنطقى والتحليلـــى والتصنيف ،ولذلك فهى تصف كل ظاهرة على حدة : الرمال والصخور والمياه فى السماء وتحت الارض ورحلتها بينهما والكائنات الحية من قواقع وقشريات وحيوانات ونباتـات ثم البشر من عرب بدو كانوا يتعايشون مع بيئتهـم عبر آلاف السنين فى توازن ،الى أبناء المدينة مـــن الاسرائيليين الذين جاءوها معتدين بمشاريعهم التعميرية او الاستعمارية المغلفة بشعار أن " نجعل الصحـــراء تزهر " .

انها ترفض أن تكون الحياة مجرد أستمرار للوجـــود الحى بلامعنى آخر،فالقواقع والقشريات والنباتـــــات والجمال التى عمرت الصحارى منذ ملايين السنين قـــد اثبتت قدرتها على ذلك رغم كل الصعوبات والقســـوة التى تواجهها فى الصحارى . القوقع يتحرك ويحيــــا بمعدل عشرين يوما فى السنة الواحدة . فهو يحتمـــى داخل قشرته ويغلف مدخلها بغشاء يحميه من الجفـــاف بل أنه يجف تماما بأستثناء خلاياه الجنسية فـــإذا أمطرت استطاع أن يمتص كميات وفيرة من المياه تكفـى حاجته لمدة طويلة . ويعود الى الحركة التى تبـــدأ اول ماتبدأ بالتناسل والتناكح من أجل التكاثر . ثـم

ثم تستمر الحركة بعد ذلك للبحث عن الطعام من أجل الوجود الذاتي ومن أجل النسل الذي ينتج بكثرة تعوض عن فقدان غالبيته بالموت من فعل قوى الطبيعة أو التهام الطيور وغيرها من الكائنات الحية .

والانسان يحول وجوده الى مجرد تناكح وتناسل بغية التكاثر الذي يلهيه حتى يزور المقابر . وهو اذا اقتصر على ذلك المستوى من الوجود يتحول الى مجرد كائن حي آخر مثله مثل القواقع أو النباتات أو الجماد . ولعله يرى -في بادئ الامر- أن الوجود هو تأكيد لوجوده على حساب وجود غيره . فالكائنات الحية يأكل بعضها البعض الا أن نجاح الانسان بفضل قدرته على التواجد الاجتماعي والاستمرار الحضاري والذي عوضه عن افتقاره الى الوسائل الطبيعية التي تؤكد وجوده في مقابل البيئة القاسية ذلك النجاح جعله يؤكد وجوده فعلا على حساب وجود غيره فهو يأكل النباتات والحيوانات أو يسخرها لخدمته . بل انه يسعى بعد ذلك الى تحديد هويات مصطنعة داخل هويته الانسانية هدفها تأكيد ذاتها في مواجهة غيرها : فالرجل الابيض ينفي وجود الرجل الأسود أو الأسمر أو الأصفر ويسعى الى السيطرة عليه وتسخيره ، وكذلك الاوروبي في مواجهة الأفروآسيوي أو الغربي في مواجهة الشرقي : أو المسلم والمسيحي واليهودي . كل يسعى الى نفي الآخر أو تسخيره أو اخضاعه .

ونجاح الانسان في هذا التأكيد لذاته يجعله يواجه وحدته . فاللحظة التي يتأكد فيها انه موجود دون غيره هي اللحظة التي يعي فيها وحدته وعزلته . هي لحظة المواجهة مع الصحراء وهي لحظة المواجهة مع الفناء ، وعندها يكتشف اللانهاية أو يكتشف الله ويبدأ في البحث عن القيم والمعاني والاهداف التي تتجاوز مجرد التأكيد للذات . وتأخذ

فى الأعتبار تأكيد وجود الغير وقبول الآخر.

ويعنى ذلك التعايش مع ماهودونه من موجودات حية وغير حية ،فى هذه اللحظة يتقبل اليهودى المسلم ويتقبل المسلم اليهودى ويتقبل الرجل الأبيض الأسود والأصفر والعكس . ويتقبل الجميع القواقع والقشريات والنباتات والحيوانات .

والتقبل أو التعايش لايعنى أفناء الذات من أجل الغير مثلما هو نفى لتاكيد الذات على حساب الغير بل هو تأكيد للذات والغير على السواء . أنها نقلة من تصارع ينفى فيه كل موجود ماعداه من موجودات الى تعاون يؤكد فيه كل موجود غيره . أو تصارع يخسر فيه الطرفان الى تعاون يكسب فيه الطرفان .

الصحراء فى حديثها عن نفسها من خلال هذا الكتاب هى صرخة الصحراء . بكل مايوجدفيها ومن يوجد فيها من أجل البقاء فى مواجهة ماتراه أقتحاما من قبل الأنسان لها . الأنسان يكاد يفقد الهدف فى سعيه الأعمى للوجود البحت الذى لايتأكد الا بنفى غيره .

أنه يتكاثر وينتشرويقتحم ويتقدم ولكنه فى عنفوان ونشوة نصره يغتال غريمه الذى هو فى النهاية مصدر غذائه وبالتالى وجوده . وهو بأغتياله له أنما يضع أول مسمار فى نعشه . فالأنسان الذى يهتك بيئته ويعتدى عليها بجهالة ينتهى بأن يجد نفسه وحيدا بلا بيئة تغذيه وتحميه وترعاه .

والصحراء ليست مجرد تلك الأرض برمالها وصخورها ونباتاتها وحيواناتها ،ولكنها أيضا تراث حضارى أنسانى . بل هى أصل التراث الحضارى الأنسانى لكونها منبع الأديان السماوية الثلاثة والتى انتشرت لتسيطرعلى العالم (أوتكاد) اليوم . فسكان الصحراء ليسوا مجرد

بدو أو حتى عرب بل هم العرب ـ المنبع والأصل ـ واذا كانت فكرة محو وجودهم تتم اليوم على أيدى الاسرائيليين فان ذلك منبعه ليس من مجرد كونهم اسرائيليين أو يهودا ولكن لكونهم ممثلى حضارة غربية وغريبة على هذه المنطقة ـ منطقة الصحراء .

انها حضارة المدينة ، والمدينة بشكل عام تهتك البداوة . وهى سابقة لها مثيلاتها فى اقتحام الانسان الغربى لأمريكا على حساب سكانها الأصليين ، وفرض حضارة مصطنعة تخل بتوازن الطبيعة ـ فالخطر على عرب الصحراء هو خطر أسرائيلى حاليا ولكنه فى جوهره خطر المدينة والمدنية بصفة عامة ، واذا كانت اسرائيل هى التى تحمل ذلك الذنب اليوم وتقوم بعملية " الطلب الحديثة " هذه للعرب فى البادية ، فأن الذنب ليس ذنبها وحدها بل هو ذنب العالم الغربى كله . بل انه ذنب ترتكبه ببشاعة مبالغ فيها بكاريكاتورية وتشويه ، الصفوة الكاذبة المصطنعة التى تتربع على قمم المجتمعات العربية الحديثة ـ الصفوة الحديثة الثراء التى فشلت فى صنع حضارة نابعة من جذورها فاستعاضت عن ذلك باستيراد الحضارة الغربية جاهزة بأجهزتها ، بل بجوها المكيف وزرعها بلا تذوق وسط صحرائها العتيقة .

ويختتم الكتاب بمناشدة الرئيس السادات الا يحول منطقة سانت كاترين ـ كما فعل الإسرائيليون ـ الى منطقة سياحية تتوافد عليها الأفواج بضوضائها وسطحيتها فتفقدها ميزتها الروحية التى حافظت عليها عبر القرون وهى تناشده الايبنى ذلك الصرح السياحى على هيئة مجمع لأماكن عبادة للأديان الثلاثة .

ولكنها مع ذلك قد أجابت على هذا النداء من حيث لاتدرى على لسان عالم المياه ايفينيرى أن رى الصحراء

بالنسبة له هواية وتعبير عن فضول علمي ،بل يـــرى أن ذلك موقف اسرائيل كمجتمع . وهو باعترافـــه يختلف فيما يتعلق بالعالم الثالث حيث رى الصحراء ضرورة
وبالمثل فإن الرحلة الروحية التى قامت بها المؤلفة لمدة عام فى الصحراء هى تعبير عن بحث فرد عـــن ذاته . وهى حالة تتكرر بين حين وآخر من قبـــل المثقفين والمفكرين بل المغامرين من الغرب ،بـــرز منهم داوتى الانجليـــــزى الذى عايـــــش العرب وكتب مذكراته عنهم . ثم لورانس العرب الـــذى زاوج بين بحثه عن ذاته وخدمته للأهداف القوميـــة لانجلتـــرا .

وها هى ذى مؤلفتنا أيضا تبحث عن ذاتها وهـــى تسعى لتحقيق ذلك التعايش بين المتناقضات التـــى عاشتها بداخلها : الأنجليز واليهود وهو التناقـــض الذى نشأت عنه الحاجة الى أيجاد دولة يهودية فـــى هذه المنطقة تمنع وحدتها الجغرافية وتستنـــزف طاقتها القتالية .

ثم التناقض بين اسرائيل والعرب والذى نشأعنه ذلـــك التقاتل المرير الدامى ثم التصالح والتعايش الذى نحـــن بصدده اليوم . والتناقض بين المدنية والبادية يحرمها من أحد عناصر التوازن الطبيعى الذى سبق أن اختـــل فى المدينة .

والتناقض بين الرجل والمرأة حيث الرجل الذى طالمـــا أدعى صنع الحضارة تاركا صناعة الأطفال للمرأة ،يفعـــل الآن على المستوى الجماعى ماتفعله المرأة على المستوى الفردى ،فهو يتكاثر وينتشر جسمانيا بلا هـــــدف حضارى باق ،ولمجرد التكاثر والأنتـــشار .

والمؤلفة انجليزية يهودية اسرائيلية أمريكيـــة

وأمرأة تسعى لصنع حضارة تقوم على تآلف بين كل هـــذه المتناقضات . الرحلة الروحية بواسطة ضيافة الصحراء قامت بها ،بعد رفاهية ،القديسة كاترين . مثلها مثل بحث أفينيرى عن الخضرة فى الصحراء ،هى رفاهية بالنسبة لهذه القلة من الناس التى تملك الرغبة والقدرة على البحث ولكنها بالنسبة للعالم الثالث ضرورة .

والرئيس المصرى حينما يزمع أنشاء ذلك المجمع الدينـــى فى ذلك المكان أنما يعبر عن تلك الضرورة . فالعالم الثالث يتيقن بالطريق الصعب أن سيرته فى طريق القوة بدل الحكمة أنما جعله الطرف الأضعف فى حوار قانونه القوة .

فشراء السلاح مزبح للعالم الغربى ،وأستخدامه يخســر العالم الثالث فوق المادة أرواحا شابة وغالية تاركـــة النساء بأطفالهن العديدين بلا رعاية . والبحث عن القيم المستلهمة من الأديان الثلاثة معا ضرورة وليست رفاهيـــة والقيم المطلوبة هى ماتسمح بالتعايش بين الأضداد وقبـول الآخر وأحترامه . فالصراع الدامى لايخدم حتى حامل السلاح اذ أنه يزداد تشبثا بسلاحه خوفا من أنتقام غريمـــه منه . فهو يهلك نفسه خوفا وكرها أن لم يمت بفعـــل الأنتقام .

بل لعلى أضيف للكاتبة أن هناك مشروعا موازيا قــد لايرضيها لأول وهلة ،ولكنه بالمثل يعتبر ضرورة موضوعية للعالم الثالث . وذلك المشروع هو أقامة مركز للتنميـــة الذاتية هناك تستخدم تكنولوجيا علم النفس والعلاج النفسى من أجل تدريب الراغبين على القيام بمثل هذه الرحـــلات على مدى فترة قصيرة تتيسر لهم ،ليست عاما كامـــلا وليست رحلة سياحية سطحية تستغرق ساعات أو أيامـــا . أنها رحلة الروح فى العصر الحديث بمعاونة التكنولوجيـــا النفسيـــــة .

الباب الرابع

مصر ومثقفيها

** المثقفون وكفاح الأرائك .
** الثقافة فى التوازن النفسى السياسى .
** الأنعزال السياسى .
** خمس وخمسون ومال وبنون .
** الشقة والمعجزة .
** حذار من تغذية المثقف .
** اذا كنت ثائرا فلاتفصح عن حقيقتك .
** لكى يكون التأييد عميقا فى كيفه لامجردواسعافى كمه .

المرض النفسى هو ذلك الاستسلام للمعاناة الناتجة من الصراع مع الواقع أو مع الداخل .. والصحة النفسية بالتالى ، هـى السعى الى حل ذلك الصراع بغية الحد منه ، وتوجيهه نحـو موضوعه فى الواقع الخارجى .. اذ أن انهاء الصراع تماما يكاد يكون مستحيلا ، لأنه يتنافى مع الوجود الحى فالحياة تتميز بأنها حركة تفاعل مستمر بين كائن ما وواقعـه .

فهناك ثلاث دوائر تنعكس فيها الحياة النفسية للأنسان الفكر والأنفعال والفعـل ..

فالأنسان يتميز عن الحيوان بقدرته على التفكير مما يسمح له بأن يتعلم ويجرب دون أن يتعامل مباشرة مع الواقع ، فيؤجل الفعل الى أن يكون كامل الاستعداد لمواجهة الواقع. وعليه أن يكتسب قدرة على التأثير فى الواقع بفعالية أفضل ، أنه يدرك الواقع بذهنه حيث يعيد تشكيله ، ثم يفعل بما يحقق له هذا الشكل الجديد الواقـع .

اما عند الحيوان فلعل الفعل يكون اقرب الى السلوك المنعكس أو الغريزى الذى لا يسبقه فكر ، أنه يتصرف ازاء الواقع بردود فعل أو سلوك غريزى موروث ، واذا تعلم أو أضاف سلوكا جديدا فان ذلك يأتى بفعل التجربة والخطأ فى الممارسة الفعليـة .

وفى النقلة بين الفكر والفعل نجد الأنفعال الذى هو الاستجابة الجسدية التى تهيىء الكائن الحى للفعل .. والفرق بين الأنسان والحيوان فى هذه الدائرة هو أن الأنسان يستطيع أن يتحكم فى انفعاله بما يجعله يعزل انفعاله عن فعله أو فكره أو كليهما .

وأما الحيوان فيتصرف بتلقائية ازاء الواقع ، يتفاعل معه دون تردد أو تأجيل لوظائفه متناسقة دون صراع تاركة مجال الصراع لدائرة تفاعله مع واقعه .

والانسان معرض بسبب هذه القدرة على التأجيل وعزل وظائفه بعضها عن بعض لأن يتفاعل مع الواقع بأى من وظائفه منفردة أو مجتمعه ، وهذا بدوره يعرضه لأن يعى الصراع بين أجزائه الداخلية المفككة بدلا من أن يعيه مع واقعه ، وهذا أيضا يحد من فاعليته في التعامل مع الواقع .. انه مشتت فى انتباهه بين أن يعى الواقع الذى هو فى صراع معه ، وأجزائه المنفصلة بعضها عن بعض فتضيع طاقته بين الاتجاهين ، فاذا ما فشل فى تعامله مع الواقع استسلم وانهزم وبحث عن مبرر لهزيمته أو غير من ادراكه للواقع لينفى هزيمته أمامه . ولكنه قبل أن يستسلم يعانى ويبحث عن وسائل بديلة مع واقعه أو مع أجزائه الداخلية المتصارعة معه .

* * *

والمجتمع – ككيان حى أيضا يتعامل مع واقع ، ويمارس ذلك فى المجالات الثلاثة بتوزيع التخصصات بين أعضائه بحيث يجيد بعض الأفراد جانبا دون الاخر ، الأمر الذى قد يفقدهم قدرا من التوازن الذاتى بين الدوائر الثلاث على المستوى الفردى . ولكنه فى اطار الجماعة يكسبها درجة أعلى من التخصص فى كل مجال يتمكن بواسطة التناسق بينها من تحقيق فعالية أفضل فى التعامل مع الواقع .

وهكذا تنشأ أول بذرة للصراع الداخلى بين أجزاء المجتمع اذ تحاول كل فئة أن تؤكد ذاتها فى مواجهة الفئة الأخرى فتدخل معها فى صراع .

والفكر فى المجتمع . تقوم بممارسته بدرجات مختلفة – فئات عديدة ممن استكملوا دراساتهم الى مراحل أعلى

فالحاصل على الدرجات العلمية ، الذى يركز جهده فى الأبحاث العلمية ، غير زميله الذى يقوم بالتعليم أو يمارس تخصصه فى مجال الخدمة المباشرة للمجتمع وغير ذلك الذى لم يحصل على هذه الدرجات او لم يتعلم اصلا .

ولكننا بجانب ذلك التفكير المتخصص الدقيق نجد نمطا آخر من الفكير يهدف الى إعادة تشكيل الواقع برمته لا ذلك الجزء المحدود الذى يقع فى دائرة التخصص ، هو النمط الذى يتميز به المفكرون او اصحاب الرؤية الشاملة للواقع ككل الفلاسفة والفنانين والأنبياء حسب درجة تخفف كثافة الفكر بالفعل والانفعال .

فالفيلسوف يفكر اكثر مما ينفعل ، والفنان ينفعل اكثر مما يفعل ، بينما النبى يفعل اكثر مما ينفعل أو يفكر .

ولعلنا على المستوى الاعم نطلق صفة المشتغين على أولئك الذين يتبعون هذه الانماط من المفكرين : الفلاسفة والفنانين والانبياء . فهم وان لم يصلوا الى هذه الدرجة من التفرق التى تجعلهم فى صفوف هولاء الا ان سيرهم على نهجهم يقربهم ، وكانهم مندوبون فى الارض .

والمجتمع المتطور - مثله مثل الانسان المتطور يتغير بسرعة قد تجعل اجزاءه بعضها يسبق بعضا .

فقد نجد الواقع الذى يتعامل معه المجتمع تحتم عليه فعل لم يعد له المجتمع فتكون استجابته بفعل منعكس قد يكون او لا يكون متواشما مع فكره مما يودى الى تعميق الفجوة بين الفعل والفكر .

ومن جانب آخر فإن المفكر - الذى هو قادر بطبيعته على سبق الواقع وتجاوزه والسعى نحو اعادة تشكيله بما يتلاءم مع رؤيته - يزداد انفصالا عن واقعه اذا اختلف سير الواقع عن توقعاته او رؤيته .

وكانعكاس لهذا الحد الحتمى من الانفصام الطبيعى بين

الفكر والفعل على مستوى المجتمع نجد ان الفئات التي تمارس الفعل تدافع عن وجودها ازاء تلك التي تمارس الفكر فتزداد الفجوة بين الطرفين .

ولكن حينما تبلغ الفجوة درجة الصراع الذي يستنفد طاقات المجتمع ويحول دون تعامله مع الواقع الخارجي ..يظهر احتمال الفشل في مواجهة الواقع ، خاصة أن الفائدة الموجوة من وجود ذلك التوزيع المتخصص لم تتحقق بفضل عزل كل جانب عن الآخر .

فالفئات الفعالة تملك ان تكون اكثر فعالية لو انها تمكنت من الاستفادة والاسترشاد بذوي الفكر .

ومن جانب اخر .. فان الفكر يزداد قدرة على ملاءمة الواقع كلما ابقى على اتصاله بالفعل وفي ضوء مثل هذه الخساة على المجتمع ككل تنشأ حالة توازي حالة المرض عند الفرد :الفشل في التعامل مع الواقع والمعاناة من آلام الصراع معه ومع الآجزاء المنفصمة بعضها عن بعض .

وهنا يتولد البحث عن العلاج الذي يهدف الى المواءمة بين الاجزاء بعضها مع بعض وبين المجتمع ككل والواقع الذي يتعامل معه .

* * *

اين المرض - اذن - في المجتمع المصري المعاصر واين العلاج ؟

المجتمع المصري المعاصر يتغير بسرعة ، بغض النظر عن اتجاه ذلك التغيير سواء سميناه تقدما او تقهقرا فانه يمهد لتقدم يتلوه و حسب وجهات النظر المختلفة فهو يتغير ويتطور لامحالة .

انه مجتمع يوجد في عالم وزمن سريع التغير كما أنه مليء بالمتناقضات والصراعات .وهو لا يستطيع ان يعزل نفسه عن ذلك الواقع العالمي فيعكس تناقضاته وصراعاته بداخله وقد يعكسها - بحكم السرعة - بصورة مهتزة اشبه بالكاريكتور تبرز فيها الصفات المميزة .

والفكر العالمى يتقدم ويسعى الى الواقع ويتجاوزه . والدول كلما تقدمت أصبحت أكثر قدرة على مواءمة فكرها لفعلها .

والفكر العالمى يصل الى عقول المفكرين فى مصر . ولكن الفعل العالمى يؤثر فى مصر ويستلزم منها الرد السريع الذى قد لا ينتظر الفكر .. فاذا كان الرد نابعا من احتياج مصر معبرا عن واقعها ، فانه فى هذه الحالة سوف يسبق الفكر سواء كان ذلك الفكر الذى لم يواءمه او يعكسه ، او ذلك الفكر الذى اتى من خارجه .

والمفكر فى مصر يجد نفسه اما سابقا لفعلها بقدر تعبيره عن الفكر العالمى الذى لا يلائم بالضرورة احتياجات مصر ، او متخلفا عن فعلها بالقدر الذى لم يستطع هذا المفكر ان يتنبأ به ويحققه .

ومن هنا نجد المفكر فى مصر معزولا عن واقعه بفكره ومعزولا عن العالم الخارجى بفعله .. فهو فى النهاية يمارس وجوده وحياته فى المجتمع المصرى حتى ولو كان تفكيره عالميا .

ومن جانب اخر فان المجتمع الذى ياويه يطلب منه ان يساهم بفكره فى بنائه مقابل وجوده وسطه ، حتى لو كان الواقع الذى يعيش فيه لا يعجبه ، بالمقارنة مع الواقع العالمى .

وأمام هذا الاختيار فان المفكر يستطيع أن يستمر فى حالة انفصامه عن واقعه مستمرا فى الحلم بواقع افضل ، فيزداد عزله عن مجتمعه ، أو أن يعيد النظر فى فكره بغية مواءمته لواقعه . أن استمراره فى وضع الانعزال سوف يحتم عليه بالضرورة ان يزداد تقهقرا وعزله حتى يندثر .

فالمحك النهائى هو قدرته على التعامل مع الواقع ، لا على الحلم بواقع افضل ولا على الاستسلام له . فاذا اراد تغيير الواقع بما يلائم رؤيته ، كان عليه أن يترجم هذا الفكر الى فعل ، ومن جانب اخر اذا تواءم من ذلك الواقع وتلاحم معه بالفعل كان عليه أن يترجم ذلك الفعل الى فكر يشكل جزءا من رؤيته المستقبلية التى تهدف الى اعادة تشكيل الواقع .

وفى كلتا الحالتين فان علاج الازمة التى يعانى منها المفكر هو أن يعيد ربط فكره بفعله بان ينفذ مايفكر فيه او يفكر بما يوائم تنفيذه .

وقد يستطيع المفكر ان يعتذر عن عجزه بان فكره سباق والواقع مخطىء لانه لايتابعه ولكن ذلك لن يغير من حقيقة انه معزول عن الواقع .

ومقابل ذلك يستطيع المفكر ان يلغى فكره ويتوائم مع الفعل فى الواقع ، وتكون النتيجة واحدة : انه عزل فكره عن فعله وواقعه .

المعادلة الصعبة اذن هى ان يجد المفكر ذلك القدر من المرونة التى تسمح له بان يغير فكره ليلائم الواقع دون ان يتخلى تماما عن فكره المستقل ورؤيته المستقبلية وفى نفس الوقت يملك القدر الكافى من الفكر والرؤية المستقبلية التى تسمح له بأن يكون مساهما فعالا فى تغيير الواقع وليس السير فى ذيله او التبعية له .

فالنظرة القطعية هى التى تجعله يخشى تغيير فكره بما يلائم الواقع ،وكان فى ذلك استسلاما مما يجعله يذهب الى النقيض الاخر فيتشبث بفكر لايوائم الواقع بل يتناطح معه وكان فى ذلك استشهادا .

ومن جانب اخر قد يمتنع عن التعبير عن فكره ورؤيته المستقبلية الخالفة للواقع وكان فى ذلك موقفا رافضا او معارضا .. يحدث التغيير فى الواقع بطريقة سحرية .

ففى الحالة الاولى يجمد فكره بما لايسمح بالتعامل مع الواقع .وفى الحالة الثانية يجمد فعله بما لايسمح له ايضا بالتعامل مع الواقع .وفى الحالتين يعزى نفسه بأنه بطل او شهيد .

ان معاناة المثقفين فى مصر تتطلب منهم ان يبحثوا عن مخرج منها ، ومعاناة مصر من عزلة المثقفين وهى بدورها تتطلب خطوة من جانبها لتعيدهم الى خظيرتها .فالمثقف بلا مجتمع

يتفاعل معه كيان ذابل بلا خصوبة والمجتمع بلا مثقف ينير له طريق المستقبل مجتمع عاقر لا يلد جديدا .

واذا كان هذا الحديث يبدو وكأنه موجه للمثقفين اساسا محملا اياهم مسئولية ماهم فيه . فان ذلك ليس منبعه تحميلهم وحدهم مسئولية التغيير ، ولكن لانهم على الارجح اول من سوف يستجيب له او يستمع اليه .

فالمجتمع ككل منشغل بحل قضاياه اليومية وكانه يلهث من يوم الى يوم ليبقى على قيد الحياة . انه لا يملك القدرة على التوقف ليحشم معاناة مفكريه ، بل حتى التفكير والتنبوء ولكنه يعيش حاضره بالكاد . ان لم يكن كثيرا ما يسعى للعودة الى ماضيه كلما عجز عن ان يعيش حاضره . تارة يحلم بماضى ماقبل ١٩٧٧ وتارة ماقبل ١٩٧٣ او ماقبل ١٩٧١ اوما قبل ١٩٦٧ او ماقبل ١٩٥٢ .. ناهيك عن عصور فجر الاسلام او الفراعنة .

مسئولية المثقف اذن هى البحث عن مستقبل يمكن ان ينبع من حاضر له جذور فى الماضى لا ان يحلم بمستقبل بعيد او يسعى لاستعادة ماض قريب او بعيد .

ولعل من العوامل التى لا تعاونه على تحمل مثل هذه المسئولية تبريره السائد بان رؤيته المستقبلية غير القابلة للترجمة الى واقع كثيرا ما توصف بانها تمثل موقفا معارضا او يساريا او عالميا وعليه فانه معذور لعدم فاعليته . لان الواقع المحلى - وهذا طبيعته - يرفض هذا الذى يرفضه اى يرفض المعارضة واليسار والعالمية .

وبما انه مرفوض ، وفى ذات الوقت عاجز ، يرغب فى انكار عجزه فهو يلبس لباس البطولة والاستشهاد ، انه يرادف بين موقفه العاجز وموقف المعارضة المبنية على رؤية مستقبلية .

ويزيد الطين بلة حينما يرادف بين مثل هذه الرؤية المستقبلية وبين احلامه بالماضى القريب خاصة اذا كان ممن افل نجمه

بعد مجد فقدوه ،فالمستقبل بالنسبة له لايعدو ان يكون استعادة لذلك الماضي القريب الذي فلت منه .ناهيك عمن يرون المستقبل وكانه استعادة حياة مرت عليها قرون .

هذا هو جهاد الموقف ونضاله وهو ابعد مايكون عن موقف الكفاح من على ظهر الأرائك او المقاعد .. انه عمل يتطلب منه ان يفعل شيئا بدلا من الاكتفاء بالتفكير وان يفكر بما يؤثر على الفعل معرضا نفسه لما يتعرض له اى مفكر..فيفرز فكرا يعكس الواقع لما فى ذلك الواقع من حركة نحو التغيير الى مستقبل افضل ودون ان يكون هذا الفكر منفصلا عن الواقع بحكم تعبيره عن واقع ازلى او واقع بعيد لاهو مستورد ولاهو سلفى .

يمر الطفل بثلاث مراحل اساسية فى نموه المبكر ففى المرحلة الاولى: والتى تستغرق العام الاول يكون الطفل معتمدا اعتمادا تاما على امه انه يكاد يكون معدوما الارادة المستقلة يتحرك بعشوائية وردود فعل ، ويترك نفسه لأمه تماما تقرر مصيره وانها اشبه بحالة الاسترخاء والاستسلام .

ولذلك فأن مطلبه من الام ، وهو فى حالة الضعف هذه أن تكون امينة على مصالحه واهلا بالثقة .ولكن حتمية النمو تتطلب أن ينتقل من هذه المرحلة .فعضلاته تنمو وتصبح تحت تحكم ارادى بما فى ذلك عضلاته القابضة التى يتحكم بواسطتها فى مخرجاته من بول وبراز ،ولذلك فهو ينتقل الى المرحلة الثانية التى تستغرق عاميه الثانى والثالث تقريبا. فالذى يحققه فى هذه المرحلة هو نقيض ما يحققه فى المرحلة السابقة وهو الاستقلال والارادة الذاتية انه يحرك عضلاته بأرادته وليس بالعشوائية ، بل انه يتحكم فى تلك العضلات الدقيقة والحساسة التى تخرج الصوت من حنجرته فيتكلم وتحكم فى مخرجاته فيؤجلها لكى يتمكن من حرية الحركة . أن معركته الاساسية هى تأكيد استقلاله وأرادته . ولكى يحقق هذا الهدف فأنه قد يقتصر فى بادىء الامر على النفى والمعارضة لذاتها . وبعد ان أيحقق استقلاله ويؤكد ذاته فهو يستطيع أن يعود جزئيا الى حيث بدأ بأن يعود للاعتماد على آخر ،لكن بشكل جديد

وهكذا ينتقل الى المرحلة الثالثة التى تستغرق السنوات التالية حتى تحين سن دخول المدرسة (او الابتعاد عن الأسرة الأساسية) .

وبما انه قد تحكم فى عضلاته وتمكن من المشى فأن التحدى التالى هو ما الذى سوف يفعله بخطواته ، أى الى اين يتجه ؟.. ثم أن تحكمه فى الكلام يجعله يبحث عن .. ماذا يقول ولمن؟

انه يدخل الى مرحلة التعامل مع آخرين بعد أن كان تعامله الأساسى مع آخر، ويتعلم المشاركة بعد أن كان تعامله فى أطار الاعتماد أو نفى الاعتماد أو الاستقلال . انه بذلك ينتقل الى مرحلة المبادرة .

ان هذا التصور يعكس الجدل الطبيعى بين الشىء ونقيضه الذى ينتهى بالجمع بينهما على شكل تعاون .

ونستطيع أن نشاهد نفس خطوات التطور فى أطار السلوك الجماعى .. فلو أن جماعة التقت لأى هدف فسوف نجد أن بداية اللقاء هادئة ويتعامل فيها الافراد برقة وكأن كلا منهم ينتظر تعليمات وقواعد يضعها آخر . وبعد قليل نجد الجماعة قد انتقلت الى مرحلة تصارع بين افرادها فى ضوء رغبة كل منهم فى أن يكون هو هذا الذى يضع القواعد ويقود الجماعة .. اما الدور المقابل فهو الرفض لهذه السلطة المفروضة .. وبعد أن تفرغ شحنات الغضب ويثبت كل فرد مدى قوته ، وتبدأ مرحلة توازن القوى التى تسمح بحد من التعامل بين أفراد الجماعة حول الهدف الذى من اجله التقت اصلا .

اننا نشاهد النقلات الثلاث من الاعتمادية الى التصارع ثم التعاون .

فالمجتمعات بدورها تمر فى المد الزمنى التاريخى الأطول بمراحل نستطيع أن نميز فيها تغليب اتجاه على آخر . ونشاهد فيه ايضا الجدل بين غلبة اتجاه ثم حلول نقيضه ثم الجمع بين هذا وذاك وعلى هذا الاساس نتساءل عن معنى الصحة والمرض .

والجواب أن الصحة تتميز بأنها مثل الحياة تعبير عن الحركة ... فالصحة لا يمكن أن تكون مطابقة لمتطلبات مرحلة على حساب غيرها ، بل هى تعبير عن ذلك التوازن الذى ينتج عن حركة الجدل الطبيعى بين المتناقضات ، فالاعتمادية مثلا

لاتمثل الصحة ولا الاستقلال وحده ، ولكن الاقرب اليها هو ذلك الذى يجمع بين الاعتمادية والاستقلال وهو التعاون او الاعتماد المتبادل . .

والمحك الآخر الذى نستطيع ان نستخدمه التعريف للصحة النفسية هو فى علاقة التوازن أيضا التى تتم بين الكائن ومن فى محيطه .. فنحن نتعامل مع البيئة التى نعيش فيها نؤثر فيها وتؤثر فينا .

فاذا أخذنا أمثلة تطبيقية لمثل هذه المفاهيم على كل من المستويات الفردية والجماعية والاجتماعية ،فسوف نجد بعض العناصر المشتركة .. من مريض يشكو من انه لايستطيع الانتاج فى عمله . انه طالب وعمله الاستذكار . قد كان طيلة حياته تلميذ مجدا ينصت لأوامر والديه وينفذ مايأمرن به وكان فى نفس الوقت يتلقى أوامر مضادة من جهة أخرى من جسده الذى اخذ ينمو منذ سن المراهقة بسرعة فائقة وصاحبت ذلك النمو تغييرات كيفية فى طبيعة تعامله مع الآخرين .. فهو يشعر برغبات جديدة بعضها عدوانى يأخذ شكل الرغبة فى تأكيد قوته ازاء ماكان - حتى الآن - يراه قويا وبعضها شبقى (أى جنسى) فى شكل الرغبة فى الاقتراب والالتحام بجسد آخر .. ان والديه بصفتهما اصل الاسرة التى اتى هو منها وبصفتهما وسيطى ، المجتمع فى اعداد النشء يمنعانه من التعبير المبكر عن تلك الرغبات . فلكى يكون ذا مكانة فى المجتمع وربا لأسرة لابد ان تتوافر لديه بعض الامكانات المادية والمعنوية فيؤجل هو رغباته حتى يستكمل تلك الامكانات .

وكخطوة نحو ذلك يجب أن يتعلم ثم يعمل . أنه يطيع والديه و يطيع المجتمع . لكنه يكبح جسده ورغباته .ولكن جسده ينمو وتفاعلاته الكيميائية والهورمونية تلح عليه .

وهنا ينشأ صراع بين رغبتين :واحدة فى اتجاه طاعة

المجتمع ،والاخرى فى اتجاه التمرد عليه .

وبالعبارات التى اشرنا اليها، واحدة فى اتجاه الاعتمادية والاخرى فى اتجاه الاستقلال ، انه يعبر عن تمرده ضد المجتمع برفضه للاستذكار . ولكنه برفضه للاستذكار يفتقد عنصرا هاما من متطلبات الاستقلال الآجل ، فهو لن يؤهل للعمل أو الزواج ،وقد ينتهى الامر به الى ان يستمر معتمدا على اسرته ومجتمعه بعد ان كان تمرده يبدو كأنه يبحث عن الاستقلال .

ان وعيه لهذه الحقيقة هو الذى يدفعه للشكوى والبحث عن العلاج ، فهو مريض لأنه لم يحقق التوازن الكامل بين النقيضين: المجتمع من جانب والجسد من جانب آخر ،العمل والانتاج من جانب والجسد من جانب آخر ،العمل والانتاج من جانب والمتعة والرغبة من جانب آخر ،تغيير الذات بأن يعدل رغباته من جانب وتغيير المجتمع بأن يعبر عن رغباته من جانب آخر. فهو مريض ،وعاجز ويطلب المعونة ليخرج مما هو فيه .

والجماعة كذلك . اذا ما التقت من أجل هدف ما كحفر قناة مثلا وانتظر الجميع حتى يأتي أمر او خطة عمل اى تمادوا فى حالة الاعتمادية ، فان الهدف الذى اجتمعوا من اجله لن يتحقق . وعليه فسوف تنحل الجماعة وتنتهى وظيفتها كما تحرم من المكافأة التى كانت ضرورة لها .

وكذلك الحال لو أنهم تمادوا فى الاستقلال ،فقام كل فرد منفصلا عن الفرد الآخر وحفر كل فى اتجاه او حفر واحد وردم آخر . فهنا أيضا سوف يضيع مبرر وجود الجماعة.

اذن فلقد فقدت الجماعة التوازن بين رغبتها فى الاعتماد ورغبتها فى الاستقلال ،ولم تصل الى حالة الاعتماد المتبادل حيث يمكن أن يتم العمل بالتعاون بين أفرادها . كما فقدت التوازن بين تغيير ذاتها (بأعادة تنظيم شكلها) وتغيير البيئة (بواسطة العمل)فكان همها انتظار القيادة أو التصارع عليها بدلا من أن يكون همها العمل البناء ..وتوقفت الجماعة عن الحركة

واصيبت بالعجز فلم تتحرك أو تتطور .

هنا نستطيع أن نقول أن الجماعة فى حالة مرض وتحتاج الى معونة للخروج من حالها . الا أن اطار طلب المعونة فى هذه الحالة لا يقع ضمن دائرة عمل الطبيب ، بل هو من اختصاص فئات اخرى صاحبة القرار كالمدير أو القائد الاجتماعى (السياسى) .

فاذا ما انتقلنا الى النطاق الاوسع وهو نطاق المجتمع فسوف نجد نفس القواعد تنطبق مع اختلاف الترجمة الى اشكال محددة فى الواقع ولنأخذ مثالا محددا من المجتمع السياسى المصرى المعاصر .

ان حالة الاعتمادية تتمثل فى ان ينتظر المجتمع تعليماته من آخر . قد يكون هذا الآخر قوة خارجية كما كان الحال قبل ١٩٥٢ .

١٩٥٢ حينما كان المجتمع المصرى ككل يفتقد الاستقلال الكافى فى علاقته مع الدول الغربية ، ولكن الاعتمادية حينما طالت زادت نقيضها فأتت ثورة ١٩٥٢ تؤكد ذلك الاستقلال وكان طابعها الرفض لكل ماهو غربى ، الامر الذى ذهب الى حد محاولة الانفصال عن العالم الخارجى واغلاق الحدود .

وكانت هذه النزعة للاستقلال تأخذ صورة النفى والمعارضة خصوصا الرفض لما هو غربى . ولزم لذلك أن يلتف المجتمع حول قيادة تمثل تلك النزعة للتعارك . وصار من خصائص تلك القيادة تغليب الجانب العسكرى ، سواء فى صورة الاستعداد للتعارك مع العدو الخارجى بواسطة جيش أو مع عدو داخلى بواسطة جهاز أمن داخلى . وعلى النقيض من ذلك فحينما يتمادى التضخيم يظهر اختلال فى التوازن فى صورة الاختلال فى العلاقة مع البيئة او الواقع ايضا .

ومن هنا أتت ازمة ١٩٦٧ فى صورة انهيار القوى العسكرية التى تضخمت ، وفاق حجمها قيمتها الموضوعية .

وهنا يتولد التوازن بالجمع بين النقيضين: الاعتماد والاستقلال . فتعيد مصر علاقتها مع جيرانها العرب والسوفييت والغرب على السواء ، فلاهي تعود الى حالة الاعتمادية الاولى ولاهي تتمادى فى استقلال مبالغ فيه . فهى تمد يد العون لمن كان بالأمس عدوا (بعض الدول العربية والغربية) وتقلل من اعتماديتها على من كان صديقا (الاتحاد السوفيتي) .

انها - مصر - وقد استطاعت بواسطة مثل هذا التوازن ان تعيد التوازن الى علاقتها مع الواقع فأقدمت على معركة مهما كانت محدودة ماديا فأنها اكدت بواسطتها مرحلة متقدمة من نموها فى اتجاه تحقيق الاستقلال وقدرتها على الاعتماد المتبادل دون فقدان ذلك الاستقلال .

وبالتوازى مع مثل هذا التطور على مستوى العلاقات مع العالم الخارجى فأن هناك تغييرات مواكبة تمت على المستوى الداخلى فقد انتقلت القيادة من القيادات الاعتمادية قبل ١٩٥٢ الى قيادة التعارك بعد ١٩٥٢ . ثم حتم الأمر تغييرا آخر فى القيادة بعد ١٩٦٧ . صحيح ان شخص القائد (أى الرئيس عبد الناصر) لم يتغير الا فى عام ١٩٧٠ وأن شخص القائد الجديد (الرئيس انور السادات) لم يستتب الا بعد ذلك بما يقرب من عام (مايو ١٩٧١) ولكن طبيعة القيادة تغيرت لتوائم احتياجات التطور النفسى السياسى للمجتمع المصرى . فلم يعد المجتمع المصرى بعد ١٩٦٧ يريد قيادة مسيطرة على زمام الأمور ذات طابع متسلط ، بل كان فى حاجة الى قيادة تسمح بظهور القيادات المعاونة والمبادرات الفردية التى يمكنها بفضل هذا الاعتراف أن تساهم مساهمة ايجابية فى اعادة بناء المجتمع .

وكان حتميا ان يصاحب مثل هذا النمو للقيادات المعاونة داخل المجتمع حد أدنى من فك السيطرة المحكمة ، اى انكماش فى القوى العسكرية (الداخلية والخارجية على السواء) .

ومنهنا كانت هناك حتمية أن ينتصر القائدالجديد الذى يعبر عن هذه الاحتياجات فأن مقاومة حركة التطور لايمكن الا ان تؤدى الى انهزام الكائنالذى يقاوم ذلك التطور فأذا كان عبد الناصر لايتغير ، او يقاوم هذا التطور فأن التطور يفرض نفسه ويهزمه .

وهذا ماحدث . فأن بناء شخصية الرئيس الراحل عبدالناصر لم يسمح لهبالتطور مع نمو المجتمع فى الاتجاه الذى كان يحتاجه اى فى اتجاه الحد من السيطرة وفك القيود واطلاق الحريات . لقد بنى لنفسهوبنيت له صورة لاتسمح لهبمثل هذا التغيير ، ومعنى ان يفقد هذه الصورة ان يفقدوجوده كله .

ومنهنا كانت وفاته امرا طبيعيا . ففى هذه الحالات قد يساوى الفرد بين فقدان صورته وبين الموت . وقد يأتى الموت فى صورة الانتحار او قديبدو كأنه مصادفة فى صورة المرض او حتى الوفاة بحادث او التعرض لاغتيال . اذ بغض النظر عن السبب الظاهر للموت ،فهناك تفسير تطورى لهفى صورة ذلك التناقض الحاد بينالوجود الفردى والوجود الجماعى.

ومايتطبق على الرئيس عبدالناصر ينطبق على معاونيهممن توحدوا مع تلك الصورة له والذين يمكن وصفهم " بمراكزالقوى".

ولكن الأمر اختلف فى حالة الرئيس انورالسادات . فقد كان من جانبه يملك ذلك القدر من المرونة فى تكوين شخصيته الذى يجعله يتلاءم ودوره الجديد مناجل متطلباتالمرحلة الجديدة فهووان كان وثيق الارتباط برفيقه الا انه مع ذلك ،على خلاف صفة التبعية التى كانت تميز "مراكزالقوى"وكان يتمتع بدرجة من الاستقلال عنه .وبفضل هذه المرونة وذلكالاستقلال كان - مميزا عن غيره- وكانالاقدر على تولى القيادة بالصفات المطلوبة للمرحلة التالية من النمو النفسى السياسى

للمجتمع المصـــرى .

واذا عدنا الى ذلك النموذج فسوف نجد ان الجدل ما زال قائما بين النزعة الى التعارك من جانب و الاعتمادية من جانب آخر وكذلك فسوف نجد البحث عن ذلك الاطار الناضج للأعتماد المتبادل .

فمراكز القوى قد غيرت وجوهها ولكن مؤسساتها باقية فى شكل الجيش واجهزة الامن . واذا كان فقدانها لمكانتها المتضخمة التى تفوق حجمها فى الواقع قد عاد عليها وعلى المجتمع ككل بالفائدة بأن جعلها تؤدى وظيفتها (النصر العسكرى فى ١٩٧٣ والمحافظة على الجبهة الداخلية دون قمعها او كبتها منذ ١٩٦٧) فتنال بذلك المكاسب والمكانة والتقدير ككلولها بالتالى ، فأنه من طبيعة الامور ان تؤكد الجماعات ذاتها بأستمرار وتسعى الى تنميتها .. فهناك ميل طبيعى بعد تحقيق النصر ان تعود المراكز القديمة فى اشكال جديدة وتسعى لاستعادة مكانتها مرة أخرى.

ولا غبار على ذلك ما دامت هناك حاجة موضوعية فى صورة عدو خارجى او داخلى يتطلب مثل هذه التنمية لتلك الجماعات وبالتالى لعودة القيادة المسيطرة مرة اخرى (المشابهة لما قبل ١٩٦٧) .

وهنا تستحق المسألة وقفة للتقييم الموضوعى للأمور:

ان التهديد العسكرى المباشر فى شكل اسرائيل قد اختفى او كاد فى حدود المستقبل القريب ، ومصر مهددة بالمحاصرة الاقتصادية والثقافية بواسطة جيرانها. واذا كان هناك ثمة تهديد عسكرى فهو اقرب ما يكون الى المغامرات "الجفصية" (مثل التى دبرها الرئيس معمر القذافى ضد تونس فى مدينة جفصة) او الخومينية (أى مثل الغليان الثورى المشتعل بالرومانسية الدينية) .

وفى كل هذه الحالات فأن المعركة الفاصلة ليست للقوى العسكرية وحدها فلا شك ان وجود جيش قوى وجهاز أمن قوى

سوف يخيف ويردع من تساوره نفسه للقيام بمغامرة أو أعتداء فيفكر مرتين قبل ان يقبل على مثل هذا العمـــل .

ولكنه لايكفى وحده مثلما لم يكف جيش ايران القويـــــوى او "سافاكه" الحصين .. المعركة اذن تتطلب اكثر من قوة عضلية محضة واكثر من قيادة مسيطرة ذات نهج عسكرى، فهى تتطلب تلك النقلة تجاه تحقيق التوازن الصحى بين النقيض والنقيض هنا هو ذلك الجناح الذى يمثل الفكر والثقافـــــة والعقيدة .

واذا كان رئيس الدولة ممثلا للمجتمع ، والمجتمع يتجـــه نحو الصحة فلاشك انه سوف تنعكس عليه الحاجة الى تحقيـــق ذلك التوازن بمساندة جانب الفكر والثقافة والعقيدة ،حتـــى يحقق التوازن مع نقيضه . فما بال الأمر ورئيس الدولـــة ليس مجرد ممثل للمجتمع ،بل قائد له يملك من المرونـــة والقدرة على التطور فى ضوء الرؤية المستقبلية مايجعلـــه يأخذ المبادرة ويسبق بقراره وفعله الواقع السائـــــد ويخطو خطوة متعمدة لاعطاء الدفعة اللازمة للثقافة والفكر حتى يتمكنا من القيام بدورهما فى اعادة التوازن والصحـــة للمجتمـــــع .

ولعل بوادر مثل ذلك الاتجاه فى سياسة الرئيس الســـادات تبدو فى اهتمامه المتكرر بشئون الثقافة والاعلام والفكـــر والتربية والتعليـــم .

ولعلها ليست مجرد صدفة ان تكون وزارة الثقافـــــة والاعلام على صلة وثيقة برئيس الدولة من خلال وزارة للدولة بدلا من التبعية المباشرة للحكومة . فالدفعة المطلوبة فـــى مجال الثقافة والاعلام اكبر من ان تترك للتطور البطـــــئ فى ظل الادارة الحكومية .

فان كانت هذه المسئولية تقع على عاتق رئيس الدولـــة فالجانب الآخر لها يقع على عاتق المثقفين انفسهـــــم

فالتحدى الذى يواجه المثقف اليوم ، هو كيف يقفز الى
الامام بعجلة دون ان يتعثر او يقع ؟
وكيف يمكنه ان يوازن الاتجاه الأمنى دون أن يقلل من
شانه او يتناطح معه ؟

"انني سياسي مقعد .. ولا أقول متقاعد فقد بدأت العمـــل السياسي منذ كنت مراهقا . كانت القيم والمفاهيم التي تكونت مع تكوين جسدي الصغير تتعرض لنفس الهزة التي تعرض لهـا جسدي حينما بدأ في طفرة النمو التي تصاحب سن المراهقـــة فقد ازداد حجمي فجأة وتغيرت ملامح وجهي وطبقة صوتي وتولدت في نفسي رغبات تدفعني للالتحام بجسد آخر غيري ، ولكنه التحام يختلف هذه المرة عن ارتماء الطفل في احضان أمـــه . تغيرت كلية ، وكان حتما ان تتغير رؤيتي للعالم .

ومع خلعي لما كان يميز جسدي الصبي خلعت ايضا كل الصفـات والقيم والمفاهيم التي نشأت عليها ، كانت ثورة في وجـــودي لم اجد لها افضل من ان ادمجها في ثورة يشترك فيهــا وجود آخرين غيري ،فالخبرة الخاصة جدا هي في النهاية جنـون والجنون ينتهي حينما احول الخبرة الخاصة الى خبرة عامة .

" كان يمكنني ان انضم الى جماعات الشباب التي خلعت من القيـم ما يسمح لها باطلاق العنان لرغباتها وشهواتها النابعـــة من تلك الرغبة المستحدثة في الاقتراب والالتحام الجسدي بآخـر، انه طريق مختصر يعيد الدفء حضن الأم لطفلها ، ولكن شكله الخارجي يخفي تلك الحقيقة ويبدو وكأنني اصبحت رجلا قـادرا على جذب النساء وكسب قلوبهــم .

ولكنني آثرت ان اتنحى عن هذا الطريق المختصر.فقــد ايقنت مبكرا انه طريق مسدود وسرعان ما يتضح ان الحضـــن الذي اسعى اليه اشبه بالرحم الذي انجذب للعودة اليه وما هــو الا صورة اخرى للقبر . نعم ان ذروة الالتحام الجنسي أشبـــه بالموت ، ومأساة قيس وليلى او روميو وجولييت ماهـــي الا تصوير شاعري لهذه الحقيقة يضع المأساة في قالب فني جميل يجعلنا نواسي انفسنا ،ان ما نسعى اليه من ذوبان في

حضن .. فى رحم .. فى قبر .. لهو عمل ملحمى شاعرى جميل فنقبل على الموت كالشهداء والابتسامة تزين وجوهنا .

ولذلك اخترت طريقا آخر ربما لايقل عنه كثيرا فى مأساوياته ولكنه على الاقل يقودنى الى طريق تتسع فيه الاحضان لتكون أكبر واكثر من حضن الأم وأوسع من القبر ، لقد اخترت ان التحم مع الآخرين وليس مع اخرى واحدة فقط ، فى صورة العمل المشترك من اجل هدف نلتقى حوله جميعا ، ويستمر بغض النظر عن وجودنا ، لقد التقينا على ارضية وجدانية واحدة ، وهى اننا نخلع ثياب الماضى ونفصل شراب المستقبل ، فنحن الجيل الذى يدعى اباؤنا انهم يبنون عالمهم من أجلنا لكى نرث عالما افضل من الذى ورثوه هم ، وبصفتنا اصحاب المستقبل فأننا نحلم بما يجب أن يكون عليه هذا المستقبل .

انا نرسم صورة العالم كما يجب أن يكون لأننا نرفض صورة العالم كما فرضت علينا فى صبانا ، كما أننا لانعرف العالم كما هو عليه اليوم معرفة حقيقة . اذ مازلنا فى مرحلة الأعداد والتعليم الذى يقدم لنا صورة العالم كما هو . ولكن نمونا سريع وصبرنا ينفد ونتعجل تغيير العالم مثلما يسير التغيير فى اجسادنا بعجل .

ومن هنا فقد التقينا حول هذا التصور المستقبلى لما يجب أن يكون عليه العالم فى المستقبل وبما أننا محدودو الخبرة فقد استعنا ببعض من كانوا اكثر منا خبرة ولهم دراية بالحال الذى عليه عالم اليوم علاوة على الدراية بالتصورات المختلفة التى يمكن أن تطرح لتشير الى طريق التغيير ، أنهم من قادة الفكر الذين لايصورون الواقع كما هو فقط ، ولكنهم يعيدون تشكيله على مستوى الخيال ، أنهم اصحاب الرؤية المستقبلية من المفكرين . فهم مثلنا غير راضين عن الواقع كما هو ، وكذلك يملكون من الخبرة والدراية بالواقع ما يجعلهم الأقدر على ترجمة الخيال الى واقع ممكن ، هكذا

انجذبت الى العمل السياسى، فقد كان يستنفد طاقتى فى العمل السرى تارة ، وفى العمل العلنى تارة ، اوزع المنشورات وأدعو الناس الى اتباع الرؤية الجديدة . اخطب فى المساجد بل فى الاتوبيسات واجمع حولى مجموعات صغيرة من الناس المختارين نتشاور معهم حول أفضل الطرق لنشر الدعوة . كنت أستمتع بالمخاطرة أن أدخل فى تناطح مع الكبار ومع سلطات الأمن بل أحيانا كنت أتمنى ان يتم ذلك . فما أعظم أن أكون بطلا أو شهيدا لبطش قوات القمع والكبت الظالم . لقد كان السجن والاعتقال بالنسبة لى هما النيشان الذى أحصل عليه لكى أكون بطلا فيزداد أعجاب أتباعى بى ويزداد عددهم .

لقد كنت استميل المطحونين مثلى . فقد كنت صبيا مطحونا فرضت عليه قيم ومفاهيم ، وكبرت وأعلنت الثورة عليها ، وأنا أعلم أن حلفائى هم المطحونون بصفة عامة . لقد تبنيت قضاياهم لأنى أعلم أنهم مثلى مصرون على الرفض والبحث عن بديل لما هم عليه . فمن الممتع أن أكون الطرف الذى يطحن . وفى هذا مدعاة لأن أتمسك بهذا الموقع بكل ما أملك من قوة ولكن العكس : وهو أن أكون المطحون فهذا مدعاة أكبر لأن أصر على التخلص من موقع الظلم وان استميت حتى أحقق ذلك . فالذى يتمسك بالمكاسب ليس مثل المحروم منها المتمسك مستمتع ويسمح له وضعه بالاسترخاء أحيانا ، ولكن المحروم دائم اليقظة ، فهو يتألم باستمرار ، وألمه يبدو أحيانا كأنه ليس بعده ألم مما يحثه على الانفجار ويحدث ما يحدث فليس لديه شىء يفقده . لقد تحالفت مع المطحون رغم علمى بأنى الخاسر اليوم ليقينى أنه الأطول نفسا فى سعيه للتخلص مما هو فيه ، انه مهزوم اليوم ومنصور غدا .

"لقد دخلت العمل السياسى من هذا المنظور.. وكنت أسعى للنصر المؤجل ، ليس مثل زميلى الذى استسهل النصر السريع

ففضل الألتحام بجسد آخر في صورة الحب أو الجنس، على الالتحام بقضية تجتمع حولها أجساد وعقول عديدة. لقد آثر راحته الفورية، ولكنه انتهى وانطفأ طموحه بينما اخترت انا الطريق الطويل ساعيا نحو الراحة المؤجلة واستمر سعيي طويلا.

دخلت العمل السياسي وطرت مناوشا للكبار ومزعجا لهم. فساوموني حتى أسكت. عرضوا على أن أتولى بعض المواقع القيادية لترشيد الشباب بالنشاط الثقافي أو الرياضي أو حتى السياسي، ولكن بشرط أن يكون ذلك تحت تحكمهم. كانوا واسعي الافق فلم يفرضوا على غير ما أردت أن أقوله. لقد كنت أنادي بالعدالة تارة تحت شعار المجتمع الاسلامي او العربي القديم وتارة تحت شعار الاشتراكية العلمية أو حتى الماركسية بل تارة تحت شعار استعادة مجد الفراعنة وعظمة مصر القديمة. أن الكبار أكثر علمية وواقعية من أن يدخلوا معي في سفسطة فكرية. المهم أن تكون الافكار التي اطرحها تجد صدى عند هؤلاء المطحونين الذين يشكلون القوة التي يمكن أن احركها. أنهم يريدون مني أن اتكلم بما يشبع نفوس المطحونين من نقمة لا يهم ماذا اقول ولا يهم الا يؤدي ما اقول الى فعل يغير في الواقع تغييرا في الاوضاع القائمة تغييرا عنيفا. فأنا لست الا (على حد قول الشاعر الشعبي):

الثوري النوري الكلمنجي	هلاب الدين الشفطنجي
قاعد في الصف الاكلنجي	شكلاته وكراملة

وكذلك فعقائدي في حد ذاتها لاتهم كمن:

يستسلم بعض الايام	يتمركس بعض الايام
ويصاحب كل الحكام	ويستاشر ملة

ثم صحوت وكانت صحوتي في نظر الناس جنونا. اخذوني الى مستشفيات الطب النفسي والعيادات النفسية واغرقوني بالعقاقير وجلسات الكهرباء. حتى انام مدة اخرى وأعود لامارس دور الدمية الذي رسم لي.. يجب أن اكبح ارادتي وحيرتي ورؤيتي المستقلة

وان استمر في الدور الذي رسم لي في لعبة الحياة . فالذي يصحو وسط النائمين يقلق نومهم والممثل الذي يخرج عن النص يزعج الممثلين والمخرج والمتفرجين على السواء .

كانت صحوتي أنني أتقنت اللعبة وأيقنت أنني دمية وأن الدنيا مسرح وانا جميعا مسيرون بلا ارادة . صحوت وأردت ان اقول كفى ، وان اتساءل ما الذي يحدث وماذا فعلت؟ صحوت احاسب نفسي عما فعلته من اجل المطحونين او من اجل الكبار او من اجل أي احد . وكما هو الحال عند الاستيقاظ فهناك برهة لا يعرف المرء فيها من هو او اين هو ؟. طالت البرهة وعلا صوتي وانا اعبر عن حالة انعدام الوزن التي عشتها . فقالوا مجنون . وحاولوا كبت جنوني بشتى الوسائل وكان اقساها التجاهل والعزل . فقررت في النهاية أن اعزل نفسي بيدي بدلا من أن أتراك يد عمرو تعزلني . لقد صممت على جنوني واخترته بنفسي واضربت عن الذهاب الى الاطباء النفسيين او تناول عقاقيرهم . واذا كنت قد اتيت اليك فذلك لأنك صديق لصديق مشترك ولأنك وافقت على ان تستمع الي والا تفرض على سلاسل سواء كانت مادية على هيئة اسوار المستشفيات الطبية النفسية او كيماوية في صورة العقاقير التي تلغي جنوني وتكبته .

لقد اخترت الجنون لأني لا اوافق على ممارسة دور آخر مفروض علي . اريد ان اختار دوري واما رسه بوعي فأنني املك من العقل ما يجعلني في هذه الحياة على خشبة مسرح وعلى دور اؤديه ثم اذهب . كل ما اطلبه هو ان امارس دوري بوعي وارادة وبأحساس وحيوية وبدون آلية .

نعم اني مجنون لأني اتهم المباحث أنها تسلط الاشعة على رأسي لتعرف دقائق افكاري وانهم يزرعون اجهزة التصنت اينما ذهبت ويبعثون خلفي بالمخبرين . واعرف ان هذه

الامور بالفعل لايمكن ان تكون حقيقية ،فأنا لست على هـذه الدرجة من الاهمية ولذلك فقد امتنعت عن الحديث عنها أمـام العقلاء وان كنت اصارحك بها فلعلك تفهم انها تعبر عـن حقيقة اشعر بها بغض النظر عن كونها حقيقة مادية فمـن الناحية العقلية فأنا اشعر اننى افتقد من الارادة والحريـة مايجعلنى اشعروكأن هناك من يراقبنى ويحركنـى .

" والآن اريدك ان تعاوننى فى البحث عن دور جديد امارسـه بوعى ، واعرف له هدفا ووظيفة ويعيد الى انتمائى الـى الآخرين. فأن الحل السهل وهو الارتماء فى اقرب حضن دافـئ لم يعد يكفينى ولايغرينى ، ولذلك فأنى سياسى مقعـد ولست متقاعدا اى اننى مازلت ابحث عن دور يعيد انتمائى الى الحضن الكبير ،.وان وجودى خارج هذه اللعبة لايعنى اننى استسلمت وتقاعدت ويمكن ان ارضى بالحضن الصغير ،مازلت املـك الطاقة واريد ان اقاوم التقاعد واقوم واعود فاعلا فعالا."

هل هناك دور لى اخرج به من جنونى وامارس وجودى فـى المجال الذى طالما حلمت به فى العمل السياسى مدافعا عـن المطحونين دون ان اطحن معهم ،منتميا الى الناس دون ان اعـزل معهم وعنهم بعيدا عن تسيير الأمـور ؟

ياصاحب الفكر والكلمة ، ويا من سبقت رؤيته عصره ،فطحنه عصره ويامن أسرع فى خطاه فتعثرت مسيرته فوجد نفسـه منعزلا عن ذات الفريق الذى كان يقوده : فليكن جنونـك وقفة وبعد الوقفة مسيرة لخطى متجددة الهدف وانظر حولـك فسوف تجد الناس جياعا للكلمة التى تعبر تعبيرا صادقا عمـا يطلبون والكلمة التى تستطيع ان تحدث القدر الكافى من الانفعـال والفعل الذى يغير من واقعهـم .

فالكلمة اليوم هى التى تتهم بأنها وراء كل فتنة ووراء كـل فساد ، فتارة يقال الحاد وتارة يقال تعصب دينى وفـى الحالتين الكلمة هى الملامة . وبناء عليه تضرب الكلمة ،كأنهـا

رأس الافعى الذى بعده تموت الفتنة وينتهى الفسادوالنتيجة
هذا التقلص المتزايد فى قيمة الكلمة حتى تموت تمامـــــا
ولايبقى إلاصوت التسكيتوالكبت عاليا ومزعجا ومفسدا اكثر
من الكلمة التى اسكتهـــا .

ولكن مادام الأمر كذلك فماهو دورى ؟

فأنت ما ان تخرجنى من الغلاية حتىترمى بى فى النـــــار .
ودورك حتمىّ ومايحدث ليس الا تقلصا من بقايا مرحلـــة
سابقة كانت فيها القوة العضلية والحيلة التآمرية هـــــى
السائدة . ان ماتكتشفه مصر اليوم هو ماكان زادها علـى
مر التاريخوهو الحضارة والثقافة . وبينما جيرانهـــــــا
يتصارعون فى حروب اهلية او فوضى ثورية او يهــــددون
بها فى مواجهة انظمة قائمة على الكبت والقمع ،معتمدين
فى ذلك على مصادر مفتعلة وطارئة للثراء من بتـــرول
او اتاوات يدفعها القابعون على آباره ،فأن مصراليـــوم
هى التىتبنى جاهدة فىنظام اجتماعى يسمح بتعدد الكلمة
التىتهدف الىالتعبير الحقيقى عن المشاكل الموجودة بغيـــة
دراستها ومواجهتها وحلها : واذا كان لمصر انتقـــوم
بدورها التاريخى القيادى الرائدللمنطقة ،بل للعالم الثالـث
فلامفر لها من فتح بابالكلمة وصناعة الفكر والثقافــــة .
ودورك هو المساهمة فى هذه الصناعة بأن تجعل كلمتكمعبرة
عن الواقع المتطور بقدر ماهى قائدة وموجهة له ،لاتنفصل
عنه بالتخلف والتبعية ولابالبهث السريع وهذا يتحقق مـــن
ارتباطها بالفعل والانفعالوهو مايتوافر من خلالتواجدك
المستمر مع هؤلاء الذين تهدف الى خدمتهم والتعبيرعن آلامهـم
وآمالهم . لقد كنت تسعى الى قيادة الجماهير من فوق منبر
يتعالى عليهم .. وعليك الآن ان تتعلم ان تقودهم مـــن
وسط صفوفهم بما يجعلك تكاد تبدووكأنك تنقاد لهـــم .
وفى النهاية فأنقيمة ماتقوله تكمن فى القدر الذىيجعـــل

لقولك صدى فى قلوبهم وعقولهم ، واذا ما وجدت كلماتك صدى فأنك تمارس الحوار ، وبقدر ما هناك من حوار فقد خرجت عن عزلتك وجنونك وخرجت ايضا عن دائرة التناطح مع قوى الكبت التى ادت بك الى حيث صرت .

واذا كانت شكواك الكبت فأن استمرارك فى الصمت لا يختلف كثيرا عن محاولاتك السابقة لاستفزاز الكبار ، بل انهما وجهان لعملة واحدة ، وكلاهما مساهمة فى تدعيم قوى الكبت وانكماش الكلمة ، وبالتالى حرمان مصر من احتياجها التاريخى لأن تنبت فكرا يشع حولها ، وقد نجد المواساة والتبرير لسكوتك فى لومك لقهر المجتمع لك ولكن هذا لن يغير من الواقع شيئا ، وستبقى مسئولا عن عزلتك وجنونك ومسئولا عن تخلف مصر فى اداء رسالتها ، بل مسئولا عن الكبت الذى تشكو منه بينما انت مستمر فى موقع الرافض العاجز المعزل .

اخرج ياصديقى المنعزل من عزلتك ، تخرج من جنونك . لقد دخلت معك عالم جنونك وشاركتك عزلتك ، لا لأحبس نفسى معك ولا لأواسيك فى عزلتك ولكن لأعود الى الواقع بصحبتك فتأخذ الىه واحمل لك مسئولية اعادتى اليه .

خمس وخمسون ومال وبنون

قديأخذ العلاج النفسى بالشعر عدة صور ، كأن يقرأ المريض من الاشعار مايعبر عن حالته الوجدانية المطلوب التنفيث عنها ، أو يطلب اليه أن يؤلف فى حدود قدراته ودون التزام بالقواعد الادبية – من التعبير اللفظى الموسيقى الايقاعى التصويرى الجميل مايعبر عما فى وجدانه . وقد طلبت ذلك من هذا المريض الحكيم واقدمه هنا معتذرا لنقاد الشعر عما فيه من قصور ، يعوضنى فى ذلك مافيه من صدق المشاعر وعمق المعانى :

– " ياحكيم ألا تعلم أن الشعراء ، مغرضون ، يتكلمون ولايفعلون ؟ وعلى كل فهذى وصفتك كى استنير ، وحتى انال راحة الضمير اسمح لى أن أستعير بآية من القرآن الكريم (بسم الله الرحمن الرحيم يأيها الذين آمنوا ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فأن الله غفور رحيم) صدق الله العظيم*

" ياحكيم ، بلغت من العمر خمسا وخمسين ، وزينت دنياى بالمال والبنين ، وقدمت الخير ، واحببت الناس اجمعين ، واستعد الآن لمقابلة رب العالمين . لكنى اتعثر واتعطل . فزوجى وابنائى بالدنيا متمسكون . لايكترثون بالفقراء والمساكين ، وهؤلاء حولى صراخهم ينادينى والانين . لو تركتهم لما عرف قبرى الهدوء أو السكون لو ذهبت اليهم لهجرنى بيتى وصرت انا وحيدا ومسكينا ، تمنيت لو عدت الى بيت من الطين ، وتركت الذهب والحرية لأولادى فيه يرتعون "

– " كلامك فيه نضج السنين ، وحكمة ومعاناة وانين ، فى صحراء الوحدة تبحث عن حكيم "

– " ولكن الذى انا مقبل عليه لعمل مجنون ، بعد هذه العشرة وهذى السنين ، والسمعة الطيبة وسط الغرباء الأقربين .. اترك بيتى وراحتى واعود حيا .. الى الطين ؟ "

* سورة التغابن آية ١٥

" وكأنك ضحية لجشع الاخرين ؟ لاذنب لك ولايحزنون "

" بل ماذنبى؟ فقد عرفت الله منذ ابكر السنين . وعلمت ان المتاع ليس الا الى حين . يبحثون عن متاع الطفولة ،وبنهاية المتاع تأتى الرجولة . انا لم اعرف الا الرجولة . كانت الاسرة فقيرة . العين تبصر واليد قصيرة . وكان العمل من نصيبى . ولم يك هناك وقت لدموعى، تعلمت الرضا والسعادة ،وتقديم الشكر فى العبادة .

" ثم جاء الحدث الكبير الذى كان له اكبر تأثير. فى بداية شبابى ونهاية سنى الصغير. فى ليلة صيف كنت اسير ،على الرمال وسط القبور ، اتنسم الهواء والعبير،والبدر وراء السحب يحتجب ثم ينسى، سكون الليل يقطعه صوت بعير،وكدت اطير ،فاذا عوى ذئب تمنيت من الاسد الزئير ،وكأنى للموت داع ومستجير . وتسندت مترنحا على قبر صغير لقد سبقنى ذاك الصبى الى المصير .

" أرأكنت تنتظر الحدث الكبير لم يك حدثا يراه غريب . ماحدث كان فى جوفى .. قريب : فجأة بدا الكون فى نظام عجيب ،كل شئ فى مكانه بلا رقابة رقيب . جسدى تلاشى او اخذ حجم رهيباً،وكأنه المركز والكون حوله يدور،أو كأنه إناء يحويه كما يحوى الدور،وكأنه نور والسماء درر لامعة ،والأرض قبر والقبر اض يانعة ،وكأن الارض تحتضن السماء ، او تغلفهما كالماء والهواء .

" تلاشى الجسد وهو فوق القبور،والروح أنارت حتى صغار الجحور. لم يعد هناك ناظر ومنظور، انا العين التى ترى وأنا النور ،بل ليس انا وليس ارى وليس نور. كان الرضا والارتضاء والطمأنينة ،كان العلم علم اليقين . وقف الزمان وحل السكين ،كأنى كنت هنا وسوف أكون ،بما أنى هنا فى لحظة السكون. هكذا فى انكماش الزمان ،عند نقطة التلاشى والانعدام انكشف بعد اللامكان واللازمان ،بموت الذات الفردية ، انكشفت الذات الآلهية "

هذه الخبرة المثيرة ،فى علم نفس ماعبر الشخصية تعرف بالخبرة القمية ،وهى ذاتها الخبرة الصوفية . ولكن التصوف طريق وليس نقطة فيه مع الوقوف حركة . هل صاحبتك بعد ذلك البركة ؟ "

" مرت الشوانى وكأنها الازلية ،وتحتم الانحدار بعد القمية • لكن الذى رآها لاينساها ،وكفاه بهجة بذكراها • والذكرى وحدها كانت كافية الا اعود الى قاع السفح ثانية • استمر سيرى على هضبة ،لافرحة زائدة ولاغضبة • امارس اعمالى اليومية ، بلا تردد بل بالسجية • ثم التشبث بعد فقدان الأنية ؟ وهكذا بلا رغبة جامحة اوطمع ،تفانيت فى عملى وانجازى • اخذ الله بيدى فى كل خطاى ،رغم الزلات ورغم الخطايا . تزوجت وانجبت واغدقت ،على اسرتى وما بخلت "

" الى هنا كنت تظن انك تغلبته على مرارة الحرمان حين نشأته وبدلا من ان تنفق وتقول لى ،قلت انه لأولادى • "

" وزاد من اغداقى عليهم ،كثرة انشغالى عنهم ،لابجمع المال فهذا قد ضمنت ،ولكن بخدمة القوم وفيه قد فنيته كانوا يلجئون الى فى المشاكل ،من كان منهم جائعا او كان أكلا • وها أنذا الآن أتيت مشتتا بين ولاء القوم وولاء البيت طريقى الى الله عبر افواه الجياع قلبى الجائع مع زوجى والمتاع • أأترك جسدى واترك الفراش ؟ الم يسبق لى ان خبرته يتلاشى ؟"

لاتتسرع واصبر برهة ،زوجك نصفك يستحيل تركه ،تريد ان تذهب وحدك للفضيلة ،متعال عليها وهذى رذيلة • ثم لا تنس أنها تعبر بنهمها ،عن حاجة بداخلك كبتها • تركتها تمارس ما أنكرته فيك • ثم ترى العيب فيها وليس فيك • عد اليها وانعتها للطريق ،ان كنت صادقا فضلتك على البريق ،وان لم تكن فاحترق معها حتى تفيق • "

* * * *

مشكلة هذا الانسان الحكيم ليست جديدة ولاغريبة • الله خلقنا الذكر والانثى – من نفس واحدة • ثم انفصلنا ثم عدنا ساعين للالتحام مرة اخرى • كمثل العلاقة مع الارض كنا فى اتحاد معها ثم انفصلنا ثم نعود اليها ؟ ولو لم نكن مختلفين – الذكر والانثى – لما كان هناك داع لانفصالنا • ولاننا اختلفنا وانفصلنا وعانينا من ذلك الانفصال فان سعينا الدائم هو نحو العودة الى الالتحام • والانجذاب المتبادل والحب والزواج – كل هذا تعبير عن هذه الرغبة الملحة فى العودة

الى حالة الاتحاد والذوبان . الا اننا فى ذات الوقت نقاوم ذلك الذوبان الذى يهددنا بفقدان الذات .

كلانا من نفس واحدة . ولكن خلقنا منفصلين، وبالتالى مختلفين والزواج يسعى الى استكمال الصفات الناقصة فى كل جنس بصفات من الجنس الآخر . اختلافهما وراء جاذبيتهما . ولكن جاذبيتهما هى حركة فى اتجاه تذويب الفوارق بينهما . والفوارق لها اسس بيولوجية واضافات اجتماعية . الرجل يلقح والمرأة تحمل ، يتحرك وهى تنتظر، ينجذب وهى تجذب . الجنين فى احشائها ، والطفل يخرج الى احضانها ويعيش فى البداية من غذاء ثديها . ارتباطها به قوى وعميق . الرجل يرتبط بعد فترة طويلة بين انجذابه للمرأة والتحامه بها عملية الانجاب ، وقد يكتشف بعد مدة ملامح الشبه بينه وبين ذريته . ان مايربطه بالانجاب هو جاذبية امرأته له ، ويكاد يكون حبه لاطفاله فى البداية ليس الا امتدادا لحبه لها . ويكاد يشعر بالغيرة والمنافسة مع الجنين ثم الطفل فى البداية لانشغال امرأته عنه به . فيعوض ذلك بالبحث عن مصادر اخرى للاهتمام ولعله يجد ذلك الاهتمام من خلال قدرته على العمل وعلى التربع على مكانه وسط المجتمع ، والمرأه تعاونه على ذلك ، فهى لا تقدم له رضاها عنه الا بقدر مايقدم لها من علامات النجاح فى العمل والمجتمع . انها فى ذات الوقت الذى تجذبه اليها وتريده فى حضنها ، تطرده ليطلق باحثا عن عمل ومكانه ومجد ثم يعود اليها بهم . فولاءها الاول لذريتها ، والتى سوف ترث انجازات الاب .

والانسان يتدرج فى انجازاته على مر السنين . ويقسم العالم النفسى اريكسون مراحل الحياة الرئيسية مراحل : الاولى فى العام الاول وفيها يبحث الطفل عن الامان الذى يحقق له اشباع حاجاته الفسيولوجية الاساسية بينما هو عديم القدرة على التحكم فى محيطه . الثانية فى السنة التالية يحقق فيها الطفل الاستقلال باكتساب القدرة على التحكم فى جسده بمافى ذلك القدرة على المشى والكلام والاخراج (التبرز والتبول) المنظم والثالثة فى السنة الثالثة حتى السادسة ويحقق فيها الطفل المبادرة فيستخدم جسده (المشى والكلام) ليكتشف العالم حوله بمافيه العالم

الاجتماعى الاسرى ومافيه من ادوار الابوالام (كذكر وانثى)
وتشابهه مع احدهما. والرابعة تقابل سن الصبا حتى المراهقة
حيث يبدأ الطفل فى التعلم مع غيره من الاطفال فى المجتمع
خارج دائرة الاسرة حيث يكتسب الاستعداد لتولى دوره فيه ويحقق
فى هذه المرحلة حسب قدرته على المثابرة.. اكتساب المهارات .
والخامسة والتى تقابل مرحلة الشباب يحقق فيها الشباب
الهوية المستقلة باعادة بناء شخصيته والاستعداد لاختيار
دوره فى المجتمع كعضو منتج، اى اختيار المهنة .وكعضو منجب
اى اختيار الرفيق الذى سوف يشترك معه فى تكوين اسرة . وهى احرج
مرحلة فى حياة الانسان واكثفها فى الخبرات وفى السادسة وبعد
ان يكون الشاب قد حقق هويته ،يستدير ليتنازل عنها فى علاقته
الزوجية والاسرية.
وكذلك فى علاقته برؤسائه فى العمل ،وهنا يحقق الانسان
الالفة . وفى حوالى سن الاربعين وبعد ان يحقق النجاح فى العمل
(خاصة بالنسبة للرجل) ويكبر الاولاد ويزدهروا (خاصة بالنسبة
للمرأة) يتفرغ الانسان لخدمة المجتمع ككل فهو لم يعد يعمل
من اجل اولاده .فقط ولكن من اجل جميع الاولاد .وهذه هى المرحلة
السابعة والتى يحقق فيها الانسان هدف الانتاجية . انه يساهم فى
فى صنع الحضارة بنقل انجازاته عبر الاجيال .ويستمر هكذا
حتى يصل الى سن المعاش(وهو ليس بالضرورة السن القانونى ولكن
قد يكون قبل او بعد ذلك حسب فرصته فى الانتاج) حيث يتراجع

عن ساحة العمل للتامل ويستعد للانسحاب تماما من الحياة الدنيا ويقبل على الآخرة وهى مرحلة التكامل هى المرحلة النهائية فى عمر الانسان . انه يمارس فيها الكينونة لذاتها لا للناتجها. يعيش ليعيش لا ليفعل .

وكلما نجح الانسان فى تحقيق انجازات مرحلة استطاع ان ينتقل الى المرحلة التالية بطاقته الكاملة . اما اذا لم ينجح فى مرحلة ما فأن هذه المرحلة تلح عليه او تعود طالبة الاشباع فتعوق طريقه فى التطور والانتقال بكل طاقته الى المرحلة التالية .

فلننظر الى حالة صاحبنا هذا . فرغم انه بدا راضيا عن طفولته حيث قدم الشكر دون مرارة ، ورغم انه مر بخبرة قمية فى سن الشباب جعلته يرى حكمة الوجود ويتعالى على ذاته ورغباتها ، فان هناك بقايا لحالة الحرمان الذى كان يعانى منها منذ الطفولة . وهى آثار لا تبدو عليه . ومع ذلك فهى تبدو على اسرته . فهو لا يسعى جاجته الى تعويض مافاته فى صباه ، فهو اكبر من ذلك . ولكنه يترك اسرته تعبر له عن ذلك الاحتياج .

والابناء بطبيعتهم مستهلكون ، واذا قدم لهم الطعام طلبوا المزيد . واذا لم يحرمهم الاب - سواء بباعث الضرورة او بباعث حسن التربية حتى يعودهم على التحكم فى الذات ومشاركة آلام الآخرين المحرومين - فانهم يتمادون فى الطلب . والام بطبيعتها ولاءها الاكبر للاولاد . فهى غالبا التى تتوسط لهم لدى الاب . والاب اذا ماكان انتقاله الى مرحلة الانتاجية مبكرا مما يجعله يقلل من العناية التى يوفرها لاولاده ، قد يعوضهم عن غيابه عنهم لانشغاله بعمله ، باعطائهم المزيد من فائض انتاجه - أو بعبارة اخرى يدللهم حتى يخفف شعوره بالذنب لغيابه عنهم وقد يفعل العكس - بأن يفرط فى حرمانهم بما يجعلهم جشعين حينما تتاح لهم الفرصة فى الحالتين - التدليل والقسوة - هناك ايحاء من الاب للابناء ان يعوضوه فى طفولتهم عما افتقده هو فى طفولته . وبالقدر الذى يكون هذا التعويض هدفا فى حد ذاته ، فهو عملية مرضية ولا تحقق هدف التعايش

مع البيئة الاجتماعية بل التناطح معها .

الاب لايعى رغبته فى التعويض . ولكن لانها موجودة بدرجة ما وخارج نطاق وعيه ،فهى تظهر فى اسرته . فاذا ما تضخمت الظاهرة بدا منزعجا . انه يشير بالاتهام الى اسرته - انهم هم الجشعين وليس هو . واذا ماتضخمت لدرجة التناطح بين ولائه لاسرته وبين ولائه للمجتمع - الذى حقق له هذا النجاح مقابل ما استطاع ان يقدمه هو للمجتمع من خدمات فقد يعى هذا التناطح على هيئة ازمة عائلية . انه يعى الازمة فى ان زوجته تشده نحو المادة ونحو توفيرها لاولادها البيولوجيين بينما اولاده الحضاريين - ابناء المجتمع - يصرخون بدورهم طالبين العناية .

ان تطوره الطبيعى فى اتجاه التكامل ان يستكمل انتاجيته لا ان يعود الى استكمال الالفة التى يفترض انه تخطاها . ان زوجته تشده نحو الالفة . بينما تاريخه الطبيعى وسنه فى اتجاه استكمال الانتاجية استعدادا للتكامل . انه لن يصل الى التكامل طالما لم يسرح ضميره انه قدم للابناء جميعا فى المجتمع مثلما قدم لابنائه البيولوجيين . بل ان المجتمع نفسه لن يسمح له بهذا التراجع . فالذى يصل الى درجة من النجاح الاجتماعى يصبح محل اعجاب وحسد فى ذات الوقت بحيث اذا ما ضعف لحظة او انسحب ،تغلب جانب الحسد وتحول نحوه عداء المجتمع .

ولذلك فان صاحبنا يشده الاستمرار فى طريقه حتى ادى ذلك الى تخليه عن اسرته .ولتفكر جديا- رغم كبر سنه ومكانته الاجتماعية- فى هجر اسرته . وهو يبدو حلا سهلا لأزمته .

الا ان هذا الحل له آلامه : فهو سوف يفقد الألفة التى قضى السنين فى بنائها . وبالاضافة الى ذلك فان الحكيم يعاونه على رؤية مسئوليته فيما آلت اليه اسرته وزوجته . فهو مسئول بالقدر الذى شجع فيهم ذلك الولاء للمادة قبل الروح .وهو وان كان امرا طبيعيا

بالنسبة للطفل الناشىء وبالتبعيةبالنسبة للام التى تدين له بالاولوية فى الولادة ، إلا أن الطفل يملك ايضا امكانية الحياة الروحية كما اختبرها الاب فى طفولته وخاصة فى شبابه من خلال الخبرة القمية التى مر بها .

الا انه فيمابيدوقداحتفظ الاب بهذه الخبرة لنفسه ولم يستطيع ان يصطحب زوجته واولاده ليشاركوه فيها . بل أنهنكمايشير الى أنه فضل ان يجنبهم اياها بالقدر الذى انتابه الشك فى صدق هذه الخبرة . فالخبرة القمية ليست يسيرة والذى يعيشها قلمايستطيع وصفها. فهى كالدرة وتستوجب الاتوضع امام الخنازير (على حد قول المسيح عليه السلام) .والمشكلة أن الخبرة التى يختص بها المرء لنفسه عبء وكثيرا ما تقترب من الجنون. والرسول (عليه الصلاة والسلام) حينما نزل عليه الوحى أول مرة كان فى حاجة الى من يشاركه ويطمئنه ،فوجد بجانبه الزوجة الوفية (السيدة خديجة رضى الله عنها) .

صاحبنا اذا مسئول ولذلك وجب عليه ان يتروى قبل ان يستسهل الحل بترك أسرته . واجبه نحو زوجته وابنائه ان يعود اليهم ،لاأن يصر على المضى نحو القمة وحده ،حتى ينضجوا ويصطحبوه ،وبالتحديد فى حالة الزوجة ،بينمايعين الأولاد على الاستقلال والمسير على بداية الطريق،ممايسرله تركهم . انه فى حاجةإلى أن يعيد ولاء زوجته له بدلا من استمرار ولائها للاولاد ولاحتياجاتهم المادية والدنيوية .فالمفروض أن يكبروا ويستقلوا. واستقلال الاولاد ييسر تحرر الآباء حتى يكملا سويا رحلتهما نحو التكامل بغية الوصول الى القمة. لقد اختبر الخبرة القمية إبان صخب ازمة الهوية فى الشباب وصاحبته ذكراها وعاونته على استكمال بقية مراحله بشجاعة . ولكن التحدى الاكبر أن يستطيع ان يحول خبرة اللحظة القصيرةإلى هدف ملموس ومعاش فى صورة تحقيق التكامل

فى المرحلة النهائية من عمره • لقد رأى النور ولمسه للحظه
فى شبابه ولكن التحدى الاكبر ان يحول وجوده كله الى لحظة
مطولة باعماله وانجازاته ،وان تتحول القمة الى هضبة ،والخبرة
الخاصة الى ممارسة عامة *• هذا هو درس الاسراء والمعراج حينما
عاد الرسول(صلعم) بعد ان رأى السموات السبع • وهى حكمة
البوذا حينما قرر انه سوف يعود من حالة النيرفانا الى
الدنيا حتى يصطحب معه كل كائن الى النيرفانا •

"ياحكيم! معذرة لهذا اللثام الذى اخفى به وجهى فليس هدفى ان اتخفى ،ولكن ان اقول لك اننى لست احدا بعينه انت استاذى وانا احد تلاميذك . انتهزت فرصة معرفتى بسكرتيرك حتى اقتحم عيادتك بدون موعد، والغى مواعيدك الاخرى . واظنك لن تبخل على بذلك وعلى اية حال فالخسارة عليك ليست كبيرة ،فأنك تقضى وقتا طويلا تستمع فيه الى كلام كثير ، بينما الذى كنا نتطلع اليه حينما دخلنا كلية الطب ان ننافس بطول طوابير مرضانا طوابير الجمعية ومادمت قد اخترت هذا الطريق - ان تستمع وتتاملوتفكر فهذه رفاهية انت قادر عليها ومن حقك.

ونقدر لك انك لم تفرض علينا طريقك مستغلا سلطتك كأستاذ ،بل طرحت لنا علمك لنختار منه بحرية ،بدون تسلط الامتحان . فمادمت قد اخترت هذا الطريق ولم تفرضه علينا فمن حقنا ان نجرب مذاقه على الاقل وذلك بأن نقول لك مرة اننا نعانى ونشكو ، ولذلك اخاطبك اليوم كحكيم وليس كأستاذ وطرحت امامك مشكلة تلميذ ما ،أى تلميذ .

استمع الى مهما كان كلامى قاسيا مريرا ،فهو على الأقل ليس كلاما كالذى اتصور ان مرضاك المرفهين يشكون منه ،فأنا لا أشكو مثلا من ان زوجتى باردة فى الفراش ، ذلك ان الفراش الذى ننام عليه مجاور للغرفة التى ينام فيها اخوتى وابى وامى بل انه لو لم تكن زوجتى باردة لطلبت منها ان تكون كذلك ، حماية من آذان افراد الاسرة . ومن جانب آخر اذا اختلفنا فاننا لانستطيع ان نخرج الى الضوء حتى يتصفى ونعود احبابا بعد عداوة ، فقد تعلمنا منك ان تكون الخلافات واضحة ومعلنة حتى تكون العلاقة صادقة ومكشوفة ،ولكننا نخفى خلافاتنا خوفا من تدخل

بقية افراد الأسرة الذى اتضح انه يزيد الطين بلة .

وشكواى بسيطة واضحة لاتحتمل التحليل والتفسير أريد شقة بل شقتين اذا كان لى ان امارس عملا خاصا فى عيادة وليس امامى طريق للحصول على شقة او اثنتين بمعدل دخلى حتى لو تمكنت من الحصول على دخل مثلك . فلن يكفى، وبصراحة أنا لا أستطيع الى الحصول على دخل مثلك ، لكن، اريد طوابير طويلة من المرضى اكتب لهم الروشتة تلو الروشتة ، واصدمهم بجلسات الكهرباء ، واحيلهم الى المستشفيات الخاصة بل اريد ان يكون لى مستشفى خاص ، فأنا لست اقل من اصحاب الفنادق الذين يتكسبون من مبيت الناس للسياحة والاستمتاع ،ذلك اننى على الاقل سوف اتحمل عناء رعايتهم ومشاركتهم آلامهم ، كما اريد دخلا كبيرا قبل ان استطيع ان افرغ وقتا للعلم والتأمل والاستمتاع . أما الآن فأنى – مع احترامى – فى غنى عن علمك وتأملاتك . فأنا اريد شقتين وربما مبنى لمستشفى لكى أبدأ. وقد علمت أن جامعة فى احدى الدول العربية تطلب اطباء واعضاء هيئة تدريس. وانا اريد ان اذهب الى هناك ، وبفضل ان احصل على شهادتى ، لكن بشرط الا تطالبن بالعلم .فالشهادة العلمية زينة . اما الثقافة والوعى والحكمة فهى كلها امور ليس لها سوق حتى لو دعمتها اجهزة الدولة ومجالسها كمحاولة للحفاظ على وجه حسن للمجتمع ، فعائدها المادى رمزى ، وفاعليتها مسألة مشكوك فيها ،حيث لامال ولاسلطة من وراء الثقافة ، فالناس اليوم يفضلون الشتائم على النقد وهز البطن على الرقص ،والآهات على الغناء . وانا اليوم اريد ان اخلع نفسى من هذه القيم التى ستؤدى بى الى الجوع فأخلع نفسى عنك بالتالى .

معذرة ياسيدى انى لم اكن انوى البكاء ولكن عموما هذه مجرد لحظة ضعف ، سوف اتغلب عليها ، اننى اخلع

عنك واعلن ذهابي الى صاحب الذهب الأسود ، أتلمس منه مسحة شحم ، او حتى شمة غاز .

وهنا اسمح لي ان أوجه اليك هذه الكلمة القاسية لقد صدقتك حينما كنت تتحدث عن العلاج النفسي كوسيلة من من وسائل اللاعنف في العلاج ، بل كنت تميز بين مناهج العلاج النفسي التي تحترم انسانية الانسان وتلك التي تتجاهلها . وكيف ان اللاعنف العلاجي يستطيع ان يحول المجنون الهائج الى حليم وديع . ورأيتك تعلمنا بلاعنف فتطرح علينا منهجك دون ان تضعه ضمن المقرر ، لنتعلمه اذا اردناه عن اقتناع ، ونرفضه اذا لم نرده ، دون ان يكون في الحكمة أجبار وتعلمنا منك حتى ولو لم تمتحنا فيما علمتنا أو تمنحنا شهادة او تقديرا . تعلمنا حب الشيء لذاته لاخوفا من نار او طمعا في جنة ثم صدقناك حينما تكلمت عن اللاعنف كمنهج للكفاح ، وكتعبير عن القوة لا الضعف مستشهدا بمصطفى كامل وبغاندي في العصر الحديث وبتراث الانبياء جميعا قبل ذلك وقمت بتوضيح فوائد اللاعنف النفعية وتطرقت الى صراعنا العنيف مع اسرائيل وكيف أنه يمكننا ان نحول الخسارة المتبادلة الى مكسب متبادل ، وذلك دون سذاجة الغاء أسس الصراع أو نفيها ، فاللاعنف قد يكون أحد وسائل التصارع ، والتصارع ضرورة من ضرورات الوجود لا يقتصر على علاقات الاعداء ، بل يوجد بين الأحباب . وصدقناك حينما سعدت بالمبادرة وخطوات السلم . فقد سبق ان التقينا جميعا حول هدف البناء للوطن بالسواعد والعلم ، لا بالمال المستورد حتى نعمل ونزرع ونحصد .

لكنك تستطيع ان تستمتع بالسلام والحرية مثلما تستمتع بالتأمل والعلم ، أما انا فلم اعد اعرف لهما قيمة ، اني احترم حبك وسعيك للحوار دون تفرقة بين عدو او صديق ، واحترام مبادئك ولكن المسألة لم تعد تتعلق بمبادىء

ولكن باطعام الافواه الجائعة وبايواء الاجساد الشريدة . فأنـــا لا استطيع أن أنتظر . اريد الشقة اليوم قبل الغد والشقة الثانية ايضا ويستحسن المستشفـــى .

معذرة ياسيدى : انا لن اشيع عنك انك انتهازى او منافق او ممالئ للسلطة او انك متخاذل فى حقوق الفلسطينيين او عميـــل للأمريكان .. بل أرجو الا تسىء ظنا بالشام الذى اضعه علـــى وجهى ، فأنا لم اقصد ان اذكرك بالفلسطينيين فانك لا تقـــل اقترابا منهم عنى ، ان لم تكن تزيد ، ولم أقصد أن أذكـــرك بالعرب ، فأنك مازلت حتى اليوم تعرف اصولك القبلية فـــى بـــلاد العرب جنوبا وشمالا من الحجاز الى الشام الى المغـــرب وتصر على تدريس الطب لنا باللغة العربية ، مخالفا لبقيـــة الاقسام والكليات ولكن فقط كل ما اقوله انك حينما تتحدث عن السلام ، وحينما تشارك فى مؤتمرات يشترك فيهـــا اسرائيليون ، تتباحثون فيها حول السلام ، فأن هنـــاك الكثيرين ممن يسيئون الظن ويتهمونك بما يتهمونك به ، وأنـــا اريد شقة واريد السفر الى احدى الدول العربية ولا اجد فى نفسى الحماسة الكافية للدفاع عنك وبدلا من أصحح جبنى فأننى اجد أنه من الأيسر ان أقنع نفسى بالسكوت على ادانتك ، نعـــم اعلم اننى وان كنت حتى الآن لا اقول الا ان الآخرين هـــم الذين يفعلون واعلم اننى استخدمك مثلما يستخدمك الآخـــرون اريدك ان تيسر لى عملا فى الدول البترولية ، فى ذات الوقـــت الذى اريد فيه ان تقف شامخا فى مواجهة شيوخ البتـــرول . حتى لو تكاتفت فى ذلك مع امريكا او اسرائيل او روسيـــا او الشيطان اذا تيسر ذلك .

اريد ان تقف شامخا فى سبيل حقوق الفلسطينيين فى نفـــس الوقت الذى اريد فيه السلم الذى يسمح لى بالسفر للعمـــل للحصول على شقة اريدك ان تيسر لى الحصول على الشهادة التـــى ترفع من مرتبى وتحسن من فرصتى للسفر للعمل للحصول علـــى

شقة ،فى نفس الوقت الذى اريدك فيه الا تزعجنى بالعلم او بالفكر او بالثقافة ،وبعد أن أحصل على الشقة والنفقات التى يستلزمها من يسكنونها ، فسوف ابحث عن العمل فى عيادتى بالشقة الثانية والمستشفى ان امكن ، حتى اوفر لهم احتياجاتهم ، وعندئذ سوف اعود اليك لاتلقى منك العلم ، اما الآن فلا علم ولا ثقافة بل حتى لا أريد السلطة او المساهمة فى العمل السياسى او الاجتماعى ،ولتقل اننى من معارضى آراءك ،فقط اريد الشقة، واذا كان يؤلمك مظهرى واننى صاحب مبدأ البسه الوطنية او الثورية او المعارضة السياسية ،فلأطمئنك ان المسألة ضرورة ، فيما انى لست من الصفوة فى اى شىء، بل اعانى لأنى لست من الصفوة ، فمن الطبيعى ان اكون معارضا او ابدو هكذا ، فهى ابسط من كل ذلك : اريد شقة ، وان لم تكن تستطيع ان توفر لى شقة فعلى الاقل اتوقع منك ان توفر لى فرص العمل بالسفر ،وان لم يكن فلتوفر لى الشهادة التى تزيد من هذه الفرص ، وهذا بصراحة هو اضعف الايمان اريد شقة ! الا تفهم؟ فلتنظر اذن وراء اللثام ..ما الذى احمله فوق هذه الاكتاف ، لا تنزعج .. نعم .. انها شقة !

والآن استودعك ،فأنا لا أريد ان انتظر حتى اسمع ردك ، فأنا اعرف ما الذى سوف تقوله .لقد حفظتك عن ظهر قلب ،المسألة كلها اننى اريد شقة ، وأنا لا اريد ان اضعف مرة اخرى ،اردتك ان تسمعنى دون ان اسمعك ان تتلمذ دون ان تعلمنى فأنا المحروم من الكلمة ،وانت لديك الفرصة لان تقول كلمتك ، وكان أملى ان تكون كلمتك تعبيرا عن صرختى ، ان تترجم بأساليبك السلمية ما يجيش فى صدرى من صراخ الى كلام هادىء،أن تنقل صوتى هادئا عاقلا الى مسئول ،واقصد بالمسئول من يستطيع ان يرى ويعمل لامن يجيد التبرير او الكلام المريح ،ناهيك عن الغاشى بأننى شيوعى او متطرف دينيا او باحدى كلمات

السب الحديثة الاخرى .. اذا كانت كلمتك فعلا تعبيرا صادقا فأنا اتحداك ان تنقل كلمتى هذه .
استودعك الله واعيد اللثام لأخفى عورتى " .

* * *

خير مافعلت ياصديقى ان ذهبت قبل ان ارد عليك .كنت اعلم ان هناك شيئا ثقيلا تحمله على كتفيك . فقد اوقفت عقلك واحطته بحوائط من المسلح . ولما لم تجد الغاز الذى تغذى به بيتك بالطاقة حرقت التبغ ، كأنك تبحث عما يغيب وعيك او يخفف ألمك . ولم اكن اريد ان ارد عليك حتى اثنيك عن عزمك فى البحث عن احتياجاتك الاساسية . لم اكن اريد ان ابهرك بجمال العلم والثقافة ،فتستعيض به مؤقتا عن سعيك المستمر الذى طال من أجل رزقك . نعم ان العلم والاخلاق والفن المبدع ، كل ذلك قلما ارتبط بالمال .فكم من فنى وكم من عبقرى عاش فقيرا ومات فقيرا . ولكن كم منا يقرب من خلق الانبياء او عبقرية العباقرة . حتى تجد فى ذلك المواساة عن الفقر ،فلتذهب اذن ولتعط العجل الذهبى حقه ، ووسط هذه المعاناة نجد الكثيرين ممن يعانون لمجرد أنهم تقهقروا درجة فى سلم الثراء والسلطة ،هؤلاء الذين اثروا ثراء فاحشا بعد كل ثورة ، ثم تخلفوا عن الركب قليلا واحبط طموحهم فى ان يستمروا فى التكاثر فى جمع المال او السلطة ، نجد هؤلاء يدافعون عنك ، ويتحدثون باسمك حتى هؤلاء منهم الذين خرجوا من الصفوة لسوء السلوك ،مثل الانتهازية الفاضحة او الفساد المكشوف ،هؤلاء اليوم يدعون الوطنية وينادون بالرفض وبالصمود والتصدى ، ويستخدمونك كالوقود لاشعال النار التى تمهد لهم العودة منقضين فى خضم الفوضى والضوضاء ليستعيدوا مكانتهم فى القمة . أما الأشراف الذين يتحدثون بصوتك ،ويعبرون عن مشاعرك والمثقفون الذين لم يبهرهم بريق الذهب ، فصوتهم خافت غير مسموع

مثلك يحملون الاثقال على كتفيهم ،ويسيرون فى تـأن ، وصوتكم خافت او مكتوم او مغمور وسط الضوضاء فهل من مسئول يمتلك الجرأة والجسارة مع الرقة التي تروض الأسد والوحوش فيقوم بمبادرة على نهج مبادرة السلام نحو من كان بالأمس عدوا ، ولكنها هذه المرة مبادرة داخلية نحو من يقال عنه اليوم عدو . ان مبادرة للألتقاء بالمعارضة الشريفة الساكنة المغمورة .ولأنك ساكت ،سهل عزلك واد انتك وتقديمك كبش فداء ، بدلا من توجيه الضوء للأعداء الحقيقين .

ولعلنى هنا استرجع احدى قصص الدراويش التى لا اتذكر تفاصيلها ، ولكن فحواها: ان سلطانا اراد ان ينشىء مدرسة ليعلم فيها حكيم معروف بحكمته ،فاستدعى الحكيم وطلب منه ان يأمر بما يريد حتى تقام المدرسة ،فأمر الحكيم القوم "من يريد ان يتلقى العلم منكم فليقف على هذا الجانب "فأستجابت الاغلبية الانتهازية التى تأكل على كل "طبلية" .فطلب منهم ان يهموا ببناء المدرسة .ولما أتموا بناءها . طلب الحكيم من القلة التى لم تقفمعهم ان يهدموها ويذهبوا معه .

اننا كثيرا ماننذكر انفسنا ان عهد المعجزات قد انتهى حتى نستمر فى السير فى المسالك التقليدية ،فنفعل ماهو متوقع وماهو منتظر. والنتيجة ان غريمنا يتمكن من التنبوء بما سوف نفعله ،فيعمل حسابه ويدبر للعبة المضادة .ومع ذلك فمن كان يتوقع ان يحدث ماحدث فى مايو ١٩٧١ أو فى اكتوبر ١٩٧٣ او فى نوفمبر ١٩٧٧ ؟

ولو كان ماحدث منتظرا لكان تدبير اللعبة المضادة ممكنا ،ولما ارتبكت العقول الالكترونية ، ولما جاءت النتائج بما جاءت به .

ان حدوث مبادرة داخلية تعيد توحيد صفوف القوى الوطنية

امر مستبعد وغير منتظر. ولكن من قال ان المنتظر هـــــو الذى سوف يحدث ؟ المطلوب معجزة سياسية ، تتلوها معجـــزة اكبر. وهى حصول الشاب على شقــــــة .

حذار من تفدية المثقف

المثقف غالبا منفصل عن واقعه . أنه يفكر ويسبق بفكره عصره فينفصل عنه . واحيانا يفكر باسترجاع ماضيه فينفصل أيضا . هذه طبيعة المثقف . وهو أحدقطبى ظاهرة الانفصال الذاتى الذى يعيشه المجتمع . فالمجتمع يعيش واقعا ويفرز فكرا . والفكر كثيرا مايسبق واحيانا مايتخلف عن الواقع العقلى . والفجوة تزداد حينما تختلف سرعة الاحداث عن سرعة متابعة المثقف لها .

عندئذ يصاب المثقف بالعجز . وقد يغالب العجز بادعاء القوة المفرطة . فيتارجح بين احتقار نفسه واحتقار خصمه . ولكنه فى كلتا الحالتين يستمر فى حالة الانفصال . والانفصال فى النهاية عجز .

هذا احدهم سبق بفكره عصره . كان من المفكرين التقدميين الذين دعوا الى الثورة الاجتماعية التى تستهدف العدالة . فلما تطور الواقع فى الستينيات ، بعد أن كان معارضا له بدءا ، وصار معبرا بشكل ما عما كان ينادى به ، اخذ يعدل من فكره ليلائم الواقع . وكان هذا التكيف أيضا نتاجا لتطوره الفردى . ولقد انهكه النضال وكان يبحث عن الاستقرار .

الا أن الواقع يتغير غير عابئ بجموده الفردى فالحقبة الملكية قد تلتها الجمهورية الناصرية ثم الساداتية ، ولامفر من تطور هذه ايضا ليأتى غيرها وهكذا فالواقع يتغير اسرع مما يستطيع استيعابه ، بل هو تغيير مادى فى المقام الاول ويكاد لايقوم على فكر او تنظير . ولعله انعكاس لانشغال الناس بالحياة المادية أولا والتى تستهلك طاقاتهم ، فلاوقت للفكر ، ولا اهتمام بالثقافة . الذهب فوق الجميع ، وبواسطة الذهب المأكل والملبس والملمس . وربما يبحث الناس

وبفضل استمرار التمسك بادعاء دور الضحية تمكن اليهود من ممارسة دور المضحى عملا. واتخذ الغرب لنفسه دورا ألهيا بأن أبقى عليهم وافتداهم بكبش وهو الشعب العربى فى فلسطين .

وصارمن كان يدعى أنه الكبش اليهودى أو الضحية ،هو الذئب الجديد أو المضحى . ولكن الذئب لبس ثوب الكبش . بينما أخذ الضحية الجديد العربى ، يصرخ بالتهديد والوعيد. فلبس الكبش العربى ثوب الذئب . ولذا استمر الغرب فى انحيازا للضحية ، لليهود ،باسم العدالة . واستمر اليهود فى ادعاء دور الضحية مع ممارستهم للدور الجديد وهو المضحى ،أيضا باسم العدالة . اسرائيل خصم وحكم وجلاد أيضا،وكما رأينا أخيرا فى ضرب المفاعل الذرى العربى بالعراق وفى ضرب الشعب العربى المهجر من أرضه فى لبنان .

ولكن استمرار الاعتداء وتفاقمه يضيق الحصار حول الغرب المدعى دور العدالة . والغرب ينزلق الى دور الذئب المعتدى بدلا من الحكم العادل الذى كان يدعيه . والعرب الفلسطينيون ومن قبلهم المصريون والسوريون وغيرهم ، فى مواجهة الموت يستميتون من أجل البقاء ، فيهددون الغرب مباشرة . فالذى لم يعد لديه مايفقده يستطيع أن يجازف بحريته . وما أيسر اشعال المنطقة ،التى يبدو ظاهرها جفاف بينما باطنها سائل لو اشتعل لمات الغرب بردا والشرق حرا .

والغرب بالتأكيد غير مستعد لأن يكون ضحية العرب ،ولذا فعليه ان يكف من دور المضحى ، وأن يسعى الى دور العدالة . والعدالة ان ينحاز للضحية حتى تتساوى مع المضحى . والضحية لم تعد هى اسرائيل ، ولكن عرب فلسطين .

والمشكلة أن الذكرى مازالت تغلب على الواقع . وتمسك اسرائيل بدور الضحية لم يعد يعكس الواقع . كما ان تصورها

لدور العرب كمضحٍ ايضا لم يعد يعكس الواقع . وكذلــــك اصرارها على تحميل الغرب ذنب اضطهادهم السابق . والمشكلة تتفاقم بفضل سرعة تغيير الواقع بينما الوعى بالــــدور الاصلى لم يتغير بنفس السرعة . ومن هنا كان الارتبـــاك والتصادم مع الواقع . والتصادم مع الواقع عقدة نفسيـــة والعقدة فى حاجة الى صدمة . والصدمة لكى تكون علاجيـــة وليس مجرد تأكيد للوعى الخاطىء بدور الضحية ، يجب أن تأتـى من موقع العدالة . مثل الفرق بين القتل والاعـــدام او الأتاوة والضريبة ، او الجرح والجراحة ، أو السم والدواء. لكى تكون الصدمة مصححة وليست اضافة لحقة مفرغـــة فلابد من أن تأتى فى اطار شامل من الطمأنة . ومن خـلال حد أدنى من الايجابية فى العلاقـــة .

انها المواجهة التى نتمكن منها من خلال تضافر الجهود مـن كل جانب . من خلال الحكومات الامريكية ثم السوفيتيـــة والمصرية ثم غيرها من الحكومات العربية .

ومن خلال الشعوب بواسطة عناصرها المستنيرة والمسالمـــة ثم المتشددة ، فى الغرب وفى مصر وفى ارض فلسطين حـتى وهى محتلـــة . المواجهة بالعقل ثم القـــوة .

والمواجهة هى ان المضحى والضحية وجهان لعملـــة ودوران لا يتوقف التبادل بينهما ، وانهما سجن للطرفيـــن . والتحرر هو التحرر من الدورين بالسعى نحو العدالة .

واذا كان الهدف هو العدالة ، فالوسيلة ايضا يجــب ان تغلب عليها صفات الهدف ، بالعقل والفهم لجميع الاطـراف وبالحـــوار البناء .

حول دور الطب النفسى فى السياسة :

الطب يتعامل مع الصراع بين الأعضاء . والطب النفسى يدخل الوعى كطرف فى الصراع . والطب النفسى السياسى يدخـــل علاقات القوة بين الجماعات فى اطار الوعـــى .

فالعنصر المشترك هو تشخيص الصراع بما يحقق تخفيفه لكل صراع اطراف ،وكل طرف له مايبرر وجوده . ولكن هناك طرف له احقية فى الوجود لاتحتمل الشك . الا وهورغبة تاكيد الحياة واستمرارها وتطويرها . الطبيب هو من ينحاز الى ذلك الطرف ويسعى دوما الى تغليبه .

لقد اعتدنا فى مجال السياسة على الانغلاق فى دائرة الصراع ، وكدنا ننسى الهدف الأصلى وهو الحاجة الى الخروج منها وتحقيق السلام بغية تاكيد البقاء . وكدنا ننسى أن البقاء هو فى النهاية للأنسان وللحياة ، وليس لأنسان على حساب آخر . وكدنا ننسى مسئوليتنا فى التطبيب وهى مسئولية كل مواطن بالقدر الذى يمارس فيه دورا فى علاقات القوة فى المجتمع . الطب النفسى السياسى ليس تخصصا اضافيا ولكن واجبا عليه لكل مواطن .

اذا كنت شاعرا فلا تنصح من حقيقتك

سئل مناضل عربى قديم أصقله الزمن وانضجه الكفاح الصبور:
" هل توافق على كامب ديفيد؟ " فقال : " وهل يطلب منى أن أوافق على طلوع الشمس؟ قد أقرر أن انعم بدفئها أو أتجنب حرها ولكن مادامت موافقتى على طلوعها لن تغير من الأمر شيئا فما قيمة السؤال ؟ "

وسئل :" اذن هل ترى فيها عمالة أو خيانة ؟ "
فقال :" انى مواطن عربى محب لوطنه وأفترض أن كل مواطن عربى كذلك . ولو كان غير ذلك لوجب على أن أسلبه مواطنته بل حياته فالخيانة عقابها الاعدام . ومادام ليس بيدى أن افعل ذلك فما قيمة أن ألقى التهمة ؟ لقد سقطت هذه الكلمات من قاموسى " .

وسئل:"وما رأيك فى من يتخذون موقف المعارضة منها؟"
فقال :" وهل يعقل أن يكون هناك عمل سياسى ويسمى نفسه معارضة أو عمل ثورى ويسمى نفسه ثورية ؟ فالسياسى الحقيقى هو من يعمل ليزيد من قدرته على التأثير أى ليزداد سلطة ونفوذا والشاطر هو من يعجل بذلك التأثير . وفى كلتا الحالتين فمن السذاجة أن يفصح المرء عن مثل هذا الموقف المستفز للقوى المحافظة حتى تعارضه بالتالى . اذ أن الطبيعى ان معارضة القوى المحافظة للمعارض اقوى من العكس . فهى التى تملك ادوات القمع . ومثل هذا الاعلان ليس الا دعوة لانقضاضها عليه " .

وانتهى هذا الحوار القصير الذى انطبع فى وجدان سامعه لما وجده هناك من مدى من جراء مواقف احسها ولم يملك وضوح التعبير عنها .

اذ أن ممارسة الطب النفسى تتيح لصاحبها فرص لقاء هؤلاء الافراد الذين رفضوا الواقع بما قد يبدو لأول وهلة أنه

شجاعة وبراءة وتلقائية لايملكها الانسان المتوسط. فى هذه الحالة يكون المرض مدعاة للأفتتان وربما التمجيد بل والحسد ولكن السؤال المؤرق يبقى: اذا كان المريض على حق والمجتمع على باطل. فلماذا لاينتصر المريض والمرض ؟ أو ربما كان المريض هو الشهيد الذى يمهد طريق النصر. لمن سوف يأتى بعده ؟

ومن نفس المنطلق يأتى الاعجاب الشديد بالثوار والمتطرفين. يمينا ويسارا ، أخوانا وشيوعيين . فهم الذين تؤرقهم القضايا العامة بما يجعلهم يدخلون فى تناطح مباشر مع السلطة لدرجة الاستشهاد بأشكاله المختلفة. فبعضهم استشهد بدنيا ، وبعضهم سجن ثم مات نفسيا ، حتى وان ابقى على شعاراته الثورية كألفاظ بلا انفعال أو انفعالات بلا فعل. وبعضهم كشف عن وجه العملة الآخر وهو انه ليس الا ثائرا على شخص من تسلط عليه ولكن ليس على مبدأ التسلط فبدل الأماكن وصار هو المتسلط فى علاقة تسلط على طرفها الآخر ثائر جديد أو على أحسن الفروض. مستغلا لطاقة الثائر من أجل تأكيد طموحه فيحوله من ثائر الى تابع مقهور يحمل شعارات ثورية .

ومن الطبيعى أيضا أن يبلغ ذلك التعاطف اشده فى مرحلة من عمر الأنسان يكون هو فيها فى سن المراهقة والشباب. فالأنسان فى هذه المرحلة يكون على حافة الانتقال من وضع كان هو فيه المتلقى والمستمع والخاضع كطفل ينشأ فى أسرة تنقل له تراث المجتمع . وهو على عتبة الخروج من هذه الأسرة لينضم الى الأسرة الكبيرة ، الى المجتمع . وعليه ليتم هذه النقلة أن يثور ويتحرر من سلطة أسرته المباشرة ليؤكد هويته المستقلة الجديدة والتى تؤهله للانضمام الى أسرة الراشدين . ويكون الانسان فى هذه المرحلة ثائرا . ولكن الثائر الوحيد شهيد . وهو لذلك يبحث عن مجموعة من الشباب غيره يتكاتفون معه ليحموه من الاستشهاد السريع . أنه ينتمى

الى جماعة تحقق له قدر من الوعى بذاته كراشد ضمن الراشدين وكعضو جديد فى المجتمع ولذلك فهو يفضل الجماعات الهامشية فى المجتمع . لأنه هامشى ومن الأيسر له ان يتعاطف مع الهامشيين مثله . انه لم يؤكد رشده تماما بعد . وهو يفضل جماعة من الراشدين فى المجتمع لها هذه الصفة أى لم تؤكد رشدها بعد . فيحقق النقيضين معا : وهو أنه مازال هامشيا لم يكبر بعد ، وانه مع ذلك قد كبر واستقل عن اسرته المباشرة واصبح عضوا فى المجتمع . فأنضم الى فئة فيه .

هنا نجد هذه الجاذبية التى تتميز بها الجماعات المتطرفة يمينا أو يسارا . فالتطرف هو السمة الاساسية وليس المهم اتجاه التطرف . فاذا كان يمينا فهو يعبر عن ذلك الميل للعودة الى القديم والتمسك به فائقا فى ذلك بملكيته الملك ذاته . انه يثور على والديه بأن يتحالف بل يتوحد مع اجداده . واذا كان التطرف يسارا فهو يعبر عن ذلك الميل الطبيعى لأن يرفض ماضيه وحاضره برمتهما ويبحث عن رؤية جديدة ولكن بعيدة عن الواقع . فالتطرف يكون دائما بعيدا عن الوسط ، بعيدا عن الواقع .

وقد يقال ان مثل هذا المنطلق ليس الا تبريرا للواقع ومساندة للوسط وتدعيما للسلطة القائمة . ولكن هيهات ! فالواقع اعقد من ذلك كثيرا . والوسط كذلك اوسع . فالانغلاق فى مفهوم ضيق للوسط تطرف فى حد ذاته . والتمسك بواقع لا يتغير تشبث بقديم ازاء حركة الزمن المستمرة . فالواقع او الوسط بمعناه الأوسع هو واقع متغير . وهو يتغير بأن يتحول من الحال القديم الى الحال الجديد . وهو لذلك يشمل القديم والجديد معا ، أى يشمل الوسط اليمين واليسار . وليس الواقع ما هو كائن دون ادنى اعتبار لما كان وسوف يكون اذ فى الامكان ابدع مما هو كائن . ولا الوسط هو ما يتوسط دون اتصال بما على يمينه أو يساره . فالواقع يتغير فى

اتجاه الجديد منطلقا من القديم ، والحاضر ينتقل الى المستقبل تاركا الماضى أو الوسط يدور فى اتجاه اليسار تاركا اليمين . هذا هو الواقع والوسط بالمعنى الاوسع .

والذى ينغلق فى طرف سواء كان هذا الطرف يمينا أو يسارا أو وسطا بالمعنى الضيق قد حكم على نفسه بالأستشهاد وليس فى ذلك عيب . فالشهداء مطلوبون . ولكن ليس من حقهم ان يطالبوا بموت الجميع معهم . فهناك مكان لكل انسان فى مسرح الحياة . ولو تأمل الشاثر الذى يؤرقه عدوه المستبد ، وانه لو تحققت امنيته فى الخلاص من غريمه لزال مبرر ثورته ولزال هو كثائر . لو تأمل لاكتشف انه لولا ان غريمه مستبد لما كان هو ثائرا . وان عليه بالتالى ان يتجاوز ذاته قليلا ليكتشف انهما ليسا الا معبرين عن دورين فى لعبة واحدة . وان كل منهما يكمل الآخر وضرورى له . ولولا الشر لما كان هناك خير ، او على الأقل لما كانت هناك حاجة لأن ندعو للخير . ولو تمكن من هذا التجاوز لذاته ورأى الامور كما هى حقيقة ، لاكما يصورها له دوره كثائر ، أى رأى الاشياء بموضوعية لتمكن من حسبان حساباته مرة أخرى ، ليفع جهده وطاقته حيث تؤدى القدر الاكبر من الفعالية . ولما بدد جهده فى الغضب من غريمه وتمنى زواله . ولما اضاع الجهد فى رفض طلوع الشمس او أدانة غريمه او التناطح معه بلاجدوى . ولكان هدفه ان يفعل بما ينفعل به ويفكر فيه ، لا أن يتوقف على فكر منعزل او انفعال عاجز . ولصار باختصار اقرب الى انسانيته واكثر تحررا من حالة الأنغلاق فى دوره .

لكى يكون التأييد عميقا فى كيفه لا مجردواسعا فى كمـــــــه

الاجراءات شبه الاستثنائية التى تمت اخيرا*تمثل نقطـــــة تحول ظاهرها الفجائية ، ولكنها مع ذلك معبرة عن حاجـــة استراتيجية يستجيب لها القائد المعبرعن الجماعة . وهـــى ظاهرة الفجائية وشبيهة بالاستثنائية لانها تأتى مـــــن حيث لايتوقعها المفكر العادى . كما انها استجابة لحاجـــة استراتيجية لانها تجد وقعا وقبولا عند متلقيها .

المفكر هو الذى يحتار . وهو يحل حيرته بأن يلجـــأ للقطع فى استقبالها . فهو اما يؤيدها تأييدا مطلقاويقــدم التبريرات (بعدالحدث) او يرفضها رفضا مطلقا فيعتـــرض باللامبالاة والسلبية او على احسن الفروض الهمس وكـــــلام الصالونـــات .

الا انه لاالتأييد المطلق ولا الرفض القاطع يمثلا ن التفاعل المطلوب مع الخط الجديد لاعطائه الامكانية الخلاقة علـــــى التبلور والترجمة التكتيكية للواقع الاستراتيجى الجديد.

فلكل اجراء مضاعفاته وعيوبه ، مهما كان الاجراءصائباء والتأييد المطلق يحجب العيوب التى هى حتمية ومصاحبــــــة للاجراء . بينما الرفض المطلق يحجب المزايا ويعوق الامكانية الخلاقة للتجديد . التأييدالمطلق والرفض المطلق وجهان لعملـــة واحدة . كلاهمامكمل للآخر. وكلاهما يولد نقيضه .واذاكـــان التأييد المطلق فقط هو المعلن والظاهر فأن هذا لايعنـــــى ان الاجراء صائبا صوابا مطلقا . ولكن يعنى ان الرفـــض المطلق كامن وخفـــى .

ولذا فلابدلنا من ان نمتلك الشجاعة على النقد الذاتـــى وكذلك الا نخشى النقيض من الرفض المطلق اذا ظهر فى ظـــلال التأييد المطلق . فالشئ لايبرز الا فى ظلال نقيضه والتأييـــد المطلق لايأتى والا فى وجود افتراض بأن هناك رفـــض مطلق

* سبتمبـــر١٩٨١

وكلما فتح لها باب تأكيد وجودها كلما زادت حاجتها للتأكيد. فهناك اغراء قوى للاستكانة الى الراحة المؤقتة التى تصاحب التسلط. وكذلك فأن الكبت اذا يولد الثورة عليه انما يغرى باللجوء الى المزيد من الكبت بما يجعله يفوق الحاجة الموضوعية اليه. إستعادة الهيبة والنظام والانضباط كلها امور مطلوبة. ولكن الافراط فيها سرعان مايحولها الى كبت وتسلط وجمود بالمعنى السلبى. وهنا يكمن الخطر. اذ ان تحول مابدأ ايجابيا الى السالب انما يحتم ظهور نقيضه فى قالب الموجب. فالكبت يولد الثورة والتسلط يولد المطلب بالحرية والجمود يولد الحاجة الى التطور الحى.

واذا كانت مصر تبرز بين جيرانها بأنها تتمتع بالقدر الامثل من التوازن بين القوة والحرية، وبين الوحدة والتعددية، فأن الافراط فى التحول فى اتجاه عن آخر انما يغير هذه الصورة. فيفقد مصر ميزتها علاوة على ماكانت تستهدفه اصلا باجراءاتها الاخيرة وهو صورة الدولة القوية باتحاد الارادات الحرة داخلها، وصورة النقطة المضيئة التى قد تقود المنطقة.

لكى يكون التطور الى الامام وليس فى حلقات دائرية لابد من الاستفادة من الماضى. وذلك بالا نعود اليه بتكرار جبرى وان كنا نستعيده لنتعلم منه. فاذا كان التأرجح الحالى هو فى اتجاه ماقبل ١٩٦٧ ونريد ان نحرص على الا تكون نتيجته صادمة مثلما حدث بالصدمة العسكرية حينذاك يجب علينا الا نكرر الوهم ان الافراط فى التظاهر بالقوة والوحدة والاستقرار يعنى وجود هذه الاشياء. بل على العكس قد يكون نذيرا بامكانية غيابها.

لابد ان نحرص الا ننزلق فى اتجاه الكبت وعلاج مضاعفات الكبت بالمزيد منه. بل على العكس يجب ان نحجم الكبت فى ذات الوقت الذى حرصنا فيه على تحجيم الحرية.

فالتأييد لكى يكون تأييدا حرا لابد له وان يكون مصحوبا بقدر من الرفض. والرفض لكى لايكون رفضا مطلقا لابد وان يواجه بتأييد مقابل له مصحوب بشجاعة النقد الذاتى.

الخيار الذى امامنا بين ان يكون النقيض كامنا خافيا او ان يكون ظاهرا معلنا .

ان التمسك بوجود معارضة لهو تأكيد لهذه الضرورة . فالمعارضة الشرعية المعلنة هى الضمان ان يكون الرفض معلنا وظاهرا . ولعله ضمن مسئولية المعارضة ان تبادر بأن تسعى لفهم الجانب الايجابى للخط الجديد ، والبحث عن تلك الخيوط التى توصله بالواقع ، بما يجعله معبرا عن حاجة فيه . مثلما هو ضمن مسئولية الدولة ان تتعرف بدورها على المضاعفات والجوانب السلبية .

فقد نبدأ بمحاولة فهم الايجابيات ، وذلك بالتعرف على الحاجة الموضوعية التى ولدت الاجراء . ان وضع مصر الدولى يجعلها تعتمد على كونها دولة قوية ومتحدة ومستقرة . فالضعف يغرى بالاعتداء او الاستغلال او الاهمال . ومصر فى حاجة الى ان يحسب لها حساب . واذا كان الاتحاد والقوة الاستقرار بالمعنى العميق هو الذى ينبع من مجموع الارادات الحرة للاتجاهات المختلفة ، فمن جانب آخر ان الاختلاف اذا ماتفاقم هو الذى يؤدى الى الخلاف والتفكك والضعف . فهناك اذا وسط بين النقيضين ، الحرية والنظام ، والتفكك والاختلاف ، يجب التوصل اليه ربما بعد محاولات فى التأرجح بين النقيضين . ونحن مازلنا بصدد التأرجح . فبعد الكبت الذى وصل الى قمته فى عام ١٩٦٧ تولدت الحاجة الى الحرية والتى اخذت الشكل شبه الفجائى فى مايو ١٩٧١ . ولذلك فمن الطبيعى ان يتطور هذا التأرجح فى الاتجاه المضاد فى سبتمبر ١٩٨١ . فحريات مايو ١٩٧١ هى التى اضفت عمقا بالاختلاف ولد القوة التى ظهرت فى اكتوبر ١٩٧٣ . والاسترخاء الذى تلا القوة جعل الحرية تزداد بعدها مما اضاف لعمق القوة بما يسر مبادرة مصر بأتخاذ خط جديد وجرىء فى نوفمبر ١٩٧٧ . ومع زيادة الحرية تزداد المطالب . فاذا مازادت المطالب على امكانيات الواقع لتلبيتها لقصور فيه او لعجز عن تغييره

يتبادر الحل بتغيير المطالب بدلا من تغيير الواقع . وذلك بأن تحجم حرية التعبير عن المطالب لتناسب الواقع .

اذا كانت المطالب تدعو الى ان يتغير الواقع ليناسبها ،وكان هذا الامر غير متيسر ،فلامفر من ان نضع الحدود على المطالب. فالحكم الاسلامي المطالب به مثلا بعيد عن التحقيق فورا او في القريب العاجل بما يجعله مطلبا يفوق امكانية الواقع على تلبيته . وكذلك العودة السريعة الى قيادة الصف العربي من خلال توحيده ضد اسرائيل . كلاهما مطلب حقيقي . الا ان تيسره هو البعيد المنال . ولذا كان لابد من تأجيله بشكل عاجل ولفترة ما ، بالتأكيد حتى ابريل ١٩٨٢ ، وربما بعد ذلك لفترة .

ان مصر هنا تقول للاطراف المتحاورة معها في الساحة الدولية انها متحدة وقوية وبالتالي ملتزمة بما تقدمه من شروط. وان الاصوات المعارضة فيها انما هي سابقة للواقع وليست معبرة عنه في شكله الحالي . وعليه فان مصر بقوتها هي الاقدر على الالتزام دون التبعية .فالتابع الطائع ،سواء لقوة غربية (امريكا مع اسرائيل) او شرقية (الاتحاد السوفييتي في محاولاته الحالية مع عدة دول) هو آخر من يستطيع ان يقود المنطقة الى الاستقرار او التعاون وبالتالي يضيف للاتفاقيات مصداقية واتساع. وهذه امور مطلوبة محليا وعالميا .

ولكن هناك مضاعفات وجوانب سلبية . ولابد من التيقظ لها لا نفيها او اخفائها . فاذا كان هدف تأكيد هيبة الدولة واستقرارها الداخلي ايجابي وضروري ،فان الافراط في هذا التأكيد انما يثير الشك في وجود النقيض ،اي الشك في ان هناك فقدان للهيبة وعدم استقرار الداخلي . فالافراط في الشيء انما يعني تذكير بافتراض وجود نقيضه بشكل ملح . ولذا لابد من درجة ما من الحد من الافراط في ذلك التأكيد . فالقوى المدفعة بالتثبت بغض النظر عن الحاجة الموضوعية اليه تسعى للوجود.

البـــــــاب الخامس

خاتمـــــــــــــة

- ** الحاجة الى رؤيـة مصـرية .
- ** معهد قومى للســـــلام .
- ** طبيب بشرى أم طبيب البشــــــر؟ .

ان التعصب المذهبى الذى مكن حفنة من اليهود من ان يرسخوا قواعد دولة وسط محيط معاد ، مبعثه ايمان مكمل لرؤية يهودية مبنية (بالاضافة الى التعصب الدينى واثارة عقدة الاضطهاد وعقدة شعب الله المختار) ، على تحليلات علمية وتقديرات واقعية لما هو موجود وممكن. وهى رؤية طرحت فى مواجهة منطقة خرجت لتوها من سيطرة الحكم العثمانى الذى فرض قبضته واخضاعه لشعوب المنطقة باسم الخلافة والوحدة الاسلامية ، وعاونه على الخروج ميلاد رؤية بديلة او مكملة منبعها الحس القومى بالعروبة .

والقومية العربية وحدها لم تكن كافية لالهاب مشاعر الجماهير بالقدر الكافى الذى يجعلها تقف فى وجه الغزو الاستيطانى والحضارى الذى تمثل فى نشوء اسرائيل. فلم تكن اسرائيل تتعدى بعد كونها رؤية قلة من المثقفين فى الامة العربية الذين يجيدون اللغة العربية قراءة وكتابة ويرتبطون بالتالى بحضارتهم العربية . اما الحكام والملوك الذين ورثوا الامبراطورية العثمانية الاسلامية فقد كانوا سعداء بالاستقطاعات المصطنعة التى صارت دولا . وكان ولاؤهم للقومية العربية مجرد ولاء لفظى بينما كان اتجاههم الفعلى نحو توطيد الوطنية المحلية المصطنعة .

ولم تستطع القومية العربية ان تلهب المشاعر الجماهيرية الى ان ارتبطت بدعوة الى انصاف هذه الجماهير فى مواجهة المستعمر الذى اراد ان يرث الامبراطورية العثمانية بلا عناء التواجد المباشر لجنوده ولكن بالاكتفاء بعملائه من أبناء المنطقة ولانصافها فى مواجهة النظم القبلية التى جعلت من دولهم ملكا لقبيلة او لأسرة

او لفرد او شلة افراد . وكانت الدعوة الى القومية العربية عندئذ قد ارتبطت بالحرية والاشتراكية .وهو مانظر له البعثيون فى سوريا وسعى الى ترجمته الى الواقع الحكام المصريون فى الحقبة الناصرية . ونجحت فعلا الدعوة فى الهاب مشاعر الجماهير . ومازال المثل يضرب بخطب جمال عبد الناصر التى كانت تهز جماهير المنطقة وترعب حكامها . ولكنها لم تتعد ذلك الالهاب للمشاعر الجماهيرية والذى كاد يجعل من الدعوة الى القومية العربية المرتبطة بالحرية والاشتراكية مجرد دعوة غوغائية هدفها الضغط على الحكام . فمازال الذى يحرك العرب هم حكامهم . بينما روابط الشعب حتى ذلك الحين اماضعيفة أو متسمة بالدافع العاطفى فقط دون الارتباط بمصالح توفر لها الديمومة .

ومن هنا انقشع الحلم فى ساعات ذات صباح فى يونيو ١٩٦٧ . فالكلام الكبير والتهديد والوعيد والتفاخر بالقوة الضاربة العظمى فى المنطقة ، كل هذا لم يكن اكثر من طبول جوفاء يعكس علو صوتها مدى فراغها.

ومرت المنطقة وعلى رأسها مصر بازمة وجود ،تبحث فى داخلها عن سر ذلك الفشل فى ربط الفعل بالقول . ورغم بقاء المشاعر الجماهيرية الملتهبة التى زادتها نيران الهزيمة اشتعالا ،فان المحتوى الفكرى العقائدى لم يعد يجذب الجماهير اويلهب خيالها . ومن هنا بدأت الاتجاهات الدينية فى استعادة قوتها .

فالانسان يلجأ الى القوى الغيبية حينما يشعر بالعجز امام القوى المادية المحيطة به .وسعة الصحراء وفراغها ووحدتها ورهبتها تذكر الانسان بتلك القوى الروحية التى يترجمها بعد ذلك الانبياء الى أديان .

ارسلت مصر خيرة أبنائها الى الصحراء فى صيف ١٩٦٧ فعادوا يتعثرون فوق جثث اخوانهم التى احرقتها قنابل العدوان

تاركة للشمس الحارقة والحيوانات والطيور بقية عملية افنائها، وعادوا بعد لقاء حميم بالموت قربهم من الوعى بالقوة الالهية . ووجدوا اخوانهم الذين كانوا يطبلون بقوة للعقيدة العربية الاشتراكية منتكسة رؤوسهم . فبحثوا جميعا وسط هذا الضياع عن عقيدة يحتمون فيها وقت ضعفهم وضياعهم ". وكان التغيير فى موازين القوى ،سواء داخليا مصريا اومحليا عربيا،فى اتجاه حد الهجمة الوحدوية الاشتراكية على العرب ومن أجلهم . وكان افضل طريق لتخفيف حدة هذه الهجمة وتهدئة المخاوف من قوة مصر ومكانتها، ان تعلو النغمة الدينية المتسامحة التى تحوى خليطا من التسليم للقوة الالهية والمسالمة للقوى البشرية المتصارعة . فوجدت الاتجاهات الدينية ارضا خصبة تترعرع فيها وتنمو ضاربة بنموها النمر الورقى السابق الذى قام على زئير الاشتراكية العربية الوحدوية .

ولكن المسالم المتظاهر بالضعف والتواضع لابد وان يكشف يوما حقيقته ،او على احسن الفروض ان يغيرها والا جعل من نفسه فريسة للنمور حتى الورقية منها . وظهرت المخالب والانياب فى اكتوبر ١٩٧٣ . وعاد الخوف من قوة مصر والرغبة فى عزلها . ولما كان الاتجاه الاسلامى الدينى هو الذى ترعرع ورعى فلامناص من استخدامه والتحالف معه لاخضاعها واضعافها من الداخل . فلتكن الوقيعة بين المجتمع المصرى وبين ما أفرزه ذلك المجتمع منذ ١٩٦٧ من تيارات دينية ،او لتكن الوقيعة بين مصر كدولة وأى دولة اخرى تنتحل لنفسها الاسلام . والتقى العدو والصديق حول هدف اضعاف مصر . فالدولة القائمة على الدين فى المنطقة هى اسرائيل ،ولاشك انه سوف يدعم وجودها ويبرره ان تكون هناك من الدول المحيطة دولة او دول تقوم على الدين. فاذا

كان للاسلام دولة "فلم لايكون لليهودية ؟ والدول الغربية وغيرها كالفارسية ، التى تريد ان تسيطر على مصر هى الاخرى تريد لها اللون الاسلامى الذى يجعلها تقبل راضية ان تخضع للخليفة او الامام الذى ينصب نفسه اوبالاصح يشترى منصبه بالمال النفطى ، بشرط ان يكون هذا الخليفة من خارج مصر . فالهدف المتفق عليه بين جميع الاطراف ان تبقى مصر اضعف من ان تتربع على مكانتها الطبيعية كقائدة للمنطقة ، مع مراعاة ان يتبقى لها من القوة ما يجعلها بقرة حلوبا يمكن استغلالها جيدا .

وهكذا بعد ان فقدت سلاحها القومى العربى الاشتراكى لجذب الجماهير العربية لولائها الطبيعى لها وجدت مصر ان السلاح العقائدى البديل والذى طرحته ، وهو الانتماء القائم على الاسلام ، أوشك ان يتحول ضدها ، وبدأت التجربة فى لبنان باعطاء شرعية للقوميات القائمة على الدين ، ثم فى اسرائيل بالتعامل معها كدولة معترفين بهويتها الدينية ، ثم بدأ جس النبض حول امكانية تفتيت مصر ذاتها من الداخل الى مسلمين واقباط . وقد اكد قيام الثورة فى ايران مثل هذا الاتجاه الفكرى بان اعلنت انفرادها بالثورية الاسلامية ولكنها لم تلبث ان تواضعت بالرضى بالدور الاقليمى الفارسى الشيعى دون الاستمرار فى المحاولة الجوفاء لتصدير نمطها الى غيرها من الدول المجاورة على أنه التجسيد الحديث للصحوة الاسلامية .

ان خدعة استغلال الاسلام لتيسير سيطرة اقليم اوقومية على غيرها لم تعد تسرى على احد . وعادت الدول تتحادث بقاموس السياسة دون ادعاء للدين بينما الشعوب تتعامل بالمصالح المباشرة التى تمس حياتها اليومية اى بالاقتصاد ، فالتجار والعمال والحرفيون يبحثون عن مصالحهم عبر الحدود السياسية وبغض النظر من الحواجز الدينية : فى الاراضى المحتلة

بين فلسطينين واسرائيلين ،ومسلمين ونصارى ويهود وبين مصر وفلسطين والسودان منجانب وبقية الدول العربية النفطية وهكذا. ان ما يحكم المعاملات السياسية والاقتصادية هوالقوانين العلمية التى تميز هذه الابعاد وليست المبادىء البراقة سواء كانت ايديولوجيات دينية او سياسية . لعله غلبة التفكير والسلوك البراجماتى ونضوب الرومانسيات والمثاليات . ولعله حقبة فى التاريخ سوف يتبعها ميلاد حقبة اخرى تتولد فيها الايديولوجيات مرة اخرى . ولكن واقع اليوم الذى لابد ان نتعامل معه هو ذلك الذى يأخذ فى الاعتبار تلك العلاقات البراجماتية .

فاذا كان لمصر ان تاخذ مكانها الطبيعى كقائدة للمنطقة لاتابعة ،وكقوة انتاجية اقتصادية وثقافية فلابد لها ان تقدم الرؤية المنتظرة منها التى تلهب مشاعر الجماهير بالدرجة التى تعيد ولاءهم لهدف يحقق مصالحهم البعيدة المدى ،لا ان يستمروا مفرطين فى براجماتيتهم مع تعويض ذلك الافراط بالتمسك السطحى بالديركشعارات وكلمات غير قابلة للترجمة الى واقع اقتصادى وسياسى ملموس . ومادامت الخيارات المطروحة فى الواقع هى ذلك التارجح بين البراجماتية البحتة وبين التعصب الدينى الاعمى والمنفصل عن الواقع وعن العلم ،فالمطلوب من مصر ان تقدم رؤية مختلفة عن هذين النقيضين .

مصر لايمكن ان تنكر عروبتها او اسلامها كما لايمكن ان تنكر تراثها الفرعونى والقبطى وغيره . ومصر لايمكن ان تنفصل عن تكوينها الفعلى وعن علاقتها الحميمة بالجيران وغيرهم فى ذلك العالم المنفتح . فهى مطالبة اذا بحماية العروبة والاسلام وفى نفس الوقت ان ترحب بالتعاون الوثيق مع الاديان والقوميات المعاصرة . انها مطالبة بان تكون صاحبة مبدأ ورؤية مستقبلية ولكن عليها فى ذات الوقت

ان تملك من البراجماتية مايجعلها قادرة على ترجمة المبادىء والمثل الى واقع مباشر،المبادىء تلهب الحماس ولكن تطبيقها هو الذى يختبر صدقها ويجعلها قابلة للتصديق .

ولكى تتكون مثل هذه الرؤية المستقبلية المبنية على الواقع لابد ان ينفتح الحوار على مصراعيه بين رجال الثقافة ورجال السياسة ،رجال الفكر والحلم مع رجال الفعل والواقع ،الشباب والشيوخ ، اليسار واليمين .فالرؤية الخلاقة فعلا هى التى تولد من هذا التفاعل . ولايمكن ان تنقل الرؤية لمكان او زمان آخر . فالمجتمع الاسلامى الذى وجد فى فجر الاسلام لايمكن ان يعود بمجرد ان نتمسك بالحلم به ،كما ان المجتمع الاشتراكى فى الصين اوالاتحاد السوفييتى والديمقراطى فى الغرب لايمكن ايضا ان يستورد وينقل الى مصر او الامة العربية او العالم الثالث.كلاهما جربتهما اسرائيل فى محاولتها لاعادة بناء دولة كانت موجودة فى التوراة ونقل حضارة غربية وزرعها فى حماية مصطنعة وسط جو غير ملائم من حضارات الشرق الاوسط، علاوة على التجارب التى تبدو متطرفة فى اشتراكيتها مثل الكيبوتز . ولو كان مثل هذا النقل المصطنع يصلح لما رحبت اسرائيل بالسلام الذى يمكنها من اعادة النظر فى انتمائها وهويتها وتكوينها بين النقل والابداع وبين الحاضر والماضى . ومهما اعتقدنا من تأدية اسرائيل للدور الاستعمارى الاستيطانى الذى لايمكنه الا ان يحفر قبره بيده ،فلابد من الاعتراف بان رغبة الشعب فى اسرائيل فى البقاء تنبع من ذلك الميل الموجود لديه نحو التخلى عن الشكل الاستعمارى الاستيطانى والسعى المخلص الى ترسيخ الجذور فى المنطقة وتوطيد العلاقات مع الجيران .

والمطلوب من مصر ان تبدع فى تكوين تلك الرؤية المستقبلية

واضعة فى الاعتبار ضرورة التفاعل بين الماضى والحاضر والمستقبل ،وبين الاقليمى والدولى .

ان مثل هذه الرؤية لايمكن انيقوم بها فرد او زعيم ولكن لابد لها من تضافر جهود العلماء والمثقفين مع القيادات السياسية والاجتماعية والدينية . ولعل خطوة اولى وعملية ان تلتقى نخبة من هؤلاء فى أطار منالتعامل المكثف عقليا ووجدانيا لفترة من الزمن يخرجون بعدها لاختبار فرضياتهم على الواقع ،ثم يعودون للالتقاء مرة اخرى وهكذا ،فى جدل بين الفكر والفعل وفى اطار من الانفعال الذى يمهد لامكانية التغيير الخلاق .

ولعل هذه المحاولة المتواضعة التى قدمناها من تصوير للواقع كمانشاهده فى دقائق الحياة النفسية للانسان المصرى العربىماهىالامجرد واحدة من المساهمات لالقاء الضوء على مظاهر المشكلة ومحاولة لاستنباط بعض أسبابها وامكانيات علاجها وهى بداية لفظية مكتوبه لحوار يجدر ان يستمر ويتشعب وينتشر ليشمل الكلمة المسموعة والمنطوقة بانفعال والفعل الذى يختبر مدى صدق الكلمة .

معهد قومى للسلام

تمر الأنسانية بمرحلة تحول نوعى خلال تطورها التاريخى. فقد بدأ الانسان بتأكيد وجوده فى مواجهة القوى الطبيعية له ،ولكى يكون او لايكون كان لابد له وان يصارع قوى الطبيعة هذه التى كانت تتعارض مع وجوده .وكان عليه أن يصارع الحر والبرد والجفاف والمطر ويصارع الحيوانات المفترسة ،ويخضع الاليفة منها لكى يسخرها لخدمته كطاقة عمل اومصدر غذاء .

وبعد ان حقق الانسان ذلك الوجود ازاء الطبيعة بفضل قدرته على التعاون مع اخوته ، تحول صراعه مع الطبيعة الى صراع مع اخوته حول المكاسب التى حصلها بفضل السيطرة على الطبيعة .ثم نشأت الصراعات بين مجموعات من البشر وبعضها. وكلما زاد حجم المجتمع زادت قدرته القتالية وقدر له البقاء ازاء خصومه الأضعف .

واليوم يشاهد العالم قوتين عظميين يواجه احداهما الأخرى فى صراع حول اغتنام انتاج الطبيعة الذى يوجد الكثير منه فى حوزة مجموعة من الدول الصغيرة . وقد ايقنت القوتان العظميان ان القتال المباشر بينهما مستحيل. فالاسلحة التى يمتلكانها لو استخدمت فى ضربة أخرى انتقامية سوف لاتترك غالبا ولامغلوبا ،بل ستترك الكل مغلوبا وهما فقد اكتفيا: بان يمارسا القتال المحدود بالنيابة، وذلك امابالاعتداء المباشر على الدول الصغيرة كحرب امريكا ضد فيتنام وتدخل الاتحاد السوفييتى فى افغانستان ،اوبمساندة دولة صغيرة ضد اخرى تساندها القوة العظمى الثانية وذلك كما فى حالة الصراع العربى الاسرائيلى.

الا ان هذه الحروب بدورها اصبحت مكلفة للقوتين سواء فى الارواح والسلاح فى حالة الاعتداء المباشر على الدول الصغيرة او فى السلاح فى حالة اقتتال الدول الصغيرة . اذ ان مصادر السلاح مازالت فى حوزة الدول الكبرى وهى لاشك تتكسب من الاتجار بها للدول الصغيرة فى مقابل استغلال مواردها الطبيعية . الا ان التكلفة هنا جاءت من ان الجهد القومي الذى يذهب لصناعة السلاح اصبح يشكل عبئا على ميزانيات تلك الدول . ولاحت هناك الضرورة لتحويل ذلك الجهد لاشكال اخرى تعود بالفائدة على البشرية ، والتى عادت مرة اخرى تواجه خطر الطبيعة .

اذ ان سيطرة الانسان على الطبيعة فى شكلها الحديث فاق حدود السيطرة المفيدة واقترب من شكل السيطرة المستغلة (وهنا قاربت الطبيعة أن تشبه صورة الخادم العاجز المنهك من شدة سيطرة قبضة الانسان على قواهـا) . فالبترول مهدد بالنفاذ بعد بضع عشرات من السنين ولابد للانسان من البحث عن مصادر اخرى للطاقة والا انهارت حضارته تماما . والاراضى الزراعية تستهلك وتتآكل وتضعف انتاجيتها . ومصادر الغذاء تتقلص بل والهواء نفسه اصبح ملوثا بما يهدد الانسان بالاختناق .

هناك اذا ضرورة تاريخية ان يحول الانسان مجهوده من صناعة اسلحة الدمار الى صناعة ادوات البناء . وان يكف عن السيطرة المفرطة على الطبيعة ويسعى للحفاظ عليها حتى تكون فى خدمته . فالتهديد الخطير اليوم هو ذلك الناجم عن الطبيعة ، وهو الحال الذى بدأ به الانسان وجوده . ولهذا فلابد له وان يبحث من اطار للتعاون بين بعضه بدلا من القتال ولعل اول خطوة فى ارساء التعاون هى الالتزام بالكف عن القتال العسكرى كحد ادنى . اذ ان نهاية الصراعات العسكرية لاتعنى بالضرورة نهاية الصراعات الاخرى كالاقتصادية او الحضارية .

هذا هو التحول الكيفى الذى تمر به الانسانية وهو هذه النقلة التاريخية من الصراع العسكرى الى اشكال اخرى من الصراع . ولكن النقلة تستحق ان توصف بانها تحول من القتال الى السلام .

وهكذا اتفقت الدول الكبرى الا تقتتل و ان تتفاوض فى الاتفاق الايعتدى اى منهما على الدول الصغرى ٠ ثم الاتفاق على حسم الصراع بين الدول الصغرى وبعضها ٠ وهو الذى يهدف اليه مؤتمرجنيف لحل الصراع العربى الاسرائيلى ٠

الا ان هذه الاتفاقيات بين الدول الكبرى لحسم الصراعات بين الدول الصغرى كثيرا ما لاتؤدى الى حل الصراع بقدر ماتؤدى الى ايقافه اوتجميده ولذلك فهى تفشل احيانا وتعود الحروب بين الدول الصغرى ٠وهذا ماحدث بين مصر واسرائيل بين سنتى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ وايقنت جميع الاطراف ان السلام لايتحقق بواسطة الدول الكبرى فقط ولكن هناك ضرورة لان تشترك الدول الصغرى اشتراكا ايجابيا ٠وهذا ماحدث بالمبادرة السلمية التى قامت بهامصر مجسدة فى زيارة رئيسها للقدس رغم حالة الحرب والعداء والاحتلال بين الطرفين ٠كانت مصر مخيرة بين ان يفرض السلام نفسه عليها بحكم التطور الطبيعى للبشرية ،وبحكم اتفاق الدولتين العظميين او حتى احداهما فيكون سلاما مصطنعا مؤقتا وخادما لاغراض الدول الكبرى اساسا ،وبين ان تبادر هى بسلوك هذا الطريق بدافع من مصالحها الذاتية ٠ واذا كانت المبادرة قدجعلت من احدى القوتين متفرجا وهو الاتحاد السوفييتى ،كما تمت بدون تعليمات او توجيهات من الطرف الاخر أى الولايات المتحدة ٠ فان ذلك يعنى ان مصر قادرة على تحريك التاريخ وليس فقط الانسياق وراء حركته متخلفة عنه ٠ ومصر تتحرك من موقعها كدولة قائدة من دول العالم الصغرى وحركتها تعكس احتياجا موضوعيا لدى تلك الدول او قيادة لها فى ذلك الاتجاه ٠

فالسلام بمعنى ايقاف الصراعات العسكرية لم يعد مطلبا للدول الكبرى فقط ولكنه احتياج على مستوى الانسانية ككل ٠ ومبادرة مصر فى ذلك الاتجاه تعبير عن احتياج انسانى عالمى وايذان ببدء عصر جديد فى تاريخ الانسانية ٠

ولان الانسانية قد قررت ان تكف من القتال العسكرى وبما ان نهاية القتال العسكرى لاتعنى نهاية الصراع او احلال السلام بطريقة آلية فقد كانت

هناك ضرورة لان تنشأ اجهزة تتماشى مع احتياج العصر من اجل حل الصراعات بطرق اخرى غير عسكرية .

والصراع طبيعة الوجود . فانا موجود بقدر ما امثل نفيا لما ينفى وجودى ،فاكون فى صراع معه . والصراع موجود فى وعى الانسان كما هو موجود فى واقعه الموضوعى . ولذلك فان دراسة ظاهرة الصراع لا تتحدد فى اطار بعينه وبالتالى لا تقتصر على جانب من العلم دونا عن غيره . فالطبيب يتعامل مع الصراع داخل جسد الفرد ،حينما تتعارض وظائف او اعضاء من الجسد .وقد امتد هذا المفهوم الطبى التقليدى ليتعامل مع الصراع بين جسد الانسان ووعيه وهو ما يقع تحت اطار الطب النفسجسمى . ثم امتد بعد ذلك ليشمل الصراع بين اجزاء من وعى الانسان وبعضها وهو مجال الطب النفسانى .

ومن جانب آخر فان رجل السياسة يتعامل مع الصراع على المستوى الجماعى الاوسع اى بين القوى المتعارضة داخل المجتمع الواحد او التعارض بين المجتمعات وبعضها . وحول الطب النفسانى تنشأ العلوم الانسانية بمختلف فروعها لتصب فى ممارسته . بينما يستعين رجل السياسة هو الآخر بانجازات البعض الآخر من العلوم الانسانية .

وهناك ممارسة تطبيقية لحل الصراعات يقوم بها رجل السياسة ومع بدء كل منهما بنقطة انطلاق مختلفة عن الآخر فهناك ،مع ذلك نقطة يتم فيها اللقاء . انه لقاء بين مدخلين لحل الصراعات وكذلك هو لقاء بين العلم والعمل .

وعند نقطة الالتقاء هذه نشأت الجمعية الدولية لعلم النفس السياسى . وان كانت حتى الآن تتخذ شكل الدراسة العلمية للصراعات من خلال خبرة الممارسين وعلم العلماء ،فهى مع ذلك تتطور حتما لتنتقل من مرحلة العلم المتفرج الى العلم الممارس والمطبق . فالعالم يستطيع ان يرشد صاحب القرار ولكنه لا يستطيع ان يطوعه لارشاداته واذا كانت ارشاداته سليمة فانه يزداد مطالبة بان يسمع الى صوته وصاحب القرار يطلب بدوره من العالم ان يخرج من صومعته ويضع يده

فى واقع الممارسة بدلا من الاكتفاء بالترشيد من بعيد .وهكذا ولدت الحاجة الى معهد قومى للسلام . ومثله مثل اى معهد فهو لابد وأن يقدم خدمة فى صورة ممارسات تطبيقية لحل الصراعات ,وان يكمل الخدمة عبر الاجيال بأن يعلمها لطالبى التعلم ,وان يرتفع بمستوى هذه الخدمة بأن يضع عمله بصفة مستمرة تحت مجهر البحث العلمى .
ولهذا للمعهد ثلاث وظائف : الخدمة والتعليم والبحث العلمى .

ولكى يكون المعهد مستقلا وقادرا على الترشيد والنقد لا التبرير لابد وان يكون له استقلال نسبى . ولكنه من جانب آخر لكى يكون فعالا فلابد وان يلحق بالجهات الرسمية التنفيذية التى يهمها الصراع وهى قطاعات الجيش والشرطة والقانون والاعلام والسياسة الخارجية بل القيادة العليا للدولة .

ان انشاء مثل هذا المعهد فى الولايات المتحدة له مايبرره فالولايات المتحدة تنفق الكثير على الصراعات ويهمها ان توفر هذه النفقات . وهى تملك الامكانيات المالية الفائقة التى تسمح بالانفاق على مثل هذه الخدمات العلمية ذات العائد المؤجل .

ولكن قد يستبعد الى الذهن , ضرورة ايجاد مثل هذا المعهد فى مصر . فصحيح ان مصر انفقت الكثير على التسليح وانها قررت عدم الاستمرار فى تصعيد ذلك الانفاق ولكنها لاتملك الفائض الذى تجعلها تدخر فى مثل هذه المشاريع المؤجلة العائد .

الا أن من جانب آخر فان الصراع الذى عاشته مصر والقرار الشجاع بايقاف الجانب العسكرى من هذا الصراع بمبادرة منها وليس بناء على تعليمات اوتوجيهات او قهر عاجل ,جعلها نقطة اختبار تاريخية. فقد كان صراعا مريرا وعنيفا على مدى ثلاثين عاما . وكان صراعا يمثل الدول الصغرى المعضدة باحدى الدول الكبرى فى مواجهة بعضها واكتشفت الدول الصغرى انه بغض النظر عن المسانده فهى فى النهاية تتحول الى ادوات لخدمة اعراض الدول الكبرى . ولذلك وجدت مصر فى خطوتها نحو نبذ الصراع العسكرى خروجا عن صف التبعية للدول الكبرى . اى انها بحق صاحبة مبادرة قد يعنى نجاحها ان المسئولية

فى حل الصرعات بين الدول الصغرى سوف تقع على عاتقها، وانها سوف تشارك مشاركة ايجابية فى حل الصراعات .

وهنا يجدر ان يقام هذا الجهاز فى مصر على هيئة معهد قومى للسلام . ويلتقى فيه العلماء من الفروع الانسانية مع بعضهم البعض كما يلتقون بممثلين لاصحاب القرار سواء من القيادة العليا للدولة او من الاجهزة التابعة لها مثل قطاع الخارجية والجيش والشرطة والقانون والثقافة والاعلام وغيرهم . وذلك سوف يجعل لقاءهم حول هدف يحقق خدمة للمجتمع . مثلا حول وجود مشاكل داخلية نابعة من التناقض بين فقراء المسلمين (الجماعات الاسلامية) واثرياء المسلمين (الطبقة الوسطى والطبقة العليا التى تؤيدها) والاقباط (وهم اقرب للثانية) . ويطرح الموضوع على هيئة دراسة بغية تشخيص المشكلة والتعرف على اسبابها الموضوعية وكيفية احتواء الصراع قبل ان يستفحل ويؤدى الى تفكك المجتمع وبالتالى اضعافه . ويمكن ايضا دراسة الصراع العربى المصرى الاسرائيلى الفلسطينى بهدف التعرف على الاسباب والعلاج فى اطار الواقع . وتقدم الاقتراحات بناء على فرضيات محددة ،وتشاهد التجربة للتحقق من صدق الفرضية من عدمه ،ثم تعدل الفرضية اوتغير ظروف التجربة .وكلما زادت قدرة الجهاز على التنبوء الصحيح والحلول الدائمة كلما زاد احتمال تصديقه ممايجعله اكثر اقترابا من صاحب القرار وبالتالى اكثر تأثيرا عليه . فالعالم بهذا يخطو خطوه بعيدا عن المعمل والبرج العاجى فى اتجاه التأثير فى الواقع عن طريق صاحب القرار. كما ان المعهد لايكتفى بدراسة ماتقدمه له الدولة من مشاكل ولكنه ينزل الى الشارع ليتعرف بنفسه مباشرة على المشاكل على الطبيعة وينقل وجهة نظر الآخر مهما كانت مؤلمة ،ويقترح الطرق لتغييرها فى اتجاه الحدمن الانفجار وذلك بواسطة الاصلاح المبكر .

وعلى هذا يمكن ان نقول ان المعهد تطبيقى اكثر منه اكاديمى صرف وله اهداف يمكن ان تصنيفها الى ثلاث:

١- الخدمة التى يؤديها المعهد فى صورة المساهمة الفعلية فى حل

الصراعـــــات .

٢- التدريب لكى يـزداد عدد العاملين فى هذا المجال بما يحقـــق استمرارية الهدف .

٣- البحث العلمى بما يضع الانجازات تحت الاختبار المستمر بغية التحقـق من صدقهـــا .

ويمكن ان ينشأ المعهد بالتدريج بنفس التسلسل . فتكون اول خطـوة ان يجتمع عدد من العلماء فى المجالات الانسانية مع عدد من الممارسين لحل الصراعات والمعالجين النفسانيين والساسة الخ) حول بحث موضــوع ما وليكن التعصب الدينى مثلا وتقديره للمشكلة وكيفية محاولاته لحلها . ويتناول الفريق هذا الموضوع بالبحث بالانتشار فى المجالات المختلفة فمنا من يرى آثار ومنابع ذلك التعصب من خلال كلام المريض اثنـــاء العلاج النفسى ومنا من يراها على جداول الاستبيانات التى تـــوزع على عينات عديدة من المجتمع ، ومن يملك منهج المشاهدة المشاركـة اى ان يعايش المشكلة على الطبيعة . ويعود الفريق ليناقـــش المشكلة لصاحب القرار ويطرح له البدائل الممكنة . وقد يجربهـــا او يقدم حلولا بديلة من واقع خبرته فى الممارسة ويعود بالتالـــى للمجموعة التى تقيم التجربة . وقد تستشهد باصحاب الشأن انفســهم .

او قد يرى البعض ان مشكلة التعصب الدينى ليست ظاهرة محليـة ولكنها جزء من ظاهرة عالمية تعم العالم بمختلف معسكراته الاشتراكية والرأسمالية . وعليه يجب عمل دراسة مشتركة بيننا وبين الـــدول الاخرى المناقضة او المتشابهة معنــــا .

ولعل اسرائيل بالتحديد تمثل ذلك المجال الخصب التى يمكن ان نقـوم فيها بدراسة الظاهرة . فاسرائيل دولة غربية بالمفهوم التقدمـــى التكنولوجى ، والصفوة المسيطرة هى من يهود اوروبا وغيرها . بينمـــا الاغلبية من اليهود من دول عربية . اننا نستطيع ان نأخذ بعــــدا من ابعاد الصراع : رغبة الفقراء اليهود العرب فى اسرائيـــل فى الارتفاع بمستواهم ونضاهى بين هذا وبين فقراء المسلمـــين واثرياء المسلمين فى مصر . وسوف نلاحظ ان العداء هو بيـــن الطرفين الفقيرين : اليهود العرب (وهذا لاينطبق على المصريين)

يكرهون الدول العربية التى كانوا يعيشون فيها ولذلك كانوا القوة الانتخابية التى ايدت بيجين واوصلته للحكم . بينما فقراء المسلمين فى مصر لايصبون عدوانهم المباشر على حكومتهم او اثريائهم ولكنهم ينتقون عدوا موازيا له ويقوم بوظيفته : ذلك هو التعصب القبطى . وهذا يخفف من حدة معارضة الجمهور للسلطة . والعامل المساعد الثانى هو موقف فقراء المسلمين من اليهود واسرائيل، وهذا الموقف يساهم فى عرقلة عملية السلام والتطبيع فيما يتعلق بالعلاقات المصرية و الاسرائيلية .وهنا مرة اخرى فان المعارضة تتحول عن هدفها المباشر وهو الحكومة .

ان الجماهير تتوقع ان حل مشكلة السلام سوف يبعث القدر اللازم من الاستقرار لتوفير الرفاهية . ولكنها تتشكك لان ما حدث حتى الآن غير ذلك ومنتظر ان يزداد كلما ازدادت الدول العربية معاداة لمصر. ولذلك فهى قد أدارت ظهرها عن اتفاقية السلام وكانها لم توجد وكأن اسرائيل مجرد دولة اخرى اجنبية .

وهناك اسئلة عديدة يمكن ان تطرح من خلال مثل هذه الدراسات: ماالذى يدفع الناس للتعصب؟ وماالذى يجعلهم يوجهون عدوانهم فى إتجاه ما؟ وكيف يمكن المساهمة فى تعديل هذا الاتجاه بحيث يتوافق مع واقع بغية تغييره بدلا من رفضه وانتظار التاريخ ليغيره وحده ؟

ويمكن ان يبدأ المعهد على هيئة وظيفة بان يجتمع عدد من الاساتذة والعلماء والمثقفين مع بعض ممارسى التطبيق مثل رجال السياسة والشرطة والقانون والتعليم والوعظ الخ ليلتقوا حول دراسة موضوع بعينه . ويخطط لبحث علمى وتجند له الطاقات العلمية والادارية والافضل ان تتم هذه الدراسات من خلال خدمة تقدم للجمهور .

وبعد نجاح المرحلة الاولى الوظيفية يمكن ان ننتقل الى قيام المعهد ككيان مادى له اداره وميزانية .

ونؤكد مرة اخرى ان مصر هى المكان الملائم لمثل هذا المعهد فهى حقل تجارب طبيعى لكونها فى صراع منذ قرون . كما انها اثبتت

من واقع تاريخها قدرتها على حل الصراعات بما اعطاها رسوخا لهويتها . فحتى فى الحالات التى اتخذت مصرفيها هوية جديدة ، مثل الهوية العربية الاسلامية ، فقد اخذتها وجعلتها منها ، فمصر هى العروبة والاسلام وليس مجرد احدى فروعها .

وبالاضافة الى ذلك فان مصر هى الدولة الصغيرة التى طالما بادرت بخطوات تهدف الى تحرير مصر من الدوران اللاارادى فى فلك احدى او كلا الدول الكبرى وهى لذلك الدولة التى تستطيع ان تساهم علما وعملا - فى قيام علم للسلام ومعهد يطبقه .

ياحكيم :قالوالى عد الى قوقعتك ياطبيب البشر. ان كنـــت تريد أن تكون طبيبا بشريا وصاحب مهنة تتميز بها عـن القوم فتتكسب منهم فتعضدالقوقعنهالتى تفصلك بجدارهـــا الصلب عن انتماءاتلهم . أنت"طبيب بشرى " لأنك لست مجرد مواطن . انك مواطن من نوع خاص : صاحب مهنة نـــادرة تخترفها دونا عن غيرك ويحق لك ان تتميز بها عنهـم. ولأنك متميز ونادر فأنت ممتاز ، ويحق لك ان تحصـــل على الشريحة الأكبر فى القيمة . والقيمة قد تكون المـــال او السلطة او الاحترام بنسب مختلفة . ولكنك بدون الحاجز حينما تتحول الى مجرد فردوسط القوم ، او مواطن ضمـــن المواطنين ، فلن يتاح لك مثل هذا الحق . فالمواطـــن كمواطن فى مجتمع لايحق له الا الحد الأدنى من القيمـــة. وهو يزيد من خصته كلما استطاع انيمارس دورا فىالمجتمع يجعله مواطنا من نوع خاص عن غيره من المواطنين.وكلما تميز كلما امتاز ، وخاصة اذا كان تميزه فى اتجـــاه يتطلع اليه الآخرون ويتكالبون عليه . وكلمازادت القيمة وكلما زاد التكالب عليها قل عدد الحاصلين عليها .

فالمالك او القائد او الرائد يوجد فى أطار اعـــداد مهولة من المحرومين من الملكية والتابعين والضاليـــن ان الطبيب كمهنى هو مواطن سار فى درب طويل حتىوصـــل الى ما وصل اليه من تميز . فقد أكمل تعليمه الدراســى ثم الجامعى ثم أتبع ذلك بفترة من التدريب الطويل والبحث العلمى ليزيد من درجة تخصصه بحيث يكون هو نفســـه عنصرا نادرا داخل المهنة ذاتها . وبفضل هذا التخصـص فقد خفض من كم انتاجه بالنسبة لكم العائد من القيمــــة الذى يحصل عليه فى المقابل . أى رفع من قيمة عملـــه

وتقاضى أجرا أكبر عن عمل أقل .لأنه تميز فقد أمتاز .

" ياطبيب البشر الذى تخصص ثم تخصص حتى وصل الى أدق مايمكن أن يتخصص فيه مهنى فى مجتمعنا : لماذا تدير ظهرك الآن لهذا التميز والامتياز وتعطى وجهك لمجموع الناس الوفيرة سواء مباشرة أو من خلال قياداتهم الثقافية التي تتواصل معها؟ ان التخصص هو الذى يوفر لك اكبر قدر من القيمة على مستوى الملكية او العائد المادى . ذلك هو الجانب من القيمة الذى أصبح القوم يتكالبون عليه أكثر من غيره . فالمال اليوم أفضل من السلطة لأنه يغنى عن السلطة بل يسخرها له ويبقى بعد زوالها . وكذلك هو أفضل من الاحترام لأنه يجلب الاحترام .ومادام المال هو ما يتكالب عليه القوم فهو بالتالى القيمة الأعلى وبواسطته يمكن ان يحصل المرء على السلطة وعلى الاحترام على السواء أو على أسوأ الفروض ان يستعيض عن كليهما .

وفى هذه الحالة فلا داعى او مبرر لأن يتخلى المرء عن الموقع الذى يوفر له المال. وهذا الموقع هو حيث تقدم النادر والمطلوب كمهنى متخصص وليس من بين صفوف الجموع الوفيرة . فعد اذن الى موقعك وتقوقع .

" هكذا قال لى القوم . وهكذا بدأت معاناتى .فقد خرجت من القوقعة لا لألتقى بالقوم والتحم بهم .فهم لايرحبون . ولكنى عندما استدرت لقوقعتى وجدتها قد ضاقت . فقد نموت بخروجى منها . وتضخم جسمى الهش وكان هشا لأنه فى حالة نمو .والعودة مؤلمة لأنى نموت ولأنى فى نموى أصبحت هشا . فى العودة الى القوقعة اختناقى ومقتلى . لقد ذقت طعم البراح بهوائه وضوئه . شعرت بالحرية رأيت عصفور الجنة . ولايمكن أن أعود . ألمى أننى اعلم ذلك ولكنى بلا مأوى جديد . تركت التقوقع القديم والعالم الجديد لم أكن بعد قد طرقته . انا تائه فيه

بينما انا فرح به . اريده ولكنى اخاف من عدم ترحيبه بى ".

يجيبه الحكيم :" ان فى صياغتك لمشكلتك بذور حلها . وهو حل نابع منك . لايمكن ان يفتيك فيها غيرك . وكل ما اقدمه لك هو مرآة تعكس لك مابك ولاتراه . فانت لاترى وجهك رغم أنه واجهك ولكن المرآة تريه لك . مع فارق أساسى وهو أن مرآتى "عين ترى . ومثلك لاترى ذاتها ولكن تريك اياها وحتى وهى تريك ذاتك فهى تريك ذاتها . أى هى تعكس ذاتك ولكنها تضيف ذاتها لرؤياك .

" لمشكلتك مستويات عديدة . فهى مشكلة فرد ولكنها أيضا مشكلة افراد غيرك دون غيرهم علاوة على أنها مشكلة كل الأفراد :" أنت كفرد كائن وحى تنمو وتتطور . ومهما توقفت - يتموك فهناك دائما نقطة تحول بين أن يستمر توقفك فتتجمد أى تموت وبين أن يستمر نموك فتنتهى وجودك المتجمد ، أى تموت ايضا ولكن لتحيا من جديد . فاذا مت الميتة الاولى صرت جمادا يتحلل ليعود الى بنيان كائن آخر غيرك تماما . واذا مت الميتة الثانية استمر وجودك الحى ولكن غير شكله . اما ان تموت وتحترق او تموت وتحيا : النار او الجنة .

" الواضح أنك تفضل الجنة . تفضل ان تموت لتحيا لا ان تموت لتحترق . ولكنك تعلم ايضا ان فى موتك ابدانا بالميلاد كما فى ميلادك ، تعى آلام الانتقال بين حالتى الحياة والموت وكأنك تحترق وانت تعى كى النار ،لا كالجماد المحترق بلاوعى وهذا مايؤلمك : انك حى وتعى الألم ، غير الجماد الذى لايعى الألم .

"على هذا المستوى فهذه هى مشكلتك التى هى مشكلة فرد بل كل كائن حى . وحلها فى تقبل وجودها . أن تعى الألم وأن تعى أن الوعى ذاته والوعى بالوجود هو وعى بالألم

وان مايجعل المرء يشكو الألم هو انه يرفضه ويسعى لأزالته . فاذا ماتقبله وتعايش معه انتهى وجوده كألم لأن الألم بطبيعته هو وعى برغبة فى نفى حالة ما من الوعى . أى وعى ينفى ذاته . حل المشكلة هو فى وجودها . لأن الوعى اذا نجح فى نفى ذاته انتهى . ولكن يبقى عليه ان يتوقف عن نفى ذاته . ولكنه اذا توقف تماما فقد أنتهى ايضا . انك تتألم وتسعى لأنهاء الألم ، وتكف عن التألم حينما تكف عن السعى . فاذا توقفت عن السعى توقفت عن الوجود فتألمت مرة أخرى وعدت تعى الألم والسعى لنفيه أحيانا تتأرجح بين الألم والخلاص منه ثم العودة اليه . ولكننا نتطور بحيث نتمكن من معايشة النقيضين معا فى ذات اللحظة نتألم ونتخلص من الألم معا . وهذا حالك الذى تؤول اليه الآن .

" لامفر لك من الاستمرار طالما بك حياة تنبض . ولامفر لك من التألم والتخلص من الألم معا دون توقف اوتأرجح ان تستمر حيا وانت تحترق . وان تحترق دون ان تموت ذلك لأنك خطوت خطواتك بخروجك من قوقعتك . وهى خطوة لارجعة فيها كما رأيت لأنك بخروجك قد سموت ولامكان لك بالقوقعة .

وبخروجك رأيت الضوء والبراح ، وتذوقت طعم الحرية والحركة والانطلاق . وحريتك وحركتك وانطلاقك تجعلك تتفاعل مع دائرة وجودك الجديدة ، بالتلاحم تارة وبالالتحام ، بالصراع وبالسلام . وحينما يكون الصراع فليس أمامك ألا أن تموت أو تقتل . فتطلب السلام تجنبا للمخاطرة وطلبا لأن يكون فى استمرار وجودك استمرار لوجود آخرين يطلبون عليك وحدتك . فيأتى السلام وتحيا وتحيى غيرك معك . فتعود للصراع . ليس أمامك الا ان تستمر فى الحياة وانت تجابه الموت فى كل لحظة .

ويعود الطبيب ليقول: " ولكنى أتألم فيما يبدو وحدى .

فهاهم زملائى فى المهنة يستمرون فى اداء دورهم بآلية وبلا ألم ظاهر. يعملون ويكسبون ويحصلون على مايبتغون من سلطة واحترام فى حدود تطلعاتهم ولايقلقهم وجود دائرة خارج تلك التى هم داعينبها . انهم يعملون لكى يتكسبوا حتى يتسنى لهم امتلاك ادوات الرخاء الذى يسمح لهم بالتوقف عن العمل . ولكنهم يستمرون فى العمل فيمايبدو حتى بعد تحقيق ماهو متعارف عليه بالقدر الأمثل من الرخاء. بعضهم يعمل ليحصل على المزيد فياخذ اكثر مما هو فى حاجة اليه وبالتالى لاينعم به . فيتحول الى عبد للعمل .يعمل بلاعائد له ما ولعله عند هذه النقطة يبحث عن معنى لعمله فيقول أنه يعمل لغيره يخرج عن دائرة البحث عن المال الى البحث عن السلطة حيث ينعم بالاحساس بالقدرة على التأثير فى الآخرين . فيصبح وجودهم من وجوده . وبعد ذلك يسعى لأن يكون ذلك التأثير مستمرا عبر دائرته المباشرة فى المكان والزمان ، أى يسعى للأحترام والمجد.

وهكذا يعطى لعمله معنى ، فيستمر فيه مخففا كلله.. ولكنى لاأرى مايرون . وأتعجب كيف يعملون بلا كلل. ارى المال الذى يحصلون عليه بعد تلبية احتياجاتهم الأساسية من ماوى ومأكل ، مالا زائفا لاضرورة له . وأرى السلطة أو الاحترام الذى ينخدعون به زيفا وخواءا مالذى يعود على الناس بأن يكون المرء طبيبا ناجحا. لعل ذلك يعود على المرضى ،وبالتحديد هؤلاء المرضى من الصفوة التى تملك رفاهية الشكوى من الألم وامكانية طلب المعونة المهنية المتخصصة من أجل التغلب عليه .والمرضى فئة محدودة من المجتمع ، وهؤلاء المرضى من الصفوة هم فئة اضيق حدودا. مامعنى النجاح ان يصبح المرء بطلا لهؤلاء وصاحب سلطة عليهم اويستحق الاحترام منهم؟ بينما المجتمع الأوسع يستمر فى معاناته واضطرابه فيفرز المزيد من المرضى. المجتمع الذى

يستهلك افراده فيمرضهم لهو مجتمع يعانى ويحتاج الى معونة الطبيب • ولكن الطبيب لايأبه الا بالضحايا من المرضى الافراد ويغفل المريض الكبير •• المجتمع •

يضيف الحكيم عندئذ : " وهذه هى القوقعة التى تخرج منها وهذا تطورك على المستوى الاجتماعى الأوسع • فأنك هنا تعبر عن معاناة مهنتك • وماتصفه من سعادة بين اخوانك فى المهنة ورضا بما يفعلون لهو انعكاس لدورك فى شكل المعبر الواعى بالألم ويصرخ معبرا عنه لينتبه الآخرون بوجود الخلل ووجود الصراع الذى يغذيه ويضخمه • والوعى الذى تعبر عنه هو وعى المهنة التى طالما إستمرت فى قوقعتها • فعزلت نفسها فى ذات الوقت الذى اكدت فيه وجودها وتميزها •

" الوجود المتميز والممتاز لامحالة يولد الحسد فى غيره • والمهنة التى تتضخم فى مواجهة المجتمع تواجه حسد المجتمع لها • ويبدأ الصراع • والصراع مؤلم • واغلبنا يسعى الى تجنب الألم بالاغراق فى العمل • وانت اخترت التوقف اللحظى الذى يسمح لك بالوعى بالألم والصراخ منه • فى صراخك تحذير وايقاظ انك تنبه بوجود الصراع • وتطلب تخفيف حدته او احلال السلم محله • ولذلك فخروجك من قوقعتك المهنية حتمى لانك تمد يدك لمن يتصارع معك بينما تترك خلفك الطرف المتصارع الذى تنتمى اليه • انك تخرج من القوقعة المهنية لتخاطب المجتمع ولكن بخروجك فقدت حماية القوقعة ، أى فقدت انتماءك المهنى فصرت طرفا ثالثا يتصارع مع ذات الطرفين اللذين يسعى للتوفيق بينهما • فلا المجتمع يقبلك ولا المهنة تؤويك • ولأنك خرجت من القوقعة وفطنت الى حقيقة الصراع ، واعترفت بوجود الطرف المتصارع وعرفت خطره وضرورة مسالمته لم تعد تتمكن من العودة الى القوقعة •

" مهنتك لاتريد أن تتوقف هذه البرهة ، لتعى حقيقة الصراع بينها وبين المجتمع •

وتوقفك وتوقيفك لها بالصراخ كثيرا ما يستنفذ صبرها ويجعلها ترى فيك مصدرا للازعاج . كبارها يلهيهم التكاثر ستكاثر المال والسلطة والاحترام . وصغارها يتطلعون اليهم حتى وهم فى موقع مساو لأغلب الجمهور من حيازتهم اللامة ؟ المال والسلطة والاحترام . ولذلك فهم يجمدون الصراع مع كبارهم أملا فى ان يكونوا مثلهم فى يوم ما ويحلوا محلهم . "هم فى الظاهر حلفاء الجمهور وحلفاؤها بالتالى ولكن فى قلوبهم تطلع . ويزيدهم الشيطان تطلعا بما كانوا يكذبون عن طبيعة ومدى زيف تحالفهم مع الجمهور . فهم يتحالفون مع الجمهور طالما هم محرومون مثله ، ولكنهم عند الاختيار يفضلون التربع بين الصفوة المهنية محتمين فيها متحالفين معها . ولذلك فهم معك ظاهرا ولكن ضدك فى قلوبهم . ولذلك فأنت حينما تخرج من المهنة الى الجمهور تخرج وحدك بلا جمهور ، وتأمل ان تجد فى الجمهور الذى خرجت اليه جمهورا لك . ولأن حاجتك فى وحدتك شديدة وأملك كبير فأنك محكوم عليك بالأحباط فى مواجهة غياب ما تبحث عنه . انت تشعر بعدم الترحاب حيث المشكلة أنك تتوقع ترحابا أكثر مما هو متاح لك . وفى هذه الحالة فأنت تسمعهم يقولون لك: عد الى قوقعتك . بينما حقيقة الأمر انك تتوقع منهم ان يكونوا قوقعتك الجديدة ويرحبون بك ويقدمون لك الحماية والانتماء . لقد تعودت على قوقعتك فصرت تشتاق اليها بعد خروجك . ولكنك بدلا من ان تطلب العودة الى قوقعتك تطلب ان يكون العالم الجديد قوقعتك ، كما عبر الشاعر الانجليزى : ان الدنيا هى قوقعتى .

ويفطن الطبيب : " ان ألمى من صنعى . لأنى أتوقع ما لا يتوفر فانى اعى الحرمان . لأنى ارغب فأنا محروم . ولأنى محروم فانى أتألم . قيلت فى تعبير انجليزى شائع هى الأخرى: اذا لم تحصل على ما تريد فلتر د ما تحصل عليه . لقد اخترت

طريق النمو . طريق الحياة التى تواجه الموت لتحيا من جديد . طريق ألم الوعى بالميلاد وبالممات وألم الوعى بالنمو ، بل ألم "الوعى" فى حد ذاته .

ويستمر الحكيم :" والوعى أيضا يحقق رغبة فيه . والرغبة بطبيعتها بلا حدود . انك تنمو أى توسع دائرة وعيك ومادمت تنمو وتوسع دائرة وعيك فلابد انك ترغب فى ذلك . ومادمت ترغب فى ذلك فلابد لك من ان ترغب فى المزيد لأنك لو توقفت لشعرت بالحرمان الذى يجعلك تعود لترغب فى المزيد .

التكاثر ليس فى المال وحده ولا فى السلطة وحدها ولا فى الاحترام وحده . هناك ماعبر ذلك . انه التكاثر لذاته لا لجمع موضوع حيازته فاذا تجاوزت ماتراه زائفا من مال وسلطة واحترام ظنا منك انك تغلبت على الرغبة فهنا اسلط عليك مرآتى لاقول لك انك ترغب فى المزيد وتبحث عن التكاثر . انك تسعى للتضخم قد نستطيع أن نحدد صفات بعد الاحترام مثل المجد أو الخلود أو انكار الذات أو الاستشهاد وما الى ذلك . لنكتشف انها ليست الا امتدادا للرغبة التى لانهاية لها . كل ماهنالك انها تغير من شكلها .

ويبتسم الطبيب: " وهنا تكشف لى عن ذاتك ياحكيم . فقد كان حديثك عنى بمثابة مرآة فعلا تعكس لى عن نفس مالا أراه فأراه بل لا أرى غرابة فى رؤيته ويبدو لى بديهيا . كنت أرى الآخرين عبيدا لرغباتهم بينما أنا متحرر منها . ارى فيهم الزيف بينما أرى فى نفسى الصدق . حتى توقفت هذه البرهة لاحاسب نفسى . وجئتك معترفا . فرأيت فيك الصدق والتحرر بينما ارى فى نفسى الزيف والعبودية .

حتى اريتنى الآن ،بلا خجل او مواراة ، انك ايضا ترغب وتتكاثر . كل ماهنالك أنك تسبقنى مثلما اسبق انا غيرى على طريق التكاثر . أننا نريد المال حتى نشبع منه فننتقل الى الرغبة فى السلطة وبعدها نبحث عن الاحترام والمجد والخلود الى مالا نهاية . بعضنا يغير مستوى رغباته فيتطور وبعضنا يتوقف مكتفيا بزيادة كم مايرغبه دون أن يغير فى الكيف . فبدلا من ان يطور موضوع رغبته يرغب فى المزيد مما يريده . سواء كان مالا او سلطة او احترام .

ويستطرد الحكيم متفقا :" حينما قال اكمل خلق الله انه انما هو بشر مثلنا ولكن يوحى اليه بينما ان الله اله واحد فقد اعفانا من الوصول الى الكمال او ادعائه . ليس بيننا من هو بلا خطيئة . ولذا ليس لنا ان نرجم غيرنا بحجر . ولذا نكتفى برجم الشيطان المتحجر فى الأرض المقدسة .

فارادته قد شكلت هناك ولن يستطيع ان يرد الحجر الينا فلا هو :حقك المطلق ان ترجم مهنتك ولا هو حقى المطلق آن أرجمك ومع ذلك فهى أدوار نأخذها .. أذ طالما أنت تختلف عن أخوانك فى المهنة فأنت فى صراع معهم . وطالما أنا آخر بالنسبة لك فأنا فى صراع معك . أنها ادوار نلبسها ثم نخلعها لنكتشف اننا لبسنا غيرها . وليس هناك من هو بلا دور يليه غير الموجود المطلق الواحد الأحد ،الحق النهائى" .

ويختتم الطبيب " لقد بدأت دورى كطبيب بشرى . والآن اسير فى طريق من يريد أن يكون طبيب البشر .ولكننى بشر . ولاغنى لى عن قوقعة . أنا طبيب بشرى وطبيب البشر .

فهـــــرس

صفحة

فهـــرس